

# عصور الجديدة

مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي - تاريخ الجزائر -  
جامعة وهران - الجزائر -

العدد 2 2011



## مما جاء في هذا العدد

- تلمسان وأحوازها في العصور القديمة أ. ستي صندوق
- تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط  
أ.د. عبد الحميد حاجيات
- تلمسانيان في سبتة أ. رشيد العناني
- تلمسان من خلال كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم أ.د. عبد الكريم كريم
- علماء تلمسان من خلال المصادر المشرقية، الديباج المذهب وتوشيحہ للقرافي نموذجاً أ.د. شيخة جمعة
- المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة د. محمد البركة
- الشريف التلمساني وإسهاماته الثقافية أ. امحمد بوشريط
- العلاقات الخارجية للدولة الزيانية أ. حاج عبد القادر يخلف
- إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري أ.د عبد القادر بوباينة
- أفراد المحدثين من كتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم د. يونس قدوري الكبيسي
- المدارس العلمية بتلمسان على عهد بني زيان إشعاع فكري وحضاري أ. فائزة بوسلاح
- موقف علماء تلمسان من التواجد العثماني في الجزائر ( 10-13هـ / 16-19م ) د. محمد بوشناني
- أعلام تلمسان ودورهم في الحركة الوطنية وثورة التحرير د. ع.مقلاتي
- سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس (1517-1546م) د. بن عتو بلبروات
- الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي د. عبد القادر فكايير
- الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني أ. حسني بليل

ISSN 2170-1636



# عصر الجديدة

مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي  
تاريخ الجزائر - جامعة وهران

عدد 2- عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م

صيف 1432هـ - 2011م

ردمك ISSN 2170-1636

الإيداع القانوني: 2011 - Depot Légal

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ  
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ  
شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

مدير المختبر ورئيس التحرير:

أ.د. عبد القادر بوباية

الهيئة العلمية للمختبر:

أ.د. فغورور دحو

أ.د. محمد دادة

أ.د. محمد موفقس

د. شخوم السعدي

أ.ة. تالية سعدو

أ. حمدادو بن عمر



## شروط النشر بالمجلة

- ترحب المجلة بمشاركة الباحثين المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المستوفية للشروط الأكاديمية التالية:
- 1- أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره، وأن لا يكون فصلا من مذكرة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.
  - 2- أن يتبع الباحث الأصول العلمية المتعارف عليها، وبخاصة فيما يتعلق بتوثيق المصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع بالهوامش في آخر البحث، وضرورة كتابتها على الشكل التالي: المؤلف - عنوان الكتاب - المحقق - الطبعة - دار النشر - مكان النشر - تاريخ النشر - الجزء والصفحة.
  - 3- تقدم الأعمال في قرص مضغوط ونسخة مطبوعة على وجه واحد، أو ترسل إلى البريد الإلكتروني للمجلة.
  - 4- يتراوح عدد صفحات البحث ما بين 10 إلى 20 صفحة مكتوبة بخط Traditional Arabic مقاس 14 وتباعدا 1. وتكتب الهوامش بطريقة عادية في نهاية البحث، وبمقاس 10 وتباعدا فردي.
  - 5- تخضع كل البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم العلمي، ولا تقبل المقالات التي لا تحترم الشروط المذكورة سابقا.
  - 6- لا ترد الدراسات والبحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
  - 7- الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها.

عنوان المراسلة: ترسل البحوث والدراسات باسم:

أ.د. عبد القادر بوباية - مختبر تاريخ الجزائر - قسم التاريخ وعلم الآثار  
ص ب 1541 المنور - كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية  
جامعة وهران - الجمهورية الجزائرية

هاتف/فاكس: 0021341348531/0021341427139

البريد الإلكتروني: oussourrevue@gmail.com

الموقع الإلكتروني: Dahou55.maktoobblog.com



## المحتويات

- \* كلمة مدير المختبر ورئيس التحرير.....أ.د عبد القادر بوباية 9
- \* تأيينية الأستاذة عائشة غطاس.....أ.د أبو القاسم سعد الله- الجزائر 13
- \* الأستاذة عائشة غطاس في سطور.....ع: بوباية وع: آيت حبوش- الجزائر 17
- \* تلمسان وأحوالها في العصور القديمة.....أ.ة. سني صندوق- الجزائر 23
- \* تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط.....
- أ.د عبد الحميد حاجيات- الجزائر 37
- \* تلمسانيان في سبتة.....أ. رشيد العفاقي- المغرب 47
- \* تلمسان من خلال كتاب: "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم".....أ.د عبد الكريم كريم، المغرب 65
- \* علماء تلمسان من خلال المصادر المشرقية: الدياج المذهب وتوشيهه للقرافي غوذجا.....أ.د شيخة جمعة- تونس 73
- \* الفقيه محمد بن سليمان اليفري الكومي النلرومي: صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان.....د. لخضر بولطيف 93
- \* انجال واستراتيجية المشروع المزابي: تلمسان ونهاية الدولة.....د. محمد البركة 111
- \* الشريف التلمساني وإسهاماته الثقافية.....أ. أحمد بوشريط- الجزائر 125
- \* العلاقات الخارجية للدولة الزيانية.....أ. حاج عبد القادر يخلف- الجزائر 143
- \* إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري.....أ.د عبد القادر بوباية- الجزائر 159
- \* أفراد المحدثين من كتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم الشريف التلمساني.....د. يونس قلوري الكيسي- الإمارات العربية المتحدة 171
- \* المدارس العلمية بتلمسان على عهد بني زيان: إشعاع فكري وحضاري.....أ. فائزة بوسلاح- الجزائر 181

- \* تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الإسبان والعثمانيين والمغاربة
- في القرن السادس عشر الميلادي..... أ.د محمد دادة- الجزائر 193
- \* موقف علماء تلمسان من التواجد العثماني في الجزائر (10-13هـ/ 16-19م).....
- د. محمد بوشناق- الجزائر 203
- \* سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس (1517-1546م).....
- بن عتو بلبروات- الجزائر 215
- \* الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول
- من القرن السادس عشر الميلادي..... د. عبد القادر فكاي- الجزائر 231
- \* أعلام تلمسان ودورهم في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى.....
- د. عبد الله مقلاتي- الجزائر 247
- \* الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني..... أ. حسني بليل- الجزائر 265
- \* الخطاب الإصلاحية في تلمسان في القرن 8هـ/ 14م من خلال "واسطة السلوك" لأبي حو
- الزياني..... د. سعيد بن حمادة ، المغرب، 281
- \* مدينة المنصورة الأثرية، ظروف نشأتها وعمرانها..... أ.د. بالحاج معروف، الجزائر 313
- \* التصوف العرفاني السني عند محمد بن يوسف السنوسي..... د. الطاهر يوناني 323
- \* النشاط العلمي لمخبر تاريخ الجزائر ..... عرض أ.د عبد القادر بوباية- مدير المخبر 339
- \* الإصدارات الجديدة..... عرض وتقديم أ. د عبد القادر بوباية- مدير المخبر 359



# المحالات باللغة العربية

## كلمة العدد

تعيش مدينة تلمسان هذه السنة عرسا علميا وثقافيا بمناسبة احتفالياتها كعاصمة للثقافة الإسلامية، وهي منسبة لاستذكار أمجاد هذه المدينة خاصة، وأمجاد الجزائر بصافة عامة.

لقد كانت تلمسان خلال العصور الوسطى إحدى المراكز السياسية باعتبارها عاصمة لبني يفرن قبل الفتح الإسلامية، ثم مركزا سياسيا وثقافيا هاما بعد الفتح الإسلامي، والذي سيتجسد أكثر خلال الحكم الزياني الذي أصبحت معه مدينة تلمسان عاصمة سياسية للمغرب الأوسط، وسيستمر ذلك المركز الريفي إلى غاية استيلاء العثمانيين على المدينة، والقضاء على الحكم الزياني، وكانت قبل ذلك مركزا هاما شهد قيام الإمارة السليمانية، ثم إمارة بني يفرن؛ فالوجود القاطمي الذي تلاه الحكم المرابطي فالموحدي.

وتمشيا مع هذا الحدث الثقافي المميز قرر مخبر تاريخ الجزائر إصدار عدد خاص بتلمسان من مجلة عصور الجديدة، وسعينا من خلاله إلى المساهمة في هذه الاحتفالية بعدد تضمن مقالات علمية في غاية الأهمية تتعلق كلها بتلمسان وأحوالها، وشارك في كتابتها ثلة من الباحثين الجادين من الجزائر والمغرب الأقصى وتونس والإمارات العربية المتحدة.

كما تضمن العدد أيضا تأنيية الأستاذ أبو القاسم سعد الله لفقيلة البحث التاريخي بالجامعة الجزائرية خاصة والمغاربية عامة الأستاذة عائشة غطاس إضافة إلى نبذة عن سيرتها العلمية، وعلى غرار الأعداد السابقة نواصل في هذا العدد الخاص عرض الإصدارات التاريخية الحديثة حتى نزود الباحثين بما استجد في البحث التاريخي في الجزائر وخارجها، وتضمن العدد أيضا حوصلة عن النشاط العلمي لمخبر تاريخ الجزائر، والمتمثل في الندوة العلمية التي شارك المخبر في تنظيمها في عشعاشة مع مجلسها البلدي وجمعية نشاطات الشباب إقرأ، ودار موضوعها حول جرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر: محرقة غار الفرائشيش نموذجاً.

وفي الختام نأمل أن يكون هذا العدد لبنة إضافية في الارتقاء بالبحث العلمي الجاد في وقت انتشرت فيه الرذاعة، ولا أدل على ذلك من أستاذ محاضر يعجز عن الإجابة عن سؤال طرح عليه في أحد ملتقيات تلمسان حول المناظرات العلمية التي اعتقد أنها مدح العالم لأخيه.

مدير المخبر ورئيس التحرير: أ.د عبد القادر بوباية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTRE DE LA CULTURE

وزارة الثقافة

LE CHIEF DE CABINET

رئيسة الأمانة

NO. /

رقم الملف / المص / و /

البراني

11 11 11

أ. د. بوعبدية عبد القادر  
مدير مختبر " تاريخ الجزائر "  
جامعة وهران

الموضوع : ذاتي العدد الخاص بالمتن في مجلة " عصور الجريدة "  
المرجع : رقم 008 الصادر في 07/07/2011

هكذا على أن سالتكم التماسا إليه في المراجع أعلاه خاتمة  
البراني على تخصيص الحد القادم من مجلة " عصور الجريدة " التي تصدرها  
مختبركم الموقر لمجلة وحاضرة للمتن، على أن لا يكون في هذه السنة  
للقب عاصمة الثقافة الإسلامية.

هذه أشكر لكم هذا الاهتمام بأن التماسا إليه في المراجع أعلاه خاتمة  
البراني التي سالتكم لا مجلة من إتمام الاستقالة والتجديد للجنة على براني  
البراني وتكونت بأولئك تكليفه على أن لا يكون في هذه السنة  
للقب عاصمة الثقافة الإسلامية.

وتفضلوا السادة المدير بالبول فوق صلاتي الشكر والتقدير والاحترام

المهتمة بالبراني

أ. د. بوعبدية عبد القادر



رسالة السيدة معالي وزيرة الثقافة

مؤرخون في دمة الله



حلالاً حلالاً

## تأبينية الأستاذة عائشة غطاس

(1326 - 1431 هـ / 1908 - 2010 م)

بسم الله الرحمن الرحيم أ.د. أبو القاسم سعد الله

رحمك الله يا ابنة الكرام، وعطر ثراك وبلل ضريحك بماء الكوثر.

لقد فقتك الأسرة الأكاديمية وخسرتك الجامعة والبحث العلمي، فمن سيعوضك في طلب العلم وإتقان العمل والحرص على مستوى الطلبة حتى لا يتلنى بهم المتلون ويعث بهم العابثون. كنت طالبة في أعلى طراز في الأخلاق والانضباط والاجتهاد والفوق، وكنت ابنة البرواقية الأصيلة وحفيدة الكرام البررة، كنت ابنة الجزائر التي لم تسقط في أوهام الحضارة في منابعها. كنت تشاركين في المؤتمرات واللقاءات العلمية، ثم تعودين إلى وطنك الدافئ كمصفورة غدت تبحث عن غذاء، وعادت إلى عشها مملوءة الوطاب مما اختارته.

من لنا بعدك بمثلك ممن يؤثرون على أنفسهم ويسهرون على تخريج طلبة أقوياء مؤهلين لشق طريق البحث العلمي في حين راجت بضائع الانتهازين والوصوليين.

من هؤلاء الطلبة الأيتام، وقد غبت عنهم وخلا منك الميدان قبل الأوان مكرهة، ولعلمهم سيجلون زعانف ومبتذلين، ولكنهم لن يجلوا مثلك في تقديم النصح وتكوين العوج والانقطاع للبحث والكتابة والمنافسة على التفوق البريء.

لقد غادرت ساحنا مبكرة يا دكتورة غطاس بعد أن عرفناك طالبة وأستاذة ومناقشة للرسائل الجامعية. غادرتنا في أوج الربيع الذي تبكيك أزهاره وعصافيره وشبابه. غادرتنا وأنت في قمة العطاء العلمي رغم أدوات الصحة من الحساسية وغيرها، ورغم العناية بوالنتك المعلبة بتقدم السن

\* - أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر وباحث بالمركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر - الجزائر.

وأمرأى الشيخوخة. فلها الله بعدك وكفلها برحمته وعنايته. ويكفيها أنها أنجبت للجزائر أستاذة مثلك.

حصلت عائشة غطاس على الليسانس في التاريخ من جامعة الجزائر، والماجستير منها أيضا بإشراف الدكتور مولاي بلحميسي، والدكتوراه بإشراف ناصر الدين سعيدوني من جامعة الجزائر أيضا. وكان إطار تخصصها الزماني هو العهد العثماني والعلمي هو الحياة الاجتماعية، ولاسيما حياة المرأة وتطور المجتمع، وكان موضوع رسالتها للدكتوراه هو الحرقين في مجتمع الجزائر خلال العهد العثماني.

بالإضافة إلى التدريس بجامعة الجزائر غطت الأستاذة غطاس مواد تخصصها في جامعات وطنية أخرى مثل جامعة غرداية وجامعة أدرار، فأصبح لها تلاميذ وطلاب ينرون خارطة الوطن، وكانت تحمل مشقة السفر وعدم تناسب المكافأة مع الجهد الذي تبذله. وهي تحسن العربية والفرنسية وتطالع التركية والإنجليزية، وهي تستفيد من هذه اللغات في أبحاثها فتأتي غنية بالمعلومات والآراء.

كبت الأستاذة غطاس بحثا عميقة وألفت كتابا عن المجتمع الجزائري في العهد العثماني: نقاباته وأمنائه، وحياة البرانية وإنتاجهم وحرفهم، وحياة العلماء والمتصوفة في الجزائر العثمانية، وأنواع وأسباب الأمراض والأوبئة التي فحشت المجتمع، والحجر الصحي والمستشفيات، كما وجهت بعض الطلبة إلى دراسة دور المرأة وانشغالها بزيبتها كالألبسة والحلي والكحل والبخور والحمام. ووجهت آخرين إلى دراسة المجلس العلمي كمجلس الفتوى، وركب الحج، ودور الوقف، وكذلك الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والمذاهب الفقهية. لقد شاركتها في مناقشة بعض الطلبة الذين تُشرف عليهم وغيرهم. فكانت صارمة وعادلة وحريصة على سمعة الجامعة وسمعتها العلمية.

وقد أسعفني الحظ حين طلبت مني تصدير أحد كتبها وهو "مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني"، الذي يعالج كثيرا من القضايا التي ذكرتها، وما يزال حسب علمي لم يطبع، ولكنني طبعت التصدير في كتابي "حبر على ورق"، الذي هو الآن تحت الطبع.

رأيت للدكتورة غطاس بحثا في مجالات جزائرية وأجنبية، وقلّمت بعض بحثها في مؤتمرات علمية في الجزائر وتونس والمغرب وفرنسا واسطنبول، وأسهمت ببحث جيد عن أوجاق الجزائر في الكتاب المرجع لتاريخ الأمة العربية الذي كت أشرف عليه بتكليف من الأليسكر (المنظمة العربية للترية والعلوم والثقافة).

رحمك الله يا عائشة، لقد فقدتُ فيك إحدى بناتي وتلميذاتي، وإحدى زميلاتي، وكت قبل اليوم لا تطلين مني سوى النصيحة، وها أنت اليوم لا تستحقين مني إلا كلمة وفاء ودعوة أسي. أبو القاسم سعد الله -12 مايو 2011

#### تعزية الجمعية المغربية للبحث التاريخي:

علمنا بالأسف بوفاة الزميلة عائشة غطاس في ظروف مأساوية غامضة. وقد سبق للمرحومة أن شاركت في ماي 2003 في إحدى الندوات التي كانت وحلة التكوين والبحث "الموسط والعالم الإسلامي" تنظمها بمراكش كل سنة، فعرفنا فيها جليلة البحث ودعامة الأخلاق وعمق الحرص على بناء أواصر التواصل بين الباحثين المغاربة. وإذ نشعر بعميق الحزن وشدة الاستكار أمام هذا الحدث الجلل، فإننا نعبر لعائلتها وأصلقاتها وزملائها عن أحر تعازينا وعميق مواساتنا.

C'est avec consternation que nous avons appris la disparition tragique de Aïcha Ghetas, collègue ottomaniste de l'université d'Alger, qui avait participé à une Table ronde à Marrakech, organisée en mai 2003 par l'UFR "Méditerranée-Monde musulman" de la Faculté des Lettres de Rabat, autour du thème "Les études ottomanes au Maghreb à travers les archives locales et méditerranéennes". Nous avons alors pu apprécier outre ses compétences scientifiques et ses grandes qualités humaines, un profond souci de consolider les relations universitaires intra-maghrébines. En cette douloureuse occasion, nous exprimons à sa famille, ses amis et ses collègues toutes nos condoléances et notre profonde sympathie.

Abderrahmane EL MOUDDEN

Secrétaire Général Association Marocaine pour la  
Recherche Historique Faculté des Lettres et des Sciences Humaines  
RABAT - MAROC





## الأستاذة عائشة غطاس في سطور

~~~~~ أ.د. عبد القادر بوباية \*

الرتبة العلمية: أستاذة التعليم العالي.

التخصص: تاريخ الجزائر الحديث.

\* الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

\* علاقات الجزائر الخارجية.

الشهادات:

- شهادة المنهجية في التاريخ- جامعة الجزائر- 1980م.

- شهادة الماجستير في التاريخ الحديث: العلاقات الجزائرية- الفرنسية خلال القرن السابع عشر

1619-1694م- جامعة الجزائر- 1986م.

- دكتوراه دولة في التاريخ الحديث: "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر: مقارنة اجتماعية

اقتصادية- جامعة الجزائر- 2002م.

المقالات المنشورة:

- "الوضع الصحي بالجزائر خلال العهد العثماني"- مجلة الثقافة- العدد 76، 1983م- صص

121-130.

- "أول حلقة في العلاقات الجزائرية- الدائرية: معاهدة 1746م"- مجلة الدراسات التاريخية-

1987م.

- "المعاهدة الجزائرية- البندقية"- مجلة الدراسات التاريخية- 1992م.

- "التجار الجزائريون من 1686-1830م من خلال وثائق القنصلية الفرنسية"- مجلة الدراسات

التاريخية- العدد 61/62- 1991م- صص 126-136.

- "إسهام المرأة في الأوقاف بمجتمع مدينة الجزائر"- المجلة التاريخية المغربية- العدد 85/86-

1997م- صص 99-131.

---

\* - مدير مختبر تاريخ الجزائر ورئيس تحرير مجلة عصور الجديدة- جامعة وهران- الجزائر.

- "سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي: مثال مدينة الجزائر" - إنسانيات، العدد 3- 1997م - صص 69-86.
- "القضاة الأحناف بمدينة الجزائر 1560-1850م" - المجلة العربية للدراسات العثمانية - العدد 18/17 - 1998م - صص 371-377.
- "الصدائق بمجتمع مدينة الجزائر 1672-1854م من خلال وثائق المحاكم الشرعية" - إنسانيات - العدد 4 - 1998م، صص 47-67.
- "ممتلكات المرأة بمجتمع مدينة الجزائر إبان العهد العثماني" - تاريخ النساء في بلاد المغرب - الثقافة المادية والحياة اليومية - جمع وتقديم دالدة الأرقش - تونس - مركز المطبوعات الجامعية - 2000م.
- "تجار مغاربة بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني من خلال وثائق القنصلية الفرنسية 1686-1830م - دراسات وشهادات مهداة إلى الدكتور سعد الله - بيروت - دار الغرب الإسلامي - 2000م.
- "المرأة بمدينة الجزائر إبان العهد العثماني" - مقارنة اقتصادية - اجتماعية - القنيطرة - 1998م.
- "حول أوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر" - أعمال ندوة الجزائر حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - دراسات إنسانية - عدد خاص - 2002م.
- "نظرة أسير إنكليزي للجزائر إبان النصف الأول من القرن السابع عشر" - أعمال المؤتمر الثاني للحوار البريطاني - المغربي - أكتوبر - 2002م - منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلوماتي - 2003م - صص 25-31.
- "من أجل إعادة النظر للبيئة الديموغرافية" - إنسانيات - العدد 20/19 - 2003م - صص 33-44.
- "اليهود ودورهم بين الصفتين الشمالية والجنوبية" - مشترك - "في مرآة الذاكرة - مرسيليا - الجزائر - باريس - 2003م - صص 69-74.
- "الحرف والثروات بمدينة الجزائر" - مشترك - في مرآة الذاكرة - مرسيليا - الجزائر - باريس - 2003م - صص 59-68.

- "الوافلون" البرانية" على مدينة الجزائر 1787-1830م بين التهميش والاندماج"- المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية- العدد 25- 2002م- صص 167-180.
- "تأملات حول ممارسة الوقف بمدينة الجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"- ندوة حول الوقف بالجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- آكس آن بروفانس- 2002م- تحت الطبع.
- المشاركة في الملتقيات الدولية:
- "طائفة رياس البحر مقارنة اقتصادية- اجتماعية من خلال وثائق غير منشورة"- الملتقى الدولي حول الجزائر والبحر- الجزائر- 1998م.
- "وثيقتان حول الرئيس الشهير جميلو"- ندوة حول الرئيس جميلو- الجزائر- 2000م.
- "مظاهر من الحياة اليومية لطائفة رياس البحر"- ندوة حول رياس البحر- الجزائر- 2001م.
- "مدينة الجزائر: المؤسسات والتسيير إبان العهد العثماني"- الملتقى الدولي حول أضواء على مدينة الجزائر- الجزائر- 2002م.
- "أضواء جديدة حول الطائفة اليهودية بمدينة الجزائر من خلال وثائق المحاكم الشرعية"- المؤتمر العالمي حول دور الأقليات الاقتصادي والاجتماعي في العالم العثماني- مؤسسة التميمي- زغوان- 2002م.
- "الوثائق المحلية وأهميتها في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي- مثال مدينة الجزائر إبان العهد العثماني"- مراكش- 2003م.
- "قراءة في ثلاث رحلات جزائرية إلى بلاد الحجاز في أواخر العهد العثماني- الملتقى الخليجي المعاري الثاني- الرياض- 2006م.
- النشاط البيداغوجي: الوحدات المدرسية
- تاريخ الدولة العثمانية- 1984.
- تاريخ المغرب الحديث- 1992م.
- تاريخ الجزائر في العهد العثماني 1986-2002م.
- الدولة والمجتمع في الجزائر الحديثة والمعاصرة- 2002-2005م.



- المسألة الشرقية - 2007م.

\*عرض وتقديم أطروحة ذكره الأستاذة عائشة غطاس بقلم الأستاذ حميد آيت حبوش (أستاذ وباحث بقسم التاريخ - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان)

- عنوان الأطروحة: الحرف والحرفين بمدينة الجزائر 1700 - 1830م: مقارنة اجتماعية-اقتصادية.

- المشرف: الأستاذ الدكتور مولاي بالحميسي.

- تاريخ المناقشة: تمت المناقشة سنة 2200م، وتوجت بحصول الباحثة على شهادة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا.

- محتويات الأطروحة: قسمت الباحثة موضوعها إلى أربعة أقسام:

- القسم الأول الموسوم بعنوان "مجتمع المدينة" وتطرق فيه إلى الفضاء الذي كانت تعيش فيه شريحة الحرفيين، ويضم هذا القسم ثلاثة فصول: تناولت في الفصل الأول منه "التركيبة السكانية"، وهذا لإعطاء صورة عن النسيج الاجتماعي، وتطرق فيه إلى الحضر والعنصر التركي ومكوناته والكراعة والدخلاء "العناصر الوافدة"، ثم انتقلت إلى الحديث عن أهل النعمة، وخصصت الشطر الثاني منه للتنظيم الاجتماعي الساري على العناصر الوافدة.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للوضع الديموغرافي من خلال البحث في العوامل المؤثرة سلبا في حركة النمو الديموغرافي من مجاعات وأوبئة وزلازل.

وخصصت الفصل الثالث لمسألة طبيعة السلطة المحلية؛ فعرضت إلى المؤسسات القائمة بالمدينة بشقها الديني والمدني وإلى آليات تسييرها.

أما القسم الثاني الموسوم بعنوان "ملامح التنظيم الحرفي" فقد اشتمل هو الآخر على ثلاثة فصول، خصصت الفصل الأول منه لإعطاء وصف عام طرحت من خلاله موضوع البنية الحرفية وبوجه خاص مشكل عدد الحرف الذي يعتبر إحدى المسائل الهامة التي تعكس أهمية البيئة الحرفية بالمدينة، وتعرضت إلى وراثية الحرفة، وفي نفس السياق تناولت الاختيارات الحرفية في الأسرة الواحدة.

وجاء الفصل الثاني متمما للأول إذ تناولت بالدراسة بنية التنظيمات الحرفية وعلاقتها مع السلطة وأنواع الضرائب.

أما الفصل الثالث فحطرت فيه إلى الفعاليات الاقتصادية حيث وصفت طبيعة النشاط الاقتصادي بالمدينة، وخصصت الفصل الأول منه لطبيعة التوزيع الطبوغرافي للأسواق من حيث نظام التخصص كما توقفت عند الأسواق والسويقات والفنادق والرحبات، وهي كلها مؤشرات تقل على طبيعة النشاط الاقتصادي بالمدينة.

وخصصت الفصل الثاني للصناعة والصناع حيث قلعت من خلاله ملامح الصناعة مثلما تبلى من خلال دفاتر المخلفات، كما بحث في الشرائح التي ينتمي إليها الحرفيون (حضر، أترك، بواتية)، وأنهت الفصل بوقفة عند موضوع المرأة الحرفية.

أما القسم الرابع والأخير فيتضمن الحياة اليومية، ويبحث في الممارسات والسلوكيات الاجتماعية التي ميّزت شريحة الحرفيين، حيث خصصت الفصل الأول للدراسة الثروات ومستويات المعيشة، وتوقفت عند أوجه الممارسات اليومية من حيث توظيف الثروة في أثاث البيت والمفروشات والملابس والمصاغ والاستثمار في المجال العقاري.

وخصصت الفصل الثاني لأماكن الإقامة من حيث توزيع السكان عبر أحياء المدينة. وعالجت في الفصل الأخير موضوع الحياة اليومية والممارسات الاجتماعية من خلال طرح موضوع المصاهرات كمظهر من مظاهر العلاقات الاجتماعية القائمة بالمدينة، ودور الحرفة في توجيهها، وأنهت هذا الفصل بتناول الصداق ومكوناته والاعتبارات التي حددته.

## مقالات في التاريخ القديم

## تلمسان وأحوازها في العصور القديمة

~~~~~ أة. صنلوق سقي \*

مقدمة: ليس من السهل على الباحث التاريخ لمدينة جزائرية ما، والتطرق لفترة تاريخية بعينها والإلمام بجميع جوانبها، خاصة وإن عمد إلى طمس أو تغييب تلك الحقبة من تاريخها، سواء عن قصد أو غير قصد، وهو حال تلمسان وما جاورها من مواقع أثرية، إذ لا نحتكم إلا على إشارة أو اثنتين في المصادر اللاتينية، والتي لا تسمح برسم صورة واضحة عن ماضيها العتيق، لذا كان لزاما الاعتماد والارتكاز بصفة أساسية على المادة الأثرية واستطاقها بكل موضوعية، فهي بالنسبة لنا عبارة عن وقائع تاريخية ثابتة ليست متغيرة ومتقلبة بحسب ميل الكاتب.

وإلى جانب مدينة تلمسان العائدة إلى الفترة الرومانية، وقع اختيارنا على أولاد ميمون التي ظهرت في نفس الفترة وموقع المويلح الراجع إلى فترة ما قبل التاريخ، وذلك لما كان لهما من تأثير سواء أكان سياسيا أو حضاريا، امتد إشعاعه إلى أبعد من حدودها.

تلمسان Pomania: كثيرا ما يصطلم الباحث أو الدارس لتاريخ تلمسان خلال فترة التاريخ القديم بقلّة وضالّة المادة الأثرية، والتي لا تتناسب مع حجم الشهرة التي اكتسبتها في العصر الوسيط، ولا ريب أنّ جنورها تعود إلى أقدم من ذلك، حيث تضررت أثارها كثيرا جراء إقدام مولاي إدريس خلال بداية القرن العاشر الميلادي على بناء مدينته أغادير على أنقاضها؛ حيث بنى مسجدا فوق حمام المعسكر الروماني <sup>1</sup>Balneum castrorum ليأمر من بعده يغمراسن بن زيان خلال القرن الثالث عشر ميلادي ببناء منڈنة له<sup>2</sup>، يبلغ ارتفاعها ثلاثون مترا، ترتكز على قاعدة يقلر طولها بستة أمتار، مصنوعة من الحجارة المصقولة والنصب الجنائرية المقلر عددها بخمسة نصب<sup>3</sup>، والتي من المحتمل أنّها جلبت من أسوار المدينة ومقبرتها، فكانت بذلك عبارة عن محجرة استغلت أثارها في تشييد مباني الحضارات الإسلامية التي تعاقبت عليها،

\* - أستاذة مساعدة أ في التاريخ القديم - قسم التاريخ - جامعة معسكر.

ولا شك أن هذا الأمر قد استمر إلى غاية فترة ليست بالبعيدة عن تاريخنا المعاصر، كما أن التوسع العمراني غير المدروس أتى على ملمس والقضاء على ما كان ظاهرا من أثارها خلال نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

حظيت تلمسان بنصيب وبمكانة متميزة تليق بمقامها الرفيع في الكتابات الجغرافية العربية الوسيطة، التي لم يمان عن التذكير بمآورها التاريخية القديمة، فقد أشار إليها ابن حوقل خلال القرن الرابع الهجري بالعبارة التالية "مدينة أزليّة"، وورد عند الكري خلال القرن الخامس الهجري ما يلي: "وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجر الجوز،... وفيها آثار للأون قديمة، وبها بقية النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم كنيسة معمورة، وكثيرا ما يوجد الركام في تلك الآثار"، وكتب الإدريسي عنها في القرن السادس الهجري قائلا: "...تلمسان مدينة أزليّة، ولها سور حصين متين الوثاقّة..."، كما أفاد صاحب الاستبصار بمايلي: "...وهي مدينة قديمة فيها آثار كثيرة أزليّة تنبئ أنها كانت دار مملكة، لأمم سالفه، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز".

ولقد كانت المدينة محل زيارة الرحالة Shaw خلال القرن الثامن عشر الميلادي<sup>8</sup>، حيث وقف على بعض أثارها الرومانية والإسلامية، ليعمد إلى زيارتها فيما بعد الأب برجاس Bargas سنة 1846م<sup>9</sup>، كما كانت محل معاينة كبل من ممالك كاري Mac Carthy<sup>10</sup> الذي نشر مقالا عنها تحت عنوان "إفريقية الرومانية" بالجملة الإفريقية، وجون كنال J.C anal<sup>11</sup> الذي صدر له مقال عن تاريخها القديم بمجلة الجمعية الجغرافية الأثرية لقاطعة وهران، أضف إلى هذا قيام السيد ديماط Demaeght بنشر النقوش الكتابية المكتشفة ضمن أعداد هذه الأخيرة<sup>12</sup>، وقد خضع موقعها للتنقيب مرتين، الأولى سنة 1954م على يد محافظ متحف تلمسان السيد جاني Janier، وظلت نتائجه مجهولة، والثانية عام 1976م، كان الهدف من ورائه إيجاد بقايا مسجد أغادير<sup>13</sup>.

أمنت الطبيعة لمدينة تلمسان تحميها طبيعيا، فهي تقع بسفوح الجبال الحاملة لاسمها، والتي تحميها من الرياح الجنوبية المحملة بالأتربة ورمال الصحراء الصارة بالزرع والإنسان على حد السواء، وتحلها من جهة الشمال، بعض الهضاب القليلة الارتفاع

التي تسمح بوصول التيارات الباردة والدافئة القادمة من جهة البحر لتلطف جوها، ووادي مفروش من جهة أخرى، حيث كان يوفر الموارد المائية اللازمة للقيام بالنشاط الزراعي، قبل أن يجف بسبب إقامة السد<sup>14</sup>.

وعليه فإن كل هذه الخصائص جعلت من سهول تلمسان أحد أخصب أراضي الجهة الغربية من الجزائر على مدار العصور، باعتبارها مصدر رخاء لمملكة الماسيسيل النوميدية خلال عهد ملكها صفاقس، وفخر ملوك موريطانيا يوبا الثاني وابنه بطليموس<sup>15</sup>، كما جلبت هذه الميزات والبعد الاستراتيجي للمنطقة أنظار الاحتلال الروماني أثناء حملة التوسع في عمق أراضي موريطانيا القيصرية التي قادها الأسرة السيفيرية خلال القرن الثالث الميلادي، فأسسوا بها حصنا عسكريا ثابتا *Castra Stativa* لحماية وحراسة الأراضي الزراعية التي استولوا عليها، ولصد هجمات القبائل المورية، أطلقوا عليه اسم بوماريا بمعنى البساتين أو الرياض، مما يوحي إلى أن الختلين الرومان قد أعجبوا وتأثروا بخضرة المكان وبجذائقه الغناء وبساتين الزيتون والفواكه والخضر ومياهه العذبة<sup>16</sup>، وهي الصفات التي لا تزال تحفظ بها تلمسان إلى يومنا هذا.

وقد قم جون كانال J.Canal وصفا ورسميا تخطيطيا لما كان عليه الحصن، حيث قدر أبعاده بحوالي 350 متر طولا و200 متر عرضا بمساحة تقدر بسبع هكتارات، أسواره من الحجارة المنحوتة رست بانتظام فوق بعضها البعض، إلا أنه للأسف لا يمكننا معرفة سمكه، وكان بالإمكان رؤية وتتبع أساساته التي تبعد بحوالي مائتي متر عن منذنة المسجد، به ثلاثة عشر برجاً، منها ثمانية أبراج بالجهة الشمالية، صفت في صفين بالتساوي، في حين توضع الأبراج الخمسة المتبقية بالجهة الشرقية، ولعل غيرها كان بالجهة الجنوبية والغربية للحصن لكنها اختفت مما يعرّن علينا معرفة عيدها<sup>17</sup>، وقد خصصت فيه مرافق خدامة للجنود المقيمين به منها الحمامات التي أعيد ترميمها من قبل ككليوس جوفينوس *Cecilius Jevinus*<sup>18</sup> ومذبح أين عبد إله محلي يدعى أوليسوا *Aulisuas* من قبل جد فليق خيالة الكشافين التلمسانيين *Ala exploratorum* *Pomariensium*<sup>19</sup>، وهي وحدة عسكرية مورية محلية، عرفت باسم الكشافين

التلمسانين السيفيريين *xploratorum pomariensium severiana* خلال حكم الإمبراطور ألكسندر سيفيروس، لتعت باسم الكشافين التلمسانين الغورديين *Exploratorum pomariensium gordiana* أثناء فترة حكم الإمبراطور غورديانوس، يقدر عدد فرسانها بـ 200 رجل، في حين يتراوح عدد المشاة ما بين 300 و 400 رجل كلفت بحماية وحراسة المنطقة وما جاورها، بدليل العثور على نقيشة لها بحمام بوحيفية *Aquae Sirenses* تعود إلى سنة 242م، وأخرى غير مؤرخة بعين الكيحل<sup>20</sup>، ومن المحتمل اشتراكها في العمليات العسكرية رفقة فرق أخرى كخيلق الساردين الثاني *Cohors II Sardorum*، ومن الممكن أن فيلق خيالة أوغسطس الباريتين الأول *Ala I Augusta Parthorum*<sup>21</sup> قد استقر فيها لفترة أو مرّ بها.

وبجانب هذا المعسكر، نشأ مجتمع ملتي سرعان ما رقي إلى مصف بلدية رومانية، إذ كانت تلك هي وضعيتها خلال عهد الإمبراطور الكسندر سيفيروس *Alexander Severus* استادا إلى معلم ميلي اكتشف بالمقبرة اليهودية للمدينة وردت فيه عبارة جمهورية *Respublica*<sup>22</sup> لتبلغ قمة ازدهارها خلال فترة حكم الإمبراطور غورديانوس الشاب، حيث بلغت مساحتها الإجمالية حسب ماك كارتي *Mac Carthy* حوالي ستة عشر هكتار<sup>23</sup>.

لا نعرف من الآلهة المحلية المنتشرة بتلمسان، سوى الإله أوليسوا *Aulisuas* الذي ورد اسمه ضمن ثلاثة نقوش، وهذا دليل على أنه كان محبوبا بين أوساط سكانها، لتشهد فيما بعد انتشار الديانة المسيحية، حيث شارك أسقفها كونجينوس *Conginus* بمجمع قرطاجة لسنة 484م حيث جاء تربيته في المرتبة الثالثة والأربعين، والذي دعا إليه الملك الوندالي هونريك *Henéric*<sup>24</sup>، وقد أظهرت النصب الجنائزية وجود مجتمع مسيحي بها وذلك إلى غاية فترة متأخرة، التي تغطي الفترة الممتدة بين القرن الخامس والسابع الميلاديين، منها خمسة نقوش تعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس مؤرخة بسنوات 458م<sup>25</sup> - 459م<sup>26</sup> - 469م<sup>27</sup> - 471م<sup>28</sup> في حين تعود تسعة نصب إلى القرن السادس الميلادي، وتحمل تواريخ وفاة أصحابها، وهي كالتالي سنة 505 - 517<sup>29</sup> -



522<sup>32</sup>-550<sup>33</sup> ثلاثة مؤرخة بسنة 554<sup>35</sup>-557<sup>36</sup>، أما بخصوص النصب العائدة إلى القرن السابع الميلادي فتقدر بوحدة فقط مؤرخة بسنة 651م<sup>37</sup>، مما يدعو إلى الاعتقاد أن المدينة كانت عامرة عندما حل بها المسلمون الفاتحون.

ربطت سلطات الاحتلال الروماني تلمسان بخمسة طرق، حيث يصلها الأول بأولاد ميمون Altava<sup>38</sup>، الثاني بمغنية Nomerus Syrorum، اعتمادا على معلم ميلي يعود إلى عهد ألكسندر سيفيروس، اكتشف بمأه الأخيرة سنة 1845م، يوضح بداية طريق مزدوج<sup>39</sup>، الثالث بتاكبريت Siga ومصب وادي تافسة مروراً بوادي يسر وسهلي الرمشي والخابية، ويمتد حسب ماسيارا Masiéra على مسافة أربعة وثلاثين ميلاً، أنجز خلال فترة حكم الوالي فلافيوس كليمانس Flavius Clemens<sup>40</sup> والرابع بعين تموشنت Albulae مروراً بسيلدي يوسف، والخامس بسيلدي البلبلي Tepidae<sup>41</sup>، وتمثل مجمل المخلفات الأثرية التي عثر عليها خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية للجزائر في النقوش الكتابية المقدر عددها بستة وستين نقيشة والحجارة المنحوتة، وغمد من البرونز مزين بثلاثة رؤوس<sup>42</sup>.

ألفا Altava: تبعد آثار أولاد ميمون بنحو خمس وعشرين كيلومتراً شرق مدينة تلمسان، وتقع بسهل خصب عند سفح جبل يسر على الضفة الشرقية لوادي يسر، تمتد آثارها على شكل شبه مربع، تقدر أبعاده حسب ماك كاريّ بـ 370 متر على 317 متر، أي ما يعادل اثني عشر هكتاراً، في حين قدر لوتيلو Lethielleux أبعاده بـ 430 متر على 330 متر<sup>43</sup>، زاره ماك كاريّ Mac Carthy سنة 1849م، ونشر ملاحظاته ضمن مقال صدر بـ "الجملة الإفريقية"، تحت عنوان "إفريقية الرومانية"، ولم يكتف ديماط Demaeght، بتقديم قراءة جديدة لما ذكره هذا الأخير فقط، بل أثرى دراسته بالنقوش التي عثر عليها، والتي ذكر بعضها ضمن دراسته الخاصة بمواقع غرب موريطانيا القيصرية<sup>44</sup>.

كما قام كل من كورتو Courtot وبوتي Pouthier ببعض الحفريات بالموقع، حيث أنجز الثاني دراسة بعنوان "التطور الإداري لألفا خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين"<sup>45</sup>، وقد نبه محمد البشير شنيقي إلى مكانتها على ليمس القرن الثالث الميلادي خلال العهد السيفيري<sup>46</sup>.

أقام الرومان على طول الطريق الحدودي مجموعة من المراكز العسكرية من بينها معسكر أولاد ميمون، الذي عسكر به فيلق الساردين الثاني Cohors II Sardorum القادم من سور الجواب Rapidum<sup>47</sup>، ولعل وحدات أخرى قد التحقت بهذا المعسكر لحماية المصالح الرومانية بالمنطقة، كذلك التي تنتمي لفيلق خيالة أغسطس التراقيين الثاني Ala II Augusta Tharacum، وفيلق خيالة أغسطس البارتين الأول Ala I Augusta Parthorum وفيلق خيالة مليارا Ala Miliaria<sup>48</sup>، ولقد ظهر تجمع مدني بجوار المعسكر، إلا أن المدينة بقيت أجنبية<sup>49</sup> Peregrinorum Oppidum حيث لم ترقى إلى درجة بلدية رومانية، ولا يسعنا للأسف تقديم أدلة شافية حول العلاقة القائمة بين المعسكر والمدينة، وفي هذا السياق يذكر محمد البشير شيني أن "معسكرات الجيش الروماني تصف بالحركية والسعي لإقامة مجتمع زراعي بقربها قوامه الجنود المسرحون وعائلاتهم و المنجذبون نحوهم من أهل البلاد الراغبين في العمل ثم الإقامة في شكل أحياء هامشية ما تلبث أن تصبح مدنا"<sup>50</sup>، فلا ريب أن معسكر أولاد ميمون قد مر بهذه المراحل، حتى أصبح مدينة مزدهرة نظرا لموقعه الاستراتيجي الذي يؤهله لحراسة الأراضي الزراعية، والمساهمة بفضل وجوده عند وادي يسر في مراقبة الطريق الوحيد المؤدي إلى سبلو والعريشة وكذلك القوافل التجارية<sup>51</sup>.

مرّ الو ندال بالمدينة وهم في طريقهم نحو الشرق، والدليل على ذلك العثور على شاهد قبر درجة حفظه سيئة، لرجل تعرض إلى طعنة سيف قاتلة على يد الجنود البرابرة الوندال خلال النصف الثاني من شهر أوت لسنة 429م<sup>52</sup>، إلا أنهم لم يحكموا المنطقة التي ظلت خارج سيطرتهم.

خلال فترة الاحتلال البيزنطي للمنطقة عرفت المدينة شهرة كبيرة، حيث سمي المؤرخون مملكة مورية باسمها، وهي مملكة ألتافا استادا إلى نص نقيشة اكتشفت بها مؤرخة بسنة 508م، محفوظة بالمتحف الوطني أحد زبانة لمدينة وهران<sup>53</sup>، فلولاها ل بقيت مجهولة، إذ لا ذكر لهذه المملكة ولا لحكامها في المصادر الأدبية التي أرخت لتلك الفترة، هذا نصها:

Pro salute et incolunitate regis masunae gentium Maurorum  
et Romanorum. Castrum edificatum a Masgivini, prefecto de safar ider

procuratorae castra severiana, quem Masuna Altava posuisset Maximus procurator Altavae perficiti, peficti, provinciae anno cccc L VIII.

وهذه ترجمتها: "من أجل صحة ودوام مازونا ملك شعب المور والرومان بنيت

هذه القلعة على يد ماسغفين حاكم سافار وإيلير وكيل قلعة سيفريانا الذي أمر مازونا بإتزاله بالتافا، وأنهى البناء ماكسيموس حاكم ألتافا سنة 469 بتاريخ المقاطعة".

يمكننا من نص النقيشة، استخلاص جملة من الحقائق التاريخية بخصوص امتدادها الجغرافي والزمني وطبيعة النظام السياسي والنسيج السكاني للمملكة.

1- ظهرت بغرب موريطانيا القيصرية، في وقت كانت فيه المنطقة خارج نفوذ سلطة الاحتلال البيزنطي، حيث ضمت ملنا كعين تموشنت (Safar-Albulae)، سيدي علي بن يوب Castra Severrianna-Kaputtasaccura وأولاد ميمون Altava، لذا يعتقد أنها بلغت المناطق الساحلية شمالا والسلسلة الجبلية من الأطلس التي جنوبا، وامتدت إلى غاية الحدود الفاصلة بين موريطانيا القيصرية والطنجية غربا وجبال الظهرة شرقا<sup>54</sup>.

2- استادا إلى تاريخ النقيشة العائد إلى مطلع القرن السادس الميلادي فإن إطارها الزمني لا يمكن أن يكون بعيدا عن منتصف القرن الخامس الميلادي، ولا ريب أنها استمرت في الوجود إلى غاية القرن السابع الميلادي.

3- بلوغ الملك مازونا مكانة متميزة ورفيعة تقارب مكانة الأباطرة الرومان، وذلك ما يتضح من العبارة التي استهلكت بها النقيشة، وهي "من أجل صحة ودوام الملك"، والتي كانت حكرا عليهم، وأخذت بالنظم الإدارية الرومانية في تسير شؤون المملكة، كما هو الحال بالنسبة لماسغفين الذي كان حاكما لعين تموشنت وإيلير الذي شغل منصب وكيل قلعة سيدي علي بن يوب.

4- حوت المملكة مزيجا من المور والمرومين المعاشين جنبا إلى جنب تحت كنف مازونا الموري دون تمييز<sup>55</sup>.

يتضح الانتشار الكبير للمسيحية بأولاد ميمون من خلال العدد الكبير للنصب الجنائزية المخفوظة بالمتحف الوطني أحمد زبانة وعددها اثنان وتسعون نصبا، يعود تاريخها للفترة الممتدة بين القرن الرابع ونهاية القرن السادس الميلادي، نذكر من

بينها نقشاً للأسقف أوليوس ماكسيموس Ulpius Maximus الذي توفي في 19 أوت من سنة 529م<sup>51</sup>، كما درج اسم أحد أساقفتها وهو أفوس Avus ضمن قائمة الأساقفة المشاركين بمجمع قرطاجة لسنة 484م<sup>52</sup>.

وقد تم وصل أولاد ميمون بمدن المنطقة بواسطة أربعة طرق، حيث يتجه الأول نحو تلمسان، ويصلها الثاني بسيلي علي بن يوب، ويربطها الثالث بعين تموشنت مورزا بسيلي العبدلي Tepidae وينطلق الرابع نحو سقي Tasaccura<sup>53</sup>، وتمثل المخلفات الأثرية للمدينة في أواني فخارية كالصحون والزهريرات إلى جانب المصايح، والنقوش التي يبلغ عددها مئة وتسعة وخمسين نقيشة أغلبها عبارة عن نصب جنائزية ما بين وثنية ومسيحية، إضافة إلى بعض المعالم المليية والنصب التذكارية<sup>54</sup>.

المويلح: تقع ملاجئ تحت الصخر المعروفة باسم ملاجئ المويلح، على بعد خمسة كيلومترات شمالاً من مدينة مغية، على الطريق الرابط بين هذه الأخيرة وندرومة، وهي على شكل منحدر صخري، يحوي المخالي المتجهة بطريقة تكون فيها محمية من الرياح الشمالية الغربية السائدة بالمنطقة، قرية من الوادي الحاملة لاسمه، الذي كان يوفر إلى جانب الغابات التي تكتسب جبال المنطقة مجالات جيدة لصيد الأسماك والحيوانات، وهي الركيزة الأساسية لعيش إنسان تلك الفترة، أضف إلى ذلك، أنها لا تبعد عن ينابيع المياه الحارة لحمام شيقر سوى بمائتي متر فقط<sup>55</sup>، ويعبر بول بالاري Pallary أول من اكتشف الموقع، وكان ذلك سنة 1899م، أثناء جولة قادتته إلى منطقة تلمسان، حيث عثر على أدوات حجرية تمثلت في النصال، وبنى نظريته على أساس أن أصحاب هذه الحضارة الحجرية أقوام قلمت من شبه الجزيرة الإيبيرية عبر مضيق جبل طارق، فأطلق عليها خطأ اسم الحضارة الإيبرومغربية<sup>56</sup>، حيث أثبتت الحفريات التي أجريت بالموقع على أنها حضارة محلية أصيلة ببلاد المغرب القديم، ولا علاقة لها بحضارات شبه الجزيرة الإيبيرية، وتعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى Epipaléolithique، ورغم محاولات الباحثين الحديثة لتصحيح الأمر عن طريق اعتماد تسميات أخرى كالحضارة الوهرانية أو المويلحية، والذي نيل إليه نحن ببلورنا إلا أن الاسم الذي أطلقته بول بالاري ظل لصيقاً بها، وهو الذي تتبناه المدرسة الفرنسية<sup>57</sup>.

تنتشر أغلب مواقع الحضارة المويلحية، على غرار موقعها النموذجي بالمناطق الساحلية كجزيرة رشقون بعين توشنت والأندلسيات وكريشتل والعصر بوهران، وتيس ومغارة راسل بجازة وأفلوبورمل بجاية، كما نسجل بلوغها الأطلس الصحراوي، حيث وجدت بقاياها بموقع سيدي الحسني بتيارت، الهامل بوسعادة والحيطة بالأغواط.<sup>62</sup>

خضع الموقع للتقيب مرتين، من قبل أوغست باربان Auguste Barbin، بعد أن طلب منه بول بالاري P.Pallary ذلك، ووفر له ستييفان غزال S.Gsell الدعم اللالي اللازم، بصفته مديرا للمتاحف الجزائرية آنذاك، حيث أشرف على تقييه على مدار تسعة وعشرين يوما من سنة 1908م، ونقلت مكشقاته الأثرية إلى متحف الباردو بالجزائر، في حين حولت المستحاثات الحيوانية إلى مخبر الجيولوجيا التابع للمدرسة العليا للعلوم، ليستأنف العمل به من جديد شهر أوت من سنة 1910م، ونشرت نتائجهما ضمن مقالين بمجلة الجمعية الجغرافية والأثرية لمقاطعة وهران سنتي 1910 و1912 على التوالي.<sup>63</sup>

أسفرت هذه الحفريات عن العثور على جملة من الأدوات الحجرية والعظمية والخلي والبقايا الحيوانية والآدمية، التي تمكنت من رسم صورة لمعيشة إنسان تلك الفترة بالمغارات؛ وتتكون معظم الأدوات الحجرية من النصال والنصليات ذات الحافة الملهذبة، المصنوعة من حجر السلكس والكوارتز، وهي قديمة الشكل حيث يتراوح طولها بين ثلاثة وسبعة سنتيمترات، وتتميز بنهاية حادة، وظهر إما يكون مستقيما أو مقوسا، في حين تكون قاعلتها دائرية أو مبرورة بحيث تستخلم كمقبض، ولم تكن هذه النصال مجرد أدوات فقط، بل استخلمت كأسلحة وذلك بعد تثبيتها على ساق خشبي أو عظمي، كما عثر بجانبها وينسب أقل على المكاشط والأسطوانات والشظايا والحصى<sup>64</sup>، وإلى جانب الحجارة استخلم إنسان المويلح العظم كمادة أولية لصنع أدواته الممثلة بصفة أساسية في المخارز والمناقب والنصال المسننة، والتي يتم تعريضها للنار قبل استعمالها حتى تكسب المانة والصلابة.<sup>65</sup>

رغم انشغاله بالبحث الدائم عن الطعام والصيد وصنع الأدوات، إلا أن إنسان المويلح خصّص وقتا للاعتناء بنفسه وتزيين مظهره لكي يبدو في أحسن صورة بين أقرانه، ويلاحظ هذا من خلال لبسه للحلي، مستخدما في ذلك ما جادت به الطبيعة من رخويات وقواقع بحرية مثقوبة، بهدف صنع العقود والقلائد، كما كان يقوم في بعض الأحيان بإحداث ثقب بالقواقع التي لا تتوفر بها، إضافة إلى استعماله لأضراس وأسنان الحيوانات كالألئ ودرر والودع والحجارة الجميلة، حيث عثر على نوط مصنوع من حجارة كلسية سوداء، وممارسته لعادة الوشم والرقش، وصبغ الأجسام بالغرة الحمراء والصفراء والمغيز ليكسب لونا معدنيا وحديد أوليجست من أجل الحصول على لون بني-أحمر<sup>66</sup>.

ويظهر بوضوح أن إنسان المويلح المنتمي إلى جنس إنسان مشقي العربي، قد مارس طقوسا جنائزية، إذ كان يحترم موته وذلك بدفنه بمقبرة منه داخل الملاجئ التي يعيش بها، حيث عثر على بقايا هيكل عظيمة في وضعية ممددة فوق طبقة من الرماد والرخويات، والتي تبدو أنها كانت ساحة وقت وضع الجثة عليها وتمت تغطيتها بنفس الطبقة، ويكون الرأس موجها إلى الغرب في حين تكون الأرجل باتجاه الشرق<sup>67</sup>.

المواش:

1- Lethielleux, Les sites romains de L'Oranie, Manuscrit, 1982, p.321

2- Barges (J.J.L.), Telemcen, souvenir d'un voyage, Duppart, B.Lchallamel, 1859. محمد البشير شنيقي.  
الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (اللييس للوريطاني) ومقاومة المور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص 256.

3- Canal(J), « Pomaria, Telemcen sous la domination romaine », B.S.G.A.O., 1888, PP.283-284.

4- ابن حوقل، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 88

5- البكري، المسالك و للمالك، ج 2، تحقيق د. جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص 259

6- الإفريسي، نزهة المشتاق في إخراف الألفاق، تحقيق مجموعة مؤلفين، مكتبة الثقافة الدينية، 1994، ص 248

7- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تطبيق سعد زغللول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص 176

8- Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, Traduit par J. Mac Carthy, 2ed, Bouslama, Tunis, 1980, pp.242-243.

9- Barges(J.J.L.), Op.cit.p06

10- MacCarthy, « Algérie romaine », R.Afr. 1865, pp.88-113 ; pp.165-180 ; pp.346-369.

11- Canal(J), Op.cit, pp.264-324.

12- Demaeght(L), « Inscriptions inédites de la province d'Oran », B.S.G.A.O., 1887, p.240 ; id., « Inscriptions inédites de la Maurétanie Césarienne », B.S.G.A.O., 1888, p.90 ; pp.299-

300 ; B.S.G.A.O., 1890, p.99 ; B.S.G.A.O., 1891, p.269.

13- Lethielleux, Op.cit, p.231.

14-Ibid, p.231.

15- محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص. 232.

16- Bargès(J.J.), Op.cit, p.162; Canal(J), Op.cit, p.272.

17- Canal(J), Op.cit, pp.320-323; Lethielleux, Op.cit, p.321.

18- Cagnat®, Schmidt(J)et Desseau(H), Inscriptionum Mauritaniae Latinarum, Supplementum, VIII, (=C.I.L. VIII), Berlin, 1904, n°9908.

19- C.I.L.VIII, n°9907; n°21704; n°9906.

20- C.I.L.VIII, n°21704; n°9906.

21- C.I.L.VIII, n°21704; n°21779; Benseddik(N), Les troupes auxiliaires de l'armée romaine en Maurétanie Césarienne sous le haut-empire, Alger, S.N.E.D., 1979, p.39.

22- Canal(J), Op.cit, p.279; C.I.L.VIII, n°10465.

23- Mac Carthy, Op.cit, p.94.

24- Victor de Vêta, Registre des provinces et des cités d'Afrique, Les belles lettres, Paris, 2002, IV, 43; Sachebant(X), « Un saint évêque de Tlemcen au V siècle, Longinus de Pomaria martyr », B.S.G.A.O., 1886, p.43, pp.73-74.

25- Demaeght(L), Inscriptions inédites de la Maurétanie Césarienne, p.90; C.I.L.VIII, n°21792.

26- Canal(J), Op.cit, p.286; C.I.L.VIII, n°21782.

27- C.I.L.VIII, n°9911.

28- C.I.L.VIII, n°9956.

29- C.I.L.VIII, n°9.

30- Canal(J), Op.cit, p.287.

31- C.I.L.VIII, n°9944.

32- C.I.L.VIII, n°9940.

33- Canal(J), Op.cit, p.289; Bel(A), « Inscription de l'Oued Methlana », B.S.G.A.O., 1903, p.139-140; Lethielleux, Op.cit, p.321.

34- Lethielleux, Op.cit, p.321.

35- Bel(A), Op.cit, p.140.

36- Gsell(S), Atlas archéologique de l'Algérie, Alger, 1911, F31n°56; C.I.L.VIII, n°9935.

37- Gsell(S), Op.cit, F31n°56.

38- Mac Carthy, Op.cit, p.93.

39- Masseria(P), « La voie romaine de Pomaria à Siga », B.S.G.A.O., 1947, pp.127-128.

40- Gsell(S), Op.cit, F31n°56; Lethielleux, Op.cit, p.231.

41- Gsell(s), Op.cit, F31n°56; Cardaillac(F), « A travers l'Afrique romaine », B.S.G.A.O., 1891, p.123-fign°5et6.

42- Mac Carthy, Op.cit, p.97.

43-Ibid, pp.165-180; Demaeght(L), Géographie de la Maurétanie Césarienne correspondant à la province d'Oran, Oran, 1888, pp.64-65.

44- Leglay(M), « L'archéologie algérienne en

1954 », Libya. ar. ep., 3, 1955, p.185; Pouthier(M.P), « Evolution municipale d'Altava aux III et Siècles apr. j.ch », M.E.FR., 1956, pp.208-231.

45- محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص. 234.

46- Courtot(P), « Essai historique sur Altava d'après l'épigraphie », B.S.G.A.O., 1936, p.409.

47- Benseddik(N), Op.cit, p.40; p.46; p.61.

48- Lepelley(C.L.), Les cités de l'Afrique romaine au bas-empire, II, Etudes augustiniennes, Paris, 1997, p.527; Courtot(P), « Altava », EB, IV, 1997, p.544.

49- محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص. 233.

50- صندوق ستي، دراسة تخطيطية للمصالح المتفرقة بالمتحف الوطني أحمد زبابة، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ

وعلم الآثار، جامعة وهران، 2005-2006، ص. 44.

51- Courtot(P), « Une nécropole romaine d'Altava », B.S.G.A.O., 1934, p.358.

52- Demaeght(L), Catalogue raisonnée du musée d'Oran, I, Oran, 1884, p.114; C.I.L.VIII, n°9835.

53- Camps(G), « Recherches sur les royaumes berbères du VI et VII », Ant. Afr., 20, 1984, p.189.

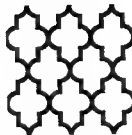
54- Février(P.A), Approches du Maghreb romain, II, Edisud, Aix-en-Provence, 1990, pp.144-145.

55- Courtot(P), Altava, p.550.

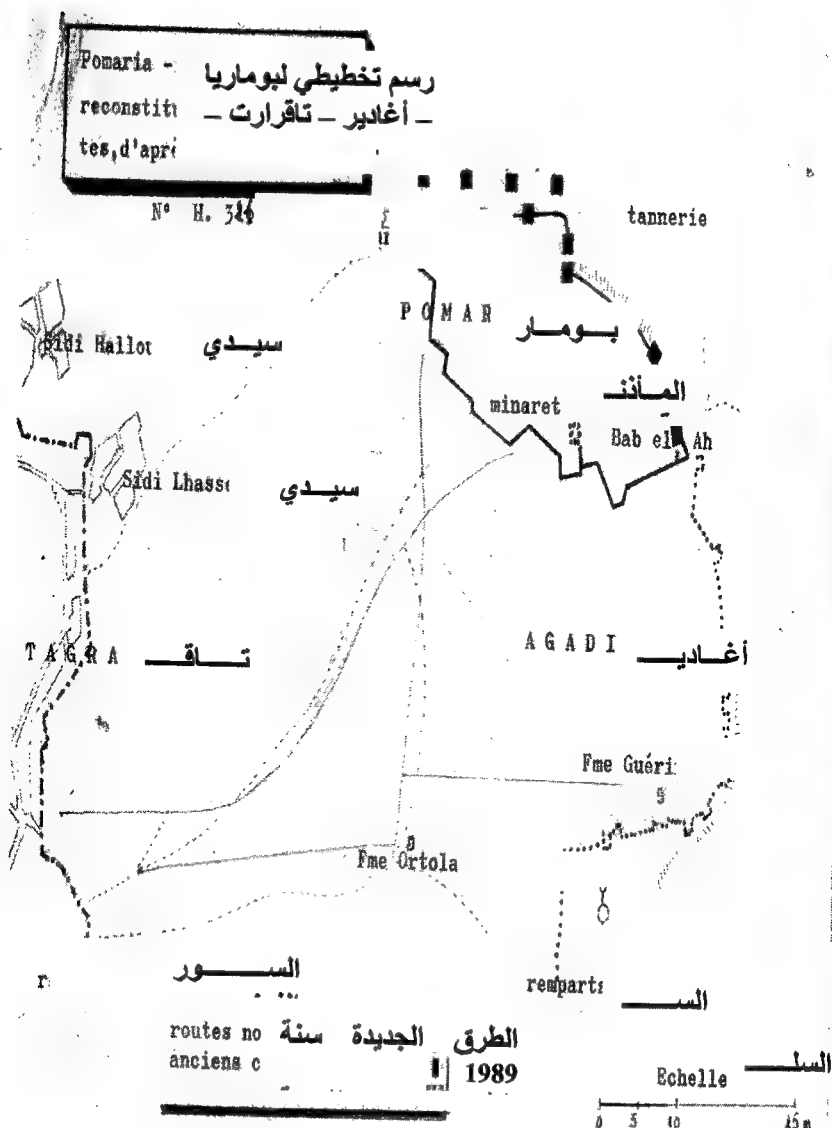
56- Toulotte, L'Algérie chrétienne, évêchés et ruines antiques, Ernest Leroux, Paris, 1912, p.481.

57- صندوق ستي، المرجع السابق، ص. 45.

- 58-Dernaeght(L), « Nouvelles découvertes archéologique à Altava », B.S.G.A.O., 1887, p.285 ; Courtot(P), « Une nécropole d'Altava », B.S.G.A.O., 1936 pp.9-10 ; Leglay(M), « Chronique archéologique », R.Afr., 100, 1955, p.214 ; id., « L'archéologie algérienne 1953 », Libya.ca.r.ep., 2, 1954, p.274.
- 59-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah près de Marnia (Deuxième campagne) B.S.G.A.O., 1912, p.389.
- 60-Aumassip(G), L'Algérie des premiers hommes, Maison des sciences de l'homme, Paris, 2001, p.67.
- 61- محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص. 82-83.
- 62-Saoudi(N.E), Les temps préhistoriques en Algérie, Editions Dallman, 2002, p.66-67.
- 63-Barbin(A), « Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah », B.S.G.A.O., 1910, pp.77-90 ; id, Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah (Deuxième campagne), pp.389-402.
- 64-Barbin(A), Fouilles préhistorique des abris de la Mouillah, pp.392-393.
- 65-Ibid, p.395.
- 66-Saoudi(N.E), Op.cit, p.67.
- 67-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique de la Mouillah (Deuxième campagne) p.396.
- 68- لك. ابراهيمي، تهجد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة محمد البشير شنتي ورشيد بورويعة، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص. 77.
- 69-Barbin(A), Fouilles des abris préhistorique (Deuxième campagne), p.399.







Canal(J) , « Pomaria,télemcen »,B  
C A O 1990

## مقالات في التاريخ الوسيط

## تطوّر العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط

د عبد الحميد حاجيات \*

لا شك أن أقطار العلوتين، بلاد المغرب جنوباً والأندلس شمالاً، عرفت تبادلاً حضارياً هاماً عبر العصور، وخاصة خلال العصر الوسيط. ورغم أن كلاً من هذه الأقطار كان يمتاز بمصائص تُضفي على حضارته طابعاً لا يخلو من عناصر أصيلة، فإن هذه البلدان كلها قد تأثرت تأثراً عميقاً بالحضارة العربية الإسلامية، مما أدى إلى قيام علاقات وطيدة بينها، وسهّل الاتصالات بين أهاليها في شتى المجالات، من سياسية واقتصادية وثقافية وفنية.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن مدينة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، كانت لها صلات وثيقة ببلاد الأندلس، ولاسيما بمدينة غرناطة، عاصمة بني نصر، وأنه قد حصل بين الجانبين تأثر متبادل، وأخذ وعطاء متواصل، مما ساهم في إثراء حضارة القطرين مدة قرون عديدة. وغرضنا في هذا الحديث الوجيز أن نستعرض نماذج من هذه العلاقات، مكرّرين على الجانب الحضاري والثقافي، الذي يلفت اهتمامنا بشكل خاص.

والجدير بالملاحظة أن هناك عوامل لعبت دوراً رئيسياً في خلق شروط الاستعداد للتواصل والتغارب، أهمها أن هاذين القطرين نهلا من معين ثقافي واحد، نابع من حضارات حوض البحر المتوسط منذ أقدم العصور. فكلاهما تأثر بالإشعاعات الفكرية والعلمية والفنية، والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أنتجتها شعوب المنطقة خلال العصر القديم<sup>(1)</sup>.

ولم يكن انتشار الإسلام في المنطقة عامل انفصال وتوقف في المجال الحضاري، بل كان عامل تواصل وتفتح، وحوار مُثمر بين شعوب العلوتين. فكانت العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية والفنون، عند هذه الشعوب، امتداداً لما أتتجه المصريون والبابليون والآشوريون

\* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان.

والفنيقيون واليونان وغيرهم<sup>(2)</sup>. وكانت الحضارة العربية الإسلامية، خلال العصر الوسيط كله، عبارة عن حصيلة ما وصل إليه العقل الإنساني في ذلك العهد<sup>(3)</sup>. كما أن المراكز الثقافية الكبرى في العلوتيين، بمُدُن تونس وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها، كانت يتابع حضارية نهل منها العلماء والأدباء والفنانون من مختلف الأنحاء<sup>(4)</sup>.

في هذا الجو المُنْتَسِم بروح الترابط الثري والاتصال المُثْمَر، تبلورت العلاقات بين المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، وتَمَحَّوَرَتْ، في مرحلة أولى، حول التبادل التجاري بشكل خاص. ثم ازدادت قوة ابتداءً من عهد المُرابطين، حيث إن كلا القطرين أصبحا تابعين لدولة واحدة، لأول مرة في التاريخ، فترادى حجم التبادل الاقتصادي والحضاري بينهما، وتأثر الفن المعماري المغاربي بالفن الأندلسي، كما يشهد على ذلك الجامع الكبير بتلمسان، بينما أخذ العلماء والأدباء يزدادون اتصالاً ببعضهم بعضاً، وساهمت الرحلات العلمية في تطوُّر الحياة الفكرية بالعلوتيين<sup>(5)</sup>.

وقد حَفِظَتْ لنا المَصادر والآثار أخبار كثير من رجال الدين والعلم والفن الذين قَدِمُوا من الأندلس إلى تلمسان، وساهموا في دفع التطور الحضاري بها، خلال هذه الفترة، مثل ابن غَزَلُون<sup>(6)</sup> الذي نزل تلمسان في عهد المُرابطين ونَشَرَ العلم بها، وتوفي بها سنة 524 هـ / 1130 م، ومثل الولي الصالح أبي مَدِين بن الحسين الإشبيلي<sup>(7)</sup> الذي ذاع صِيَّتُهُ في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي، أيام يعقوب المنصور الموحدي، وتوفي قرب تلمسان سنة 594 هـ / 1197 م، فدفن في رابطة العباد، خارج المدينة شرقاً، وكان ضريحه محل احترام الزائرين الوافدين إليه من سائر أنحاء المغرب العربي. ولأبي مَدِين شُعْب أشعار وحِكَم كان لها أثر هام في انتشار التصوف بين أهالي المنطقة، وعنايتهم بالشعر الصوفي الأندلسي وبتأليف كبار الصوفاة. ومن علماء الأندلس الذين نزلوا مدينة تلمسان، آنذاك، واستقروا بها، أبو بكر بن سَعَادَة الإشبيلي<sup>(8)</sup>، الذي تخرَّج على يده كثير من علمائها في الحديث وغيره من العلوم الدينية، وتوفي بها سنة 600 هـ / 1203 م. ولا يفوتنا، في هذا الصدد، أن نذكر الولي الصالح أبا عبد الله الحلوي الإشبيلي<sup>(9)</sup>، الذي عاصر أواخر عهد الموحدين، وساهم أيضاً في نشر التصوف بتلمسان، في شكله الشعبي المتمثل في نوعة الزهد والخلوة، ودفن بها خارج باب علي، فكان قبره محل إقبال الزائرين.

والجدير بالملاحظة أن تلمسان كانت، خلال هذه الفترة، تمتاز بنشاط ملحوظ في المجال الاقتصادي، نظراً لأهميتها صناعيتها التقليدية، من نسيج وحياكة وطرز وغير ذلك، التي كانت لها شهرة في العديد من الأقطار، ولمنتجاتها الزراعية الوفرة، ولموقعها الهام في ملتقى الطرق التجارية، مما جعلها مركزاً رئيسياً للتجارة الرابطة بين بلاد السودان جنوباً وأوروبا الغربية شمالاً، من جهة، وبين الشرق والغرب، من جهة أخرى. وقد نتج عن ذلك ازدهار تلمسان في سائر المجالات، وتطاعها الحثيث للتعامل مع الأسواق الخارجية، وأقربها بلاد الأندلس<sup>(10)</sup>.

غير أن صلات تلمسان بالأندلس لم تبلغ أوجها إلا عندما تأسست الدولة الزيانية سنة 633 هـ/ 1235 م. فكانت العلاقات قائمة، بالدرجة الأولى، مع غرناطة في عهد ملوك بني نصر. وقد تظافرت العوامل لتوطيد هذه العلاقات بين تلمسان وغرناطة، وإرسائها على أسس متينة، إذ أن هناك تشابهاً كبيراً بين المدينتين، من حيث موقعهما الجغرافي ومناخهما، وكونهما عاصمتين لدولتين ثم ازدهارهما في نفس الفترة، ولعبتا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة خلال مرحلة حاسمة تزامنت مع بداية عصر النهضة في أوروبا الغربية وازدهار الحياة الثقافية في أقطار المغرب. ثم إن المنافسة الطويلة الممدى التي قامت بين دول المغرب الثلاث، الحفصية والزيانية والمرينية، وتطاع المرينيين خاصة إلى توسيع نفوذهم وسلطتهم عبر سائر أقطار المغرب الإسلامي، كان لهما أثر ملحوظ في تقارب ملوك تلمسان وغرناطة في المجال السياسي، وتحالفهم في مناسبات عديدة، وارتباطهم الوثيق في سائر المجالات. ومما دَعَمَ هذا التقارب أن كلتا الدولتين عَرَفَتَا تقلبات سياسية كثيرة، واستهدفتا لأخطار عديدة، فكانت العلاقات بينهما تخدّم مصلحتهما، وتمتاز دائماً بطابع التحالف والتضامن والتعاون المستمر من الجانبين<sup>(11)</sup>.

وهكذا، انتعشت الحياة الثقافية والفنية، وازدهرت تحت ظلّ التعامل الودي بين بلاطي غرناطة وتلمسان. ومما دَعَمَ هذا الازدهار بتلمسان هجرات الأندلسيين المتتالية، خلال هذه الفترة كلها، ووفود الكثير من العلماء والكتاب والتجار والصنّاع عليها، واستقرارهم بها، ومساهمة الكثير منهم في تشييد مباني الدولة الزيانية، وإثراء تراثها المعماري والفني، وإنماء نشاطاتها الاقتصادية. ولا شك أن بلاط ملوك الدولة الزيانية ازدان بإقبال العديد من الأندلسيين عليه، فأكرموا متواعمهم، وأسندوا إليهم وظائف هامة. فكان عهد أبي تاشفين الأول من أزهى

عهود الإنجازات العُمرانية، وثُمَّ خلاله تشييدُ أفخم قصور تلمسان، مثل قصر أبي فهر، ودار السرور، ودار المُلْك، وتأسيس المدرسة التاشفينية. وقد أشار يحيى ابن خلدون إلى إنجازات أبي تاشفين الأول، قائلاً: " فخلد آثاراً لم تكن قبله لملك، ولا عُرف لها بمشارك الأرض ومغاربها نظير <sup>(12)</sup> ". وذكر أنه استعملَ في إنجاز هذه الأعمال آلافاً عديدة من فَعلة الروم، أي الأسبان، " من نجارين وبنائين وزليجين وزواقين وغير ذلك، مع حذقه رحمه الله بالاختراع، وبصره في التشكيل والابتداع <sup>(13)</sup> ".

وكان لملوك بني زيان مؤسسة " دار الصنعة " التابعة للدولة، لإنتاج الأسلحة والعتاد الذي هي بحاجة إليه. وقد وصفها يحيى ابن خلدون، متحدثاً عن حوادث سنة 767 هـ/1366 م، أيام السلطان أبي حمو موسى الثاني، فقال: " إن دار الصنعة السعيدة تخرج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتبائن لغاتهم وأديانهم، فمن دراق ورماح ولجّام ودراع ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصانع وذبّاج وغير ذلك، فتستك لأصواتهم وآلهم الأسماع، وتَحارُ في إحكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثم تُعرض أصيلاً كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة أيده الله <sup>(14)</sup> ".

فهذا القول، إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على أن الصناعة التقليدية، التي أشاد بأهميتها الجغرافيون مثل البكري والإدريسي والزُّهري، خلال عهد المرابطين والمُوحّدين، قد ازدادت ثُمّواً وازدهاراً أيام الزيانيين. ولا شك أن العديد من الأندلسيين المُسلمين والنصارى قد ساهموا في ذلك التطوّر الملحوظ بقسطٍ وافر، إلى جانب العناصر المَحليّة.

وبلاحظ نفس التواصل في المجال الثقافي، حيث إن كثيراً من علماء وفقهاء وأدباء تلمسان كانوا يرحلون إلى الأندلس للقاء رجال العلم والأدب أو لأغراض أخرى، ويستقرونها أحياناً، مثل الشاعر أبي عبد الله ابن خميس، الذي رحل إلى غرناطة، وأقام بها في خلمة الوزير ابن الحكيم إلى أن تُوفي بها سنة 708 هـ/1308 م <sup>(15)</sup>. وهذا وقد استفادت تلمسان كثيراً من هجرة العلماء والأدباء والكتاب وكبار المُوظفين إليها، قادمين من مختلف أنحاء الأندلس. وقد تَبَّه ذكرُ الكثير منهم وذاع صيتهم، وكان لهم أثرٌ فعّال في تدعيم النشاط الثقافي والفني، والمُشاركة في

مَسْ شُؤُونِ الْبِلَادِ. وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ حَصْرُ عَدَدِهِمْ، فَلَعَلَّنَا نَسْتَطِيعُ تَبْيِينَ الدُّورِ الْهَامِّ الَّذِي لَقَّوْهُ فِي هَذِهِ الْمَيَادِينِ بِذِكْرِ بَعْضِ الْمَشَاهِيرِ مِنْ بَيْنِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَا وَأَمْلَأْنَا.

فَمِنْ أَشْهُرِهِمْ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْخَطَّابِ الْغَافِقِيِّ الْمُرْسِيّ، الْكَاتِبُ الْبَارِعُ، الَّذِي كَانَ كَاتِبًا لِمُلُوكِ بَنِي نَصْرٍ بِغَرْنَاطَةِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى بَلَدِهِ مُرْسِيَّةً. غَيْرَ أَنَّ أَوْضَاعَهَا لَمْ تَكُنْ مُسْتَقَرَّةً، فَغَادَرَ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ، وَقَدِمَ إِلَى تَلْمَسَانَ فِي عَهْدِ يَغْمُرَاسَنَ بْنِ زَيْبَانَ، وَكُتِبَ لَهُ، ثُمَّ لَوْلَدَهُ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ 686 هـ / 1287 م<sup>(16)</sup>.

وَمِنْهُمْ بَنُو الْمَلَّاحِ، مِنْ أَهْلِ قَرْطَبَةِ، الَّذِينَ كَانُوا يَشْتَغِلُونَ بِحِرْفَةِ صَيَاغَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَتَوَلَّوْا تَلْمَسَانَ فِي جَمَلَةٍ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهَا مِنْ جَالِيَةِ قَرْطَبَةِ، فَرَاوَلُوا بِهَا حِرْفَتَهُمْ، وَاسْتَعْمَلَهُمْ مُلُوكُ بَنِي زَيْبَانَ فِي أَشْغَالِ دَوْلَتِهِمْ، وَعَيَّنُوا فِي وَظِيفَةِ سَكَّةِ الدِّنَانِيرِ وَالْدِّرَاهِمِ. وَزَادَتْ حِفْظُهُمْ فِي عَهْدِ أَبِي حَمُو مُوسَى الْأَوَّلِ، الَّذِي عَيَّنَ فِي الْحِجَابَةِ مُحَمَّدَ بْنَ مَيْمُونِ بْنِ الْمَلَّاحِ، وَبَقِيَ الْحِجَابَةُ فِي أَسْرَتِهِ إِلَى وَفَاةِ هَذَا السُّلْطَانِ، سَنَةَ 718 هـ / 1318 م<sup>(17)</sup>.

وَمِنْ أَشْهُرِ الْعُلَمَاءِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْآبَلِيُّ، الَّذِي يَرْجِعُ أَصْلُ أَجْدَادِهِ إِلَى مَدِينَةِ آبَلَةَ بِالْأَنْدَلُسِ. نَشَأَ بِتَلْمَسَانَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ الْقَاضِي ابْنِ غُلْبُونِ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ بِهَا، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَلَقِيَ كَثِيرًا مِنْ عُلَمَائِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى تَلْمَسَانَ. وَفِيهَا ظَهَرَ نُبُوغُهُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ. ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، فَلَقِيَ أَبَا الْعَبَّاسِ ابْنَ الْبَنَاءِ بِمَرَاكُشَ. ثُمَّ اسْتَقَرَّ بِفَاسَ حَيْثُ عَيَّنَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْمُرِينِيُّ فِي مَجْلِسِهِ الْعِلْمِيِّ، وَصَحَبَهُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي حَرَكَتِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ. ثُمَّ انْتَقَلَ مَعَهُ إِلَى تُونِسَ سَنَةَ 748 هـ / 1347 م، فَمَكَثَ بِهَا إِلَى سَنَةِ 753 هـ / 1352 م، عِنْدَمَا اسْتَدْعَاهُ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانَ الْمُرِينِيُّ، وَتَوَفَّى بِفَاسَ سَنَةَ 757 هـ / 1356 م. لَقَدْ كَانَ الْآبَلِيُّ مِنْ أَنْبَغِ رِجَالِ عَصْرِهِ وَأَذْكَاهُمْ، وَسَاهَمَ فِي تَكْوِينِ جِيلٍ مِنْ مَشَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ. فَمِنْ تَلَامِيذِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَ خَلْبُونِ، الَّذِي أَخَذَ عَنْهُ كَثِيرًا مِنْ نَظَرِيَّاتِهِ اللَّامِعَةِ فِي التَّارِيخِ وَعِلْمِ الْاجْتِمَاعِ، وَكَذَلِكَ أَخُوهُ يَحْيَى، مُؤَلِّفُ كِتَابِ "بَهِيَةِ الرُّوَادِ فِي ذِكْرِ الْمُلُوكِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ"، وَالْمَقْرِي الْكَبِيرِ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّرِيفِ، وَابْنُ مَرْزُوقِ الْخَطِيبِ، وَسَعِيدُ الْعُقْبَابِيِّ<sup>(18)</sup>.

وَمِنْ كِبَارِ رِجَالِ غَرْنَاطَةِ الَّذِينَ حَلُّوا بِتَلْمَسَانَ، لِسَانُ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ الْوَزِيرِ الْأَدِيبِ وَالْمُؤَرِّخِ وَالشَّاعِرِ، الَّذِي أَقَامَ بِتَلْمَسَانَ حَوَالِي سِتِّينَ، قَادِمًا إِلَيْهَا مِنْ غَرْنَاطَةِ سَنَةَ 772 هـ / 1370

م، أيام استيلاء عبد العزيز المريني عليها، فأخذ عنه كثير من علماء تلمسان واستفادوا من علمه وأدبه. ولازمه يحيى ابن خلدون، كاتب السلطان أبي حمو الثاني، وأخوه عبد الرحمن. ثم رحل لسان الدين إلى فاس، حيث حظي بتكريم السلطان عبد العزيز المريني.

ولما ضاقت أحواله بعد وفاة هذا الأخير، وألقي به في السجن، بذل يحيى ابن خلدون ما أمكن من الجهود لإنقاذه، ولكن بدون جدوى. وبعث لسان الدين إلى أبي حمو موسى الثاني رسالتين ضمنتهما قصيدتين رائعتين استصرخه بهما، طالباً منه أن يشفع فيه لدى سلطان غرناطة الغني بالله محمد بن نصر، من أجل التدخل في شأن السماح بإطلاق سراحه، وذلك في أوائل سنة 776 هـ/1374 م. إلا أن المنيّة عاجلت الوزير الغرناطي قبل أن يتمكن أبو حمو الثاني من تلبية طلبه<sup>(19)</sup>.

هذا وقد أعجب لسان الدين ابن الخطيب بمدينة تلمسان، واستطاب المقام بها. ومن شعره في وصفها قوله:

حيّا تلمسان الحيا فربو غها صدف يجرّد بلرّها المكنون  
ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى ومن ليس بالمنون  
أو شئت من دين إذا قدح الهدى أروى ودنيا لم تكن بالدون  
ورّد النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنائها بفنون  
وإذا حيّيت أم يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين<sup>(20)</sup>

ووصفها نثراً فقال: " تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووُضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من اللوحات حشمه وأغلاجه. عبّادها يلها، وكهفها كنهها، وزينتها زياتها، وعيبتها أغياها، وهواها المقصور بها فريد، وهواها الممنود صحيح عتيّد، وماؤها برود صرود، حجبته أيدي القلعة عن الجوب، فلا تحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع، ومسرح صرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رفاق رفاع، إلا أنها بسبب حبّ الملوك، مطمعة للملوك، ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمراء، أهلها ليست عندهم الراحة، إلا فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحه، إلا لمن أقام



وَصَمَّ الفَلاحَة، ليس بها لِسْنُ العقارب، إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة، إلا فيمن ارتكب الخطارة»<sup>(21)</sup>.

وكان السلطان أبو حمو موسى الثاني، الذي وُلِدَ بغرناطة، أديباً شاعراً، فشحَّج العلماء والأدباء والشعراء، وأحلَّهم منزلة سامية في بلاطه<sup>(22)</sup>، ومن بينهم جماعة كانوا من أصل أندلسي، حلَّ كاتبه يحيى ابن خلدون، مؤرخ الدولة الزيانية<sup>(23)</sup>، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف الفري الأندلسي، المشهور بقصائده القيِّمة التي كان يلقيها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف<sup>(24)</sup>، والقاضي سعيد العقباي<sup>(25)</sup>، وغيرهم مما لا يمكن حصرهم في هذا الحديث.

والذي ينبغي التأكيد عليه أن العلاقات التي تربط بين تلمسان وغرناطة لم تفشأ تتَّسِمُ بطابع الصَّاون والتضامن وحُسن الجوار طيلة عهد دولة بني نصر، حيث إنَّ جيش هؤلاء كان يشمل كثيراً من فُرسان بني عبد الواد ضمنَّ فرقة الغُزاة، كما أن العديد من أهل غرناطة وأنحائها، الذين غادروا بلادهم، نزلوا مدينة تلمسان واستقبلوا بحفاوة. ومن أشهر هؤلاء أبو الحسن القلَّصاديّ البسطي الذي تَبَّعَ في الرياضيات والفرائض وغير ذلك من العلوم، وحلَّ بتلمسان في أواخر عهد بني نصر، أثناء رحلته عبر بلاد المغرب والمشرق، ولقي معظم علمائها، ثم قلم إلى تلمسان عندما غادر غرناطة نهائياً، فأقام بها مدة قضاها في التدريس والتأليف، وتوفي بياجة، من بلاد إفريقية، سنة 891 هـ/ 1486 م<sup>(26)</sup>.

ومن هاجر إلى تلمسان أيام سقوط مملكة غرناطة، أبو عبد الله محمد ابن سعد الزغل، الذي توفي بعاصمة بني زيان سنة 899 هـ/ 1494 م، وهو عمُّ أبي عبد الله بن أبي الحسن، آخر ملوك بني نصر. ثم استمرَّت هجرة الأندلسيين إلى تلمسان وغيرها من أمصار المغرب إلى حوالي سنة 1017 هـ/ 1609 م.

ويستتج مما سبق أن مدينتي غرناطة وتلمسان تشكَّلتان أحسن نماذج التأثير والتأثر الحضاري، الذي ظلَّ سائداً بين أقطار المغرب العربي والجزيرة الإيبيرية، مدة ثمانية قرون، وأن التأثير الثقافي والعلمي والفني، الذي شمل سائر عناصر جزيرة إيبيريا، من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، لم ينقطع بسقوط مملكة بني نصر، بل استمرَّ بقوة، وانتشر في سائر أقطار أوروبا الغربية،

مما ساعد على تطوّر العلوم والثقافة والصناعات فيها، وسمح لها بتحقيق نهضتها الحضارية، التي أدّت إلى الثورة الاقتصادية الأوربية الحديثة<sup>(27)</sup>.

كما أن الترابط الذي ميّز العلاقات بين غرناطة وتلمسان قد ترك بصماته في عاصمة بني زيان بأشكال متنوعة، وتتمثل في تقاليد أهلها وعاداتهم ولهجتهم وجرّهم وراثتهم الثقافي والمعماري والفني. وليس أدلّ على ذلك من ازدهار الموسيقى الأندلسية والصناعات التقليدية بتلمسان إلى عصرنا هذا، وحرص أهلها على الحفاظ على هذا التراث<sup>(28)</sup>.

#### الهوامش:

1. انظر: محمد الصغير غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين ميلية، 2003، ص 18-109 و 235-243؛ ألدو ميلي، العلم عند العرب، دار القلم، القاهرة، 1962، ص 32-73؛ قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1963، ص 35-46.
2. انظر: ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت، ص 77-111.
3. انظر: قدري حافظ طوقان، المرجع السابق، ص 47-465؛ ألدو ميلي، المرجع السابق، ص 351-422.
4. انظر: عبد النعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1966، ص 227-260؛ ألدو ميلي، المرجع السابق، ص 423-484.
5. انظر: إحسان عيس، تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة، بيروت، 1969، ص 182-416؛ أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج 4، القاهرة، 1969، ص 120-156؛ عبد المصم ماجد، المرجع السابق، ص 218-226.
6. عن ابن خزلون، انظر: ابن بشكوكال، الصلة، ج 1، رقم 169، ص 77.
7. عن أبي مَنّين شبيب الإشيلي، انظر: ابن الزيات الثاني، التشوف، رقم 162، ص 316-325؛ ابن الأبار، التكملة، ج 2، رقم 2015، ص 715؛ القرري، فتح الطيب، ج 9، ص 342-351؛ ابن مريم، البستان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 108-114؛ ابن قفص القسنطيني، أنس الفقير، ص 11-20؛ محمد رشيد مولين، عصر المصم الموحدي، الرباط، مطبعة الشمال الإفريقي، 1946، ص 259.
8. عن أبي بكر بن سعادة الإشيلي، انظر: ابن الأبار، للمصم السابق، ج 1، رقم 879، ص 284؛ يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 129؛ ابن مريم، المصم السابق، ص 227.
9. عن أبي عبد الله الحلوي، انظر: يحيى ابن خلدون، المرجع السابق، ص 127-128.

10. الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي بلمشرق، سنة 1968، ص 194؛ الإدريسي، للمغرب العربي (من كتاب نزهة المشتاق)، تحقيق محمد حاج صادق، ص 100-101؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 91-92.
11. حول دولة بني نصر بفرناطة، انظر: لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليلى بروفيسال، الرباط، 1934، ص 330-391.
12. انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 216.
13. نفسه.
14. يحيى ابن خلدون، للمصدر السابق، ج 2، تحقيق ألفريد بيل، ص 161.
15. انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 109-112.
16. نفسه، ص 129.
17. عن بني للملاح، انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب البرج، ص 217-218.
18. عن الآبلي، انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص 21، 22، 33، 38؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 120؛ القسري، للمصدر السابق، ج 7، ص 167-171؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 214-219.
19. حول ظروف وفاة لسان الدين ابن الخطيب، انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص 286-307.
20. للقري، المصدر السابق، ج 9، ص 335-336.
21. نفسه، ج 9، ص 341-342.
22. انظر: عبد الحميد حاجيات، أبو هو موسى الريساني، حياته وآثاره، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص 69-155.
23. نفسه، ص 174-177.
24. نفسه، ص 172-173.
25. حول سعيد العقباي، انظر: ابن فرحون، الدياج للذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، 1951، ص 124-125؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 106-107؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 170-171.
26. انظر: أبو الحسن القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجناف، تونس، 1978، ص 17-74.
27. انظر: عبد المجمع ماجد، المرجع السابق، ص 248-258.
28. أنجز هذا البحث بمناسبة أملتقى الدولي حول تاريخ حضارة تلمسان ونواحيها، في إطار نشاطات " تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، سنة 2011"، تلمسان، 20-22/02/2011.



## تِلْمَسَانِيَانِ فِي سَبْتَةٍ

أ. رشيد الغفافي\*.

وَصَفَ أبو عبيد البكري مدينة سبتة في كتابه "المسالك والممالك"، وفي أثناء ذلك صرَّح بلقيا "لم تزل دار علم"، وقد وضح من هذه العبارة أن المدينة لها سابقة في العلم، وأن البكري لما زارها وجدها لا تزال محافظة على ذلك المستوى العلمي الرفيع الذي كانت تتمتع به في القرون الماضية. وقد توفي البكري سنة 487هـ أي بعد حوالي 11 سنة من مَوْلِدِ عِلْمِ سبتة الأشهر وقاضيهما الأفضل والأعدل أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (476هـ - 544هـ)، ولا شك أن البكري زار سبتة وأصلح حكمه على العلوم فيها قبل تاريخ وفاته بأعوام عديدة.

فماذا كان البكري سيقول عن سبتة لو أن العمر امتد به إلى الربع الثاني من القرن السادس الهجري وأدرك عصر ذلك العالم الجليل والقاضي الزيه الذي يُمثِّل ذروة الازدهار العلمي السبتي بطابعه المغربي؟ وماذا كان أبو عبيد سيقول أيضا لو أن الله -عزَّ وجلَّ- قدر له أن يعيش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ويرى مظاهر الرقي والازدهار العلمي بطابعه الأندلسي تسود المدينة؟

لا شك أن أبا عُبيد كان سينهل من تنوع المؤسسات العلمية وتعدّد خزائن الكتب التي تنتشر في كل حارات المدينة، وسيستفاجأ بالأعداد الهائلة من العلماء المبرزين الذين احتشروا في هذه المدينة الصغيرة التي كانت -حتى ذلك الحين- لا تزال تستقبل الوافدين من حواضر مغربية وأندلسية كان لها شأن علمي فيما مضى مثل إشبيلية وفاس وغرناطة وتلمسان، جميعهم قصصها من أجل التعليم أو التعلُّم، أو لأجلهما معا.

إن لكل وافد من هؤلاء العلماء الذين قصصوا سبتة في القرن السابع الهجري حِكَايَةً، ولعلَّ أطرف تلك الحكايات هي حكاية أخوين تلمسانيين عالمين ضريرين نزلا سبتة وأقرأ بها وعاشا

\*- باحث بمركز عُقبة بن نافع للدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين - طنجة- المملكة المغربية.

فيها ودحا من الزمن، وقد أقبر بها أحدهما بينما كُتب للآخر يُتوفى بالأندلس، وفي أحوال هذين الأخوين غرائب ونوادر تثير العجب والإعجاب.

هما أخوان من مدينة تلمسان العريقة، فيها ولدا، ونشأ في أحضان عائلة متوسطة الحال، كان والدهما -على ما ينطق به لقب الأسرة- يبيع الخضار في سوق تلمسان، ومع ذلك فإن هذا الخضار تَبَّه لقيمة العلم فدفع بانيه إلى تحصيله واكتساب طرف صالح منه. تلقى التعليم الأولي بتلمسان على بعض شيوخها الأجلاء، وظلاهما إلى مرحلة الشباب، ثم في وقت من الأوقات -غير معروف لنا بالضبط الآن- قصدا سبتة التي كان صداها العلمي قد وصل إلى مكان بعيد. وللتلمسانيين علاقة وثيقة بحواضر المغرب العلمية، فعندما كان الفتى في تلمسان يرغب في تطوير معارفه والاستفادة من العلم فإنه كان يُؤلِّي وجهه شطر فاس أو سبتة، وظل الأمر على هذا الحال طيلة العصر والوسيط وشطرا من العصر الحديث، وحسبنا هنا أن نذكر أبا العباس المقرئ مؤلف "نفع الطيب" و"أزهار الرياض" الذي نهل من مكاتب فاس وأخذ عن مشايخها، وكان باراً بالبلد الذي احتضنه ووقفاً للثقافة التي أنجبتة، لقد قدّم هذا التلمساني بكتايبه المذكورين خِلمة جليلة للتاريخ المغربي الأندلسي لم يُقلّم مثلها أحد في المغرب ولا في المشرق. الكلام نفسه يُقال عن بلديه أبي العباس أحمد الونشريسي الذي جمع في موسوعته الفقهية المسماة "المعيار المغرب" عددا لا يُحصى من النوازل، ووفّر للفقهاء والعلول كما كبيرا من القواعد والفتاوى، كما وفّر للباحثين في التاريخ مادة غنية للدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلدان الغرب الإسلامي في العصر والوسيط. ومما يؤسف له أن تلك الصّلات العلمية، التي كانت تجمع بين تلمسان وبين حواضر المغرب الأقصى، أصابها اليوم فُور كبير، ولا مجال هنا لذكر الأسباب فهي معروفة.

وقد كان هذان التلمسانيان ضريين، أي فاقدين للبصر<sup>2</sup>، غير أن الذي يظهر من ترجمتهما أن تلك العاهة (فقد البصر) لم يكن لها أي تأثير على نشاطهما العلمي وحياتهما الوظيفية وأحوالهما اليومية، فقد كانا يُسافران ويتقلّان من مكان إلى آخر ولأحدهما رحلة حجّ عاد بعدها إلى بلده الثاني سبتة، وقد أخبرنا من التقى به أنه كان يخترق أزقة هذه المدينة بدون دليل، وكانا الأخوان يجلسان للإقراء والتحديث، ويقومان بما يقوم به الناس العاديين وزيادة، دونما أي مركب نقص، بل ثقة في النفس، وتسليماً بالقضاء، ورضى بقر الله عز وجلّ.

وعلى الرغم من فقدانهما للبصر، فقد وهب الله - عز وجل - لهما توقّد البصيرة، فأصبحا عَلمين واستطاعا أن يثبّتا البصراء في عدد من ضروب المعرفة، وأن يتفوقا عليهما في شتى الفنون والعلوم، وقد قعدا للتدريس وتخرّج على يديهما تلاميذ كثير كان لهم إسهام صالح في تنشيط الحركة العلمية في سبتة وغيرها من حواضر المغرب والأندلس. إننا نتكلم عن التلمسانيين: علي بن محمد ابن الحضّار وأخيه محمد بن محمد ابن الحضّار.

1 - علي بن محمد ابن الحضّار: ترجم له ابن الزبير الغرناطي، فأورد اسمه ونسبه واسم والده واسم شهرته كما يلي: "علي بن محمد بن عبد الله الكامي الضري، من أهل تلمسان، يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن الحضّار".<sup>3</sup>

\* مولده: قال ابن الزبير: "مُولِدُهُ بتلمسان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة".<sup>4</sup>

\* شيوخه: قال ابن الزبير في ترجمته: "أخذ القراءات عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الكريم بن حسان، وعن المقرئ أبي نصر فتح بن يحيى، وأجاز له من المشاركة جميع من أجاز لأخيه"<sup>5</sup>، وسوف نتعرّف على أسماء مُجيزي أخي المترجم الحاج أبي عبد الله حين يصل بنا الكلام إلى ترجمته.

لم ترد في ترجمة علي ابن الحضّار إلا معلومات قليلة عن حياته في المرحلة التلمسانية، من ذلك قول الخزري أنه "قرأ على علي بن عبد الكريم بتلمسان"<sup>6</sup>، ويُفهم من هذا أن المترجم اجتاز مرحلة القراءة الأولية ببلده تلمسان، وسنعرف - من خلال النص الذي سنأتي به بعد قليل - أنه لم يُغادر تلمسان إلى سبتة إلا بعد أن استوى عوده في العلم، وأصبح مقرّناً مرموقاً بالتقدير والاحترام في مسقط رأسه. وأول من وجدنا يذكره هو المقرئ الأندلسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن مطروح الشريشي<sup>7</sup>، في تأليف له مفقود الآن، ولكن وقع الثقل منه عند ابن القاضي في "الفجر الساطع"، قال: "قال ابن مطروح: وقد لقيتُ في رحلتي إلى المشرق مقرّناً أعمى في جامع تلمسان يأخذ بالتمطيط الزائد والتفكيك المفرط، وكان مدّه في ﴿ألم﴾ بقدر ما يبلغ نفسه، لا يزيد على ذلك إلا اللّال من ﴿ذلك﴾ ليتدبّر بها، ثم انتقل إلى سبتة وأقرأ بها، كان يُعرف - فيما ذكر لي - بابن الحضّار"<sup>8</sup>.

\* في سبتة: وصل ابن الحضّار إلى مدينة سبتة مكتمل الشخصية العلمية، بحيث لم يرد في ترجمته أنه جلس إلى عالم سبتي سواء كان من أهلها أو من الطائرين عليها، لكن من المؤكّد أن

معارفه في سبته ستصبح أكثر متانة من ذي قبل بفضل البيئة العلمية الممتازة التي كانت تعيشها حاضرة الزقاق آنذاك، والتي تتجلى في تعدد مدارس العلم بها، وكثرة خزائن الكتب العامة والخاصة فيها، ويُمكننا أن نُقرّر أيضا أنّ عليّا ابن الحضارّ التقى بطائفة من علماء المغرب والأندلس الذين كانوا قد اتخذوا من سبته دار إقامة، واستفاد منهم، ولا شك في أنه كان يُشاركهم في السجلات العلمية التي كانت تثار بينهم بين الحين والحين. ومن الذين نصّوا على دخوله سبته ابن الزبير الغرناطي، قال بعد أن أثنى على علمه ومدح مهارته في علم القراءات وفي غيرها من ضروب المعرفة: "نفع الله به أهل سبته وغيرهم"<sup>9</sup>، ويُسمّى الجزري بعض أهل سبته الذين أدخلوا عنه وانتفعوا به، فيقول: "علي بن محمد أبو الحسن التلمساني الضرير الكناشي، يُعرف بابن الحضارّ... إمام مقرأ، نزل سبته وأقرأ بها... قرأ عليه الأستاذ أبو إسحاق الغافقي"<sup>10</sup>.

\* مؤهلاته ومكانته العلمية: نبغ علي ابن الحضارّ في علم القراءات، ولذلك نعتّه ابن عبد الملك بـ"الأستاذ الجوّد"<sup>11</sup>، أما ابن الزبير فقال في حقّه: "وكان- رحمه الله- معتمداً في تجويد القرآن، ذاكرةً لخلاف الأئمة، متصرفاً في ذلك، متقدماً فيه، ناصحاً في التعليم، نفع الله به أهل سبته وغيرهم. ودُكر أنه كان يحفظ "تيسير" أبي عمرو، و"إيجاز البيان"، و[كان] عالماً بالعروض"<sup>12</sup>، ووصفه ابن عمران الحضرمي "باحكام القراءات وحفظها"<sup>13</sup>.

\* دخوله الأندلس ووفاته بها : ذكر ابن الزبير أنّ عليّا ابن الحضارّ "دخل المربة مجتازاً إلى سبته، فاستقرّ بها مستوطناً، وأقرأ بها إلى أن توفي"<sup>14</sup>، ولم يتيسّر لنا معرف التاريخ الذي غادر فيه أبو الحسن ابن الحضارّ مدينة سبته إلى الأندلس، غير أن الذي يُفهم من كلام ابن الزبير هو أن ابن الحضارّ دخل الأندلس وتجوّل في عدد من مدنها، وفي طريق الإياب إلى سبته اجتاز على مدينة المربة **Almeria**، وواضح من هذا أيضاً أن ابن الحضارّ كان يرغب في الانتقال إلى سبته حيث داره وكنبه، ولكن لإرادة الله- عزّ وجلّ- شاءت أن ينتقل إلى جواره. وقد روى النعمي تاريخ وفاته عن أحد أبناء سبته الأصلاء من بيت آل الحضرمي، فقال: "قال لي ابن عمران الحضرمي إنه توفي سنة ست أو سبع وسبعين وستمائة"<sup>15</sup>، والتاريخ المضبوط لوفاته هو الذي نجده عند ابن الزبير، قال إن علي ابن الحضارّ "توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين لربيع الأول عام ستة وسبعين وستمائة"<sup>16</sup>، رحمه الله رحمة واسعة.



2 - محمد بن محمد ابن الحضار: ترجم له ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، قال: "محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مسعود الكتامي، تلمساني سكن بسطة، أبو عبد الله ابن الحضار - أخو الأستاذ الجود أبي الحسن" -<sup>17</sup>، وعرف به ابن الزبير الغرناطي، قال: محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير، من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحضار<sup>18</sup>.

\* مولده: قال ابن عبد الملك: "مولده منتصف ذي قعدة تسعة وستمئة"<sup>19</sup>، وحدّد ابن زبير يوم الولادة، فقال: "مولده بتلمسان في يوم الاثنين الخامس عشر من ذي قعدة عام تسعة وستمئة"<sup>20</sup>.

\* ارتحاله إلى بسطة: ليس في لائحة شيوخ أبي عبد الله ابن الحضار مَنْ يُمكن أن نُعدّه مُستأذلاً له في المرحلة التلمسانية، ثم إننا لا نعرف متى حلّ بسطة، ولكن يبدو أن ذلك كان في فترة مُبكّرة من حياته، كما يظهر أنه استوطنها قبل أخيه الذي تقدّمت ترجمته، ولما حلّ بها كان لا يزال في مرحلة الطلب، فقعد للقراءة على شيوخها. قال ابن عبد الملك: "سمع بسطة على الرئيس الفقيه أبي القاسم العزفي" سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، و"الدر المنظم"، من تأليفه، مرات، وأجازها له، وأجاز له بها أبو العباس بن محمد الموروري، وأبو عمرو عثمان بن محمد العبدي ابن الحاج، وسمع بها على أبي مروان محمد بن أحمد الباجي<sup>21</sup>.

\* رحلته إلى المشرق: ذكر ابن عبد الملك أن المترجم "سمع بها (أي بسطة) على أبي مروان محمد بن أحمد الباجي في وجهته، وصحبه إلى المشرق"<sup>22</sup>، وقال ابن الزبير الغرناطي في ترجمة ابن الحضار: "له رحلة حجّ فيها سنة أربع وثلاثين وستمئة"<sup>23</sup>.

كان ابن الحضار في الثالثة والعشرين من عمره وقت سفره للحج، ويقول الدكتور محمد بن شريفة "إن أبا مروان الباجي أعجبَ بذكاء الشاب ابن الحضار وحلقه فاختره رفيقا في سفره مع أنه كان ضريرا"<sup>24</sup>، وقال أيضا: "إن تعلّق هذا الشاب السبيّ بأستاذه أبي مروان، وحرصه على مرافقته وملازمته له إلى وفاته، قد أفاده كثيرا وخرّج منه مُحدّثا. روى عنه ابن عبد الملك وابن رُشيد والقاسم بن يوسف التجيبي وغيرهم، وقد قرأ ابن الحضار هذا على شيخه أبي مروان بعض الكتب في الفقه والحديث وهما متوجهان إلى الحجاز أو عائدان منه"<sup>25</sup>.

أما مراحل الرحلة فقد خُصّها ابن عبد الملك في ترجمة الباجي<sup>26</sup>، ومن هذا المختص سنقتبس ما يُبين لنا خط الرحلة، مع التوقف عند بعض أخطأت التي تعني سيرة مترجمنا. ألق المركب الرومي الذي يُقلّ الباجي ورفيقه ابن الحضار من مدينة سبتة يوم الأربعاء لسبع خلون من محرم أربع وثلاثين وستمائة، سائراً محاذياً لبرّ الأندلس، إلى جزيرة يابسة ومنها إلى جزيرة ميورقة. وبعد توقف قصير واصل المركب الإبحار فوصل مرسى جزيرة سردينيا، ومنه سار إلى صقلية، ولما جاوزها حدث أن رَدَّته الريح إلى مرسى سرقوسة إحدى مدن جزيرة صقلية، فوقف بها ونزل الراكبون للاستراحة، وفي هذا البلد نجد ابن الحضار يروي عن شيخه أحد الكتب الطريفة وهو كتاب "النظر في أحكام النظر" لأبي الحسن علي ابن القطان، قال التجيبي في "برنامه" بعد تسمية الكتاب: "سمعت جميعه كاملا في خمسة مجالس آخرها يوم الاثنين الرابع عشر من شوال من سنة ثلاث وتسعين وستمائة على التاريخي الحافظ الحاج أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي -رحمه الله تعالى- بحق سماعه من أوله إلى أثناء الباب السابع منه على القاضي الأجل أبي مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمي ثم الباجي بلفظ أبي مروان المذكور، وذلك بمدينة سرقوسة من مدن صقلية سنة أربع وثلاثين وستمائة، وأجازه سائره بحق قراءته لجميعه كاملا بلفظه على مؤلفه المذكور رحم الله جميعهم"<sup>27</sup>.

وفي البرنامج نفسه، وتحت عنوان "المختصر المرسوم برائع الدرر، ورائق الزهر، في أخبار خير البشر، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم"، تصنيف أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي، يقول المحدث السبكي: "سمعت جميعه عوداً على بدء، وقرأته أيضا بلفظي على الشيخ الثبت التاريخي الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير التلمساني المولد السبكي الاستيطان المعروف بابن الحضار رحمه الله تعالى بحق قراءته لجميعه بلفظه من حفظه وبسماعه أيضا له غير مرة على الشيخ الفقيه الجليل المحدث أبي مروان محمد بن أبي عمر أحمد بن أبي مروان عبد الملك اللّخمي ثم الباجي رحمه الله تعالى، منها مرة بسرقوسة من مدن صقلية في عام أربعة وثلاثين وستمائة، ومنها مرة بلندرة من صعيد مصر في عام خمس وثلاثين، بحق سماعه على الفاضلين أبوي القاسم عدي الرحمن: ابن حيش والسهيلي بسماعهما على القاضي أبي بكر ابن العربي الحافظ بسماعه من نصر بن ابراهيم بسماعه من أبي الفتح الرازي بسماعه من أبي الحسين مؤلفه"<sup>28</sup>.

وبعد سرقوسة تُستأنف رحلة الباجي ورفيقه ابن الحضار التلمساني في هذا الاتجاه: جزيرة قريطش- جزيرة قبرص- عكا- دمشق. وفي دمشق كان لابن الحضار نشاط علمي ملحوظ سجله ابن عبد الملك فقال في ترجمته: إنه روى "بدمشق على أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، وأبي العباس أحمد بن يوسف ابن زيري التلمساني، وأبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح، وأبي نصر محمد بن هبة الله بن ميمل، وناوله بها أبو محمد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن عبد النعم، وأجازوا له. وأجاز له بها أبو الحسن بن أبي عبد الله بن أبي الحسن بن المقر، وأبو عبد الله بن يوسف البرزالي، وعبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر الإربلي، وعثمان بن عمر المالكي"<sup>30</sup>، وذكر ابن الزبير في ترجمة محمد ابن الحضار أنه "لَقِيَ بدمشق شمس الدين أبا نصر بن ميمل الشيرازي، وسمع بها ثلاثيات البخاري: ومن أول الديوان إلى كتاب الإيمان، وتقي الدين أبا عمرو بن الصلاح، وسمع عليه علوم الحديث من تأليفه وأجاز له. وأجاز له ابن المقر وابن الحاجب وغيرهم"<sup>30</sup>، ومما يرتبط برواية ابن الحضار لكتاب البخاري عن أبي نصر الشيرازي، يقول ابن الحاج النميري في سنده للكتاب المذكور: "قال شيخنا أبو الحسن المطمطي: وحديثاً<sup>31</sup> به أيضاً عن المُسند أبي عبد الله محمد بن محمد الكامي ابن الحضار، قراءة لبعض أحاديثه، وإجازة لسائر، عن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن ميمل الشيرازي عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى النفزي العوفي عن أبي الحسن الداودي البوشنجي عن الحموي عن الفريزي [عن البخاري]<sup>32</sup>، كما ذكر ابن الزبير الغرناطي أن ابن الحضار "صحب في رحلته أبا مروان الباجي، وسمع عليه الموطأ"<sup>33</sup>، ولسنا ندري أين كان ذلك، والذي يظهر لي أن ذلك حصل بدمشق<sup>34</sup>، وقد أشار ابن القاضي إلى سماعه على ابن الصلاح فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكامي التلمساني السبتي، ابن الحضار، تزيل سبته، سمع "علوم الحديث" لابن الصلاح، عليه، بدمشق سنة 634هـ"<sup>35</sup>.

وبعد مَقام بدمشق امتد من 7 رمضان إلى منتصف شوال، خرج الباجي ورفيقه ابن الحضار منها وسارا في اتجاه أرض الحرمين الشريفين فاجتازا المراحل التالية: بصرى- الأزرق- تيماء- خير- المدينة المنورة- وادي العقيق- بير علي- ذي الحليفة- شعب علي- بدر- رابغ- الجحفة- بطن مر- مكة المكرمة. وصلا البلد الأمين لأربع خلون من ذي الحجة عام 634هـ، ويذكر ابن عبد الملك أنه لما يسر الله هما قضاء مناسك الحج خرجا من مكة -زادها

الله شرفا وتعظيما- في محرم من سنة 635هـ- وتوجهت إلى مصر، فقطعا المراحل التالية: حدة<sup>36</sup>- جدّة- سلق- دباب- عيذاب- قنا- قوص- أحميم- منية ابن الخصيب- مصر (القاهرة). ومن المخططات التي توقّف بها الباجي ورفيقه ابن الخطّار، بين عيذاب والقاهرة، ولم يذكرها ابن عبد الملك: بلدة دنطرة. لقد كان التلمساني حريصا على الرواية والقراءة على شيخه الباجي، فعندما كانت تُتاح له فرصة التوقف بإحدى البلدات كان يفرغ إلى الشيخ المذكور ليروي عنه، على الرغم من أنهما مرّا ببعض الظروف العصية، فقد تعرضت القافلة التي كانا ضمنها، في طريق العودة من الحج، للسلب بعد أن أغار عليها اللصوص في صحراء عيذاب، ولم تصل إلى دنطرة إلا بعد نصب وعذاب، إلا أن ذلك كله لم يصرف التلمساني عن السماع من شيخه الباجي، فما أن وصلت الجماعة إلى دنطرة- وهي مدينة من مدن الصعيد قريبة من قنا- حتى وجدنا ابن الخطّار يعود إلى سماع كتاب ابن فارس في "السيرة" مرة أخرى على شيخه أبي مروان الباجي<sup>37</sup>، ويروي عنه أيضا كتاب الزكاة<sup>38</sup> من تأليف الحافظ أبي بكر بن الجلد، قال التجيبي في "برنامج" بعد تسمية الكتاب المذكور: "سمعت جميعه كاملا بسبته على التاريخي الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد الكتامي رحمه الله في مجلسين: آخرهما يوم الجمعة الخامس والعشرين لذي القعدة من سنة إحدى وتسعين وستمائة بحق سماعه لجميعه من القاضي أبي مروان محمد ابن الشيخ الفقيه أبي عمر بن عبد الملك الباجي ثم الإشبيلي بدنطرة من صعيد مصر في يوم الجمعة آخر يوم من شهر ربيع الأول المبارك من عام خمسة وثلاثين وستمائة بحق سماعه من مؤلفه رحم الله جميعهم"<sup>39</sup>.

وذكر التجيبي في موضع من كتابه "مستفاد الرحلة" ما يلي: "أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام الفاضل المعمر الصلوق نجة المصنفين بهاء الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العلوي ثم القفطي، نزيل قوص الحروسة، بقراءتي عليه بالمدرسة السابقة في شهر جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين وستمائة، والشيخ التاريخي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني، نزيل سبته بقراءتي عليه عودا على بدء، قالوا: أخبرنا القاضي الأجل أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي- رحمه الله تعالى- قال بهاء الدين أبو القاسم قراءة علينا بلفظه بقوص قدمها علينا حاجّا من مكة- شرفها الله تعالى- سنة خمس وثلاثين وستمائة، وقال الكتامي أبو عبد الله- رحمه الله تعالى- قراءة عليه بلفظي من حفطي، وسماعا عليه غير مرة منها

بمرفوسة من مدن صقلية في سنة أربع وثلاثين وستمائة، ومنها بلندرة<sup>40</sup> من صعيد مصر في عام خمس وثلاثين وستمائة، قال: أخبرنا الفقيه الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن حيش الأنصاري رحمه الله، والفقيه الحافظ أبو زيد عبد الرحمن السهيلي الختيمي هو الإمام أبو القاسم وأبو الحسن وأبو زيد، ثلاث كنى، عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن أصبغ بن حسن بن سعدون بن رضوان بن فروح السهيلي، تزيل مالقة، وسهيل قرية من قراها، قال: حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، قال: حدثنا أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الزاهد، في بين المقدس، في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي قراءة عليه سنة أربعين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، قال: حدثنا محمد بن ماجه، قال: أخبرنا علي بن محمد الطنافسي، قال: أخبرنا وكيع، قال: أخبرنا أبي، وإسرائيل، عن أبي إسحاق السبيعي، قال: سألت زيد بن أرقم: كم غزا النبي صلى الله عليه وسلم، قال: تسع عشرة غزوة، وغزوت معه سبع عشرة غزوة، وسبقني بغزوتين<sup>41</sup>.

وقد كما تتبعنا رحلة الباجي وصحبه ابن الحضار حتى مدينة القاهرة، ويقول ابن عبد الملك إن الباجي ورفيقه التلمساني قطعا المسافة من منية ابن الخصيب إلى مصر القاهرة في سبعة أيام، وأنهما لما وصلا القاهرة نزلا بخان الملاحين، ثم قال متحدثاً عن الباجي: "أقام به (أي بالخان) ليلته تلك ويومها، وتوفي في ثلث الليلة القابلة"<sup>42</sup>.

وهنا فقد ابن الحضار التلمساني رفيق الرحلة، ويحكى ابن عبد الملك بعض تفاصيل الوفاة وقال إن الناس في القاهرة احتفلوا في جنازة الأندلسي وتأسفوا لفقده، ولا شك أن أكثرهم تحسراً وتأسفاً على الفراق هو رفيق رحلته ابن الحضار التلمساني، وكانت وفاة الباجي ليلة الجمعة 28 جمادى الأولى من عام 635هـ، وكان مدفنه بالقرافة<sup>43</sup>، وقد سرد ابن عبد الملك تفاصيل موته وجنازته، ولا شك أنه رواها عن ابن الحضار إذ كان المراكشي قد لقي التلمساني بسبته وأقام عنده بيته، غير أن ابن عبد الملك -كما هي عادته- لا يُصرِّح بمصدر معلوماته. وبخلاف هذا نجد ابن رشيد السبتي أمينا في رواية بعض التفاصيل المتعلقة بواقعة موت الباجي ومدفنه، يقول الحافظ السبتي: "لقد حدثني شيخنا العدل أبو عبد الله ابن الحضار - وكان ثمن صحبه في هذه الوجهة من سبته ولم يفارقه إلى وقت وفاته- أنه انتهى الحال في ازدحام على نعشه وتمسحهم به

أن يزِيل الرجل عمامته من رأسه ويرمي بها لتُتال نَعشه فإذا مسَّت النعش اختطفها الناس قطعاً حتى لا يبقى في يد مرسلها إلا ما قبضت عليه يده، وأُعيدت الصلاة عليه مراراً. قال لي أبو عبد الله، وعنه خبر رحلته ووفاته إلا نسبة المقررة، "وسرنا إلى قبره صبيحة دفنه فألقينا عليه قُبّة قد أحكمت وأتمّ بناؤها ليلاً، ولم نلْزِ مَنْ صَنَعَهَا عناية ربانية تومئ بسعادته وتشهد بوضع القبول له"<sup>44</sup>.

وكان ابن الحضار قد روى عن الباجي في طريق الرحلة تأليف سجلها التجيبي في "برنامج" و"مستفاد رحلته"، وابن رشيد في "ملئ عيته". كما سرد ابن عبد الملك أسماء طائفة من تلاميذ الباجي، ثم قال: روى عنه عدد من العلماء، منهم "ابن الحضار نزِيل سبته، وصحبه في وجهته المشرقية، وحجّ معه ولزمه إلى أن فرّق الموت بينهما"<sup>45</sup>.

وبعد وفاة الباجي في القاهرة رجع ابن الحضار التلمساني إلى سبته. ولسنا ندري الطريق التي سلكها، ولاشك أنه عانى الكثير من المشقة قبل أن يصل إلى منزله. وفي سبته أقبل ابن الحضار على التدريس والإقراء، وقد تتلمذ عليه عدد كثير من طلبة العلم من أهل سبته ومن الواردين عليها، قال ابن عبد الملك: "روى عنه غير واحد من أصحابنا"<sup>46</sup>، واكتفى ابن الزبير بالقول: "أُخذ عنه بسبته"<sup>47</sup>، وسمى ابن القاضي أحد من أجازهم ابن الحضار فذكر أنه "أجاز لابن جابر"<sup>48</sup>، أما أشهر تلاميذه فهو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، وقد سردنا بعض مروياته عنه اقتضى سياق رحلة ابن الحضار أن نقلّمها، ومما لم تسبق الإشارة إليه أنه ذكر في "مستفاد الرحلة" سنده في حديث "ما اجتمع قوم على ذكر إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة" من طريق أبي المعالي أحمد بن اسحاق القرافي. ثم قال في نسب الإمام رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي، وهو وطائفة من سلفه من رجال سنده في الحديث المذكور: "هكذا ثبت هذا النسب من هذه الطريق، وقد ذكره الأمير أبو نصر بن مأكولا، وفيه بعض اختلاف"<sup>49</sup>، وبعد هذا أتى برواية ابن مأكولا، ثم قال: "ورويتنا أيضاً سياق النسب من طريق أخرى، أخبرنا به الشيخان الجليلان: التاريخي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي بقراعتي عليه عوداً على بدء، والإمام الحافظ الأديب كمال الدين أبو العباس ابن أبي الفتح بن العطار الدمشقي بقراعتي عليه بداره منها، قال: أخبرنا الإمام الملقب تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن النصري سمعاً، قال: أخبرني الشيخ أبو الحسن مؤيد بن محمد بن علي اليسابوري بقراعتي عليه بما الحديث"<sup>50</sup>.

ومن أشهر تلاميذه أيضا: الحافظ ابن رشيد السبكي، قال في مُلَوّنة رحلته "ملئ العيبة": "الحاج المحدث الضرير أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي شهر بابن الحضار، قرأت عليه وسمعت. ومن ذلك: كتاب "معركة علوم الحديث" لابن الصلاح. وحلّني به عن مؤلفه رحمه الله<sup>51</sup>، وقد ذكره ابن القاضي سماعة على ابن الصلاح فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي التلمساني السبكي. ابن الحضار، تزيل سبته، سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق سنة 634هـ<sup>52</sup>."

\*صفاته: كان ابن عبد الملك المراكشي قد تعرّف على ابن الحضار وخبر من أحواله الشيء الكثير، قال في وصفه: "وقيته بسبته وحاضرتة كثيرا ويايته وشاهدت من ذكره [ما يقضي منه العجب، وكان] تاريخيا حافظا، أكمة، يخرق أزقة سبته وربضها [دون اعتماد على أحد، وسابرتة] بعض شوارعها فرما عطف بالترحم أو بالذكر على زقاق [أو مقبرة عند محاذاته إياها] وأخبرت عنه بعجائب أغرب من هذا النوع"<sup>53</sup>، وقال فيه ابن الزبير: "وكان فاضلا مجتهدا في العبادة، وكانت له معرفة بالتاريخ وغير ذلك، مع يقظ وفطنة وحسن سمع"<sup>54</sup>.

\*دخوله الأندلس: ذكر ابن الزبير الغرناطي أن ابن الحضار صحب الباجي إلى المشرق، ثم قفل فاسرطن سبته ودخل الأندلس تاجرا<sup>55</sup>، وفي هذا ما يدل على همة تثير الإعجاب، فهذا الأعمى لم تطاوعه نفسه على أن يكون عالة على غيره على الرغم من أن مكاتبه العلمية قد تُغنيه عن العمل إذا أراد، ولكنه لم يشأ أن يتخذ العلم مطية للكسب، فدخل الأندلس ومارس التجارة. وقد كان هذا الدخول إلى الأندلس مفيدا، فلولاه لما كنا ستقف على ترجمة له عند ابن عبد الملك وابن الزبير، وترجمتهما له هما أوسع ما كتب عن الرجل. لا تذكر المصادر لأبي عبد الله ابن الحضار أي نشاط علمي بالأندلس، ويبدو أنه دخلها في سنّ مُتعلّمة، وأنه بعد أن قام ببعض المعاملات التجارية بالأندلس رجع إلى سبته وأوى إلى داره، وهناك وافته المنية.

\*وفاته: قال ابن عبد الملك في ترجمة ابن الحضار: "توفي بسبته بعد صلاة [...] يوم السبت آخر أيام شوال سبع وتسعين وستمائة"<sup>56</sup>، وذكر ابن الزبير أنه: "توفي في الموفى ثلاثين لشوال عام سبعة وتسعين وستمائة"<sup>57</sup>.

\*ملحق: سبق أن ذكرت أن أشهر تلاميذ ابن الحضار: الحافظ محمد بن عمر بن رشيد السبكي صاحب التأليف الحديثية والتاريخية المعروفة، وقد نصّ على سماعة عليه في كتابه "ملئ العيبة" فقال: "الحاج المحدث الضرير أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي شهر بابن

الخضار، قرأت عليه وسمعت، ومن ذلك: كتاب معرفة علوم الحديث لابن الصلاح. وحدثني به عن مؤلفه رحمه الله<sup>٥٨</sup>، وأشار ابن القاضي إلى هذا السماع فقال: "محمد بن محمد بن عبد الله الكامي التلمساني السبي، ابن الخضار، تزيل سبته. سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق سنة ٦٣٤هـ<sup>٥٩</sup>."

ويُخبرنا ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) بامتلاكه لأصل أبي مروان الباجي من تأليف ابن الصلاح في علوم الحديث، يقول في ترجمة الباجي المذكور:

"سمع بدمشق على تزيلها المحدث الشهير أبي عمرو عثمان [ابن عبد الرحمن] ابن الصلاح تأليفه في علوم الحديث". وهذا الأصل الذي سمع فيه قد صار إليّ والحمد لله، وفيه خطّ ابن الصلاح بتصحيح التسميع وقد تضمن إذنه في روايته عنه لكل من حصل منه نسخة، فانتسخ منه جماعة من جلة أهل العلم وبناتهم، منهم: أبو الحسن الشّاري وأبو عمرو عثمان ابن الحاج وأبو القاسم أحمد بن نبيل وغيرهم، ونسختُ منه نسخة لبعض الأصحاب لأمر اقتضى ذلك لم يسع خلافه<sup>٦٠</sup>.

وقد أدرك الدكتور محمد بنشريفية بحلّسه العلمي الرفيع وباطلاعه على العلاقات التي تجمع ما بين المترجمين والمذكورين في كتاب "الذيل والتكملة" أنّ بعض الأصحاب المشار إليه في كلام ابن عبد الملك قد يكون هو ابن رُشيد السبي<sup>٦١</sup>.

وإنه لمن حُسنِ الحظ أن تصل إلينا نسخة ابن رشيد من تأليف ابن الصلاح في علوم الحديث، فقد تناقلتها الأيدي وسلمت من عوادي الزمان ونوائب الحداث إلى أن استقرت بحزاة القرويين بفاس، وهي اليوم مُسجّلة في الخزّانة تحت رقم 1738 (مكروفيلم: 685)، وعليها سماع ابن رُشيد للكتاب على شيخه ابن الخضار التلمساني، نقرأ في أول ورقة من المخطوطة ما يلي:

"الحمد لله، أكملتُ سماع هذا الكتاب على الفقيه الحاج أبي عبد الله محمد بن محمد عبد الله الكامي التلمساني شهر بآبن الخضار بمدينة سبته كالأها الله تعالى، في الثاني لشهر صفر عام ثلاثة وثمانين وستمائة وكان السماع بقراءة الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله محمد بن [عمر] الأنصاري شهر بالدراج<sup>٦٢</sup>، [وكانت] القراءة المذكورة في الفرع المقابل بأصل المؤلف الذي أعطاه أبا مروان الباجي<sup>٦٣</sup>، وفيه كان سماع الحاج أبي عبد الله الخضار على المؤلف بدمشق كالأها الله تعالى حسبما تقيّد في آخر الكتاب. قال الحاج أبو عبد الله وكان هذا الفرع قد حضرت من



مقابلته من أوله إلى قوله في النوع الثالث والعشرين الخامس عشرة في بيان الألفاظ ثم أكمل [مقابلته] له أبو القاسم أحمد بن نبيل<sup>64</sup>، ولم أحضر. وكان أبو القاسم ممن يوثق بضبطه ومقابلته. وأجاز لي الحاج أبو عبد الله جميع ما يروي عن أشياخه، وتلفظ بالإجازة، وأجاز لابني أبي القاسم محمد<sup>65</sup> هداة الله تعالى وعين له هذا الكتاب، وكتب بخطه محمد بن عمر بن رشيد وفقه الله تعالى. (وأسفل نص السماع، ويخط ابن رشيد دائماً بقلم مغاير) :

"أنشدنا شيخنا الفقيه فخر الأدباء و[...] البلغاء أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف بن خلف بن عبد العزيز بن محمد الفاقي<sup>66</sup>، وقد قرئ على شيخنا الفقيه الأعدلى أبي عبد الله بن الحضار هذا الكتاب وهو معنا يسمع، فأنتهيت إلى قوله: "أول الناس أول ناس"، فقال أبو القاسم: أنشدنا نجم الدين الفاضل اليساني :

يا أكمل الناس إحساناً إلى الناس \* وأكمل الناس إغضاء عن الناس.....".

قلت : وهذه نسخة ثمينة من كتاب (علوم الحديث) لابن الصلاح، فبحسب ما يُستفاد من نصّ السماع المثبت بأول الكتاب، فإن هذه النسخة كانت في ملك ابن رشيد السبكي العالم المعروف، قرأها على ابن الحضار التلمساني وقابلها بأصل المؤلف الذي أعطاه أبا مروان الباجي، فهي إذن فرع من الأصل.

ويبدو أن هذه النسخة الثمينة التي تُسخت بسببته قد بقيت عند ابن رشيد، ويبدو أنه حملها معه إلى فاس حيث كانت وفاته سنة 730هـ. ولسنا نعرف لمن آلت النسخة بعد موت صاحبها، وأغلب الظن أنها بقيت في خزائن فاس المريئية، وقد أثبت الشيخ محمد العابد الفاسي في "فهرس خزانة القرويين" نصّ سماع مكتوب بآخر ورقة من المخطوطة يُستفاد منه أنها آلت إلى أحد أعلام العصر السعدي وهو أحمد ابن القاضي مؤلف "جنوة الاقياس" و"درة الحجال" و"زهر الآس" وغيرها من الكتب التاريخية المفيدة، وقد نصّ في سماعه على أنه قرأ الكتاب على أحد أعلام الأدباء في عصر السعديين وهو أبو العباس المنجور، جاء في نص السماع، ما يأتي:

"الحمد لله، أكملت سماع هذا الكتاب على الفقيه العالم العلم الصباح سيدي وأستاذي أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور<sup>67</sup> أدام الله النفع به آمين، بمدينة فاس المحروسة في الثاني والعشرين من ربيع النوي المعظم عام إحدى وتسعين وتسعمائة. بقراعي وبعض الأوقات بقراءة الشيخ، وحضر معي للسماع الحميد النيه أبو الحسن علي بن محمد السفياي الشهير بابن

[...] من المذكور جميع ما يروي عن أشياخه وتلفظ بذلك وعين هذا الكتاب وناولنيه أبقي الله وجوده والنفع به للمسلمين بجاه سيد الأولين والآخرين [...] أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي<sup>68</sup> [...] بمنه، وأماته على ملة الإسلام وسنة نبيه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

وقد علق مُفهرس خزانة القرويين العلامة محمد العابد الفاسي -رحمه الله- على هذه النسخة بقوله: "وهي في الواقع نسخة فريدة لولا البتر العظيم الواقع فيها"<sup>69</sup>.

الهوامش:

1- المسالك والممالك 2 : 780

2- وُصف أحدهما بأنه أعمى، وقيل في الآخر إنه ضريب. (والضريب كثير: الرجل الفاهب البصر، ومصدره الضرارة، وهو مجاز، ومنه يشكو الضرارة، والضرارة هنا: العمى). الزبيدي، تاج العروس، مادة: ضرر

3- صلة الصلة 4 : 162 . وتوخيا للضبط، وتقاديا للتحريف الذي قد يقع في اسم شهرة المترجم، قال الجزري: "ابن الحضار بمعجمتين". (غاية النهاية 1 : 579).

4- صلة الصلة 4 : 163

5- صلة الصلة 4 : 162

6- غاية النهاية 1 : 579

7- انظر ترجمة ابن مطروح بقلم كاتب هذه السطور في مجلة التاريخ العربي، العدد 54 ، (1431هـ/2010م) ص. 279-302

8- ابن القاضي، القجر الساطع في شرح الدرر اللوامع، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم: 1825 ، ورقة 58 ب.

9- صلة الصلة 4 : 162-163

10- غاية النهاية 1 : 579

11- الذيل والحكمة 8 : 357

12- صلة الصلة 4 : 162-163

13- غاية النهاية 1 : 579

14- صلة الصلة 4 : 162-163

15- غاية النهاية 1 : 579

16- صلة الصلة 4 : 163

17- الذيل والحكمة 8 : 357

18- صلة الصلة 3 : 43

19- الذيل والحكمة 8 : 357-358

20- صلة الصلة 3 : 43

21- الذيل والحكمة 8 : 357

22- الذيل والحكمة 8 : 357

23- صلة الصلة 3 : 43

- 24- أبو مروان الباجي: 38
- 25- أبو مروان الباجي: 38-39
- 26- الذيل والكلمة 5: 689 وما بعدها
- 27- برننج النجدي: 272
- 28- برننج النجدي: 272
- 29- الذيل والكلمة 8: 357-358
- 30- صلة الصلة 3: 43
- 31- جني شيخه أبا عبد الله محمد بن علي ابن قطرال الأنصاري (مذكرات ابن الحاج النميري: 193)
- 32- مذكرات ابن الحاج النميري: 194
- 33- صلة الصلة 3: 43
- 34- قال ابن رشد في ترجمة الباجي: "وسمع عليه يمشق لوطاً [رواية] الليثي، وعلى فني الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن أبي الفهم ابن عبد الرحمن بن عبد النعم المشقي، قراءة محمد ابن أبي جعفر أحمد بن علي ابن أبي بكر القرطبي. وسمع شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد الكتلي من المختار عليهما بهذه القراءة جميعه". (إفادة النصيح: 103-104)
- 35- درة الحجال 2: 263
- 36- بليدة بين مكة وجدة .
- 37- برننج النجدي: 272
- 38- طبع هذا الكتاب مؤخرًا بتحقيق الدكتور عبد الحفيظ الجليلاني -منشورات الرابطة المحمدية للعلماء - المغرب 2010م
- 39- برننج النجدي: 242
- 40- في الأصل: برنة، والصحيح هو ما اقتناه .
- 41- مستفاد الرحلة والاعتراب: 178-179
- 42- الذيل والكلمة 5: 696
- 43- الذيل والكلمة 5: 696
- 44- بإفادة النصيح: 104
- 45- الذيل والكلمة 5: 688
- 46- الذيل والكلمة 8: 357-358
- 47- صلة الصلة 3: 43
- 48- درة الحجال 2: 263 ، والمقصود هو ابن جعفر الوائلي آشي صاحب البرننج.
- 49- مستفاد الرحلة: 160
- 50- مستفاد الرحلة والاعتراب: 160-161
- 51- رحلة ابن رشيد 6: 66 . ب
- 52- درة الحجال 2: 263
- 53- الذيل والكلمة 8: 357-358
- 54- صلة الصلة 3: 43
- 55- صلة الصلة 3: 43
- 56- الذيل والكلمة 8: 357-358

## مصادر أجنبية - العدد 2 - عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م/1432هـ

- 57- صلة الصلة 3 : 43 ، وقد ورد في النص المطبوع من كتاب "درة الحجل" لابن القاضي أن ابن الخطر "توفي سنة 727هـ". (درة الحجل 2 : 263) ، وهو خطأ ، والصحيح: 797هـ.
  - 58- رحلة ابن رشيد 6 : 66 ب.
  - 59- درة الحجل 2 : 263
  - 60- الليل والكلمة 5 : 688
  - 61- الليل والكلمة 8 : 123 (مقدمة التحقيق)
  - 62- أنظر ترجمته وأخباره في: صلة الصلة 3 : 43-44 ، ورحلة ابن رشيد 7 : 24-25 ، وبرنامج الصبي (ص. 167) ، ومذكرات ابن الحاج النعمري (ص. 30-31) ، وبرنامج الوادي آشي (ص. 134) ، والوالي بالوفيات 2 : 141 ، ودرة الحجل 2 : 248
  - 63- أنظر ترجمة البهي في الليل والكلمة 5 : 687-695
  - 64- ترجمته في الليل والكلمة 1 : 553-554
  - 65- أنظر ترجمته في كتاب: الحفظ ابن رشيد السقي القهري وجهوده في خدمة السنة النبوية ، للدكتور عبد اللطيف الجيلاني، ص. 116-117
  - 66- ترجمته وأخباره في : رحلة ابن رشيد 2 : 155 ، 191 ، والدرر الكعبة لابن حجر 2 : 85 ، ودرة الحجل: رقم 393 ، ونهج الطيب 3 : 352 ومن إنشاء الترجمة (رسائل ديوانية من سيرة) وهي مطبوعة بتحقيق محمد الحبيب الحيلة.
  - 67- ترجمته في سلوة الأهل. وله فهرسة شيخ مشورة.
  - 68- مزور معروف، صاحب "طبوة الأقباس" و"درة الحجل" و"لكنة القصور" و"عوالي الامتد" (فهرسة شيخ)، وجميع هذه التأليف مطبوع إلا الفهرسة.
  - 69- فهرس مخطوطات القرويين 4 : 390-391.
- لائحة المصادر والمراجع**
- 1- ابن رشيد السقي (ت. 721هـ) - إبانة الصبح بالعرف بسند الجمع الصحيح - تحقيق محمد الحبيب ابن الخوججة - السار التونسية للنشر - تونس - 1974م.
  - 2- ابن القاضي المكسي - درة الحجل في أسماء الرجال - تحقيق محمد الأحدي أبو البر - دار التراث - القاهرة - 1971.
  - 3- ابن عبد الملك للأركشي (ت. 703هـ) - الليل والكلمة لكتابي للوصول والصلة - السفر 1 ، تحقيق: محمد بن شريفة، دار الثقافة - بيروت. (د.ت)
  - السفر 5 ، تحقيق: إحسان عيسى، دار الثقافة - بيروت. (د.ت)
  - السفر 8 ، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. الرباط. 1984م
  - 4- ابن القاضي - القصر الساطع في شرح الدرر الوامع - مخطوط رقم: 1825 - الخزانة الحسنية - الرباط.
  - 5- القاسم بن يوسف الصبي السقي (ت. 730هـ) - مسند الرحلة والاعتراف - تحقيق عبد الحفيظ منصور، السار العربية للكتاب - تونس - 1975م.
  - 6- أحمد بن إبراهيم ابن البربر (ت. 708هـ) - صلة الصلة - تحقيق عبد السلام المراد وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف المغربية - الرباط. 1995م.
  - 7- ابن الجزري - غاية النهاية في طبقات القراء - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - 1980م.

1- أبو عبيد البكري- المسالك والممالك- حققه وعلقه له أدريان فان ليوفن وأندري ليري- الدار العربية للكتاب- بيت الحكمة، تونس-

1992م.

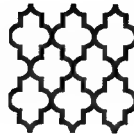
2- ابن رشيد السبقي- رحلة ابن رشيد السبقي- السفر السادس. مخطوط الإسكوريال- رقم 1737.

3- محمد بن شرفة- أبو مروان الباجي الإشبيلي ورحلته إلى المشرق (564هـ-635هـ)- كتاب دعوة الحق- العدد 5،

1400هـ/1999م.

4- محمد العابد القاسي- فهرس مخطوطات خزانة القرويين- ج 4 - ط 1- 1409هـ/1989م.

5- رشيد الطائي- من هو ابن مطروح شارح المحصورة؟- مجلة التاريخ العربي- العدد 54 (1431هـ/2010م) ص. 279-302.





## تلمسان من خلال كتاب "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم".

~~~~~ أ.د. عبد الكريم كريم \*

تحتفل الأمة الإسلامية بمدينة تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية ستنتا هذه، وهذه المناسبة صدر مجلة "التاريخ العربي" دراسة تبرز دور المدينة في نشر الدعوة العربية الإسلامية منذ أن حلّ بها القادة الفاتحون الأوائل ومن جاء بعدهم من عرب المشرق الذين تمكن بعضهم من تأسيس دول مستقلة مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس وعبد الرحمن بن رستم في تاهرت والمولى إدريس في زرهون...

يعد أبو قرّة زعيم بني يفرن أقوى قبائل زناتة من القادة الأوائل لتلمسان، وعندما قامت الدولة الإدريسية في زرهون عام 172هـ أعلن أبو قرّة بيعة المولى إدريس الذي زار تلمسان وبنى بها المسجد الذي لا تزال مئذنته قائمة حتى اليوم<sup>1</sup>.

أوقف المرابطون زحف قبائل بني هلال وبني سليم في شرقي الجزائر "وبنى هذا الفاتح العظيم- يوسف بن تاشفين- في مدينة تلمسان مساجد عظيمة شارك هو نفسه في تشييدها فهناك الجامع الكبير بالجزائر العاصمة والجامع الكبير بنلدرومة وهناك الجامع الكبير بتلمسان"<sup>2</sup>.

أصبحت مدينة تلمسان في عهد الدولة الموحدية من العواصم الرئيسية، فقد "أسند حكمها لعضو من أعضاء أسرة عبد المؤمن، وشيّلوا بها الصروح والمباني العظيمة والقصور التي لم يدخروا وسعا في تزيينها وتجميلها"<sup>3</sup>، وحسب الجغرافي الإدريسي الذي عاش في النصف الثاني لقرن الثاني عشر كانت "تلمسان مدينة مزدهرة، بها وفرة البضائع التي تباع وتشترى بثمن وخص، وتتوفر على المياه الغزيرة والحدائق الزاهية البديعة"<sup>4</sup>.

عرفت بلاد الشمال الإفريقي بعد ضعف الدولة الموحدية قيام الدولة الحفصية في تونس والدولة المرينية في المغرب و دولة بني عبد الواد في تلمسان "وبنو عبد الواد بدو من قبيلة زناتة

\* - أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب- جامعة الرباط ورئيس جمعية المؤرخين المغربية ومدير مجلة التاريخ العربي.

استعملهم الموحدون لحماية تلمسان<sup>5</sup>، ويعد القائد يغمراسن مؤسس الدولة الذي دام حكمه أربعين سنة.

استرد بنو عبد الواد حكم تلمسان عام 1348م بقيادة أبي حمو الثاني، وظلت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط حتى سيطرة الأتراك العثمانيين منتصف القرن السادس عشر.... عرفت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط زمن بني عبد الواد "اللع وأخصب فترة من تاريخها، فقد جعل منها مركز نفوذ ثقافي واسع أصبحت بحق العاصمة الدينية والثقافية لتعدد مدارسها مثل مدرسة العباد ومدرسة أبي مدين"<sup>6</sup> التي التجأ إليها عبد الرحمن ابن خلدون الذي يذكر ذلك قائلا: "لقد توجهت إلى مدرسة الشيخ أبي مدين فرارا من الشؤون المدنية، وطلبا للدرس بقلر ما يسمح لي بذلك"<sup>7</sup>.

ومن جهة أخرى تعددت هجرات الأندلسيين إلى تلمسان في الأزمنة المختلفة، وازدهرت بصفة خاصة فنون الآلة الأندلسية كما شرح ذلك المقرئ في "نفح الطيب"<sup>8</sup>.

من المصادر المخطوطة التي تحدث عن تلمسان عاصمة بني عبد الواد "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" لمؤلفه عبد الباسط الظاهري التركي الذي: "ولد في مدينة ملطية التركية، وعاش في الشام ومصر ومن الإسكندرية زار أقطار الشمال الإفريقي والأندلس ما بين سنتي 866-874هـ/1462-1477م)، وقد تزامنت رحلته مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الثاني "القاتح" (1451-1481م) الذي فتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، واتخذها عاصمة للإمبراطورية التركية العثمانية باسم استامبول..."<sup>9</sup>

وفيما يلي مقتطفات مما أورده عبد الباسط الظاهري في كتابه عن الجزائر:

"ثم رحلنا من الجزائر فاجترينا بطريقنا إلى تلمسان"<sup>10</sup>.

صلاة عيد الأضحى بتلمسان (الأحد 10 ذي الحجة 866هـ/1462م)

وفي يوم الأحد عاشره كان عيد النحر بتلمسان، فخرجنا للمصلى بظاهرها، وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم.

ربض العباد بتلمسان في 5 محرم 867هـ/1462م)

وفيه، في يوم الجمعة خامسه خرجت من تلمسان قاصدا ربض تلمسان الذي يقال له

العباد، ونسبته لتلمسان كسبة ضاحية دمشق لها، وبه مقام لشيخ متبرك أبو مدين الإشبيلي



خطب، الولي، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته وفرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلامة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان وعالمها، وخطيب جامع العباد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحرا في الفنون العلمية آية في ذلك، فأنس في، ثم سمعت خطبته التي شنف بها المجتمع وموعظته التي بها الانتفاع، وترددت إليه بعد ذلك، وحضرت كثيرا من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجم من فوائده في مدة ستة شهور، وكان أجل علماء تلمسان في عهده ذلك، و له من السن نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تحمته بحواسه وسلامة يده.

الاجتماع بعلماء تلمسان: ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم، الفضل، سيدي أبي عبد الله محمد العقباي، وأخيه سيدي أبي سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد ابن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكرياء مفتي تلمسان، و السيد الشريف يحيى ابن أبي الفرج قريب السيد الشريف التلمساني قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد قطبة تلمسان في المزاولة والدربة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني، ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربي الأقدري، موسى بن سحبل بن يهودا الإسرائيلي الملقب الأندلسي اليهودي، المتطبب المعروف بأبيه، هده الله تعالى للإسلام، لم أسمع بنمي، ولا رأيت كمثلته في مهارته في العلم، وفي علم الوقت والمقات وبعض العلوم القديمة، مع التجدد الزائد في دينه على ما يزعمه و يعتقد، وهو في الأصل من يهود الأندلس، وولد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه وغيره، ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطعها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في طب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يمتعه على ملة النبي صلى الله عليه وسلم".

"شهر شعبان" تحصيل تلمسان (870هـ/1467م).

وفيه، في أوائل شعبان، ابتداء صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على باب تلمسان، وأخذ في قطع ما إلى جانب الباب من خارجه من الأشجار، واجتهد في تحصينها، وتفقد أسوارها، وجد في العمل في إنشاء هذا البرج، حتى أنهاء في أواخر هذا الشهر.

وفيه، أعني هذا الشهر، بعد نهاية البرج، خرج صاحب تلمسان إلى مكان يقال له جبل بني مشعل وبه حصن منيع، ففقدته، وأشيع بأنه قصد أن يبعث بحرمته وذخائره إليه إذ بلغه مجيء صاحب تونس إليه.

إخراج المستعين بالله بن الأحمر من غرناطة (867هـ/1462م).

وفيه، في هذه الأيام أيضا، ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة وملك الأندلس أمير المسلمين المستعين بالله سعد بن أبي عبد الله محمد ابن أبي الحاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر المعروف بابن الأحمر، قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده أبا الحسن عليا، وثار أبو الحسن المذكور على أبيه فأخرجه من غرناطة وملكها، وأن المستعين بالله توجه لما لقة، وسبب ذلك الوزراء من أمثال أبي السراج وغيرهم الذين حسنوا هذا لأبي الحسن.

شهر صفر: وفيها- أوائل صفر- ورد الخبر إلى تلمسان بأن المستعين بالله صاحب غرناطة بعث إليه ولده الذي ملك بعده من حملة إلى بعض حصون الأندلس مضيقا عليه به.

استيلاء البرتغال على جبل الفتح (867هـ):

وفيه- أعني هذا الشهر- أخذ الفرنج البرتغال البلد المعظم أحد أعز حصون الإسلام وبلداتها بالأندلس المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب والابن، أعني أبا النصر سعد بن الأحمر، وولده أبا الحق، الماضي خيرهما؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن ذلك من أصعب المصائب في الإسلام، لأن من هذا الحصن كانت بداية أخذ بلاد الأندلس من الكفار في الزمن الأول، وهو أعظم معاقل الإسلام بالأندلس، وخرج أهلها منها بالأمان، وبالله المستعان، ولما بلغ هذا الخبر تلمسان وغيرها من بلاد الإسلام بهذه الجهة، عظم ذلك عليهم، وكثر التأسف على ضعف الإسلام بالأندلس، واشتغلهم عن حفظ الحصون الإسلامية بما هم فيه من الفتن وطلب العز والسلطان المفضي إلى الدل والهوان.

وبلغنا أن الكفار احتالوا بعض حيلة على أهل جبل الفتح، ثم أمنوهم؛ فخرجوا ولم يتعرضوا لهم البتة، بل أعانوهم على نقل الكثير من أمتعتهم، وإيصالهم إلى حيث مأمّنهم.

عزم ألفونس ملك قشتالة الزحف على الأندلس (867هـ)

وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفونس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة وباقي ما في ذلك من بلاد الفرنج وممالكها قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف الكائن بين الأب والابن، أعني ملك الأندلس سعدا وولده أبا الحسن وما وقع هما، وأرجف بذلك في تلك البلاد، ولما بلغ أبو الحسن ذلك، بعث باستقدام أبيه من الحصن الذي كان به.

ولما خرج الأب توجه إلى مدينة ألمرية فأقام بها، ولم يعارضه ولده في ذلك، بل بعث إليه فطلب رضاه والاعتذار إليه، وأنه الملك وهو في معنى وزيره ونحو ذلك من الكلمات، وكان بلرية القائد محمد بن سيلهم فقام بأمر المستعين بالله سعد هذا أتم القيام وخلعه، ولم يزل بالمرية كالتصافي مع ولده حتى مات بها في آخر السنة هذه على ما بلغني.

شهر جمادى الأولى، انشغال صاحب قشتالة بثورة الفرنج (867هـ)

وفيه، أعني هذا الشهر ثار بعض ملوك الفرنج بصاحب قشتالة؛ فأشغلهم الله تعالى عن المسلمين وما كان قصده، وردّ الله تعالى كيده في نحره حتى بعث يلتمس الصلح بينه وبين المسلمين من أهل الأندلس، واتفق الحال على عقد الصلح بينه وبينهم في هذه السنة إلى مدة خمسة سنين، وحصل لبعض الناس بل لعامة أهل الأندلس بعض الطمأنينة، وأمنوا شرّ صاحب قشتالة.

استيلاء الفرنج على حصن لوشا (867هـ)

وفيه أخذ الفرنج في أثناء التكلم في الصلح قبل أن يعقد حصنا للمسلمين بالأندلس، وكنت أعرف اسمه وإنما أنسيته الآن، وأظنه حصن لوشا، وما حررت ذلك إلى الآن لبعد العهد بملك البلاد.

شهر رجب، رعب الفرنج من السلطان العثماني

وفيه استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفيه في هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد تهايا وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب لإبادتهم، وزادت هذه الإشاعة، وكثرت في هذا الشهر بكثير من بلاد المغرب وبلاد الكفار حتى بلغني بعد

ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان، وحتى النائيين بعد كبير عن بلاد ابن عثمان.

شهر ربيع الآخر، السفر في البحر إلى الأندلس (869هـ):  
وفيه، في يوم نصفه، سافرت في البحر الملح إلى البلاد الأندلس في مركب كبير للجنوين مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان ووهران.  
دخول مالقة (869هـ):

وفيه، في يوم الجمعة ثالث عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس فزلنا بها، واجتمعت بها بالشيخ العالم، الإمام، المهام، سيدي أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني، شيخ الأندلس وعالمها، وقاضي الجماعة بغرناطة، بل عالم المغرب في وقته، فأنس بنا، وسمعا الكثير من فوائده. واجتمعت أيضا بالشيخ العالم، الفاضل، سيدي أبو عبد الله محمد بن الرعة قاضي مالقة وخطيبها. قصبة مالقة:

وفيه- أعني هذا اليوم- الخميس تاسع عشرينه- صعدت بمالقة إلى قصبتها، وهي السلطنة وبها دار الإمارة، وكانت حينئذ خالية من السكان لأنها لم يكن بها عاملا حينئذ، فرأيها قصبة هائلة، وبها الآثار العظيمة، وهي من تجديد السلطان الكبير أبو الحسن المريني ملك المغرب الذي ملك المغرب جميعه وملك الأندلس، الملقب بالنصور.  
وصف غرناطة (869هـ)

واجترنا في الغد على الطريق لجهة غرناطة، فدخلناها في اليوم الثاني صبيحة النهار، وكان ذلك في أواخر هذا الشهر، ورأيت غرناطة، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة من أعظم بلاد الأندلس، وهي قاعدة ملك الإسلام بالأندلس، وتحت السلطنة بها، غريبة الوضع حسنة الأبنية، ظريفة، أنيقة، بديعة الوضع، بها سائر أرباب الصنائع، وهي كدمشق الشام، وبها المياه الجارية والبساتين الأجنة والكروم، وهي مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء وأرباب الفنون والعمالات، وبها بقايا الناس والآثار العظيمة، وأمكنة الزهدة، وهي في الجند تقدير دمشق، لكنها محشوة حشواً، وأهلها من خيار أهل البلاد وأشجع الناس، يقال إن بها ثمانين ألف رام بقوس الجوخ. ومن كانت العامة من أهل غرناطة معه من ملوك راج أمره، ومن شاعوا سلطنته أبقره، ومن أبوه أخرجوه.

وبها الطريف والآداب الغريبة، وباجملة فهي من أعظم بلاد المغرب وأنزهها، لقيت بها جماعة من العلماء والفضلاء، منهم شيخنا، سيدنا ومولانا قاضي الجماعة بها، الشيخ الإمام، العالم

العلامة، أبي عبد الله محمد ابن منظور، إنسان من كبار أهل العلم والفضل الغزير، له نورة وحسن سم، وسكون زائد ووقار، ودين وخير وأدب وحشمة وورع، وعليه حضرت عنده غير ما مرة، وسمعت الكثير من فرائده، كثر الله في الإسلام من مثله، وقد بلغني أنه موجود إلى الآن في هذا الزمان، وهو باق على قضائه ومنصبه لدينه وعفته وحسن سيرته، وتحززه وشكره في إنصافه وقضائه بالحق والعدل، حفظه الله تعالى وأبقاه، وبعين عنايته رعاه.

وفيه، في ثاني عشر منه، خرجت إلى جهة أجنة غرناطة وبساتينها، فرأيت العجب من كثرة ذلك وما بها من الفواكه والخيرات.

خرجنا للتزه في كروم غرناطة أيضا من جهتها الأخرى غير جهة الأجنة فرأينا فيها أمرا مهولا من الأشجار من غنب وتين.

وفيه- في يوم الجمعة تاسع عشر منه- طلعت إلى صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن، وهو بحصنه دار الإمارة التي يقال لها غرناطة، فأنس إلي، وكان بعث يطلبني إليه ليسألني عن أخبار صاحب تلمسان وصاحب تونس، فذكرت له ما حضرنى من ذلك، ثم أخذ يسألني عن الشام وأحواله، وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب بما أجيبه، ثم خرج لي أمره بأن لا يأخذ مني شيء مما يلزم التجار من المغارم، وأكرمني إلى الغاية.

وبالجمل، فإن غرناطة هذه وجرعها من أجل مدن الأقاليم وأظرفها، لولا قرب الكفار من تلك الديار وأخذهم غالب تلك الأقطار الأندلسية والكثير من مدن الإسلام التي كانت مشهورة، لاسيما في أيام بني أمية بها، مثل بلنسية وقرطبة وطليطلة وشذونة وجيان، والحصون للبيعة كشاطبة وغير ذلك من بلاد كثيرة كانت للإسلام صارت للفرنج الآن، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

شهر رجب، ركوب البحر إلى وهران:

وفيها استهل رجب بالاثنتين، ففيه، في هذا اليوم، ركبنا البحر عاندين إلى وهران فدخلتها في رابع رجب هذا، وعزمت على السفر في البحر في المركب التي ركبنا بها والتوجه فيها إلى جهة تونس...".

لقد تزامنت رحلة عبد الباسط الظاهري إلى أقطار الغرب الإسلامي مع الانتصارات التي حققها السلطان محمد الفاتح بفتح بيزنطة واتخاذها عاصمة للإمبراطورية العثمانية، ثم الانطلاق منها للقيام بالفتوحات في أوروبا الشرقية في الوقت التي تصاعدت هجومات الأسبان والبرتغال لاحتلال ما تبقى للعرب والمسلمين بالأندلس، وللتركز في قواعد هامة بشمال إفريقيا...

فهل كان عبد الباسط الظاهري مكلفا بجمع معلومات عن أقطار الغرب الإسلامي المهددة بالغزو المسيحي الإسباني والبرتغالي؟  
"ورد الخبر إلى تلمسان بأن صاحب غرناطة قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده... وفيه أعني هذا الشهر أخذ الفرنج البرطقال البلد العظيم المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتة الكائنة بين الأب وابنه... وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن ألفنس صاحب قشتالة وإشبيلية وقرطبة قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها للخلاف بين الأب وابنه..."<sup>11</sup>.

وعندما زار عبد الباسط الظاهري صاحب غرناطة السلطان أبي الحسن هل بشره بنجدة السلطان العثماني لأقطار الغرب الإسلامي؟ سألتني عن الشام وأحواله وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب مما أجيبه...".  
و"استهل شهر رجب (869هـ/1466م) بالأحد، وفي هذا اليوم أشيع بتلمسان أن ابن عثمان ملك الروم قد قُيَا وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب وبلاد الكفر حتى بلغني بعد ذلك أن هذه الإشاعة دخل رعبها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد ابن عثمان، حتى النائيين يبعد كبير عن بلاد ابن عثمان..."<sup>12</sup>.

#### المراجع:

- 1- تلمسان: سلسلة الفن والثقافة، وزارة الأبناء والثقافة الجزائرية، مدريد، دجبر 1971، ص. 12.
- 2- المصدر نفسه، ص. 18.
- 3- المصدر نفسه، ص. 18.
- 4- المصدر نفسه، ص. 18.
- 5- المصدر نفسه، ص. 18.
- 6- المصدر نفسه، ص. 40.
- 7- المصدر نفسه، ص. 40.
- 8- المصدر نفسه، ص. 52.
- 9- مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال مخطوطه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، مجلة "التاريخ العربي"، العدد السابع عشر، شتاء 2001، صص. 111-146.
- 10- المصدر نفسه.
- 11- المصدر نفسه.
- 12- المصدر نفسه.

علماء تلمسان من خلال المصادر الشرقية:  
الديباج لابن فرحون وتوشيح للقرافي نموذجاً.

~~~~~ أ.د. جمعة شيخة\*

تعتبر مدينة تلمسان (بكسر التاء وفتحها) من أعرق مدن المغرب الأوسط<sup>1</sup>، وتقع في مفترق طريقين : الأول يربط بين تونس شرقاً ووجدة غرباً وهو أحد الطرق البرية للحج، والثاني هو الطريق الرابط بين ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً (مرقا حنين ورشقون Hunayn, Rachgoun) والصحراء جنوباً (مدينتا تيزل وسجلماسة) وهو طريق تجاري (تجارة الذهب والعاج والعبيد)<sup>2</sup>.

وقد تكون تسمية تلمسان متأية من هذا الموقع الجغرافي والاستراتيجي للمدينة : ففي لغة زناتة هناك "تلم" ومعناه اجتماع، و"سان" ومعناه اثنان<sup>3</sup>.

خضعت تلمسان للمرابطين بعد أن فتحها يوسف بن تاشفين 474هـ/1081م وأصبحت في عهدهم مركزاً علمياً نوه به البكري قائلاً : "لم تزل تلمسان داراً للعلماء والحدثين وحلة الرأي على مذهب مالك"<sup>4</sup>، ثم خضعت للموحدين بعد سقوط دولة المرابطين وحصنها عبد المؤمن بن علي بسور سنة 540هـ/1145م، وأكد أن التراسات الفقهية على المذهب المالكي أصابها بمدينة تلمسان من الركود ما أصاب بقية الجهات في العدة الإفريقية في عهد الخلافة الموحدية.

وأصبحت تلمسان عاصمة للدولة بني عبد الواد بعد سقوط الدولة الموحدية وتفتت وحدة الشمال الإفريقي منذ منتصف القرن 7هـ/13م<sup>5</sup>، وتعرضت هذه الدولة طيلة أكثر من ثلاثة قرون إلى فتن داخلية قبلية وإلى أخطار خارجية : في بدايتها من فاس المرينية وتونس الحفصية

\* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- جامعة تونس، ومدير مجلة دراسات أندلسية- تونس.

وفي نهايتها من الإسبان والأتراك. لكن كل ذلك لم يمنع من فترات استقرار مع أمراء مشجعين للعلم والعلماء استعادت فيها المدينة شيئاً فشيئاً دورها العلمي، وإن لم يكن ذلك مقنعاً للعبدي عندما زار تلمسان في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م؛ فلم يجد فيها "من ينتمي إلى العلم ولا من ينتسب إليه بسبب"، وسوف لن يكون لهذه النظرة التشاؤمية من مبرر خلال القرن 8هـ/14م، وما بعده فقد أصبحت تلمسان مركزاً علمياً لا يستهان به ينافس غرناطة في الأندلس وفاس بالمغرب وتونس بإفريقية.

وقد حفظت لنا كتب التراجم والطبقات، ومصنفات الفهارس والبرامج بما فيها من تراجم لعلماء تلمسان صورة حية عن هذه الحياة العلمية بها. ولئن كانت الترجمة لعلماء تلمسان في المصادر المغربية أمراً متوقّعا ومألوفاً، فقد ارتأينا أن ننظر في مصدرين مشرقين للتعرف على مدى حضور علماء تلمسان في المشرق العربي ومدى اطلاع المشاركة على الحياة الفكرية والعلمية بها.

وليس المقصود من هذا البحث تعداد علماء تلمسان فهم أكثر. ولكن هدفنا هو أن نعرف على مدى الحركة الفكرية التي قامت بتلمسان، في المشرق العربي من خلال كتاب "الديباج" لابن فرحون (ولد حوالي 729هـ/1328م، وتوفي سنة 799هـ/1397م)<sup>7</sup> وذيله "توشيح الديباج" للقراي (ت 1008هـ/1600م). ويعتبر المصنفان مصلاً ثراً في ما يتعلق بالحركة الفكرية- والدينية منها خاصة- في العديتين الأندلسية والإفريقية منذ القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م.

ومؤلف الأصل مشرقي من المدينة وهو قاضيه برهان الدين إبراهيم بن علي ابن محمد بن محمد بن أبي القاسم محمد بن فرحون البعمري المدني إقامة والأندلسي الجياني أصلاً والمالكي مذهباً (ت 799هـ/1397م).

أما مؤلف الذيل فهو شيخ المالكية في عصره القاضي بلر الدين محمد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يوسف بن عبد الرحمن القراي (939هـ/1533م-1008هـ/1600م) المصري أصلاً وإقامة والقاهري دراسة ووفاء<sup>8</sup>.



ولئن تخلينا عن الدليل الثاني للدياج وهو نيل الابتهاج للتبكي<sup>9</sup> فلأن مؤلفه من المغرب الإسلامي جنوب الصحراء، ولأن غايته هو تحسس موقف المشاركة من المغاربة في موضوع هام يحقّ بتمسك المغاربة بالمنهج المالكي باعتباره منها رسمياً وشعياً.

ويبدو المنهج المالكي من خلال هذين المصدرين<sup>10</sup> لا فقط موحدًا للمغرب العربي والأندلس وجنوب الصحراء، وإنما هو رابط كذلك هذه الرقعة الجغرافية الكبيرة بالمركيز الأساسيين للمنهج وهما الحجاز (المدينة) ومصر (القاهرة). وكان المغاربة بعد فتح المغرب الأدنى (مغربية = تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المغرب) والأندلس يشدون الرحال إليهما للأخذ عن مالك في المدينة ثم عن كبار تلامذته في مصر.

وقد مرّ المنهج المالكي بفترة ازدهار بالمغرب والأندلس إلى عهد المرابطين<sup>11</sup>، أعقبتها فترة عصية بعد سقوط دولة الملتمين وقيام الخلافة الموحّدية<sup>12</sup> على يد المهدي بن تومرت. فقد استهدف المنهج إلى حدّ أن النصور<sup>13</sup> أمر الموحّدين بإحراق كتب المنهج المالكي في كافة أنحاء البلاد مثل ملوثة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي والواضحة لابن حبيب. وتحوّلت التّراسات الإسلامية من علم الفروع إلى علم الأصول أي من علم يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها والحدود والقضايا وبعبارة أخرى من دراسة الجانب العملي والتّنبوي من الشريعة إلى علم يقوم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ودراسة التصوّص الشرعيّة والأدلة العقلية وتفصيل العقائد وأصول الفقه وباختصار مصادر الشريعة وكلّ ما يتعلّق بها<sup>14</sup>.

ويبدو أن الأمر قد تغيّر كلياً بعد سقوط التّولة الموحّدية فقد عادت وازدهرت الحركة الفكرية والفقهية على المنهج المالكي في حواضر التّول التي قامت على أنقاض دولة الموحّدين كقاس عاصمة بني مرين وتلمسان حاضرة بني عبد الواد وتونس عاصمة الحفصيين وكذلك غرناطة حاضرة بني الأحمر. وهكذا بدا الشّرق يرنو إلى المغرب ليطلّع على هذه الحركة الفكرية الجديدة بعد أن تمّ إحياء المنهج المالكي. ولم يكتف المشاركة بملاقة بعض علماء المغرب عند أدائهم لفريضة الحجّ، وإنما أصبح هناك ميل لمزيد معرفة أقطاب المنهج من خلال سيرة علماء المغرب والأندلس، فقاموا بالترجمة لهم في موسوعاتهم وكتب الطبقات لديهم. وقد مثل علماء

تلمسان قسماً هاماً من وقع الاعتناء بهم والترجمة لهم في المصادر الشرقية. ولنا في "الديّاج" وذيله "توشيح الديّاج" خير مثال:

I- الديّاج: عنوانه كاملاً هو "الديّاج المُنْهَب (أو المُنْهَب) <sup>15</sup> في أعيان علماء المُنْهَب. وهو في تراجم المالكية رتبه ابن فرحون على حروف المعجم بالتسبة إلى الاسم الأوّل. واعترف بأنّ هذا الترتيب لا يخلو من شوائب <sup>16</sup>، واقتصر فيه على المشاهير من لهم تأليف معروفة <sup>17</sup>، ولئن ذكر المؤلّف أنّ كتابه اشتمل على أزيد من 630 ترجمة <sup>18</sup> فإنّه يمكن بالاعتماد على طبعة 1996م ضبط عدد هذه التراجم بصفة دقيقة ففيها- حسب الفهرس- 632 ترجمة <sup>19</sup>. منها أربع لعلماء تلمسان نرتبهم ترتيباً أبجدياً في الجدول التالي:

1- إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري الوقشي أصلاً المعروف بالتلمساني أبو إسحاق <sup>20</sup>: فقيه وأديب وشاعر. تخصّص في الفرائض وله أرجوزة فيه تعرف بالتلمسانية <sup>21</sup>، اهتمّ بها كثير من العلماء وشرحوها كأبي الحسن علي بن يحيى العصوني الغيلي وأبو يوسف يعقوب بن عبد الله السيتاني (أو السّناي) وعلي بن محمد القلصادي <sup>22</sup>، وله كذلك أرجوزة في السّير وأمداح النبي. ولد سنة 609هـ/1212م، وتوفي 699هـ/1299م.

2- سعيد بن محمد العقباي التلمساني التجيبي أبو عثمان <sup>23</sup>: فقيه قاض له شرح الجمل للخونجي في المنطق، توفي 811هـ/1408م.

3- عبد الرّحمان بن الإمام، أبو زيد <sup>24</sup>: شيخ المالكية في عصره ينتمي إلى عائلة مشهورة بتلمسان، له تصانيف عدّة في فنون مختلفة توفي 743هـ/1342م.

4- محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي أبو عبد الله شمس الدّين <sup>25</sup> وهو المعروف بابن مرزوق الجذّ. أخذ عن ابني الإمام وقاضي الجماعة أبي عبد الله بن هديّة والخطيب أبي محمد الجاسي، له شرح العمدة في الحديث وشرح الشفاء للقاضي عياض. ولد سنة 710هـ/1310م، وتوفي بعد 780هـ/1378م بالقاهرة.

II- التوشيح وعنوانه كاملاً: "توشيح الديّاج وحليّة الابتهاج" <sup>26</sup>. ذكر القرافي أنّه أراد أن يكون التوشيح فرعاً للديّاج "بحيث يكون الفرع كالأصل يانعا وللمحاسن جامعاً" <sup>27</sup>. وهو يشير بذلك إلى أنّه ذيل للديّاج، ورتبه كما فعل ابن فرحون على حروف المعجم <sup>28</sup>، واشترط مثله الاختصار على الترجمة للمشهورين من وصلته مؤلفاتهم. "وذيل كلّ حرف بتسميم قاصداً

الشمول والتعميم للتبسيط على من أغفله صاحب الأصل من أهل المائة الثامنة مضيفا إليه من سكت عنه من معاصريه من أهل المائة الثامنة... خاتما هذا الترصيف والبناء، يذكر من اشتهر بالكفي<sup>29</sup>.

وتمتد تراجم التوشيح "من أواخر القرن الثامن إلى أثناء هذا القرن العاشر"<sup>30</sup> وفيه 327 ترجمة منها 268 في الأصل و59 مضافة. منها ترجمة لعلماء تلمسان سواء أكانوا ممن ترجم لهم لؤلف أو ذكروا عرضا، نرتبهم ترتيبا أبجديا في الجدول التالي:

1- إبراهيم بن حكم السكوني الكتاني السلوي الشهير بأبيه (ابن حكم)، أبو القاسم<sup>31</sup>: اعتبر من علماء تلمسان رغم أنه وفد إليها وقتل بها سنة 737هـ/1337م.

2- إبراهيم بن عبد الرحمن التلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام<sup>32</sup>، من بيت شهير. يذكره صاحب التوشيح باسم آخر محمد بن يحيى. رحل إلى المشرق وحج<sup>33</sup> "تراحم عليه الناس بدمشق"<sup>34</sup> حين علموا فضيلته وأحبوه<sup>35</sup>، وكانت شهرته بالتدريس أكثر منها بالتأليف. وكان يجمع بين الفنون العقلية والتقليدية. هذه الشهرة بابن الإمام يشترك فيها مع علميين من أعلام تلمسان هما أبو زيد عبد الرحمن ابن الإمام وأبو موسى عيسى ابن الإمام (والتوشيح عدد 145 ص 144).

3- أحمد بن البنا أبو العباس من علماء تلمسان<sup>36</sup>، أخذ عنه المقرئ محمد بن محمد بن أحمد المتوفى 771هـ/1370م<sup>37</sup>، ذكره صاحب التوشيح في ترجمة المقرئ.

4- أحمد بن حاتم البسطي<sup>38</sup> أصيل بسطة بالأندلس، نزىل القاهرة من شيوخه في تلمسان: يحيى بن أحمد بن القاسم العقباني (أو ابن أبي القاسم العقباني)<sup>39</sup> ومحمد ابن الجلاب<sup>40</sup>. ولد البسطي 851هـ/1447م.

5- أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني<sup>41</sup>: قاضي الجماعة بتلمسان، ذكره حفيده محمد بن أبي مرزوق في شرحه لردة البوصيري توفي سنة 768هـ/1316م.

6- أحمد بن علي البلوي أبو جعفر<sup>42</sup>: فقيه ناظم ناثر. توفي في حدود 830هـ/1427م.

7- أحمد بن محمد بن زكري أبو العباس<sup>43</sup>: جمع بين الفقه والإفتاء والأدب. نقل عنه الونشريسي في المعيار المغرب<sup>44</sup> بعض المسائل.

8- أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بابن زاغو، أبو العباس. توفي 845/1441م<sup>45</sup>.

- 9- أحمد بن محمد بن مرزوق<sup>46</sup>: هو والد محمد بن مرزوق الحفيد: فقيه تلمساني، توفي نحو 841هـ/1437م.
- 10- أحمد بن محمد التهرومي التلمساني<sup>47</sup>: عالم بالمنطق. كان حياً بعد 830هـ/1427م.
- 11- أحمد بن يحيى بن عبد الله التلمساني الشريف قاضي الجماعة<sup>48</sup>، وجدّه هو شارح كتاب "الجلل" للخونجي في المنطق.
- 12- شرف الدين التلمساني: ذكره صاحب التوشيح عرضاً<sup>49</sup> عندما استظهر أبو زيد بن الإمام بنصّ له.
- 13- العباس (أبو) بن زاغو: الإمام الصوفي أخذ عنه القلصادي بتلمسان<sup>50</sup>.
- 14- عبد الرحمن بن أبي موسى المشدالي أبو زيد<sup>51</sup>.
- 15- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبو زيد بن الإمام (ت 743هـ/1342م)<sup>52</sup>.  
 خصّص صاحب التوشيح ترجمة واحدة له ولأخيه أبي موسى: وهذا الجمع نادراً ما نجده في كتب التراجم. هذا وقد عُرف مع أخيه أبي موسى عيسى بن محمد بن عبد الله بعلمي تلمسان. درس مع أخيه أبي موسى وحجّاً وكانت لهما شهرة بالمشرق. ناظراً تقي الدين بن تيمية شيخ الإسلام (ت 728هـ/1328م) وظهراً عليه. وكان ذلك من أسباب محنته.
- 16- عبد الله بن محمد الشريف العالم أبي عبد الله التلمساني<sup>53</sup>، أبو محمد من أكابر علماء تلمسان ومن أكابر البيوتات فيها (انظر فهرس التوشيح ص 295)، درس عليه ابن عاصم (ت 829هـ/1426م) صاحب الأراجيز في الأصول والفرائض والقراءات، توفي أبو محمد سنة 793هـ/1390م<sup>54</sup>.
- 17- عبد الله بن محمد بن موسى بن معطى المعروف بالعلبوسي التلمساني، أبو محمد (ت 849هـ/1446م)<sup>55</sup>: الشيخ الفقيه الحافظ. من تلاميذه محمد بن غازي. تولّى الفتيا والإمامة بجامع القرويين بفاس<sup>56</sup>.
- 18- عبد الله المنجاصي (أو المخاصي)<sup>57</sup>: ذكره صاحب التوشيح عرضاً ضمن شيوخ محمد بن محمد المقرّي (ت 771هـ/1370م)<sup>58</sup>.
- 19- عبد المهين الحضرمي أبو محمد: ذكر عرضاً ضمن شيوخ المقرّي<sup>59</sup>.

- 20- علي بن أحمد بن داود البلوي الأندلسي نزيل تلمسان : تَمَيَّز في الفقه والعريّة. درّس ببلده توفّي الإمامة بمجامع غرناطة. واصل التدريس بتلمسان. كان حيّا سنة 866هـ/ 1462م<sup>60</sup>.
- 21- علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي القلصادي<sup>61</sup> هو من الوافدين على تلمسان ودرس على كبار علمائها كأبي الفضل قاسم العقباني والإمام ابن مرزوق الحفيد وأبي العباس بن زاغو. شرحان للتلمسانية الأكبر والأصغر بعنوان "الغرة التونسية في شرح الأرجوزة التلمسانية"<sup>62</sup>.
- 22- عمران بن موسى بن يوسف المشدالي<sup>63</sup>، أبو موسى : أصله من بجاية، انتقل إلى الجزائر ثم سقر بتلمسان . فدرس فيها الحديث والفقه والأصليين<sup>64</sup> والتحو والمنطق والجدل والفرائض. توفّي عمران 745هـ/ 1344م<sup>65</sup>.
- 23- عيسى بن محمد بن عبد الله أبو موسى<sup>66</sup>.
- 24- قاسم بن القاضي أبي عثمان العقباني أبو الفضل<sup>67</sup>: فقيه أصولي مفسّر، من شيوخ القلصادي، درس عليه التفسير والحديث والفقه والفرائض والهندسة والنحو والمعاني والبيان<sup>68</sup>، توفّي قاسم في سنة 854هـ/ 1450م.
- 25- محمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله الآبلي العبدري التلمساني<sup>69</sup>. ليس هو صاحب الرحلة المعروفة بالرحلة المغربية، درس بتلمسان على أبي الحسن التتيسي<sup>70</sup> وابني الإمام. رحل إلى المشرق ورجع إلى تلمسان، وهو أحد من درس عليهم ابن خلدون. توفّي 757هـ/ 1356م.
- 26- محمد (الحفيد) بن أحمد (الأب) بن محمد (الجد) بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله (حفيد بن مرزوق)، وقد يختصر بابن مرزوق الحفيد ولد سنة 766هـ/ 1364م. حجّ سنة 790هـ/ 1388م وسنة 819هـ/ 1417م. عالم تلمسان الموسوعي المعرفة. له عدة تأليف من أشهرها شرحه للبردة وشرح الشقراطسية . توفّي بتلمسان 842هـ/ 1439م<sup>71</sup>.
- 27- محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي: قلم مكة وكان حيّا سنة 871هـ/ 1467م: درّس الفقه وأصوله والعريّة والمنطق<sup>72</sup>.
- 28- محمد بن الجلاب: ذكر عرضا ضمن شيوخ ابن حاتم، وهو فقيه تلمساني توفّي 875هـ/ 1470م<sup>73</sup>.
- 29- محمد الزبيدي ، أبو عبد الله ذكر عرضا<sup>74</sup> ضمن شيوخ المقرئ<sup>75</sup>.

- 30- محمد السبطي (أو السبطي) أبو عبد الله<sup>76</sup>: ذكر عرضاً ضمن شيخ المقرئ<sup>77</sup>.
- 31- محمد بن شاطر أبو عبد الله: من شيخ المقرئ. ذكره صاحب التوشيح عرضاً<sup>78</sup>.
- 32- محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني ثم التونسي، أبو عبد الله عرف بابن الرصاع. له عدة مؤلفات: منها في شرح الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبي (صلعم). واختصر شرح البخاري لابن حجر كما أفرد الشواهد القرآنية من مغني ابن هشام ورتبها. توفي بالقبروان 894هـ/1488م<sup>79</sup>.
- 33- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل أبو عبد الله: وصفه الونشريسي في المعيار العرب بالفيقيه الحافظ. توفي 899هـ/1494م<sup>80</sup>.
- 34- محمد بن علي بن أبي شرف الحسني المعروف بالشريف التلمساني. أخذ عن ابن غازي (ت 919هـ/1513م) وعن أبي العباس الدقوني (ت 921هـ/1515م). شرح الشفاء للقاضي عياض. توفي 917هـ/1512م<sup>81</sup>.
- 35- محمد بن عمر بن الفتح التلمساني أبو عبد الله<sup>82</sup>: ليس هو ابن فتح الغرناطي<sup>83</sup>: عالم ورع خرج من تلمسان إلى فاس لأنه اختلس النظر إلى امرأة جميلة. أذاع في فاس مختصر خليل. توفي 818هـ/1415م.
- 36- محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي أبو الفضل المغربي<sup>84</sup> (821هـ/1417م - 865هـ/1461م). وهو من القادمين إلى تلمسان سنة 840هـ/1437م. اتصل بابن مرزوق الحفيد وجادله، شرح الجمل للخونجي. وكان أبوه المعروف بابن أبي القاسم من الزهاد<sup>85</sup>.
- 37- محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن أبو عبد الله المعروف بالمقرئ، أول من استقر من عائلة المقرئ بتلمسان هو جدّ جدّه "عبد الرحمن". ولد محمد بتلمسان ودرس على أغلب علمائها. توفي 771هـ/1370م<sup>86</sup>.
- 38- محمد بن يحيى التلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام. ذكره صاحب التوشيح باسم آخر هو إبراهيم بن عبد الرحمن<sup>87</sup>. من بيت شهير. وهذه الشهرة يشترك فيها مع علمين من أعلام تلمسان وهما عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبو زيد بن الإمام، وعيسى بن محمد بن عبد الله أبو موسى بن الإمام.

يحيى بن أحمد بن القاسم (أو ابن أبي القاسم) العقباني: قاضي الجماعة بتلمسان. ذكر في هوشع عرضاً<sup>88</sup> ضمن شيوخ ابن حاتم<sup>89</sup>. توفي 880هـ/1475م.

يحيى بن محمد التلمساني: فقيه لغوي، رحل إلى الشرق وحج. سمع من أبي عبد الله بن مرزوق، توفي سنة 809هـ/1407م<sup>90</sup>.

وحسب هذين الجدولين يتسبب علماء تلمسان بالترجمة الأولى إلى مدينتهم فيعرفون بتلمساني أو ابن التلمساني<sup>91</sup> أو العبادي<sup>92</sup>، وقد يتسبون إلى بيوتات مشهورة كبيت ابن مرزوق<sup>93</sup> وابن الإمام<sup>94</sup> والمشدلي<sup>95</sup> والشريف والعقباني.

ومن حيث الإقامة والهجرة إليها أو منها: هناك علماء أصيلو تلمسان ولادة ونشأة وقامة ووفاة، ومنهم من ولد فيها وتعلم، ثم انتقل إلى مكان آخر سواء في المغرب الأقصى، (مصر والرباط) أو في المغرب الأدنى (تونس والقيروان)، أو في المشرق (القاهرة ودمشق، مكة ولبنان)، ومنهم من دخلها ودرس فيها ثم قفل راجعاً إلى مدينة أخرى، ومنهم من اضطر إلى هجرة إليها وخاصة من العدو الأندلسية بعد تكالب العدو على إمارة بني الأحمر.

ومن حيث الاختصاص كان علماء تلمسان يعرفون بالفقيه والفرضي<sup>96</sup> واخذت ولنطقي والأصولي والعدي<sup>97</sup>. ومن حيث الخطط تولّى بعضهم الإمامة أو الخطابة بالجموع الكبرى كالمسجد الكبير ومسجد سيدي بلحسن (الآن متحف الفنون الإسلامية) ومسجد قصورة ومسجد أبي الحسن المريني على ضريح أبي مدين. ومنهم من تولّى القضاء<sup>98</sup> أو الافتاء<sup>99</sup> وقد يجمع بينهما، ومنهم من لبس الخرقة<sup>100</sup>. وكان أغلبهم من المدرّسين والعلماء المصنّفين: والقاسم المشترك بينهم جميعاً الورع والتقوى. ولم يكن بعضهم بمنأى عن السياسة فاكثروا بنيرانها واضطروا إلى مغادرة تلمسان نهائياً (كابن مرزوق الجدل).

وكان نشاط هؤلاء العلماء في نطاق المذهب المالكي حسب المنهج التقليدي الذي سطر نهائياً بالمغرب العربي بجميع حواضره الكبرى. وهو منهج يقوم على التلقين تدرّساً وعلى الاختصار تأليفاً، قال ابن خلدون "إن اختصار الكتب في كلّ فنّ والتقيّد بالألفاظ على طريقة المضد<sup>101</sup> وغيره، من محدثات المتأخّرين، والعلم وراء ذلك كلّهُ"<sup>102</sup>. لهذا لم يكن في هذا النشاط العلمي تجديد ملفت للنظر واقتصر علماء تلمسان على شرح بعض الأمّهات واختصارها أو

نظمها ليسهل فهمها وحفظها. وتركز هذا التشاط على القرآن وقرآته وعلى الحديث وروايته والفقه وفروعه.

ولئن كان الاهتمام أساسا بالنقول من العلوم<sup>103</sup> فإن التشاط في المعقول منها لم ينقطع وإن قلّ كالمنطق والأصول وعلم الكلام<sup>104</sup>، بل إن بعض العلماء في تلمسان كان لهم اهتمام بالطب والهندسة والحساب والجبر، والهيئة والنبات.

ولم يكن الأدب بمنأى عن شواغل علماء تلمسان، فقد كان للشعر وملحه<sup>105</sup> واللغة وقضاياها<sup>106</sup> والبلاغة وأقسامها مكاناً في مجالسهم ومناظرهم. وأثناء دروسهم<sup>107</sup>. ولم يكن الحوار مقتصرًا على ما كان يدور داخل سورها وإنما تعداه إلى حوار غير مباشر بين علماء تلمسان وعلماء مدن أخرى بالعدوتين. وخير مثال على ذلك كتابا ابن مرزوق الجذّ: "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة" وهو أجوبة على مسائل في الفقه والتفسير وردت عليه من عالم قفصة أبي يحيى بن عقيبة، و"المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج" أجاب فيه قاضي الجماعة بغرناطة في مسائل لُحوية ومنطقية. وبصفة عامة كانت تلمسان مقراً للفتوى فكثيراً ما تُوجّه أسئلة في مختلف مجالات الحياة الدينية والدنيوية إلى علمائها من العدوتين وكان لإجاباتهم صدى في كتب الفتاوى كالمعيار للونشريسي<sup>108</sup>.

واشتهرت تلمسان ببعض الفروع الفقهية كالفرائض ولا أدلّ على ذلك من شهرة التلمسانية: وهي رجز في الفرائض نال شهرة كبيرة في كامل ربوع العدوتين وخاصة العدوة الإفريقية، وقام كثير من علمائها بشرحها، وفي المكتبة الوطنية بتونس من نسخ الأرجوزة وخاصة شرحها، ما يدلّ على قيمتها وعناية العلماء بها.

وزيادة على الدروس التي يلقيها الشيوخ على من يجلس إليهم للأخذ عنهم ترك علماء تلمسان كثيراً من المصنّفات. والقائمة قد تطول إذا أردنا أن نذكر أغلب هذه المؤلفات، لذلك سنقتصر على ذكر عينة منها تعكس صورة واضحة عن اهتمامات علماء تلمسان تدوينا وتأليفاً.

1- ففي التفسير هناك شرح الفاتحة لابن زاغو (ت 845هـ/1441م) وتفسير سورتي الأنعام والفتح للعقباني (التوشيح ص 170).



- 2- وفي الحديث لابن مرزوق الحفيد: المتجر الرّيح والمسعى الرّجيج والمحب الفسيح في شرح الجمع الصحيح، والروضة (رجز ب 1700 بيت في الحديث) لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 171، 172)، وشرح العملة في الحديث خمس مجلّدات لابن مرزوق الجّد (الدياج ص 396).
- 3- وفي الفقه: إزالة الحاجب عن فروغ ابن الحاجب لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح مختصر خليل لابن زاغو (التوشيح ص 62)، والمقنع الشافى: أرجوزة في المقات<sup>100</sup> لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح التلمسانية لابن زاغو في الفرائض (التوشيح ص 62).
- 4- في المنطق : شرح "الجمل للحوّنجي" للعقباني (الدياج ص 204).
- 5- وفي السّيرة : إظهار صدق المودة في شرح البردة لابن مرزوق الحفيد، اختصره في الاستيعاب في البردة من المعاني والبيان والبديع والإعراب، وله : الآيات البيّنات في وجوه دلالة المعجزات (التوشيح ص 171-172). ولابن مرزوق الجّد شرح الشفاء للقاضي عياض. (الدياج ط 1996 عدد 160)، وفي مدح الرّسول مولدية، وأمداح في الرّسول والصّحابة لابن مرزوق الحفيد (التوشيح : عدد 170).
- 6- وفي الصّوف : ذيل على الإحياء لابن زاغو (التوشيح ص 62)، واليقين في شرح حديث نولياء الله المتقين لابن مرزوق الحفيد: تكلم فيه على رجال المقامات كالتقاء والتّجاء والبدلاء (توشيح 172).
- 7- في التّحوي: كإيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 173).
- 8- في برنامج الشيوخ كبرنامج شيوخ ابن مرزوق الجّد (الدياج ط 1996 عدد 160).
- وهكذا تبلو مدينة تلمسان من خلال الدياج وتوشيح مدينة مغناطيسية جذبت إليها علماء من كافة مدن المغرب والأندلس. ولكنها لم تكن مغلقة بل مفتوحة فقد يّم كبار علمائها شطر وجوههم، كثيرا من مدن العلوتين ولم يكف بعضهم بذلك بل قصد المشرق للحجّ وطلب العلم ونال بعضهم في تلك الرّبوع من الشّهرة ما جعل حلقات دروسهم تفضّ بطلاب العلم في القاهرة ودمشق ومكّة والمدينة. فما دعا علماء المشرق إلى الاهتمام بهم والترجمة لهم في مصنفاتهم التي خصّصوها للمذهب المالكي باعتبارهم علماء بلغوا في تخصّصهم درجة التميّز فيه.

الملاحق: الملحق الأول: بنو مرزوق<sup>110</sup>

مرزوق (نهاية القرن 5هـ/11م)

أبو بكر نقيب زاوية أبي مدين

محمد I

محمد II (9-628/32-1231)

أحمد I

1340/741-1282/681

توفي بمكة

محمد IV الجد

يعرف بالرايس والجد

1379/781-1311/ 711

محمد III الخطيب

أول خطيب في جامع أبي مدين  
الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني

محمد V

أحمد II

محمد VI الحفيد 766هـ/1364م-842هـ/1438م

حفصة

محمد الثامن

ت 1512/918م

محمد VII الكفيف

824هـ/1421م-901هـ/1495م

أحمد III حفيد الحفيد

- مرزوق: هو أول من استقرّ بتلمسان من هذه العائلة في نهاية القرن 5هـ/11م أثناء الحكم المرابطي، وكان من رجال الدين وملّك الأرض، وأصله من جنوب إفريقية. نزلت عائلته إلى تلمسان عند الغزو الهلالي.

- أبوبكر: متطوِّع متحمّس لخدمة ضريح الصوفي الأندلسي أبو مَئِين في ضاحية تلمسان المعروفة بالعبّاد.

- محمد الثاني: ولد في سنة 620هـ/1291م ومات 681هـ/1282م ودفن بجوار القصر القديم بتلمسان.

- أحمد الأول: ولد سنة 681هـ/1282م، ودرس بفاس. كان من الزهاد. عاش محنة محاصرة أبي يعقوب المريني لتلمسان 685-706هـ/1286-1307م. رحل إلى المشرق وحجّ 717هـ/1317م، ثم استقرّ بمصر ومات بمكة 741هـ/1340م.

- محمد الثالث: أول خطيب في جامع بناه السلطان أبو الحسن المريني فوق ضريح أبي مَئِين سنة 710هـ/1310م-732هـ/1331م. والخطيب الثاني في هذا الجامع هو محمد الرابع.

- محمد الرابع: هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ويعرف بابن مرزوق الجدة: محدث وأديب وخطيب جامع أبي مَئِين (جامع العبّاد) ورجل سياسة. ولد بتلمسان سنة 710هـ/1-1310م، وتوفي في 781هـ/1379م، وبه كانت شهرة عائلة المرازقة. كان معاصرا لابن الخطيب وابن خلدون.

سافر مع والده أحمد I وهو في سنّ الثانية أو السابعة إلى المشرق. ودرس في مكة والمدينة والقدس والإسكندرية والقاهرة. رجع إلى تلمسان وتولّى الكتابة الخاصة لأبي الحسن المريني. ودخل في خضمّ الأحداث السياسيّة بالمغرب فسجن ثلاث مرّات، قرّر على إثرها وهو في تونس سنة 773هـ/1372م العودة إلى المشرق، وبقي بمصر إلى وفاته بالقاهرة سنة 842هـ/1438م (EI2 ج III ص 899).

- محمد السادس: يعرف بالخفيد ولد سنة 766هـ/1361م، وتوفي في 842هـ/1438م. وهو عالم المغرب في عصره بدون منازع وكما عرف بعلمه عرف بقواه.

- محمد السابع ولد 824هـ/1412م، وتوفي سنة 901هـ/1495م: يعرف بابن مرزوق الكفيف، محدث وخطيب.

- أحمد الثالث بن محمد السابع توفي بعد وفاة والده بقليل. وهو خطيب مشهور ويعرف بحفيد الحفيد.

- محمد الثامن بن حفصة بنت محمد السادس الحفيد توفي 918هـ/1512م.

الملحق الثاني:<sup>111</sup> نجد في ترجمة ابن حكم صورة للحياة الأدبية والفكرية بتلمسان في النصف الأول من القرن 8هـ/14م. من ذلك أنه لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن علي بن فرحون نزيل طيبة (المدينة) سأل ابن حكم عن معنى البيت (الوافر):

رَأَيْتُ قَمَرَ الزَّمَانِ فَأَذْكَرْتَنِي      لِيَالِي وَصَلْنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ  
كَلَانَا نَاطِرَ قَمَرًا وَلَكِنَّ      رَأَيْتُ بَعِينَهَا وَرَأَتْ بَعِينِي

ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء. فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة؛ فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضا ينظر إلى قمر السماء مجازاً، وهو لافراط استحسانه لها يرى أن قمر السماء هو الجاز فقد رأت بعينه لأنها ناظرة الجاز.

وسأل ابن فرحون ابن حكم هل نجد في التزويل ست فئات مرتبة ترتبها في هذا البيت؟ (البسيط):

رَأَى فَحَبَّ فَرَامَ الْوَصْلَ فَاْمْتَنَعُوا      فَسَامَ صَبْرًا فَأَعْبَى نَيْلَهُ فَقَضَى

قال نعم: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْلَوْا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ، فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنٌ وَغَنُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ لَحْنٌ مَخْرُومُونَ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ (القلم 68- من الآية 19-30).

قال: فهل عندك غيره؟ قال: نعم؛ "فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَلَمَّا دَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا" (الشمس 91 من الآية 13-15)<sup>112</sup>.

المواش:

1- بدليل وجود آثار رومانية قديمة تعرف بالبساتين (Pomaria) (EI2 ج X ص 534 كسب المال محمد العيلاري).

- 2- نفس المرجع السابق.
- 3- وقيل : إن تلمسان بالبربرية معناها مجمع العيون لأن تلمسان هي جمع لكلمة تلمس ومعناها عين.
- 4- البكري : المسالك والممالك ط. تونس 1992، ج 2/ ص 746.
- 5- أول أمراء بني عبد الواد ومؤسس الدولة هو أبو يحيى يغموراسن بن زيان حكم (1236/633 - 1283/681)، وآخرهم هو الحسن بن عبد الله 1550/957. (EI2 ج I / ص 96، كتب المقال ج. مارسي).
- 6- العبادي : الرحلة للغريبة، تحق. القاسي. ط الرباط 1968 ص 13.
- 7- انظر ترجمته في (EI2 ج III / ص 786 - ج.س. ب. هبكتو J.S.P Hopkins).
- 8- يجب التمييز بينه وبين محمد بن أحمد بن عمر بن شرف القوافي (ت 1463/867).
- 9- أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التيبكي السوداني (1556/963 - 1627/1036) التوشيح ترجمة عدد 180 ص 181. مؤرخ، عالم بالحديث والفقه له زيادة عن "التيل"، "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في النياج (ط الرباط 2000 في جزئين)، وتيبكي أو تيبكو مدينة صغيرة في جمهورية مالي. وكانت مركزا تجاريا وفكريا على فم النيجر هاما، ينسب إليها مجموعة من العلماء (المجدد، الأعلام ص 154).
- 10- ويمكن أن نضيف إليهما "تيل الانهاج" و"كفاية المحتاج" للتيبكي.
- 11- الدولة المرابطية (1061/453 - 1147/542).
- 12- الدولة الموحدية (1130/525 - 1269/668).
- 13- المنصور الموحدي (1184/580 - 1199/596).
- 14- مراد بوقصي : العلاقات العلمية بين المغاربة والأندلسيين من القرن 9/3 إلى القرن 14/8 ص 73. (بحث دكتوراه مرقون بكلية متوبة).
- 15- من ذهب أو أذهب : مؤهه بالنهب فالشيء ذهب ومُنْهَب ومُنْهَبٌ.
- 16- النياج ص 93.
- 17- الديياج ص 93.
- 18- ن.م.
- 19- طبع هذا الكتاب عدة طبعات : ط I عصر 1329، وط II بيروت بتحقيق أبو التور، وط III بيروت 1996 بتحقيق مأمون ابن محي الدين الجتّان. وهذه الطبعات في حاجة إلى مزيد من الدقة المبهجية في تحقيق النصوص ووضع الفهارس.
- 20- النياج ط II ، 1996 عدد 160 ص 147، EI2 ج X ص 535.
- 21- نرجح أنّ تسميتها متأية من تأليفها في تلمسان قبل أن يستقرّ في سبتة. توجد نسخة منها في دار الكتب الوطنية بونس عدد 21709.
- 22- أمّا الشروح فلها نسخ عديدة بدار الكتب الوطنية بونس : 01038-21089-00585-02569/الخ...
- 23- النياج ط II عدد 249 ص 204.
- 24- النياج ط II عدد 362 ص 250.
- 25- النياج ط II عدد 535 ص 396. (انظر ص 17 من هذا البحث).
- 26- حققه الدكتور أحمد الشتيوي. وطبعه دار الغرب الإسلامي بيروت 1983، 322 ص.

- 27- التوشيح ص 35.
- 28- ن.م ص 36.
- 29- ن.م ص 36.
- 30- ن.م ص 36.
- 31- التوشيح عدد 62 ص 77.
- 32- التوشيح عدد 247 ص 4-233.
- 33- سنة 1407/810.
- 34- سافر إلى الشام من القاهرة سنة 1409/812.
- 35- التوشيح ص 51.
- 36- ذكر عرضا في التوشيح ص 247.
- 37- التوشيح عدد 271 ص 246.
- 38- التوشيح عدد 12 ، ص 51.
- 39- قاضي الجماعة بتلمسان (ت 1475/880) ، التوشيح ص 51 ت 5.
- 40- فقيه تلمساني ت 1470/875 ، (التوشيح ص 51 ت 6).
- 41- التوشيح : ع 47 ص 69.
- 42- التوشيح : ع 19 ص 54.
- 43- التوشيح : ع 28 ص 61.
- 44- التوشيح : ص 61 ت 8.
- 45- التوشيح : ع 33 ص 62.
- 46- التوشيح : ع 22 ص 56 ت 6.
- 47- التوشيح : ع 11 ص 51.
- 48- التوشيح : ذكره عرضا ص 216.
- 49- التوشيح : ص 147.
- 50- التوشيح : ص 132.
- 51- التوشيح : ص 147.
- 52- التوشيح : عدد 145/ ص 5-144.
- 53- التوشيح : ص 126.
- 54- التوشيح : ص 126، ت 6.
- 55- التوشيح : عدد 97 ص 114.
- 56- التوشيح : ص 114.
- 57- التوشيح : ص 247.
- 58- التوشيح : عدد 271 ص 246.

- 59- التوشيح : ص 247.
- 60- التوشيح : عدد 126 ص 130.
- 61- التوشيح : عدد 124 ص 132.
- 62- مخطوط دار الكتب الوطنية عدد 1613.
- 63- نسبة إلى قبيلة من زواوة.
- 64- الأصلان هما أصول الفقه وهي القواعد التي يوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية، وأصول الشريعة أي القرآن والسنة والاجماع والقياس. (معجم لغة الفقهاء لقلعجي ط II 2006 ص 52).
- 65- التوشيح عدد 159 ص 160.
- 66- انظر ترجمة أخيه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبي زيد بن الإمام ص 8 من هذا البحث .
- 67- ذكر عرضا في التوشيح ص 132 ت 6.
- 68- التوشيح ص 134.
- 69- التوشيح عدد 265 ص 243.
- 70- وقيل التسي (التوشيح ص 244 ت 2).
- 71- التوشيح : عدد 170 ص 171.
- 72- التوشيح : عدد 238 ص 229.
- 73- التوشيح : ص 51 ت 6.
- 74- التوشيح : ص 247.
- 75- التوشيح : عدد 271/ص 246.
- 76- التوشيح : ص 247.
- 77- التوشيح : عدد 171/ص 246.
- 78- التوشيح : ص 247.
- 79- التوشيح : عدد 219 ص 216.
- 80- التوشيح : عدد 322 ص 270.
- 81- التوشيح : عدد 214 ص 215.
- 82- التوشيح : عدد 213 ص 214.
- 83- التوشيح : عدد 8 ص 49.
- 84- التوشيح : 221 ص 219.
- 85- التوشيح عدد 172 ص 171.
- 86- التوشيح : عدد 271 ص 246.
- 87- التوشيح : عدد 243 ص 4-233.
- 88- التوشيح : ص 51.
- 89- التوشيح : عدد 12 ص 51.

- 90- التوشيح : عدد 284 ص 259.
- 91- انظر معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهيض. ط. بيروت 1983 : نجد فيه 73 ترجمة عُرفوا بالتلمساني (صص 63-83).
- 92- نسبة إلى "العباد" مقرّ ضريح أبي مدين (انظر التوشيح ص 160، 174، 219).
- 93- انظر ملحق هذا البحث ص 17 (الملحق I).
- 94- انظر فهرس التوشيح ص 289.
- 95- انظر فهرس التوشيح ص 301.
- 96- نسبة إلى علم الفرائض.
- 97- نسبة إلى علم العدد أي الحساب.
- 98- القضاء في المغرب والأندلس على ثلاثة أنواع : قاضي الجماعة (قاضي القضاة بالشرق)، وقاضي الأناكحة، وقاضي الخلة (الجيش).
- 99- كثيرا ما يورد الونشريسي في المعيار فتاوى لعلماء تلمسان كمحمد بن يحيى بن علي التلمساني الشهير بابن التجار (معجم أعلام الجزائر ص 82)، ومحمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباي التلمساني (ت 1466/871).
- 100- نظرا إلى كثرة العلماء المعروفين بالتصوف في تلمسان وضع محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله الشريف الملقب أصلا الملبوني التلمساني منشأ ووفاته (ت بعد 1605/1014) كتابا سماه "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" فيه 185 ترجمة كلهم من مدينة تلمسان (الأعلام 61/7).
- 101- العضد: هو عضد الدين الإيجي من إيج بفارس عالم بالأصول وبالعرية ت 1355/756 (الأعلام 3/295).
- 102- التوشيح : ص 118.
- 103- التوشيح : ص 234.
- 104- التوشيح : ص 130.
- 105- التوشيح : ص 77-78.
- 106- التوشيح : ص 78، 79، 132، 134، 161، 248.
- 107- وبطبعة الحال كان هناك مع كل ذلك حوار في المسائل الفقهية، انظر التوشيح ص 145، 149، 150، 160.
- 108- هناك عديد الفتاوى في مسائل الحبس والوصية والتحلل (انظر المعيار للونشريسي الجزء السابع). ط. بيروت 1981.
- 109- المقاتل جمع مواقيت : المكان الذي لا يجوز لحاج أو معتمر أن يتجاوزه إلا بإحرام (قلعة جي : معجم لغة الفقهاء ط 2006 ص 440).
- 110- EI ج III / ص 890. كتب المقال محمد الحاج صادق.
- 111- التوشيح : ص 77 - 79 و ص 132، 134، 161، 248.
- 112- نلاحظ في هذه الآيات أن الفاء، تكررت خمس مرات فقط، وتكررت الواو مرتين.



- للمصادر والمراجع مرتبة ترتيباً أبجدياً:
- يُوَقَّصِي مراد: العلاقات العلمية بين المغاربة والأندلسيين من القرن 9/3 إلى القرن 14/8 (بحث دكتوراه مرقون بكلية الآداب بتوبة تحت إشراف الأستاذ فرحات التريسي).
- البكيتي أحمد بابا: كفاية الختاج لمعرفة من ليس في النّياج، تحقيق محمد مطيح- ط. الرباط 2000 في جزأين.
- البكيتي أحمد بابا: نيل الاجهاج . ط. دار السعادة مصر 1911.
- داود صلاح : تراجم في التعريف بمن عاش بالفريقة أو حلّ بها من العلماء من خلال النّياج لابن فرحون وهامشه نيل الاجهاج للبكيتي من سنة 745/128 إلى 1535/972 : بحث في نطاق شهادة الكفاية تحت إشراف الدكتور محمد سويسي، مرقون في مكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بونس رقمه T 1773 .
- فرحون (ابن) : اختصار النّياج (مخطوط) بدار الكتب الوطنية رقم 04293 .
- فرحون (ابن) : النّياج : تحقيق مأمون بن محي الدين الجتّان . ط III بيروت 1996.
- القرابي : توشيح النّياج، تمحّ الدكتور أحمد الشّوي. ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، 322 ص.
- مريم (ابن) : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني ت جد 1605/1014- تحقيق محمد بن أبي شنب- ط. الجزائر 1908.
- نويض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. ط. بيروت 1983.





الفقيه محمد بن سليمان اليفرنى الكومى الندرى:  
صورة من واقع المشهد الثقافى فى حاضرة تلمسان

د. لخصر بولطيف\*

شهدت تلمسان على عصر الموحدين حضورا متريدا فى مجالى العلم والسياسة، فضلا عن اضطلاع بيت بني عبد المؤمن الكومى الندرى وقيله بشؤون الحكم والدولة، فقد نبغ فى تلمسان وأحواها عدد من الأعلام المرموقين؛ لعل من أبرزهم فيمن حاز قصب السبق فى العلم والمعرفة، الفقيه العالم المتفنن المعمر محمد بن سليمان اليفرنى الكومى الندرى.

إن تسليط الضوء على هذه الشخصية المتحللة من أسرة ندرية تلمسانية عريقة، ليس الغرض منه إخراجها من طي النسيان، والتويه بتراتها المخطوط والمطبوع، فحسب، مع أنه فى حد ذاته مطلب ملح ومشروع، بل إن ذلك من شأنه -أيضا- أن يمدنا بالمعطيات الضرورية، التى لن نكون فى غنى عنها إذا ما رمنا رسم معالم المشهد الثقافى لحاضرة تلمسان فى عصر بلغ الحراك الثقافى أوجه، وأضحى الاستقطاب العلمى ظاهرة العصر.

وسنحاول -فيما يلي- رصد مختلف أطوار حياة هذه الشخصية العلمية، وما كان له من أثر فى مجتمعه، وما قلناه من إضافة إلى رصيد المعرفة الإسلامية فى عصره.

01- اسمه ونسبه: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرنى<sup>(1)</sup> -ويقال البطونى<sup>(2)</sup>

الكومى<sup>(3)</sup>، ندرى الأصل<sup>(4)</sup>، تلمسانى الوطن<sup>(5)</sup>، ولا نعرف متى استقر سلفه بها.

وإذا كانت نسبته إلى كومية<sup>(6)</sup> لا يعريها الشك، لكن تردّد بعض النسابة بين إلحاقه بالأرومة البربرية أو الأرومة العربية؛ ففي حين يذهب النهجى (ت 748هـ/1348م) إلى إثبات نسبه بوصف "البربرى"<sup>(7)</sup>، فإن السجى (ت 610هـ/1213م) يقول فيه "القيسى"<sup>(8)</sup>.

\*- أستاذ محاضر أ فى تاريخ المغرب الإسلامى- قسم التاريخ- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

ويحضرنا هنا موقف عبد المؤمن بن علي -فيما يرويه عبد الواحد المراكشي- كان إذا ذكر قبيله "كومية"، يقول: "لست منهم، إنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة والمشيأ فيهم، وهم الأخوال"<sup>(9)</sup>. ويردف صاحب المعجب قائلا: "وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده يتسبون لقيس عيلان بن مضر"<sup>(10)</sup>، وهو ما اعتبره ابن خلدون مردودا عليهم<sup>(11)</sup>.

02- مولده ووفاته: يرتبط مولد أبي عبد الله بن عبد الحق كما وفاته بمدينة تلمسان، وتتفق المصادر التي عنت بترجمته على أنه عمّر طويلا؛ فهو قد "تيف على الثمانين"<sup>(12)</sup>، أو أنه "قارب التسعين"<sup>(13)</sup>، إلا أن آيا منها لم يأت له الجزم بتاريخ مولده، إذ أن الشك وقع من صاحب الترجمة نفسه -حسب تلمينه الرعي- أن يكون وُلد سنة 536هـ / 1141م أو سنة 537هـ / 1142م<sup>(14)</sup>.

وسواء عادت الصحة إلى التاريخ الأول أو الثاني، فإنهما يحيلان على فترة حرجة من تاريخ تلمسان؛ إذ كانت -وقتها- عرضة للصراع الذي نشب بين المرابطين والموحدين، والذي أفضى إلى حصار المدينة، ثم سقوطها سنة 539هـ / 1144م بيد جيش عبد المؤمن، الذي أقدم على مجزرة شيعته في حق أهلها<sup>(15)</sup>، لا نستبعد أن تكون قد ظلت أصداؤها ماثلة في مخيال الفقيه التلمساني.

أما بالنسبة لتاريخ وفاته؛ فباستثناء رواية ابن الزبير -فيما ينقله عن شيخه ابن فرتون- التي تجعله سنة 623هـ / 1226م<sup>(16)</sup>، فإن سائر الروايات تجعله سنة 625هـ / 1228م<sup>(17)</sup>. وهو تاريخ يحيل -أيضا- على وضع دقيق كانت تعيشه تلمسان، في ظل انقراض أمر الموحدين، وإدبار شأن بني عبد المؤمن وقبيلتهم العيلة كومية، لصالح بني عبد الواد الذين سرعان ما آلت المدينة إليهم<sup>(18)</sup>.

03- تحصيله العلم: شهدت بلاد الغرب الإسلامي إبان القرن 12هـ / 1206م أحد أزهى عصور الثقافة الإسلامية في تاريخها، حيث تنافست حواضر المغرب والأندلس على استقطاب أستاذة العلم وطلاب المعرفة، الذين أسهموا في رسم معالم مشهد ثقافي-فكري، اتسم بالثراء والتنوع وأصالته العطاء العلمي-الأدبي، ومن ثم تأتي لأبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني أن ينهل من معين العلوم والمعارف التي كان يزخر بها محيطه، والتي كان يقوم على بثها وتلقيها جهازة فقهاء العصر وفضاحلة علمائه.

ويلو أن حرصه على لقاء شيوخ العلم، والاستكثار من الأخذ عنهم، كان من بين دواعي مباهاته بما قويا له -مما لم يتهيا لكثير من أتباعه ولداته- من علو الإسناد واتساع الرواية. ولم

يتردد كتاب التراجم في إثبات أنه "لقي كثيرا من أهل العلم والدين والزهد والورع، فأخذ عنهم بفاس، ومراكش، وبسطة، وإشبيلية"<sup>(19)</sup>، فضلا عن تلقيهم ببلده، أو أجاز له من بلاد المشرق<sup>(20)</sup>. وقد ضمن ذكرهم، وكيفية تلقيه عنهم، برنامج الذي سماه "الإقاع في ترتيب السماع"<sup>(21)</sup>. ومن حسنات منهج الاستقصاء الذي اعتمده ابن عبد الملك في كتابه "الذيل والتكملة" أن أمكننا الوقوف في ترجمة الفقيه التلمساني على برنامج المذكور<sup>(22)</sup>، والذي جاء فيه أنه:

روى ببلده -تلمسان- عن: أبيه أبي محمد عبد الحق بن سليمان<sup>(23)</sup>، وأبي محمد بن عمران القليدي، وأبي بكر بن عُصفور، وأبي بكر اللقّتي<sup>(24)</sup>، وأبي الحسن جابر بن محمد، وأبي الحسن بن أبي قتون<sup>(25)</sup>، وأبي علي حسن بن الحرّاز<sup>(26X27)</sup>.

وصحب الزاهدين الفاضلين: أبا عبد الله بن مخيو الهواري<sup>(28)</sup>، وأبا مدين شعيب بن الحسن الأندلسي.

وبفاس عن: أبي الحسن بن حنين<sup>(29)</sup>، وأبي عبد الله بن الرّامة<sup>(30)</sup>، وأبي محمد قاسم بن الرّقاق، ولقي بها أبا الحسن اللّواتي وأجاز له.

ومراكش عن: أبي الجيش مجاهد، وأبي عبد الله بن خليل، وأبي عبد الله بن الفخّار، وأبي القاسم بن حيش، وأبي القاسم السّهيلي.

وبها وإشبيلية عن: أبي بكر بن الجدة، وأبي جعفر بن مضاء، وأبي الحسن نُجبة، ولقي بها أبا عمران الزاهد.

وبسطة عن: أبي محمد بن عُبيد الله، وصحب بها أبا الصبر أيوب، ولقي أبا الحسين بن الصائغ، وأبا عبد الله بن حميد، وأبا محمد عبد المنعم بن الفرس.

وأجاز له<sup>(31)</sup> من أهل الأندلس: أبو بكر بن خَيْر- أبو بكر بن رزق- أبو بكر بن ثمارة- أبو الحسن بن هُذَيْل- أبو الحسن بن التّعمة- أبو العباس الحرّوبي- أبو القاسم بن بشكّوال.

ومن أهل المشرق: أبو طالب التّونُخي- أبو طاهر السّلفي- أبو طاهر بن عَوف- أبو طاهر بن معشر<sup>(32)</sup>- أبو عبد الله الحضرمي- أبو عبد الله الرّحبي المصري- أبو عبد الله الكرّكتي- أبو القاسم البوصيّري- أبو يعقوب بن الطّفل الدّمشقي.

مهما بدت عليه هذه القائمة الاسمية -التي استعرضنا- من سعة وشمول، بحكم أنها مستغرقة من برنامج شيوخ صاحبها، إلا أن ذلك لا يعني إحاطتها بجمعهم، إذ لا نعلم ذكرا

لغيرهم في مظان أخرى؛ ومن ذلك: أبو تميم ميمون بن جُبارة بن خَلْفُون البرْدَوِي<sup>(34X33)</sup>، وأبو الحسن علي بن عَتِيق بن مؤمن الأنصاري<sup>(35)</sup>.

04- إفادته العلم: كان الجلوس للتدريس، والقيام على بث العلم، من أبرز ما يميز الشيوخ المتمرسين، ويعلو بهم فوق أترابهم، وكانت حلق نيهاء المشايخ تغصّ بطلبة العلم، الذين يؤمّونها من جميع البلاد ومختلف الأقطار. وتثرى الشهادات منوّهة بشأن الفقيه أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني، فتحلّيه بـ"الشيخ، الفقيه، الأجل"<sup>(36)</sup>، أو "الفقيه، الحدّث، الخُفّ"<sup>(37)</sup>، ولربما نعت بـ"العلامة"<sup>(38)</sup>، أو "الإمام المتّقن"<sup>(39)</sup>.

ويكون ما تمتع به الفقيه التلمساني من مؤهلات علمية، قد هيّاه للاضطلاع بمهمة التدريس، فإنه -يقول الرعيّني- "كان في بلده متصلياً لإفادة العلم"<sup>(40)</sup>. وعلى ما يمكن أن يُلتَمَح من أنه لازم بلده بعد أوان الطلب، فلم يستجّل له حضور مشهود خارجها، فقد قصده طلبة العلم رغبة في تحصيل ما ينتحل من علوم ومعارف، أو استجازوه -على النأي- فيما وضع من كتب أو أسند من رواية.

ومع ذلك لا نكاد نقف إلا على عدد محدود من تلاميذه، عفى ابن عبد الملك<sup>(41)</sup> بتقيد أسمائهم في الترجمة التي خصّ بها أستاذهم، وهم أبو الحجاج بن محمد بن علي الأسدي، وأبو زكريا بن أبي بكر بن عُصْفُور<sup>(42)</sup>، وأبو عبد الله بن أبي بكر البرّي، وأبو عبد الله بن علي بن حمّاد<sup>(43)</sup>، وأبو العباس الموروري، وأبو العيش محمد بن عبد الرحيم الأنصاري، وأبو موسى بن يوسف بن تاعمجلت<sup>(44)</sup>.

وحدّث عنه بالإجازة: أبو الحسن الرُّعَيْنِي<sup>(45)</sup>، وأبو علي المافري، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن القاسم بن رَغُوش، وغيرهم.

ويمكن المتبع لكُتب التراجم والطبقات أن يظفر بالمزيد من أسماء الآخذين عنه، على غرار:

- أبو بكر محمد بن يوسف بن مُسَدِّي الأزدي الغرناطي، فإنه يعد من المكثرين في الرواية عنه<sup>(46)</sup>.
- أبو عبد الله محمد بن الحسين الحُشْنِي البجائي، فإنه استجازه، فأجازوه. وقد احتفظ لنا العُربِي بنص كتاب الاستجازة، وجاء فيه (بعد البسملة والتصليّة):

"يرغب إلى الشيخ الأجلّ، الفقيه الزكيّ، العالم الحافظ، المقيد المتقن، العلامة الأكمل، بقية الجِلّة الفضلاء الأكابر أهل العلم، أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الزكي المرحوم أبي محمد عبد الحق بن

سليمان، أكرمهم الله برضاه، وحرس مجدهم وتولاه، مُعَظَمُ مقدارهم، وملتزم برّهم وتوقيرهم وإيثارهم، العارف بحقهم، العليم بتقديهم وسبقهم، محمد بن محمد بن الحسين الخشني، في الإنعام عليه بإجازة هذا البرنامج، الذي تضمن ذكر أشياخه الجِلَّةِ الفضلاء، رضوان الله عليهم وعليكم أجمعين، بحيث يحمل ذلك عنكم، ويتشرف بأخذ منكم، وفضلكم بذلك كله كفيل، وثوابكم عليه عند الله عز وجل جزيل، والله يقي ببركاتكم الانتفاع، ويحسن عن أرجائكم الواقع، وأفضل سلام الله عز وجل، وأوفى تحياته وأزكاها، وأعظمها عرفا وأذكاها، يخص مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته<sup>(47)</sup>.

فأجابه بما نصّه (الكتاب مؤرخ في ذي الحجة 603هـ/1207م): "أجبتك بأحسن تحية، ولما جاء به خير البرية، نعم وأجبتك إلى ما سألته وطلبتة إجابة من يعلم أنك أهل له، وإذن من تحقق أنك قائم به لشواهد طلبك، وپوارع أدبك، إجابة عامة بشرطها، فتلحقها تلقي أمثالك، واعمل حسابها عمل نظرائك، والعمل جمال العلم، وخادم له مرتبط به لمن أراد السعادة، وسعى لها، قال تعالى: ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ))<sup>(48)</sup>، مع شروط الإجازة عند أهلها القائلين بإجازتها، جعلنا الله وإياكم ممن استمع القول، واتبع أجمله، ومن ختم بالحسنى عمله، آمين<sup>(49)</sup>.

- أبو زكريا يحيى بن حبوس الهمداني البجائي، هو الآخر معلود من الآخذين عنه بطريق الإجازة، إذ كتب إليه يستجيزه بما نصّه: "يرغب إلى الشيخ الفقيه الزكي المحصل الأفاضل، أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الفاضل، أبي محمد عبد الحق بن سليمان، أدام الله كرامته، وأبقى بركته، ووصل رفعة، مُجَلَّ قَلْبَهُ، ومؤثر برّه، الراغب في بركات دعائه، وإلى الله تعالى في إطالة بقائه، يحيى بن علي بن حسن بن حبوس الهمداني، في الإنعام عليه بإجازة ما اشتمل عليه برنامج روايته عن أشياخه رضي الله عنهم، وما سند عنه من قراءته ومسموعاته، وإجازته ومناولاته، وتآليفه في فنون العلم، وما له من نثر ونظم، منعما، ومتفضلا عليه بالإسعاف بمطلوبه من ذلك، والإجابة إليه، والله عز وجل يعين على برّه، ويمتّع ببركاته، وبصالح دعائه، والسلام الأتم، الجزيل المبارك الحفي، يحصه ورحمة الله وبركاته<sup>(50)</sup>.

فأجابه بما نصّه (الكتاب مؤرخ في جمادى الثانية 615هـ/1218م): "أجزت لكم أكرمكم الله جميع ما سألتموه، وأجحت لكم من ذلك ما طلبتموه إجازة عامة على شروطها المعمول بها عند

القائلين، إذ أنتم أهل لذلك، نفعمكم الله ونفع بكم، فلتستعمل نفسك، ولتوخ هديك، في العمل بمقتضى ما علمك الله من ذلك، أبلغكم الله أملكم، وختم بصالح عملنا وعملكم<sup>(51)</sup>.

وتعقيا على ما تردد في إجابة الفقيه مستجيزه عن "شروط الإجازة عند القائلين بها"، نستأنس بما أورده -هذا الشأن- شيخه ابن خير الإشيلي، إذ يقول: "وأما الإجازة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان، فقد اختلف فيها؛ فأجازها أكثر أهل العلم، ...؛ وأختلفت الرواية فيها عن مالك، رحمه الله، والأشهر عنه جوازها، وعلى ذلك أصحابه الفقهاء، لا يعلم أحد منهم خالفه في ذلك؛ ومنعها بعض العلماء، ولا تقوم على منعها حجة -ومالك- رحمه الله- شروط في الإجازة: وهو أن يكون الفرع معارضا بالأصل، حتى كأنه هو؛ وشرط آخر، وهو أن يكون [المجيز] عالما بما يُخبر به، ثقة في دينه وروايته، معروفا بالعلم؛ وشرط ثالث، وهو أن يكون [المستجيز] من أهل العلم، ومتسما بسمته، حتى لا يضع العلم إلا عند أهله"<sup>(52)</sup>.

وإذا بدا أن هذه الشروط المقررة هي ما قصد الفقيه أبو عبد الله بن عبد الحق إلى تحقق مستجيزه بها، لكن ما يستوقفنا -حقا- هو ما ساقه ابن الأبار في ترجمة الفقيه من أنه "حدث، ودرس، وغيره أمتن تحصيلاً منه، وأحسن تصرفاً"<sup>(53)</sup>، إذ يحملنا ذلك على التساؤل فيما إذا كان رأي ابن الأبار ينم عن جراءة في القول لم تواتر غيره ممن ترجم للفقيه التلمساني؟ أم أن رأيه لا ينفك عن تحامل ربما كان ثمة ما يبرره؟

إن ما يلفت الانتباه أن ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م)، وهو أكثر من عرف من بين كتاب التراجم بالصراحة في القول، والتروع إلى النقد، إلى حد أنه كان يلون كل ما يعرفه من أحوال المترجمين، أو يقع إليه من أخبارهم، ولو كان مشتملاً على ما يمس بأقدارهم؛ إلا أنه لم يزيد في ترجمته لابن عبد الحق عن القول إنه "كان راوية للحديث، فقيها حافظاً، متكلماً، متفنناً في علوم جمّة، بارع الكتابة، حسن الخط"<sup>(54)</sup>، وهو بذلك لا يبعد في التنويه به عن معاصره الغبريني (ت 704هـ/1305م) الذي تناوله في معرض ترجمته للفقيه الزاهد ابن يكي، فجعله صنوه وكفاه، وفي الأخير منهما يقول: "كان من جملة أهل العلم، ومن أكابر أولي التّهى والفهم، ... وكانت له وجهة وعلو قدر ورفعة في الدين والعلم، وسمو نظر، وهو من نظراء العالم أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني"<sup>(55)</sup>.



وإذا كان مما قد يؤخذ على هاتين الشهادتين في مقابل رأي ابن الأَبَر، هو صدورهما عن مغربين ربما حملهما على ما أثبتاه داعي الانتصاف لبلديهما، إلا أن صدور شهادة معاصريهما الأندلسي ابن الزبير (ت 708هـ/1308م) في الاتجاه نفسه -بقوله في حق الفقيه التلمساني "وكان حافظاً، من أهل الضبط والتقييد... وكان فصيحاً لساناً، شاعراً كاتباً مشاركاً"<sup>(56)</sup>- يجعل من غير الإمكان الركون إلى ما أدلى به ابن الأَبَر، دون استحضار ما شهر به الكاتب الأندلسي من إخضاء من شأن نهاء المغاربة، إلى حد أنه لم يتورع عن إلحاق بعضهم بالأندلسيين، ضئيلة بعلمهم عن العدو (المغربية) على حد تعبيره<sup>(57)</sup>.

وقد تبعه لأجل ذلك ابن عبد الملك وأنحى عليه باللاحمة في قوله: "وحسبك ما اشتمل عليه القول من الشهادة على قائله بما لا يليق بأهل الإنصاف من العلماء، واستحكام الحسد للزعم، واحترار طائفة كبيرة من الجلالة العدوين، وفضل الله سبحانه رحمةً يخص بها من يشاء"<sup>(58)</sup>.

05- مؤلفاته: ذاعت للفقيه أبي عبد الله بن عبد الحق التلمساني شهرة واسعة في مجال الكتابة والتأليف<sup>(59)</sup>؛ بالنظر إلى ما وضعه من مؤلفات كثيرة، حرص على إثبات عناوينها، وعدد أجزاءها، في برنامج الموسوم "الإقناع في ترتيب السماع"، وهو -فيما يصف ابن الزبير- "برنامج حسن ضم فيه مرويَّاته، وذكر فيه شيوخه، وسمى فيه ما ألف وقيده"<sup>(60)</sup>. وقد تأتي لابن عبد الملك -كما لشيخه أبي الحسن الرعي- الاطلاع على البرنامج المذكور، ولئن لم يحتفظ ثانيهما إلا بعدد محدود من عناوين مؤلفات الفقيه التلمساني، التي قال في بعضها إن لها "أسماء هائلة"<sup>(61)</sup>، وإنه لم يقف منها على شيء، فإن أولهما قدر أهمية نقلها برمتها "ليقف عليها المتشوق إليها"<sup>(62)</sup>.

قال ابن عبد الحق التلمساني -فيما ينقل عنه ابن عبد الملك-: "مراتب توالي في:

- الفَيْصَلُ الجازم، في فضيلة العلم والعالم<sup>(63)</sup>، في مراتب العلوم. جزء.
- برنامجي، وهو كمراتب التواليف، وسميته: الإقناع، في كيفية الإسماع"<sup>(64)</sup>. جزء.
- لباب الإعراب. جزء كبير.
- فرقان الفرقان، وميزان القرآن<sup>(65)</sup>. جزء.
- عقيدة عليّة الخلق، وزبدة معرفة الحق، المصنوع بها على غير أهل الصدق. جزء.
- غريب الشَّهاب. جزء.

- إكمال الآلي، على الأمالي. سفران.
  - غريب الموطأ<sup>(66)</sup> وإعرابه. سفر. وسميته: الاقتضاب<sup>(67)</sup>، لأني اقتضيته من الكتاب الكبير، كتاب المختار، الجامع بين المتقى والاستذكار<sup>(68)</sup>، بزيادات التمهيد وغيره، تونق النفوس، وتروق الأبصار<sup>(69)</sup>، في نحو العشرين سفر<sup>(70)</sup>، يشتمل على نحو الثلاثة آلاف ورقة<sup>(71)</sup>.
  - مختار المختار، بين يدي مختصر كتاب البخاري. في سفر كبير.
  - جزء من شعري منتخل<sup>(72)</sup>.
  - ميزان العمل. جزء كبير.
  - إرشاد المسترشد، وبغية المريد المستبصر المجتهد<sup>(73)</sup>. سفر صغير.
  - الإيماء إلى نجاة المريد. جزء.
  - النبذة المسعدة، واللمحة المصعدة، في الاعتبار. جزء.
  - النكت المحررة، والفصول المخبرة، في حقيقة التزوية، ونفي التشبيه. جزء.
  - الأجوبة المحررة على المسائل المغيرة. جزء.
  - التسلي عن الرزية، والتخلي بالرضا بقضاء باري البرية<sup>(74)</sup>. جزء.
  - مجموع شعري في المواعظ. جزء.
  - نفثة ذي الضراء، ومسئلته برثاء الآباء الأبناء. جزء كبير.
  - التذكرة، للنوادر المتخيرة. مضى منه نحو ثلاثة أسفار، ولم يتم، وهو بين يدي.
  - حدود أنواع الحكم الشرعي. جزء.
  - مستصفي المستصفي. ابتدئ، ولم يتم.
  - فصل المقال، في مناقل أحوال غزوة أهل الإلحاد والضلال، إلى طليطلة - كذا - جزء<sup>(75)</sup>.
- على أن ما يلفت الانتباه في هذه القائمة هو "الترتيب" الذي راعى المؤلف اتباعه في إيرادها، وهو ما يكشف عنه في قوله: "وكيفية ترتيبها أن أول ما ينبغي أن يُلقى إلى ما يعتني به في طلب العلم هو فضل العلم، لينهض إلى طلبه عن حرص ورغبة فيه، ثم مراتبه [ليرتب العلوم الكثيرة؟] في مراتبها، فيعلم الأعلى من الأدنى، والكلي من الجزئي، والآلة [من الأصل] المقصود، واللاحقة من السابقة، فيرى كل علم منها في رتبته، فيقصد إلى الأعلى منها فيجعله وكده، وينظر في غيره نظر مشاركة واستبصار، لئلا يجهله فيعاديهِ وأهله، ثم يُلقى إليه ما هو

كالآلة من العلوم، كعلم مدارك العقول، وعلم اللغة والإعراب، ثم يُلقى إليه التفقه في الحديث الذي هو الأصل، وعلم أسرار علوم الدين الذي هو كالثمرة، ثم يتبع بما هو كاللثمة للعلوم، وكالمبتدع من جهلتها، مما لا يختص بعلم منها، فلذلك رتبها هذا الترتيب، فبدأت بفضل العلم ومراتبه، وثبتت بالآلة منه، وثلاث بالأصل منه، وختمت بما هو كالمبتدع من جهلتها، وكاللثمة والتكميل منه، والحمد لله على هدايته<sup>(76)</sup>.

ومع أن القائمة السابقة جاءت -بحسب ما ورد في ختام البرنامج<sup>(77)</sup>- مؤرخة بشهر رجب 600هـ/1204م، إلا أننا لا نقف للفقيه التلمساني على مؤلفات غيرها في أي من المصادر التي بين أيدينا، وإنما نستبعد أن يكون مؤلف أكثر مثله قد انقطع عن التأليف طوال الخمس وعشرين سنة التي أعقبت ذلك من حياته، إلا أن تكون تبعات التقدم في السن -وقد تجاوز الستين- أثقلت كاهله، وصرفته عن ذلك.

يبد أننا نتساءل فيما إذا كان كتاب "نظم العقود ورقم الحلل والبرود" الذي ينسبه إليه إسماعيل باشا البغدادي<sup>(78)</sup>، ليس منحولاً عليه، أو ربما كان لغیره ممن يشترك معه في الاسم، ونسب إليه على سبيل الاشتباه والالتباس، إذ أن البغدادي يسوق الكتاب المذكور بعد كتابي "المختار" و"التسلي"، ويجعل تاريخ فراغه من وضع هذه الكتب سنة 588هـ/1192م، فلو صحّ ذلك ما كان عزب عن المؤلف إدراج كتابه ضمن قائمة مؤلفاته التي وضعها قبل سنة 600هـ/1204م.

ويلو أن تساؤلاتنا المعلنة ليست سوى في محلها، إذ نستحضر -هذا الصدد- أن الكتاب المذكور ما هو إلا ديوان شعري تأكدت نسبته إلى الشاعر الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الزناتي الكومي (ت 604/1208م)<sup>(79)</sup>، عدا أن الذي جمعه كان كاتبه محمد بن عبد الحق الغساني، وذلك في حدود سنة 588هـ/1192م كما في نسخته الخطية<sup>(80)</sup>، وهو ما يفسر الالتباس الذي وقع لإسماعيل البغدادي، إذ اشتبه عليه اسم جامع الديوان، وظنه محمد بن عبد الحق التلمساني.

بقي أن نشير إلى أن الفقيه التلمساني جمع إلى عنايته بالتلوين والتصنيف، شغفا بجمع الكتب واقتنائها، بل طالما عكف على استساخ النادر منها، حتى اجتمعت له مكتبة عامرة بنفائس المؤلفات، وأمّهات الدواوين، مما لم يجتمع لأحد من معاصريه<sup>(81)</sup>.

06- مكانته الاجتماعية: على الرغم من أن المصادر لا تمدنا إلا بالتر اليسير فيما يتصل بسلفه، ومع ذلك يمكن أن نستمد من تلك المعطيات القليلة أنه ينحدر من أسرة كانت على درجة من الواجهة والباهة وعلو الصيت<sup>(82)</sup>، فقد أتيح لوالده أن يشغل بتلمسان -ردحا من الزمن- خطتي الخطابة والقضاء، قبل أن ينصرف عن ذلك، ويرحل إلى المشرق، ويوفى هناك سنة 571هـ/1175م، في سلوك يوصف بأنه "ميل إلى الزهد، ورفض للدنيا"<sup>(83)</sup>.

ولربما كان لنا حريا بنا أن نتساءل فيما إذا كان انصراف والده إلى المشرق رهن دواع شخصية عارضة، غير ذات صلة بمسألة الولاء السياسي، إذ في حالات مماثلة رفض بعض خطباء وقضاة العهد البائد التعاون مع الموحدين؛ شأن خطيب بجاية أبي محمد بن الخراط (ت 581هـ/1185م)<sup>(84)</sup>، أو قاضي مرسية أبي بكر بن أبي حمزة (ت 599هـ/1202م)<sup>(85)</sup>، ولئن كان عدد من هؤلاء آثر المكوث ببلده متحملا ضروبا من الإيذاء والتضييق، فإن آخرين فضلوا المغادرة نحو المشرق.

ومهما يكن فقد احتفظ أبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني بما تأتى لسلفه في الزمن الغابر، فلم ينفك عن الواجهة والنفوذ، ولا عن ولاية خطة القضاء.

وتعاضد المصادر على أنه ولي قضاء بلده<sup>(86)</sup>، ويضيف بعضها أنه وليه مرتين<sup>(87)</sup>، مشهودا له في كل ذلك "بالعدل، والإنصاف، والجزالة"<sup>(88)</sup>. كما نعتبه بأنه كان "من أهل السراوة والجلالة"<sup>(89)</sup>، وبقلر ما لم تتردد في الإفصاح عن اختصاصه بحكام عصره، ومدى حظوته لديهم<sup>(90)</sup>، فإنها قررت -أيضا- حظوته لدى الناس "خاصتهم وعامتهم"<sup>(91)</sup>، وذلك أمر قلما اتفق لمن يتردد على مجالس السلطان، مع ما تقرر في المجال التداولي لأدبيات الفكر الإسلامي من أن الدخول على السلاطين مظنة الدنية، ومجلبة للمنقصة<sup>(92)</sup>.

وإذا كان يعين علينا -بهذا الصدد- أن نذكر بما أقدم عليه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين -في سبيل التمكين لشخصه ضمن التحالف المصمودي- من استدعاء لقييلته "كومية"، واستدناء لها، حتى أضحت بمكانتها تلك -على حد تعبير ابن خلدون-: "فاتحة الكتاب، وفذلكة الجماعة"<sup>(93)</sup>، فإنه يمكننا أن ندرك -حيثن- سر تلك المكانة التي تبوأها الفقيه التلمساني، وندرك -

أيضا- سر اتساع ثروته، اعتمادا على ما كان يصدق به خلفاء بني عبد المؤمن على المقرين منهم من عطاءات وفيرة، وإنعامات سنّية<sup>(94)</sup>.

لكن وبصرف النظر عما يتنوّع به الفقهاء المترددون على مجالس الحكام، بما يروجونه من إعزاز حق، أو نصرة دين، فإنه يلزمنا توخيا للإنصاف، أن نسوق جُمُلا مما لم تتكتم عليه مصادر ترجمة الفقيه ابن عبد الحق، وما فتت تنوّه به، من أنه على ما أصابه من جاه ونفوذ، وما حازه من ثراء ويسار، إلا أنه كان "نفاعا بماله وجاهه"<sup>(95)</sup>، مسارعا إلى قضاء مصالح أهل بلده، حريصا على مساعدة المحتاجين واغرومين<sup>(96)</sup>.

07- سجاياه ومناقبه: قد يكون من غير المتوقع بالنسبة إلى رجل تربطه تلك العلائق الوثيقة بالمال والسلطة -حتى غدا من سماته الموهودة كونه "بهيح النظر، رائق الملبس"<sup>(97)</sup>- أن يُقال فيه إنه "من أهل التّقشّف"<sup>(98)</sup>، لكن طالما كان الإقبال على الزهد، أو الانخراط في التصوف، رد فعل طبيعي لدى العديد من الفقهاء<sup>(99)</sup>، فمن ينشغلون بتحقيق نوع من التوازن النفسي بين نوازع للمادة وأشواق الروح. فهل يكون هذا التفسير مما ينطبق على حال قضيها؟

إننا قد لا نجد أنفسنا في حلّ من قبول هذا التفسير لاسيّما إذا كان نزوعه إلى الزهادة جاء منه على كِبَره، وما تجلبه على صاحبها من إيجاءات الإعراض عن الدنيا، وإطراح مباحيها، على أننا لا نُغفل أيضا استعدادات الرجل الذي درجت المصادر على الإشادة به "بجميل سيرته"<sup>(100)</sup>، و"حسن خُلُقِه"<sup>(101)</sup>، و"واسع مروءته"<sup>(102)</sup>؛ فإنه إذا اجتمع هذا إلى ذاك وسعنا فهم لتوّع الزهدي للرجل.

أما من أبرز الشواهد الدالة على صلته بالتصوف وآله، هو ما ينقله الغبريني في قوله: "ورأيت في فهرسة أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني، بعد ذكره لفضل الشيخ أبي مدين، وبعد وصفه إياه ببعض أوصافه الجليلة، أنه قال: ظهر فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ))"<sup>(103)</sup>؛ إذ كان من قوله عند آخر الرّمق: الله الحي<sup>(104)</sup>.

وأبلغ من ذلك ما يرويه عنه تلميذه الرعيّني<sup>(105)</sup>، ولعله انتخبه من مجموعته الشعري في المواعظ، إذ أنشد لنفسه يخاطبها مذكرا:

لا يغرُك يا محمد ليلٌ      بتّ فيه على فراشٍ وثيرٍ  
ناعم البال مطمئنًا فلا بُدَّ      من التّعش بعد هذا السّريرِ

وتذكر بني أليك سليمان ذوي ألجاء والعديد الكثير  
كم فتى منهم وكهل وشيخ ألدته كفك بين القبور  
قلم الزاد للمعاد ولا تنس إذا ما بطشت بطش القدير  
وأتى الله واغتم هذه الأيام واعمل هول يوم التثوير  
قد أتاك التذير يدعوك جهراً فازجر النفس واسمعن للتذير

ولا يسعنا في ختام هذه المحاولة، التي تطلعا من خلالها إلى رسم صورة عن المشهد الثقافي في مجتمع الغرب الإسلامي عموماً، ومجتمع تلمسان وأحوالها خصوصاً، وذلك عبر تتبع حياة أحد أبرز الأعلام المنحدرين من هذه الحاضرة العريقة، إلا أن نخلص إلى تسجيل الملاحظات الآتية:

- 1- ثراء المشهد الثقافي في الحقبة الموحدية، يقوم شاهداً عليه جملة عناصر من أهمها: تنوع العلوم والمعارف، وتواصل الطرائق والمناهج، ورواج الكتابة والتأليف.
  - 2- نشاط الحركة الثقافية بمدينة تلمسان، التي أضحت منذ القرن 11م/11هـ قبة للعلماء، والمحدثين، وحمة الرأي على مذهب مالك، وما فتت تردد تألقاً واستقطاباً.
  - 3- التواصل بين أجيال المثقفين، ويتجلى ذلك من خلال الحرص على استفادة العلم وإفادته، وتنشيط خلق الدرس والمناظرة، والاتجاه نحو تكريس تقليد الإجازة العلمية.
  - 4- التلاقح بين الثقافتين المشرقية والمغربية بلغ مستوى من الإيجابية والفاعلية، يعكسه ما تتركه به كتب البرامج والفهارس من أسماء الشيوخ والأساتيد، والمقروءات والأسانيد.
  - 5- قيام الفقهاء (مفتي العصر) في مجتمع الغرب الإسلامي كوسيط بين السلطة والرعية، ما أتاح لهم التأثير في القرار السياسي من جهة، والسعي في مصالح الرعية من جهة ثانية.
- هوامش البحث:

(\*) ابن الأثير: الحكمة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام المرّاس، بيروت: دار الفكر، 1995، 2/165. وجاءت "اليعربي" لدى ابن الزبير في صلة الصلة، تحقيق: عبد السلام المرّاس وسعيد أعراب، الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 93-1994، 29/3. بينما نقرأها "اليعربي" لدى ابن عبد الملك في الذيل والحكمة لكتابي الموصول والصلة: السفر الثامن، تحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، 317/8. لكن إذا أدخلنا في اعتبارنا أن محقق صلة الصلة نبهاً على أنها وردت "الفري" في النسخة المخطوطة، وأن محقق الذيل والحكمة رجح أن تكون "الفري" اعتماداً على ذلك،

تدعم اقتصادنا بما أثبتنا أعلاه.

(2) ابن عبد الملك: الذيل والحكمة، 317/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980، 112/1.

(3) تصحفت إلى "الكوفي" لدى الذهبي في سير أعلام النبلاء، نشر بعناية: محمد بن عيادي، ط01، القاهرة: مكتبة الصفا، 2003، 138/13.

(4) ابن الأثير: الحكمة، 165/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والحكمة، 317/8.

(5) ابن الأثير: الحكمة، 165/2؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.

(6) كومية من قبائل زناتة التي استوطنت المغرب الأوسط، وكانت موطنها الأولى تمتد فيها بين البحر المتوسط إلى الشمال ونواحي تلمسان إلى الجنوب. وعلى ما كانت عليه من وفرة العدد، إلا أنها كانت خاملة الذكر قبل عصر الموحدين. يراجع ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 151-149/6؛ وأيضاً الدراسة التي لتجزها الفقي العلوي: "أصول المغاربة - القسم البربري"، مجلة البحث العلمي (الرباط)، ع 1982/33، ص 84-86.

(7) سير أعلام النبلاء، 138/13.

(8) ابن الأثير: الحكمة، 124/3.

(9) عبد الواحد المراكشي: العجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: دار الفرجاني، 1994، ص 169.

(10) المصدر السابق، ص 169.

(11) العبر، 150/6.

(12) ابن الأثير: الحكمة، 166/2.

(13) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، نشر: ج. برجستراسر، ط03، بيروت: دار الكتب العلمية، 1982، 159/2.

(14) برنامج شوخ الرعيني، تحقيق: إبراهيم شوح، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1962، ص 171.

(15) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (القسم الخاص بالموحدين)، تحقيق: محمد إبراهيم الكناي وآخرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 22-23؛ ومؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخيار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحدية، 1979، ص 135.

(16) صلة الصلة، 29/3. وعلى أن النهي ترجم له -أيضاً- في وفيات 623هـ، لكنه عاد فترجم له في وفيات 625هـ. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق: بشار عواد معروف، ط01، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، 751/13، 802.

(17) ابن الأثير: الحكمة، 166/2؛ والرعي: برنامج شيوخه، ص 171؛ وابن عبد الملك: الذيل والحكمة، 317/8؛ وابن قفط: كتاب الوفيات، تحقيق: عادل توبهض، ط03، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1980، ص 310؛ والحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة، 1991، 237/2.

- (18) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 198/1؛ والتسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان؛ مقتطف من كتابه: نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعيد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص111.
- (19) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.
- (20) ابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.
- (21) ابن عبد الملك: النيل والتكملة، 317/8.
- (22) المصدر السابق، 317/8. وعنه كل من يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 112/1؛ والصارجي في الإعلام بمن حل مواكش وأغامت من الأعلام، فلس: المطبعة الجليدية، 1938-36، 98/3.
- (23) تلقى عنه مبادئ الفقه واللغة. ابن الأثير: التكملة، 165/2.
- (24) قال عنه: "صحته، وسمعت منه، وأمتعي بحديثه". ابن عبد الملك: النيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة؛ السفر السادس، تحقيق: إحسان عباس، ط01، بيروت: دار الثقافة، 1973، 39/6.
- (25) أو ابن أبي جَوْن، حسب الرعي في برنامج شيوخه، ص170.
- (26) تصحّف إلى ابن الجهار في التكملة، 165/2. وذكره الرعي ضمن أساتذة شيخه في قوله: "... والأستاذ أبو علي حسن بن عبد الله بن أحمد بن محمد القيسي". برنامج شيوخه، ص169.
- (27) أخذ عنه القراءات والنحو، وذلك في حدود سنة 1156هـ/1551م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 138/13؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.
- (28) ورد "ابن مجبر" في تعريف الخلف للحفناوي، 237/2، والصواب ما أتينا، وشهد له ترجمة المذكور في الشوف إلى رجال التصوف، للتادلي، تحقيق: أحمد التوفيق، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984، ص179.
- (29) ذكر ابن الجزري أبا الحسن بن حسين، ويفهم منه أنه أبو الحسن اللواتي المذكور، لكن أتبعه بالقول إنه من أصحاب ابن الطلاع، وهو ما لا ينطبق عليه، لكن ينطبق على سميّه أبي الحسن بن حنين، فيلو أن "حين" تصحّفت إلى "حسين". يراجع ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2؛ ويقابل بابن الأثير: التكملة، 210/3، 244.
- (30) ساقه الرعي مسوقاً بأبي عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن أحمد القيسي، وهما -كما لا يخفى- شخص واحد، فلعله وهم. أو أنه من فعل الناسخ، أو اختق. برنامج شيوخ الرعي، ص170؛ ويقابل بابن الزبير: صلة الصلة، 21/3.
- (31) عنى المغاربة والأندلسيون بالإجازة، وعدوها من أبواب التحمل التي لا غنى عنها لطلاب العلم للمستريد، ومن صور توسعهم فيها سؤال بعض الفقهاء أبا الوليد بن رُشد (ت 520هـ/1126م) أن يميزه "جميع ما يحمله من الكتب المؤلفة في ضروب العلم بأي وجه حمل ذلك، من قراءة، أو سماع، أو مناولة، أو إجازة، وجميع ما ألّفه، أو وضعه، أو أجاب فيه، في القدم والحديث"، استجاز ذلك له، ولكل من أحب الحمل عنه من المسلمين. يراجع ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري-بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989، 589/2. وقد ختم المؤلف كتابه ياب في "تسمية الشيوخ الذين رويت عنهم، وأجازوا لي لفظاً وخطاً، ممن لقيتهم، ومن لم ألّفه رحمتهم الله".
- (32) سقاه الرعي: أبا الطاهر إسماعيل بن علي بن بشر النحوي المصري. برنامج شيوخه، ص170؛ وورد عند السيوطي: أبو الطاهر إسماعيل بن علي بن أبي مقشر النحوي. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، 1965-64، 451/1.



- (33) حسب الغبريني في عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ييجاية، تحقيق: رابح بونار، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص183. ولعل الصواب "القرداوي"، كما في ابن الأثير: التكملة، 197/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 387/8.
- (34) نص الغبريني في ترجمته على أن أبا عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني كان ممن أخذ عنه حين قدومه تلمسان سنة 1188/584م. عنوان الدراية، ص184.
- (35) أشار الغبريني ضمن برنامج مشيخته الذي ألحقه بآخر كتابه: عنوان الدراية، ص310، أنه يروي كتاب "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد العلبي بسنده إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني عن أبي الحسن علي بن عتيق بن مؤمن الأنصاري.
- (36) الرعي: برنامج شيخه، ص169.
- (37) ابن قفط: كتاب الوفيات، ص310.
- (38) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 138/13.
- (39) ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.
- (40) الرعي: برنامج شيخه، ص169.
- (41) الذيل والتكملة، 318/8.
- (42) روى عنه كتابه "المختار الجامع بين المتقى والاستذكار"، فضلا عن كتابي: "الكشف والبيان في تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد العلبي؛ و"أحكام القرآن" لأبي الحسن علي بن محمد الطبري. الغبريني: عنوان الدراية، ص310، 314.
- (43) أقره الغبريني في المصدر السابق، ص193.
- (44) أقره يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 102/1.
- (45) قال الرعي: "أجاز لي جميع ما يحمله، وما ألّفه، وما له من نظم ونثر". برنامج شيخه، ص169.
- (46) ابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.
- (47) الغبريني: عنوان الدراية، ص219.
- (48) سورة فاطر: الآية 10.
- (49) الغبريني: عنوان الدراية، ص219-220.
- (50) المصدر السابق، ص221.
- (51) المصدر السابق، ص221.
- (52) فهرسة شيخه، 30-28/1.
- (53) التكملة، 166/2.
- (54) الذيل والتكملة، 318/8؛ وجابهه على ذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي في تعريف الخلف، 237/2.
- (55) عنوان الدراية، ص189.
- (56) صلة الصلة، 29/3.
- (57) التكملة، 121/2.

- (58) النيل والتكملة لكاتب الموصول والصلة؛ السفر الأول، تحقيق: محمد بن شريف، بيروت: دار الثقافة، د.ت.، 11/1.
- (59) عنه النهي من "أهل التصنيف". تاريخ الإسلام، 751/13.
- (60) صلة الصلة، 29/3.
- (61) برنامج شيوخ الرعي، ص 170.
- (62) النيل والتكملة، 318/8.
- (63) ذكره ابن الأبار في التكملة، 166/2؛ والرعي في برنامج شيوخه، ص 170.
- (64) اشتهر بعنوان "الإقاع في ترتيب السماع". يراجع الرعي: برنامج شيوخه، ص 170؛ وابن عبد الملك: النيل والتكملة، 317/8.
- (65) مما ذكره -أيضا- الرعي في برنامج شيوخه، ص 170.
- (66) ذكر النهي أن من تصانيفه "غريب الموطن". سير أعلام النبلاء، 138/13.
- (67) قال ابن الأبار: وله تواليف في فون؛ منها "الاقضاب في غريب الموطن وإعرابه". التكملة، 166/2.
- (68) ويرد أحيانا بعنوان: "الختار في الجمع بين المتقى والاستذكار"، أو "الجامع المختار من المتقى والاستذكار". والكتاب في فقه الحديث يستمد مادته من كتابي: "المتقى للباي (ت 474/1081م)" و"الاستذكار" لابن عبد البر (ت 463/1071م)، وتتفق المصادر على أنه من أجل مؤلفات ابن عبد الحق وأحفله. يراجع ابن الأبار: التكملة، 166/2؛ والنهي: سير أعلام النبلاء، 138/13؛ وابن قفط: الوفيات، ص 310؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2؛ والحفاوي: تعريف الخلف، 137/2.
- (69) يروى في ترجمة أبي عبد الله بن زرقون (ت 586/1190م) أنه اختصر "المتقى" أنبل اختصار، وجمع بينه وبين "الاستذكار"، وتم فيه ما رأى تميمه، واستترك ما اقتضى نظره استراكه، وتبه على مواضع يجب التنبيه عليها. النيل والتكملة، 204/6.
- (70) وفي سير أعلام النبلاء للنهي، 138/13، أنه يقع في عشر مجلدات. لكن ربما تعلق الأمر بصحيف، إذ أن ابن الجزري ينقل عن النهي في غاية النهاية، 159/2، أن الكتاب يقع في عشرين مجلدا. ويدعو أن إسماعيل البغدادي اطلع على الروايتين معا، فأثبت الرواية الأولى في كتابه إيضاح المكون في النيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 357/1، ثم عاد عنها، وأثبت الرواية الثانية في كتابه -الآخر- هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 112/2.
- (71) وردت إشارة إلى أنه يوجد من الكتاب المجلدان الأول والسادس، مخطوطان، في خزانة القرويين بفلس (الرقم 174)، ومنه -أيضا- مجلد ضخم قديم في خزانة الرباط (176 أوقاف). الزركلي: الأعلام، ط 09، بيروت: دار العلم للملايين، 1990، 186/6.
- (72) الخفوظ لنا من شعره مقطوعات نادرة، من مثل ما قاله -على سبيل النظم- في عذ أحاديث صحيح البخاري: جَمِيعُ أَحَادِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَى الْبُخَارِيُّ خَمْسَةٌ وَسَعُونَ فِي الْعَدِّ وَسَبْعَةُ آلَافٍ مُضَافٌ وَمَا مَضَى إِلَى مَائَتَيْنِ عَدَدُ ذَلِكَ أَوَّلُ الْجَدِّ
- الرعي: برنامج شيوخه، ص 170؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112-113؛ والتعارجي: الإعلام، 99/3.
- (73) ذكره ابن الأبار في التكملة، 166/2.

- (74) يعرفه المناخرون بعنوان "السلي عن الرزية والتحلي برضى باري البرية". يراجع حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي كتب والفنون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، 404/1؛ وإسماعيل البغدادي: هدية العارفين، 112/2.
- (75) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 318/8-319.
- (76) المصدر السابق، 320/8. ويمكن مقارنته بما أورده المؤلف في السفر الأول، 114/1، في ترجمة الفقيه أبي العباس بن خليل.
- (77) البلي الإشبيلي (ت 581هـ/1155م) حول المسألة نفسها.
- (78) المصدر السابق، 320/8.
- (79) هدية العارفين، 112/2، ويتابعه على ذلك عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين، ط01، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1993، 3863؛ وعادل نويهض في معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر -، ط02، بيروت: مؤسسة نويهض فنية، 1980، ص77.
- (80) نشر ديوان نظم العقود ورقم الحلل والبرود، بتحقيق: محمد بن تلويت الطنجي، وسعيد أعراب، ومحمد بن العباس القباج، ومحمد بن تلويت التطوازي، وصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس.
- (81) راجع مقدمة الديوان.
- (82) ابن الأثير: التكملة، 166/2؛ وابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 318/8؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.
- (83) يستفاد ذلك من ترجمة والده التي انفرد بها ابن الأثير في التكملة، 125/3.
- (84) المصدر السابق، 125/3.
- (85) الغبريني: عنوان الدراية، ص73؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 05/4.
- (86) ابن الأثير في التكملة، 81/2.
- (87) ابن الأثير: التكملة، 166/2؛ وابن الزبير: صلة الصلة، 29/3؛ وابن الجزري: غاية النهاية، 159/2.
- (88) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والعارفي: الإعلام، 99/3.
- (89) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.
- (90) ابن الزبير: صلة الصلة، 29/3.
- (91) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.
- (92) ابن الأثير: التكملة، 166/2؛ والنهي: تاريخ الإسلام، 802/13؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.
- (93) السبكي: معيد النعم وميد النقم، تحقيق: محمد علي التجار وآخرين، ط02، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1993، ص68.
- (94) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 151/6.
- (95) ابن عبد الملك: التكملة، 228-229/1، 281؛ وابن عناري: اليان المغرب، ص358.
- (96) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8.
- (97) ابن الأثير: التكملة، 166/2؛ ويحيى بن خلدون: بغية الرواد، 112/1؛ والحفناوي: تعريف الخلف، 237/2.
- (98) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، 320/8.
- (99) النهي: تاريخ الإسلام، 751/13.
- (100) انتظم كتاب التشرف للتادلي (ت 628هـ/1230م) ما لا يقل عن ثلاثين ترجمة لفقهاء، يرى المؤلف أن اسم "الصوفي" يصلح على جميعهم.

- (100) ابن الجوزي: غاية النهاية، 2/159.
- (101) يحيى بن خلدون: بغية الرواد، 1/112.
- (102) ابن الأثير: التكملة، 2/166.
- (103) لا يرد في الصحيحين ولا في السنن، وورد لدى الغزالي في إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، د.ت.، 1/303، 4/178، لكن ليس بوصفه حديثاً.
- (104) عنوان الدراية، ص 61.
- (105) برنامج شيوخه، ص 170-171.



## المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة.

~~~~~ د محمد البركة \*

تقديم: إن الرغبة في تجاوز الهيكل الخارجي للأحداث التاريخية التي عرفتها الدولة المرابطية خلال سنواتها الأخيرة، هو الداعي للبحث في هذا الموضوع، إذ لا يكفي أن يكون تسارع الأحداث التي أسهمت في سقوط الدولة، تعبير حقيقي عن كل ما جرى، لولا ما أحاط هذه الأحداث من عوامل مسهمة، قد يكون من بين أهم عناصرها المكان أو المجال ببعده الجغرافي السياسي، لا الجغرافي فقط، فعلى قدر سعي الباحثين إلى إبراز مكانة الرباطات والثغور التي قامتها الدولة المرابطية في جميع مناطق مجال سيادتها، وخاصة تلك التي تقع في موضع التماس بينها وبين خصومها المحتملين خلال مرحلة بناء الدولة، فإن انهيار هذا الثغر أو ذلك خاصة منه المسهم في حماية الدولة، قد يكون سببا رئيسا إلى جانب أسباب أخرى في انهيار الدولة أو الإعلان المباشر عن بداية الانهيار؛ إذ النهاية السياسية للدولة المرابطين لا تفهم على وجهها الصحيح، إلا إذا وضعت في إطار الصراع مع الموحدين<sup>1</sup> من جهة، وفي إطار الصراع على المجال وكسب الولاء من جهة ثانية.

وإذا كان أغلب الباحثين قد أبرزوا- فقط- دور دعوة ابن تومرت في أفول دولة المرابطين، فإن الدعوة لوحدها لا يمكن أن تكون كافية لإسقاط الدولة رغم وجود العصية، لولا وجود عوامل أخرى لا تتعلق بالبيئة المساعدة على اعتناق الدعوة، وإنما عوامل بعضها مرتبط بدرجة الوعي بمكامن الضعف في جسم الدولة المرابطية، خاصة إذا كان هذا الضعف مجالي، ضعف سعت الدولة عبر إجراءات متعددة وسريعة للتغلب عليه، لكن يبدو أنه ظل حاضرا

<sup>1</sup> - أستاذ باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله- الكلية متعددة التخصصات بتازة- المغرب.

وبقوة في وعي أصحاب وقيادات الدعوة الجديدة، ذلك بأن لكل دولة مكان ضعفها، ومسار الوعي بالضعف من طرف الخصوم هو المسهم الرئيس في إيقاع الجرح وإعلان النهاية.

فما هي العوامل التي ساعدت الموحدين للتفكير في خرق الجهة الشرقية مجال سيادة المرابطين؟ وكيف استطاعت الدعوة الجديدة تلمس قيمة الواجهة الشرقية إلى درجة الربط بين سقوطها وإعلان نهاية الدولة؟ بل لماذا سعى الأمير المرابطي جاهدا لحمايتها رغم الضعف العسكري للدولة؟ وما هو موقع تلمسان من استراتيجية الدولة حفاظا على نفسها وتثبيتا لبقائها ووجودها؟

المجال وبداية الوعي بأهميته الاستراتيجية: إن التطور الدقيق الذي طرأ على وضعية المجال بنظر بعض الباحثين، من كونه انتقل من تصرف المجموعات الساكنة الأصلية (القبيلة)، إلى تصرف الحكم المركزي المتصاعد الساعي إلى توظيفه في التوزيع والتعمير والترحيل والاحواء، هو تطور بارز وجلي، فإذا كانت أيام الموحدين الأوائل تكشف عن هذا التطور، فإن الاستشعار بقيمته ظهر خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، وإلا ما هي قيمة مجال تلمسان في حماية الدولة المرابطية؟ ولماذا هرع الأمراء المرابطون إلى حمايتها؟

لذلك فإن البحث في هذا الموضوع هو محاولة تريد أن تعرض للعالم منهج يبحث قيمة المجال في قيام الدول أو انهيارها، انطلاقا من كون رمزية المجال تفرض على الباحث أخذه بالاعتبار، وهذا يعني أن قيمته في مجموع الأحداث لا تكاد تنحصر أو تحد، لذلك فإنه لما وجدنا مجال تلمسان لا يحظى إلا بالقليل واليسير من الانتباه، من طرف الباحثين المهتمين بالتاريخ المرابطي، كان لا بد أن نسجل عنه بعض الملاحظات، ونجمع له بعض المعلومات المعروفة به، خاصة وأن مجال تلمسان ليس مجالا ثانويا عند أمراء المرابطين، بل مجال رئيس، له دور كبير في حماية الدولة من جهة، واستمراريتها أو أفولها من جهة ثانية، فالدفاع عنه من طرف الأمراء حتى الاستشهاد (تاشفين بن علي شهيد تلمسان)، دليل واضح على حيويته ومركزته في مشروع الدولة.

ولما كانت الملاحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية غير مستوفية للبحث برأينا، ليس من باب البحث في عوامل انهيار الدولة، بل من زاوية الاستماتة في الدفاع عن المشروع المرابطي وبقائه، فإن البحث في الصعوبات والقرارات والإجراءات المتخذة لإنقاذه، تبدو للناس من بعيد

كلّما واضحة المعالم، لأنّها قصيرة الأمد متداخلة الأسباب، لكن سرعان ما يتبين أن هذا الوضوح ما هو في الحقيقة إلا خطوط رئيسة للملامح عامة تخفي الكثير من الأحداث السريعة، نظرا لأن زمن الأقول تتسارع فيه الأحداث، حتى أنه يصعب رصدها ورسم دقائق ملامحها، لذلك يأتي التعميم بالقول عند المؤرخين بعبارات جامعة، مثل (ولما توفي علي وخلص الأمر للأمير تاشفين، كثر الطائع لعبد المؤمن)؛ (وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصدا تلمسان، فلم يثق له من أهلها ما يريد، فقصده وهران، فحاصره الموحدون بها)؛ (فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش، فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة فتوفي علي بن يوسف في ثنائها)... عبارات تخفي الأسباب وروابط الأسباب، بل تخفي العوامل الحقيقية (القريبة منها والبعيدة)، التي دفعت بالأمرء إلى اتخاذ قرارات وإجراءات سلكت بها مسار الأقول.

تلمسان واستراتيجية الدولة: لقد جاء اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمدينة تلمسان في إطار الوعي بقيمة المجال في حماية الدولة، بل في إطار رؤية جامعة ساعية إلى تأمين الجهة الشرقية للدولة، وذلك بترهيب أعداء صنهاجة التاريخيين من زناتة، حيث أخذ المثلثون (البلاد من أيديهم زناتة- من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط)؛ وكذا يجعل بني عمومهم من صنهاجة جيرانا آمنين على دولة المرابطين، وكان الدولة المرابطية الفتية كانت تبحث عن تأمين جهاتها الثلاث قبل الإقدام على فتح الجهة الشمالية (الجوف)، فإذا كانت الجهة الغربية آمنة بجلودها الطيعية البحرية، والجهة الجنوبية (القبلة) آمنة بوجود القبائل الصنهاجية التي سهر الأمير أبو بكر بن عمر على حمايتها، حين توجه إليها عشية بداية تسرب النزاع والتفكك في جسم الحلف الصنهاجي، فإن الجهة الشرقية كانت تمثل محطة ازعاج للدولة، لذلك فتأمينها برأينا فتح مجال لتلبية النداء والاستجابة للأندلسيين لانقاد مجاهم من ضربات النصارى، خاصة بعد سقوط طليطلة سنة 788هـ، وفي ذلك تنفيذ للمبدأ الذي أعلاه المرابطون منذ خروجهم من الصحراء، وللمثل في رفع راية الجهاد والدفاع عن الإسلام.

وهكذا "وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة جهز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكريا ضخما وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوي، وبعثه إلى مدينة تلمسان، وكان أميرها يومئذ العباس بن يحيى أمير زناتة، فكتب أمير المسلمين إليه كتابا بالعفو عنه إن نزل دون قتال، فخرج هذا فحاصر من مراكش في أوائل شهر محرم ووصل إلى مدينة تلمسان عقب شهر صفر، فقدم

مزدلي الكتب إلى العباس بكتاب أمير المسلمين فعند وصول الرقاص بالكتاب إليه وقف عليه، فخرج من تلمسان فأنعم عليه الأمير مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه، ورحل الأمير مزدلي إلى تلمسان ودخلها في مهلة وحال هدنة ثم ولي عليها ابنه يحيى ابن مزدلي ورجع إلى مراكش، فكان وصوله إليها في نصف ربيع الآخر من هذه السنة ومعه العباس صاحب تلمسان فأنعم عليه أمير المسلمين بكل خير، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف إلى وطنه، وهو نفس الحدث الذي روى ابن أبي زرع وقوعه سنة 472هـ، حيث (بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو مدينة تلمسان، فسار إليها في عشرين ألفاً من المرابطين، فهتكها ودخلها، وظفر بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوي فقتله)، كل ذلك بغرض تقليص نفوذ زناتة وتأمين وجود الدولة المرابطية شرقاً، بل والاستفادة من العداء القائم بين الحماديين والزناتيين، رغم وعيهم التام بالعداء الذي يكنه الحماديون لهم كذلك.

ثم لما دخلت سنة 474هـ (طلع يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها، وفتح مدينة تنس ومدينة وهران...)، لكنه رغم ذلك لم يكن إلا ليحرص على تأكيد علاقة حسن الجوار مع دولة بني حمّاد الصنهاجية التي تقع شرق دولة المرابطين، وذلك لتأمين كل تحركاته المقبلة، الهادفة إلى التوجه نحو الشمال، خاصة أمام العداء الواضح الذي يكنه الحماديون للزناتيين، إلا أن بني حمّاد كانوا يتحينون الفرصة لضم أطراف من بلاد زناتة الواقعة تحت إمرة المرابطين، وتم لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف إلى الأندلس سنة 479هـ، لكن محاولاتهم باءت بالفشل، مما دفعت بالأمير يوسف بن تاشفين إلى السكوت عن الانتقام منهم، وعدم الدخول في حرب معهم، رغم وجود أسبابها، بل صالحهم رغبة في عدم فتح جبهة شرقية تستترّف جهد جيشه خلال تلك المرحلة.

وما يعزز الرغبة في تأمين الجهة الشرقية للدولة المرابطية، رسالة التعزية التي بعثها الأمير يوسف بن تاشفين للمصور الحمادي عندما توفي والده الناصر بن علناس الحمّادي سنة 481هـ، رسالة كشف يوسف بن تاشفين فيها عن نيته السلمية تجاه بني حمّاد، التي استمرت بين الفريقين لأكثر من عشر سنوات.

إن روح الرسالة التي كتبها أبو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر، دليل واضح عن طبيعة العلاقة التي كانت تجمع بين الطرفين، إذ أن روح



الرسالة العام كاف للدلالة على الحرب الباردة القائمة بين الطرفين، وهي تشير إلى وقوف الحمادين بقوة في وجه المرابطين، ووقوف المرابطين في وجه الحمادين، وأن مظاهر السلم بينهما لم تتحكم فيها وشائج القرابة الصنهاجية، بل المصالح وظروف الامتداد المرابطي، إذ لما بدأ المرابطون يحلون من مطامعهم بعد وفاة يوسف بن تاشفين، وبدأ انبعاث الخطر الموحد، تحسنت علاقاتهما<sup>7</sup>.

وهكذا، نظرا للمكانة الهامة التي باتت تحتلها تلمسان في استراتيجية الدولة، فإن المرابطين لم يكونوا مستعدين للتنازل عنها أو حتى السماح بوقوع اضطراب أمني قد يزعزع ولاعها ويربك سيادتهم عليها، ولعل هذا ما يفسر حرص الأمراء الشديد على حمايتها، وتخبر أقوى القادة لولايتها، إذ لما وصل إلى مسامع الأمير يوسف بن تاشفين سنة ١٠٥٥ هـ قيام ماخوخ الزياني عليه بها، واختطاطه لبلد بناحية تلمسان، خرج إليه الأمير محاربا (ففر أمامه وخرج من بلاده)؛ إذ العبارة التي استعملها ابن عذاري المراكشي بقوله (وخرج من بلاده)، لها من الدلالة ما يكفي للتعبير عن وجهة نظرة المرابطين في تلمسان، حيث ظل اعتبارهم لها حدا من حدود الدولة خلال تلك المرحلة، والتنازل عنها هو بداية تنازل عن الأراضي المرابطية الشرقية، ومن ثم التنازل على كل الأراضي، بل إن حديث ابن عذاري عن فرار ماخوخ الزياني باتجاه الشرق بقوله (ففر أمامه) أي أمام الأمير المرابطي، هو حديث عن ملاحقة جزئية، لم تكن لتجعل الأمير المرابطي يواصل متابعته في مجال سيادة آخر، قد يثير عليه الكثير من التدايعات غير المحمودة خلال مرحلة اعتبرت في نظر العديد من الباحثين مرحلة الاستقرار، خاصة وأنها جاءت بعد الانتهاء من ضم الأندلس.

إن التجاور الحاصل بين أوطان صنهاجة وزناتة من جهة، والعداء الواقع بينهما جراء العداء التقليدي بين البرانس والبر من جهة ثانية، قد حرك عند المرابطين الرغبة في القضاء على الزناتيين وتوحيد المجال بين الصنهاجيين، خاصة وأن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنا لها، ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها، بعد أن تعزز بفرار عدد منهم إليها عقب دخول يوسف بن تاشفين فاس سنة ١٠٥٢ هـ حيث كانت في الواقع تشطر الوطن الصنهاجي شطرين: شطر شرقي، وآخر غربي<sup>8</sup> لذلك بنى يوسف بن تاشفين بالقرب من تلمسان مدينة جديدة بالمغرب الأوسط هي عبارة عن

قلعة تحرس الزناتين، وتقف لهم بالمرصاد سميت بتكررات أي الحلة أو المعسكر، وتلك هي استراتيجية المرابطين عند كل مجال يحصل لهم فيه تماس مع غيرهم.

ويبدو أن ولاية تلمسان كانت تتمتع خلال حكم المرابطين باستقلال لا يقل عن استقلال باقي الولايات الأربع الأخرى، بل كانت أهميتها تفوق أهمية غيرها، بدليل رغبة بعض الأمراء المرابطين الفرار إليها والاحتماء بها، كما وقع مع أمير فاس يحيى بن أبي بكر سنة 500هـ، وما يدل على قيمة تلمسان في استراتيجية الدولة المرابطية، أنه لما ولي الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الأمر، واستتب له ذلك، أمر بإرسال (الأمير أبو الطاهر إلى مكناسة بالجيش، والأمير يحيى ابن أبي بكر بفاس، والأمير مزدي بتلمسان)، وكل ذلك إيماناً منه بضرورة تأمين انتقال السلطة، إذ وبعد أربع سنوات من توليه إمارة المسلمين، ووعا منه بأهمية مدينة تلمسان بل بضرورة تغيير الأشخاص واستبدالهم حتى لا تتغير سياسة الدولة وتحافظ على استراتيجيتها الجالية في حفظ الدولة، عمد الأمير إلى استدعاء الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين سنة 504هـ وأمره بالخروج من غرناطة وعينه واليا على مدينة تلمسان التي استقر بها.

وما يوضح الاهتمام الاستراتيجي للأمراء الدولة المرابطية وعنايتهم بتلمسان كقاعدة لبقاء الدولة، بل لحماية مكانتها وبقاء ركائزها والحفاظ على سيادتها، اهتمام أمراء الدولة بإقامة دار للسكة لضرب العملة المرابطية الذهبية (الدينار، نصف الدينار، وربع الدرهم)، حيث اعتبرت تلمسان من بين أهم الدور التي أقامها المرابطون لضرب عملتهم، سواء بغرض تأمين عملية التبادل التجاري بالعملة المرابطية أو بغرض فرض سيادتها في المجال الشرقي عبر العملة الذهبية وليس الفضية، حيث احتلت دار تلمسان مرتبة متقدمة من بين العشرين دار بعد سجلماسة وأغمات ومراكش وفاس ونول لمطة وسلا وسبتة في المجال المغربي.

ويبرز اهتمام المرابطين بتلمسان في بناء المسجد الجامع بها سنة 530هـ خلال عهد إمارة علي بن يوسف، وهو مسجد كانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، حيث رأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان ضمت لمسات ألدلسية، وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلّوا جامع قرطبة تقليداً مباشراً في لوحات الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة الخراب، وكذلك سقف المسجد الخشبي الشبيه بسطح مسجد قرطبة، إضافة إلى البلاط شبيه به أيضاً.

لقد واصل الأمير علي بن يوسف تنفيذ سياسة والده الأمير يوسف بن تاشفين اتجاه المنطقة الشرقية، فأعطاهما من كبير عنايته واهتمامه الشيء الكثير، حيث كان دأبه على حمايتها والحفاظ عليها ثابتا استراتيجيا، وليس عابرا مرحليا، فقد انتدب لحمايتها الأمير تاشفين بن علي الذي لاحق الموحدون في خططهم العسكرية الساعية لضرب الجهة الجنوبية والشرقية قطعا لأي دعم يمكن للدولة المرابطية أن تحصل عليه من بني عموميتها في الشرق أو بقاياها في الجنوب، بل وكسر شوكة الصنهاجيين بإحداث التفرقة بينهم.

المجال والاستراتيجية المضادة: وإذا كان الموحدون قد نجحوا في رصد مواطن الضعف في جسم الدولة المرابطية، بل استطاعوا رصد عمق استراتيجية المرابطين، فإن ذلك قد سهل عليهم ضرب ركن انخيار الدولة، مستغلين ترسيم الدولة للمذهب المالكي وتعسفها في فرض الوحدة السياسية على العديد من القبائل غير الصنهاجية، إضافة إلى استثمارهم لطبيعة التناقض الذي أحدثته الدولة ببعض قراراتها، مما قلب عليها ثورات في الأندلس كان أصحابها ينتظرون الوقت المناسب فقط لإعلانها، بل وأعطى للموحدين الفرصة للقضاء على المرابطين.

لذلك لما استفحل أمر الموحدون بالغرب، استدعى أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين بن علي من الأندلس بعد أن كانت جيوشه بها موفورة وراياته عندها منصورة، استدعاه وولاه عهده، وقدمه لمداخلة الموحدون ومباشرة حروبهم، فكانت بينه وبينهم وقائع أكثرها عليه، وقائع زادت بعد وفاة والده الأمير علي بن يوسف، الذي "عاقته الفتنة عن تمام أمره، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين بشيء من الأمور"، "وجاءت الأيام بخلاف ما أمل فيه فتشاعم به".

إذا لما توفي الأمير علي بن يوسف سنة 537هـ، خلفه ابنه وولي عهده تاشفين، حيث قُتل لهذا الأمير الذي لم تهزم له راية في الأندلس، أن يعرف طعم الهزائم في المغرب مرات أمام جيوش عبد المؤمن في نواحي السوس ثم في فاس وتلمسان، فاضطر في أثناء هذا الصراع أن يتقل من موضع إلى موضع، إلى أن كان نزول الموحدون عليه في تلمسان عند الصخرتين المتعارفتين عند أهل تلمسان فوق المنصورة في الجبل، وهناك "لم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد مدينة وهران".

لقد سلك عبد المؤمن بن علي الكومي خطة عسكرية محكمة، استفاد فيها من التضاريس الجغرافية المرتفعة التي سلكها أولاً، ومن السبق في الحلول بهذه المناطق قبل الجيوش المرابطية التي كانت تلاحقه ثانياً، ومن حالة الفراغ العسكري الذي كانت تعيشه المناطق الشرقية والجنوبية ثالثاً، وهو فراغ لا يعكس ضعف الدولة، بقدر ما يعكس اطمئنان الدولة على هذه الجهات وتقديم الأندلس عليها، قبل خروج عبد المؤمن، فهل تأخرت الدولة المرابطية في تأمين جهاتها الجنوبية الشرقية والشرقية بعد ظهور دعوة المهدي، أم أنها لم تكن لتقدر حقيقة الدعوة الناشئة، وقوتها في تهديها؟ أم أنها كانت مطمئنة رغم ضربات الموحدين، لكن موت أمير المسلمين علي بن يوسف فاجأها؟.

وهكذا أثبت رحلة عبد المؤمن العسكرية إلى جبال تادلا وجبال غمارة مدى الاهتمام الذي أولاه الموحدون لبعض الجهات، بل للجهة الشرقية خصوصاً، إذ ما كان عبد المؤمن ليخرج "من تلمسان يريد المغرب - إلا - بعد توحيد المشرق كله"، وهذا يعني قدرة الموحدين على رصد معالم الضعف ومكان الخور الجبالي في الدولة المرابطية، وإتباعهم لإستراتيجية القضم انطلاقاً من نقطة البدء، مقابل حالة الاطمئنان التي كان يشعر بها المرابطون اتجاه هذه المناطق، بما هي مناطق تابعة في ولائها إليهم، لذلك كان عبد المؤمن كلما وصلها وأوغل فيها قتلاً، حل بها تاشفين تفقدا لحالها، فلا يجد بها من يناصره ولا من يستعين به، "قتل - عبد المؤمن - من جبال تادلا وجبال غمارة، يقتل ويغنم، وسلك منها مستقبلاً الجبال، ما بين فاس وتلمسان، تغير سراياه يمنة ويسرة، وتبعه الأمير تاشفين، فكان الموحدون يسرون في الجبال المنيع، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من يواصله، ولا من يستعين به ويدخله، وذلك بسبب الإذبار وانقطاع الدولة والأنصار".

إن ضعف التقدير - برأينا - الذي طبع أمير الدولة المرابطية تاشفين بن علي اتجاه حركة عبد المؤمن، ليجسد مستوى إستراتيجية الموحدين، بما هي حركة لم تكن لتصل إلى المركز لولا بتر الأطراف، وأن البداية من جبال تادلا كان بهدف الوصول إلى جهة تلمسان قصد كسب ولاء الزناتيين المستوطنين بأحواز تلمسان الذين بايعوهم، وأعلنوا القضاء على المرابطين ودولتهم.

لقد تبين من مجموع الأحداث التي عاشتها الدولة المرابطية على عهد أبي المعز تاشفين بن علي، أن أمير المسلمين رغم قرته العسكرية وحكته القتالية بالأندلس، وكثرة تنقلاته، حتى أنه "لم يستقر فيها ببلد، ولا اجتمع بوالد ولا ولد"، كل هذا لم يكن عنده بنفس المستوى في بلاد المغرب، نظرا لضعف تمكنه من معرفة المجال، وعدم ضبطه من جهة، ونظرا لعدم تقديره لأهمية هذا المجال في حماية الدولة من جهة ثانية، إذ يكفي وعيه بذلك أن ينقله إلى تلمسان مباشرة دون ملاحقة الموحدين بالجبال أو متابعتهم، مادام أن رغبتهم في المنتهى تبغي الوصول إلى تلمسان وضمان ولاء الرناتيين لهم.

ويشهد أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الأشيري، أحد أبناء تلمسان الذين عاشوا خلال القرن السادس عن وصول المرابطين إلى تلمسان أثناء ملاحقتهم للموحدين، والدعم الذي حازوه من بني حماد إفريقية، فيقول: "ووصلت إلى الأمير تاشفين محلة من ملك أفريقية ابن حماد الصنهاجي برسم إمداده وإعانتة، وعزلما وصلوا إليه، برز إليهم بمجموعه، فملاً فحصى تلمسان خيلاً ورجالاً"، وهذا يدعو إلى التساؤل ليس عن السبب الذي راسل من أجله الأمير تاشفين بني حماد، ولكن عن الوقت الذي راسلهم فيه، وهو توقيت ينم عن وعيه المتأخر بمخاطرة الوضع الذي كانت تعيشه تلمسان في علاقتها ارتباطها ببقاء أطراف الدولة المرابطية، أي مركزية تلمسان في المشروع المرابطي.

وتكشف النصوص التاريخية خاصة منها تلك التي يوردها صاحب الحلل الموشية، أن دعم بني حماد للمرابطين لم يقتصر على الجهة الشرقية من بني عمومته، بل راسل الأمير تاشفين جهات مختلفة من الدولة "يستدعي أهلها، فوصله عسكر سجلماسة، وعسكر الإمداد من بجاية، ووصل من الأندلس ابنه الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين...، وذلك سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وكان عنده من الروم نحو أربعة آلاف فارس، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان".

إن هذا العدد الهائل الذي اجتمع للأمير تاشفين بن علي بتلمسان، ليكشف عن الإحساس الذي استشعره الأمير أثناء مواجهته للموحدين لحظة الإمارة وليس كما في السابق عند مرحلة القيادة، وكيف أن الجهة الشرقية للدولة المرابطية اعتبرت خط الدفاع الأول والأخير للدولة، أي أن الدفاع عن تلمسان كان في واقع السياسة المرابطية دفاع عن الوجود والبقاء المرابطين، وهذا ما يفسر سبب اجتماع كل تلك الوفود والجيش بتلمسان، مما يعني أن

مجال تلمسان مثل في بعده الاستراتيجي نقطة الحماية والتأسيس لمشروعين اثنين، نقطة الحماية والبقاء في استراتيجية المشروع المرابطي القائمة، ونقطة التأسيس والبداية في استراتيجية المشروع الموحيدي الناشئ، إنها حالة الرهان على المجال من أجل البقاء والوجود.

وهكذا لما اجتمعت لتاشفين بن علي جيوش كل تلك الجهات "أمر بعرض الجيوش، وسائر الوفود والجنود، والتميز عليهم، فميزوا وبرزوا، وعجب الناس من كثرة عددهم وعددهم واحتفالهم في الزينة، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا وجمالا، وعدة وكاملا، واصطفت العساكر من باب القرمادين إلى الجهة المتصلة بأصل الجبل"، فكان ذلك آخر جيش احتفل به المرابطون؛ فرغم عدده وعدته "إلا أن الإدبار كان له محاذيا، وبانقطاع دولته مناديا"، مما يعني أن محاولات الإنقاذ التي استعجل الأمير تاشفين بن علي القيام بها في آخر أيامه، لم تكن لتسعهفه في حماية الدولة، بل لم تكن لتمنع عنه سقوط الدولة "والدفاع عن ملك بلغ مداه، وتمت أيامه".

لقد كشفت اللحظات الأخيرة من عمر الدولة المرابطية، خاصة على عهد الأمير تاشفين بن علي، أن الدولة لم تكن شهيدة أرض الأندلس سياسيا بل عسكريا، تبعا للجهد الذي قدمته هناك والتضحيات التي قامت بها من أجل الحفاظ على أرض الأندلس، لكنها في المقابل كانت شهيد أرض تلمسان سياسيا قبل عسكريا تبعا للمكانة الاستراتيجية التي كانت تحظى بها في المشروع المرابطي.

خاتمة: إن المرابطين مهما قيل عنهم وعن جهودهم، فإن المسافة الزمنية للقاتل على اختلافها، لا بد لها أن تنعكس على تأسيس المعرفة، بل لا بد لها أن تنعكس على تحديد الرؤية والموقف بالحقبة قيد الدراسة، بعيدا عن التشويش أو التحميس والمبالغة، والأمر نفسه عند الحديث عن المسافة المصيرية وحجم الإطلاع عليها، الذي لا بد له أن ينعكس على التحليل والقراءة، فكلما كانت النظر جامعة بين الشمولية والدقة إلا وتحقق القراءة المناسبة، وكلما كانت النظرة جامعة بين السوابق والواحق، كلما كانت جدية بالاهتمام، لذلك فإن ما قيل في حق المرابطين من طرف القاضي أبي بكر بن العربي ليكفي للحكم عليهم، فهم- أي المرابطون- "قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم، وانجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم، ولا وسيلة، إلا واقعة الزلافة، التي أنسى ذكرها حروب

الأوائل،... لكان ذلك من أعظم فخرهم، وأربح تجرهم"، فهم من قالوا للأمير تاشفين بن علي أيام ولايته بالأندلس حين استحضرهم ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم "الدولة لنا، فإما تركها أو حمايتها، لا يعلم منا أحد إلى لقاء عدونا، فإذا نحن استشهدنا فالأمر لمن شاء الله بعد"، إنها المعرفة بالقصد عندهم، والمعرفة بالتاريخ عندنا.

إن المحاولة التي سعينا إلى إبرازها هي محاولة للتأسيس بأهمية هذا التوجه الدقيق للبحث في فقرات من تاريخ العصر المرابطي، حلقات نرى أن تناولها يمكن أن يكون اعتمادا على المقاربة المشار إليها، في غياب إستغرافية مرابطية، مقارنة اعتمدنا في عرضها على مادة مصلرية بعديّة، مما يدعونا إلى الحيلة والحنر، نظرا لوجود نزعة التحيز والميول.

#### الهوامش:

- 1- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط5، 1998م، ج4 صص 96-98/ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، 2001م، ج4 ص59/مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث بيروت، ط1، 1992م، ج2 ص43.
- 2- القبلي محمد، الدولة والولاية والجمال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعلات)، دار توبقال للنشر البيضاء، ط1، 1997م، ص53.
- 3- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة البيضاء، ط1، 1979، ص130.
- 4- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب البيضاء، ط7، 1978م، ص296.
- 5- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط4، 2005م، ج7 ص126.
- 6- ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/113.
- 7- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1990م، ص74/ابن الخطيب، الإحاطة: 3/274-275.
- 8- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/29. مجهول، الحلل الموشية: 28.
- 9- ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، راجعه عبد الوهاب بمنصور، المطبعة الملكية الرباط، ط2، 1999م، ص181.
- 10- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الشروق القاهرة، ط1، 1980م، ص176.
- 11- عويس، دولة بني حماد: 179.
- 12- ابن أبي زرع، الأئیس المطرب: 181.

- 13- عويس، دولة بني حماد: 180.
- 14- عويس، دولة بني حماد: 175.
- 15- عويس، دولة بني حماد: 180.
- 16- ابن خاقان الفتح، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، مطبعة التقدم العلمية مصر، 1302هـ، ص 109-110 / ابن بسام الشتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عيسى، الدار العربية للكتاب، 1978م، 1/2 / 257-260 / الأصفهاني العماد، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر النسوقي وآخر، دار النهضة مصر القاهرة، 2/4 / 346-347.
- 17- عويس، دولة بني حماد: 180-183.
- 18- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 58.
- 19- ابن أبي زرع، الأيس المطرب: 179.
- 20- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي نصر، ط2، 1996م، ص 71.
- 21- المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عيسى، دار صادر بيروت، ط 1997م، ج 2 ص 175/حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 197. 347.
- 22- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين: 401.
- 23- ابن أبي زرع، الأيس المطرب: 200.
- 24- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 4 ص 48/ابن الزيات، الشوف إلى رجال الصوف، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط2، 1997م، ص 110.
- 25- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 55.
- 26- حافظي حسن علوي، المرابطون (النوالة الاقتصاد والمجتمع)، جنور للنشر الرباط، ط1، 2007م، ص 48.
- 26- مجهول، الحلل الموشية: 121. 130. ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446.
- 27- المراكشي، المعجب: 295.
- 28- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 99.
- 29- ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1 ص 446/ التوري، نهاية الأرب في فنون الأدب (تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية البيضاء، 1984م، ص 393/ شعيرة محمد عبد الهادي، المرابطون تاريخهم السياسي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1969م، ص 156.
- 30- أبو بكر بن علي الينق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1971، صص 49-57/ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 104.
- 31- المراكشي، المعجب: 295. ابن خلكان، وفيات الأعيان: 7/ 126.
- 32- ابن عذاري، البيان المغرب: 4/ 98-99.
- 33- الينق، أخبار المهدي: 60.
- 34- مجهول، الحلل الموشية: 130.
- 35- مجهول، الحلل الموشية: 130.
- 36- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 446. 448. 451.



- 37- مجهول، الحلل الموشية: 133. التويحي، نهاية الأرب: 393.
- 38- تكرر ذكر (تبع) أي تبع تاشفين جيش الموحدين، أربع مرات في الحلل الموشية 130. 133. وهي نفس العبارة التي ذكرها ابن عشاري (خرج تاشفين بعساكره لتبع للموحدين). البيان المغرب: 4/ 99. ابن أبي زرع، الأئيس المطرب: 209.
- 39- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن أبي زرع، الأئيس المطرب: 209.
- 40- مجهول، الحلل الموشية: 131. ابن عشاري المراكشي، البيان المغرب: 4/ 103.
- 41- التويحي، نهاية الأرب: 393.
- 42- مجهول، الحلل الموشية: 131.
- 43- مجهول، الحلل الموشية: 131.
- 44- ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 454.
- 45- محمد القبلي، الدولة والولاية الجبال في المغرب الوسيط: 11.
- 46- مجهول، الحلل الموشية: 140.
- 47- مجهول، الحلل الموشية: 123.





## الشريف التلمساني وإسهاماته الثقافية

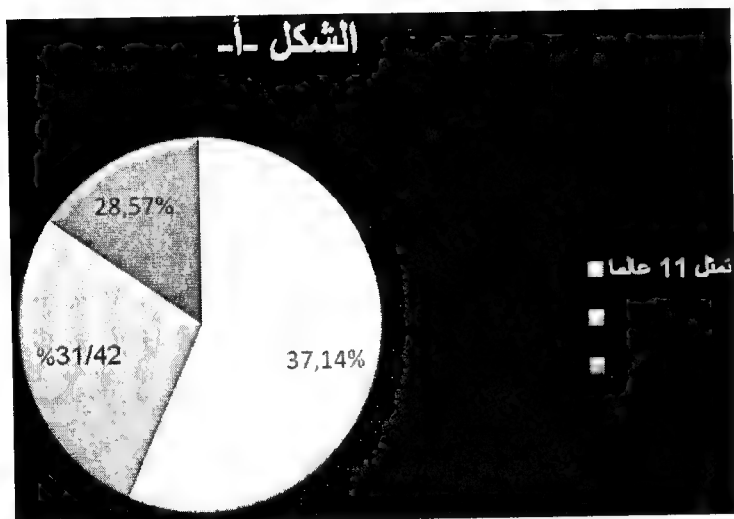
أ. محمد بوشريط\*

مقدمة: لا يخامرنا الشك أن تلمسان قد أنجبت العديد من العلماء الذين خاضوا في ميادين معرفية شتى، إذ لم تبق شهرتهم حبيسة الدار، بل طارت شرقا وغربا وهذا ما تشهد به مؤلفات بعض المؤرخين الذين ترجحوا لهم وأرخوا لتراثهم الثقافي، إلا أن هذا التراث منه ما نجا من عاديات الزمن، ومنه ما تلاعبت به رياح الدهر، أو عبثت به أيدي العابثين، ولكن هذا القليل الذي بقيت منه بعض الآثار وازدانت به دور المكتبات والأرشيف يمكن له أن يعطينا فكرة واضحة على هذا الإرث الحضاري الذي خلفه علماء هذه الحضارة العلمية، وكان من هؤلاء العلماء الذين تركوا بصماتهم في هذا الميدان وحق لتلمسان أن تفخر بهم عالمها الشريف التلمساني.

وقبل التطرق إلى إسهامات هذا العالم الجليل، فحري بنا أن تكون لنا إطلالة ولو موجزة حول مشاركة بعض علماء هذه الحضارة العلمية، ومدى إسهاماتهم في ميادين معرفية شتى، وقد ركزنا في هذه العجالة على نماذج من علماء تلمسان الذين ظهوروا على الساحة الثقافية ابتداء من القرن السابع الهجري (13م) إلى غاية القرن التاسع الهجري (16م)، وهذا ما يوضحه لنا هذا الرسم البياني.

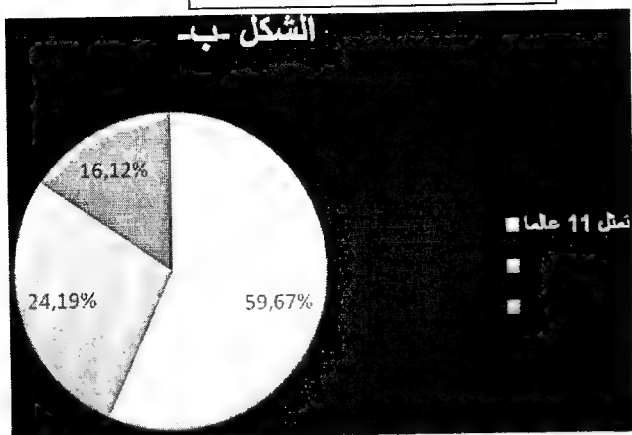
\* - أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ - جامعة معسكر.

### الشكل أ-



تمثل 11 عالما  
تمثل 10 علماء  
تمثل 13 عالما

### الشكل ب-



علوم الشريعة

الأدب

علوم أخرى

تمثل الدائرة النسبية شكل- أ- عدد العلماء التلمسانيين الذين وقع عليهم الاختيار، وكانت لهم مشاركة فاعلة في ميادين علمية شتى، اذ شهد القرن السابع الهجري (13م) مشاركة ما يربو عن 4231, % من هؤلاء العلماء الذين كانت لهم مثل هذه الإسهامات، ولم تقف عطاءات هؤلاء، بل استمرت إلى غاية القرن الثامن الهجري (14م) وستواصل لتسجل نسبة 5728, % لتشهد بعدها ارتفاعا ملحوظا في القرن التاسع الهجري (15م) اذ وصلت إلى 1437, % فأصبحت سوق الثقافة بتلمسان سوقا نابضة.

وأما عن أسباب رواج الثقافة بهذه الحاضرة، فيرجع إلى:  
أ- الازدهار الاقتصادي الذي شهدته هذه العاصمة الثقافية، مما وفر الأمن والاستقرار، فكل ذلك ساعد العلماء للتفرغ لعطاءاتهم الفكرية.

ب- اعتناء الحكام بالجانب الثقافي، فقد كانوا هم من أهل العلم والثقافة فاهتموا ببناء دور العلم والمساجد، ولم يكف هؤلاء بذلك بل أحضروا يقرّبون العلماء إليهم ويغذّون عليهم من الأموال، فكثرت العلماء الذين تباهى بهم بلاط بني زيان، فحفلت لذلك مجالسهم بالأدباء والعلماء، فأصبحت تلمسان مزارا علميا يقصده كل من أراد أن ينهل من معين علمائها، فقصدها من كل حذب وصوب.

ج- مكن اهتمام هؤلاء الحكام الذين عنوا بشؤون الثقافة من ظهور شخصيات تلمسانية لمعت في سماء المغرب الأوسط: مثل الشريف التلمساني.  
أما الدائرة النسبية شكل- ب- فهي تمثل مشاركة علماء تلمسان في عدة علوم، وهذا ما يظهر لنا جليا من خلال استقطاقنا لهذه النسب.

فالنسبة الأولى والمثلة بـ 6759, % تمثل مساهمة هؤلاء العلماء في علوم الشريعة، منها: الفقه والحديث والتفسير والفرائض، وأما الأدب بشعره ونثره، فيقدر بنسبة 1924, % وهو بذلك يحتل المرتبة الثانية، ثم تأتي في المرتبة الثالثة علوم أخرى تشمل الحساب والهندسة والطب، بنسبة 1216, % ويعزى هذا التفاوت في النسب إلى:

أ- كان طالب العلم أول ما يتلقاه منذ حداثة سنه هي علوم الشريعة، ثم قفّت العلماء على الفقه، لأنه كان من العلوم التي كانت توصل صاحبها إلى الارتقاء إلى المناصب العلية وينال بها الخطط السنية الرفيعة، كخطة القضاء، إضافة إلى أن الفقيه كان يحظى بمكانة مرموقة في المجتمع.

ب- أما الأدب، فقد احتل المركز الثاني ضمن هذه العلوم، باعتبار الأدب له علاقة مباشرة مع علوم الشريعة وبخاصة العربية بلغتها ونحوها، كما كان الأدباء، وبصفة خاصة النثر، يحوزون على موطن قدم في البلاط، فكانت تسند لهم مهمة إنشاء الرسائل بمختلف أنواعها، فأشرفوا على ما كان يعرف حينها بديوان الرسائل.

ج- أما باقي العلوم الأخرى، فكان اهتمامهم بها قليل، وكان ظهورها متأخرا فأنحصرت هذه العلوم بأيدي علماء قلّة، وبرز بعضهم في الحساب باعتبار هذا العلم له علاقة مباشرة بالفرائض الذي يحتاج إلى الحساب لتوزيع الموارث.

أضف إلى ذلك، عدم إقبال طالب العلم على بعض العلوم كعلم الكلام والفلسفة، لأنه في رأي البعض قد يخرج صاحبه عن الدين، وقد يكفر كل من يخوض فيه.

- التعريف به ونسبه:

- التعريف به: هو محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن محمد بن القاسم بن حمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعرف في المصادر التي ترجمت له بالشريف التلمساني.<sup>(1)</sup>

لقد اختلفت المصادر في السنة التي ولد فيها، فقد ذكر ابن خلدون على لسان الشريف التلمساني نفسه - باعتبار أن ابن خلدون تتلمذ على يديه - أنه ولد سنة 710هـ الموافق لسنة 1310م.<sup>(2)</sup> وقد نقل عنه نفس السنة كل من التبركي<sup>(3)</sup> وابن مريم<sup>(4)</sup> في حين ذكر لنا البسيلي<sup>(5)</sup> والسراج<sup>(6)</sup> أن مولده كان عام 716هـ/1316م.<sup>(7)</sup> إلا أن هذا التاريخ الأخير لا يمكن اعتماده لسببين الأول: أن ابن خلدون ذكر سنة 710هـ على لسان الشريف التلمساني، وهي رواية مباشرة صادرة من المعني بالأمر أضف إلى ذلك فالونشريسي ذكر أن سنة 716هـ هي خاطئة، وعليه يمكن لنا ترجيح السنة التي اعتمدها ابن خلدون في كتابه الرحلة، باعتبار أن التلميذ أدري بشيخه.

أما فيما يتعلق بسنة وفاته، وهي سنة 771هـ/1370م، فقد اتفقت كل المصادر التي ترجمت له على نفس السنة، ولم يرد أي اختلاف بين من أرخوا لهذه الشخصية العلمية.<sup>(8)</sup>

نسبه: ينتمي محمد بن أحمد التلمساني إلى أسرة تتنسب إلى الأشراف، فقد رفع التبركي نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهذا ما صرح به ابنه عبد الله، ومنه

جاءت تسمية الجلد باني شرف هذا البيت المنيف بالشريف التلمساني.<sup>(9)</sup> وقد أكد نسبه هذا السراج في فهرسته<sup>(10)</sup> حين ترجم لمكانته العلمية فقال: "الشريف نسبا، العظيم منصبا..."<sup>(11)</sup> ونسبه هذا لا غبار عليه، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون: "وكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم، وربما يغمز فيه بعض الفجرة، فمن لا يزعه دينه، ولا معرفته بالأنساب، فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه"<sup>(12)</sup>.

أما نسبته إلى العلوي، فنسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلوين<sup>(13)</sup> وقد وافقه الرأي في ذلك ابن مريم<sup>(14)</sup>، وعلى الرغم من أن التبكيتي قد نقل عن ابن خلدون، فقد نسبته إلى العلوي، ثم أضاف قوله: وهذا نسبة للعلوين وهي قرية بتلمسان<sup>(15)</sup>، وتبعه في ذلك الحفناوي<sup>(16)</sup>، في حين ذكر صاحب شجرة النور الزكية نسبته إلى هذه القرية بهذا الرسم - العلويني.<sup>(17)</sup>

من حصاد هذه الفقرة يظهر لنا الاختلاف الوارد في رسم حروف هذه الكلمة وأظن أن هذا الاختلاف قد يكون خطأ في النقل أو من النسخ، وبذلك أرجح النسبة التي وردت عند ابن خلدون وهي: العلوي، والتي نقلها عنه ابن مريم، فعودة إلى مجهول توضح هذا اللبس، فعند تعريفه لتلمسان يذكر في مضان هذه الترجمة قوله: "وكان هذا المغرب الأوسط قد تملكه العلويون من بني إدريس".<sup>(18)</sup>

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فالنسبة الواردة عند ابن خلدون - العلوي - هي الأصح باعتبارها تنتهي إلى العلوين من الأدراسة الذي حكموا المغرب والأندلس.

## 2- شيوخه وتلامذته:

### شيوخه:

- المشدالي: هو عمران بن موسى بن يوسف المشدالي المكنى بأبي موسى (670هـ-745هـ/1271م-1344م)، كان قتيها حافظا علامة من المحققين الكبار<sup>(19)</sup>، أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد، جد المقرئ صاحب النفع، الذي قال في حقه: "هو حافظها"<sup>(20)</sup> ومدرسا ومفتيا درس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وتميز بتساع أفقه في الفقه والجدل، وكان له باع فيما سواها من العلوم.<sup>(21)</sup> من آثاره: "اتخاذ الركاب من خالص الفضة" رسالة وله فتاوى نقل بعضها في المعيار.<sup>(22)</sup>

— ابنا الإمام: هم أخوان من "برشك" من أعمال تلمسان، وكان اسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت741هـ/1340م) كان من الفقهاء علامة، آخر صدور أعلام العرب، أجمع كتاب التراجم والسير أنه كان من أشهر علماء عصره، فلم يكن فيه أعظم رتبة ولا أعلم منه، فطارت شهرته شرقا وغربا.<sup>(23)</sup>

وأما الأخ الأصغر، فهو أبو موسى عيسى بن محمد (ت749هـ/1348م)، كان آخر فقهاء تلمسان، وقد وصفته كتب التراجم بـ "العلامة النظار، آخر أهل النظر، جمع أشتات المعارف".<sup>(24)</sup>

— السطي: هو محمد بن علي بن سليمان (ت749هـ/1348م) ينسب إلى قبيلة سطة من بطون أوربة، كان أحفظ الناس للمذهب وأفقههم فيه، أخذ الفقه على أبي الحسن الصغير<sup>(25)</sup> والفرائض على أبي الحسن الطنجي<sup>(26)</sup>، فبه في الفقه وأصبح فيه نبيا لا يجارى فيه حفظا وفهما، كانت تقرأ عليه تبصرة اللخمي<sup>(27)</sup> وكان يقوم هو بتصحيحها من إملائه وحفظه.<sup>(28)</sup>

— الآبلي: هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني (681هـ—757هـ) أصله من آبله<sup>(29)</sup> <sup>(30)</sup>، وقد وصفه تلميذه المقرئ بالشيخ العلامة بسبب علو منزلته العلمية<sup>(31)</sup>، كان أعلم خلق الله في فن المعقول<sup>(32)</sup>. قرأ كتب التعليم وحذق فيها ولما طال الحصار الكبير بتلمسان<sup>(33)</sup> خرج منها وأدى فريضة الحج، ثم عاد وقرأ المنطق على الشيخ أبي موسى عيسى بن الإمام، ثم خرج من تلمسان قاصدا مراكش ولزم بها العالم الشهير أبا العباس ابن البناء<sup>(34)</sup>، فأخذ عنه العلوم العقلية، فأصبح من جملة العلماء، حتى حذق في العلم العديد من تلامذته، نذكر منهم: الشريف التلمساني وابن مرزوق الجدد وأبي عثمان العقابي وابن خلدون وغيرهم.<sup>(35)</sup>

ب— تلامذته:

— عبد الله بن محمد الحسني ابنه (748هـ—791هـ/1347م—1390م): أخذ العلم عن والده، فأصبح بعدها إمام وقته في التفسير والجدل والمنطق والطبيعات والإلهيات والهندسة والتصوف، وقرأ الصحيحين، كان عالما باللغة والفقه، وتعلم النحو على ابن حياني<sup>(36)</sup>، وقد جلس هذا الابن مجلس أبيه بعد وفاة هذا الأخير، حتى قال بعض أكابرهم: "انضمت به في الأصول أكثر من أبيه لحسن بيانه وتقريبه".<sup>(37)</sup>



- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الاشيلي (732هـ-808هـ/1332م-1406م) قاضي القضاة، العلامة الحافظ المؤرخ، وقد رفع من منزلته العلمية ابن الخطيب، فقال: "متقدم في فنون عقلية ونقلية... كثير الحفظ... بارع الخط"<sup>(38)</sup>، فأصبح من العلماء والأدباء الحكماء، ومن المؤرخين الذين طارت شهرتهم شرقا وغربا، وأكبر أثر له كتابه الذي اشتهر به، فطبقت شهرته الأفاق "ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر" إضافة إلى مؤلفات أخرى نذكر منها: "تلخيص الحصل" لفخر الدين الرازي و "شرح الرجز" لابن الخطيب في الأصول، وشرح قصيدة ابن عبدون.<sup>(39)</sup>

- الشاطبي: هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المكنى أبا إسحاق (ت790هـ/1388م)، كان إماما جليلا، من المجتهدين احققين والفقهاء المحدثين، خاض في علوم اللغة والنحو، وفي بيان منزلته العلمية يقول التنبكي: "كان من أفراد محققي العلماء الأثبات وأكبر متقني الأئمة الثقات، ذو القدم الراسخ في العلوم، والإمامة العظمية في الفنون، فقها وأصولا وتفسيرا، وحديثا وعربية وغيرها". له عدة تأليف نذكر منها: تأليف نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الإجادة وكتب المجالس شرح فيه آيات وأحاديث من كتاب البيوع في البخاري، وشرحه على ألفية مالك في أربعة أسفار، وغيرها من التأليف.<sup>(40)</sup>

هذه نماذج من بعض من تلقوا عن عالمنا هذا، العلم في ميادين معرفية شتى، فكان هؤلاء الطلبة أوفر حظ في زمنه بما أخلوه عنه، وذلك بسبب حسن إلقائه للدروس والطريقة السهلة التي اتبعها في تعليمه، إذ كان لا يفضل عليهم أحدا مهما كانت منزلته في المجتمع، إذ كان يجمعهم في بيته، ويترك لكل واحد من تلامذته حرية اختيار العلم الذي يريد الانتفاع به. ومن جهة أخرى، كان يتكفل هو بإطعام هؤلاء الطلبة بما يحتويه منزله من طيب الطعام، مما جعلهم يفضلونه على سائر الشيوخ.<sup>(41)</sup>

لقد أقبل الشريف التلمساني على مزاوله التعليم في حياة شيوخه مما أكسبه تجربة في هذا الميدان والتفوق فيه، فأقبل عليه الطلبة من كل حذب وصوب<sup>(42)</sup>، وتخرج على يديه صدور العلماء ونجباء الأولياء وأعيان الفضلاء عدد لا يحصى<sup>(43)</sup>، وعلى حد قول التنبكي: أنه لم ينتفع الطلبة بأحد في مصر من الأمصار ما انتفعوا في زمانه.<sup>(44)</sup>

2- مكانته العلمية: توضح لنا مكانة هذا العالم من خلال أقوال العلماء الذين أثروا عليه وعلى علمه، فمن هؤلاء:

ابن مرزوق الحفيد<sup>(45)</sup> تلميذه، والذي قال في حقه: أنه كان من أعلم شيوخ أهل عصره باتفاق الجميع.

ونحن نحو السراج في فهرسته، فقال: "العالم العلامة الشهير الكبير القلوة... كان أوحد رجال الكمال علما... عالما بعلوم المنقول والمقول، بلغ درجة الاجتهاد أو كاد، أحد راسخي العلماء وآخر الأئمة المجتهدين."<sup>(46)</sup>

وفي بيان منزلته في العلم، قال ابن خلدون: "العلامة فارس المقول والمنقول"، وأضاف مخلوف "الفهامة المحقق العمدة الحافظ، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء أعلم من في عصره بإجماع."<sup>(47)</sup>

وقال البعض الآخر: "تسيج وحده، انتهت إليه إمامة المالكية بالغرب وضربت إليه أباط<sup>(48)</sup> الإبل شرقا وغربا، فهو علم علمائها ورافع لوائها، أحيا السنة وأمات البدعة، بهر بعلمه العقول."<sup>(49)</sup>

إن مكانة هذا العالم لم تأت من فراغ، بل نجده تصدر لتلقي العلم وهو لا يزال حدثا، إذ كان يبلغ من العمر آنذاك إحدى عشرة سنة، وكان أثناء حضوره حلقات العلم يبقى ملازما لشيخه لأشهر عدة لا يتزع ثوبه ولا عمامته لكثرة انشغاله بالعلم، حتى أنه إذا غلب عليه النوم، نام قليلا ثم يرجع بعدها إلى حلقات العلم.<sup>(50)</sup>

وخير من يشهد اعتكافه على طلب العلم ابنه عبد الله، حيث يروي لنا أنه بقي مدة ستة أشهر لم ير أولاده، فكان يقوم في الصباح الباكر وهم نيام، وذلك كله بسبب انشغاله بالعلم، وحتى أنه في أثناء صومه في شهر رمضان، كان يوضع له الطعام ليفطر عليه، فينشغل عنه بطلب العلم، حتى يلحق عليه سحر ذلك اليوم ولن يتناول منه شيئا حتى يصبح ويواصل صومه، وكل ذلك لشغله الشاغل بأمور العلم، حتى أن بعضهم وجد بين يديه سبعين كتابا يطالعها.<sup>(51)</sup>

من خلال حصاد الفقرات السالفة الذكر، توضح لنا جلليا مكانة الشريف التلمساني العلمية، والتي شهد له بها تلامذته وشيوخه، وهذا ما يتأكد لنا من قول الآبلي، فإذا ما أشكلت

عنده مسألة من المسائل، فكان يقول: "انتظروا الشريف". وكان ابن عرفة يقول له: "غايته في العلم لا تلحق".<sup>(52)</sup> كما كان لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة والتأليف البديعة، يرسل له بتأليفه، ويطلب من الشريف التلمساني أن يكتب عليها بخطه.<sup>(53)</sup>

2- إسهاماته الثقافية: لقد أجمعت كتب التراجم والطبقات على أن الشريف التلمساني كانت له إسهامات فاعلة في ميادين معرفية شتى.

ففي الفقه كانت له فيه إسهامات جلية، وهذا ما يفهم من مضان كتب التراجم التي فصلت في ترجمته، فهذا السراج قال: "شيخنا الفقيه العالم العلامة الشهير" ثم يضيف قائلا: "بأنه كان عالما بعلوم المنقول".<sup>(54)</sup>

وما يدل على تمكنه في هذا العلم، فإن الفقيه موسى العبدوسي<sup>(55)</sup> وعلى الرغم من أنه أسن منه، والمعدودين من كبار فقهاء فاس، كان يبحث عن فتاويه وتقائده ليكتبها<sup>(56)</sup> إضافة إلى شهادة القاضي أبو علي بن هدية<sup>(57)</sup> الذي بين لنا مكانته في هذا العلم، فقال: "كل فقيه في زماننا هذا، أخذ ما قهر له من العلم الا الشريف، فالله أعلم حيث ينتهي".<sup>(58)</sup>

ويوضح لنا التبيكي أن له في هذا العلم باع طويل، تلك القصة التي أوردها بين ثانيا كتابه، إذ يقول أن بعض الفقهاء قام بتحقيقه واستصغاره في عيني السلطان أبي عنان<sup>(59)</sup> أنه لم يكن متبحرا في الفقه، فأرسل للفقهاء الحضور في مجلسه وأمر بقراءة حديث "إذا ولغ الكلب في إناء أحلمه" وذلك ليمتحنه، فخاض في هذه المسألة دون إبطاء في إعطاء الإجابة، فقال: هذا الحديث فيه خمسة وعشرون فرقا، وقام بسردها، ثم أخذ في الترجيح وكأنه يقرؤها في كتاب مفتوح، فوبخ السلطان حساده وشهد له بتفقهه.<sup>(60)</sup>

ونتيجة لتفقهه، فقد بلغ بعلمه هذا، درجة الاجتهاد أو كاد، وأصبح من العلماء الراسخين في الفقه<sup>(61)</sup>. وترأس الفتوى إلا أنه كان متورعا فيها، يتحرى قدر المستطاع في مسائل الطلاق، وكان يحاول أن يدفعها عن نفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلا.<sup>(62)</sup> وبسبب ورعه وعلمه، فقد كان مجلسه مجلس نزاهة ودراية وتحقيق، فإذا تكلم في مسألة أوضحها طوال اليوم.<sup>(63)</sup>

أما القرآن وعلومه، فقد اطلع عليهما وهو لا زال حدثا، فذات يوم حضر عند شيخه أبي زيد ابن الإمام في جلسته في التفسير، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف التلمساني وهو

صبي، أقرأ فيها العلم؟ فأجابه بنعم، وقال له: وفيها ما تشتهيهِ الأنفس، فقال: ولو قلت لا، لقلت: لا لذة فيها فعجب منه شيخه ودعا له.

كان له في هذا العلم اليد الطولى، بسبب إقباله على قراءة القرآن<sup>(64)</sup>، فكان يقرأ كل ليلة ثمانية أحزاب في صلاته، ومثله في أول النهار، ويواظب على قراءة الحزب دائما، ويرفق ذلك بقراءة التفسير نحو ربع حزب كل يوم.<sup>(65)</sup>

لقد حرص عالمنا هذا، على تعلم وتعليم القرآن الكريم، وذلك بإغذاق المال على طلبته، وهذا ما حدث له بفاس، فذات يوم دخل عليه أحد الطلاب وذكر له أنه قرأ القرآن بالقرويين، فما أعطى شيئا، فتأسف الشريف لذلك، وفي اليوم التالي أرسل إليه مع طلبته ما يحتاجه من المال.<sup>(66)</sup>

وما يدل على علو منزلته في هذا العلم، أن أبا عنان أمر الفقيه المقرئ بإقراء التفسير بحضرة العلماء، فأبى وقال له: أن أبا عبد الله الشريف التلمساني أعلم بهذا العلم مني، فلا يمكنني الإقراء وهو حاضر المجلس، فقام الشريف وخاض في علم التفسير في مجلس حافل بالعلماء، ولإعجاب السلطان بمحدثه، نزل في مكانه الرفيع وجلس مع الجمع على الحصر، فأعجب به كل من حضر حلقة هذه وشهد له السلطان بتفوقه في هذا العلم، وقال: "إني أرى العلم يخرج من منابت شعره". وهذه شهادة يعتر بها هذا العالم.<sup>(67)</sup>

لقد حاز عصا السبق في علم التفسير بسبب تفسيره للقرآن لمدة خمس وعشرين سنة، فكان مجلسه يحف بكبار العلماء والصلحاء والملوك وصدور الطلبة لا يتخلف منهم أحد، بسبب علمه بقرآته ورواياته وفنون علومه وبيان أحكامه وناسخه ومنسوخه وغيرها.<sup>(68)</sup>

فمن السور التي قام بتفسيرها، سورة آل عمران، فعند وصوله إلى قوله تعالى ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾<sup>(69)</sup> مرض بعدها ثمانية عشرة يوما، وذكر ابنه أبو يحيى عبد الرحمن بن محمد بن أحمد (757هـ-826هـ/1356م-1423م) أنه قبل المصحف في مرضه وقال: "اللهم كما عززني به في الدنيا، فاعززي به في الآخرة."<sup>(70)</sup>

وفي الحديث كان إماما فيه، وعالما بفقهه وغريبه ومتونه ورجاله وأنواع فونه، إضافة إلى دفاعه عن السنة من أي إشكال.<sup>(71)</sup>

كما كانت له مشاركة في أصول الفقه، فذات مرة عرضت في مجلس علم مسألة أصولية فلم يجلبوا من يث فيها، فأشاروا إلى الشريف، وكان أيامها مقيما بسجلماسة<sup>(72)</sup>، فطلب من عاملها أن يعطيه نفقه وكسوة ليتحمل بها عناء السفر، فوصل إليهم وبين المسألة التي كانوا فيها مختلفون.<sup>(73)</sup>

كما كان له في التصوف يد طولى، فقد استفاد منه في هذا العلم أبو عبد الله ابن عبد السلام<sup>(74)</sup> الذي كان يحضر مجلسه واستفاد منه في هذا الباب واستعظم رتبته في هذا العلم، فقد كان ابن عبد السلام هذا، يستمع إليه ويفضل مجلسه العلمي ويعرف ما مدى مكانته في هذا العلم، حتى أن البعض زعم أنه كان يخلو به في بيته ويقرأ عليه فصل التصوف من كتاب "الإشارات" لابن سينا<sup>(75)</sup>، فقد كان الشريف التلمساني قد استفاد من شيخه الآبلي في هذا الميدان.<sup>(76)</sup>

إضافة إلى تمكنه في الأدب، وهذا ما يؤكد الحفناوي بقوله: كان "من أعلم الناس بالعربية وعلوم الأدب نحوا وبيانا، حافظا للغة والغريب والشعر والأمثال"<sup>(77)</sup>

وما يدل على تمكنه في اللغة العربية، فعند ما لقي بتونس ابن عبد السلام، فتكلم هذا الأخير في الذكر، هل هو حقيقة في ذكر اللسان؟ فأجابه الشريف بقوله: أن الذكر ضده النسيان ومحل النسيان القلب لا اللسان، وكأنه يقتبس من آي القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾<sup>(78)</sup> بذلك حاز على مكانة مرموقة لدى هذا العالم الجليل، وشهد له بتفوقه حين قال: "ما أظن في المغرب مثله"<sup>(79)</sup>.

وعلاوة على ما كان يحمله من الفقه وعلوم العربية وسائر علوم الشريعة، فقد كانت له مشاركة في علوم أخرى، كالحساب والهيئة والفرائض<sup>(80)</sup> وهذا ما يؤكد التبيكتي وتبعه في ذلك الحفناوي بقولهما: كان "إماما في العلوم العقلية من منطق وحساب وفرائض وتنجيم وهندسة وموسيقى وتشريح وفلاحة وكثيرا من العلوم القديمة"<sup>(81)</sup>.

إضافة إلى اطلاعه على عدة مؤلفات منها "كتاب الشفا" لمؤلفه ابن سينا<sup>(82)</sup> وهو يتكون من ثمانية عشرة مجلدا<sup>(83)</sup> والذي أخذه عن شيخه الآبلي، زيادة على تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد الحفيد<sup>(84)</sup> (85).

2- مؤلفاته: ولشدة عناية هذا الشيخ بالإقراء والدرس، فلم يسغفه الحظ للإكثار من وضع الكتب والتصنيف والتأليف<sup>(86)</sup>، فإنه لم يبلغنا عنه بالنسبة لاتساع أفقه المعرفية إلا القليل، وهذا ما يؤكد كل من ترجم له، فهذا التبيكي يقول: "كان قليل التأليف أكثر اعتنائه بالإقراء"<sup>(87)</sup> وعلى الرغم من ذلك، فقد كان حسن البسط في التأليف.<sup>(88)</sup>

فمن مؤلفاته نذكر:

كتاب في القضاء والقدر: حقق فيه تلك العلوم الغامضة بأحسن تعبير، وكان يرجع إليه علماء المغرب في حل المشكلات.<sup>(89)</sup>

مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول: بهذا العنوان ذكره التبيكي، وقال: بأنه نزل في مسائل الفقه على الأصول.<sup>(90)</sup> في حين ذكره مخلوف مختصراً "المفتاح" في أصول الفقه.<sup>(91)</sup> وقد طبق فيه مسائل الفقه مع الأصول. وكثيراً ما كان علماء المغرب يرجعون إليه في حل المشكلات.<sup>(92)</sup>

شرح جمل الخونجي: وهو كتاب في المنطق، ويعتبر من أجل كتب الفن، انتفع به الناس كثيراً قراءة ونسخاً وتأليفاً.<sup>(93)</sup>

له فتاوى ورسائل وأجوبة في مسائل علمية: منها في نوازل الأيمان والنذور<sup>(94)</sup> وفي باب من أوصى بثلاث ماله واشترط أنه لا يرجع في وصيته<sup>(95)</sup> وفي باب "ما حكم الروايتين إذا نقلتا عن مجتهد في المذهب"<sup>(96)</sup>، وفي باب "أسئلة وإشكالات في المنطق والفلسفة والكلام".<sup>(97)</sup>

الخاتمة: لقد أنجبت مدينة تلمسان عدداً من العلماء، حتى امتلأت كتب التراجم والطبقات بأسماء هؤلاء، بما تركوه من آثار على الساحة الثقافية، وكان من بين هؤلاء الشريف التلمساني الذي عد بحق إمام المغرب في العلم بفضل إسهاماته العلمية، والتي لا زالت تشهد عليه إلى يومنا هذا.

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فقد توصلت إلى النتائج التالية:

- يعتبر الشريف التلمساني من العلماء الأقداد التي زخرت بهم حاضرتهم تلمسان، فقد حاض في علوم شتى، فإضافة إلى علوم الشريعة التي كانت أول العلوم التي يجب أن يخوض فيها كل طالب علم، إلا أن معارفه تعلقاً إلى علوم عقلية أخرى، زيادة على معرفته بالعلوم العقلية، كالفن والهندسة والحساب وغيرها من العلوم الأخرى.

ب- استطاع هذا العالم أن يكون مدرسة تتلمذ بها عدد من العلماء أصبحوا بعدها شيوخ عصرهم في علوم شتى، كان ابنه عبد الله أحد هؤلاء وشهدت المصادر بتفوق العلمي، حتى فاق شيخه.

ج- لقد كرس شيخنا هذا، جهداً جهيداً في عملية الإقراء، حتى غضت مجالسه العلمية بمختلف طالبي العلم سواء أكانوا من الطبقة الحاكمة والراقية أو من طبقة العامة، فاستفاد هؤلاء من علمه أينما استفادة.

د- إن المكانة التي وصل إليها هذا العالم، كانت بفضل إسهاماته في ميادين معرفية شتى، فحاز على مكانة سياسية مرموقة لدى الحكام، ولدى شيوخه ومريديه من طلبة العلم.

هـ- انصرف الشيخ التلمساني إلى التدريس قد انعكست سلباً على مجهوداته في عملية التأليف، فإذا ما قمنا بمحصراها، فهي تعد على أصابع اليد.

#### الهوامش

1- البكي: نيل الانباج بطريرك البياج- وضع هومشه وهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية- منشورات كلية الدعوة الإسلامية -طرابلس -الجمهورية العربية الليبية -1989م-ص430. البكي: كفاية الخناج لمرقة من ليس في البياج -تحقيق: د/ علي عمر - مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة -ط1 -1425هـ- 2004م -ج2 ص69. ويذكره ابن خلدون بالشراف الحسيني. ابن خلدون: رحلة. عارضها بأصولها وعلق على حواشيا: محمد بن توفيق الطنجي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 - 1425هـ/2004م-ص69.

2- ابن خلدون: نفسه ص71.

3- البكي: نيل الانباج ص432 -نفسه: كفاية الخناج ص71.

4- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بلمسان -حيوان للطبوعات -الجزائر -1986م-ص167.

5- هو أحمد بن محمد البسيلي الموفى سنة 830هـ/1427م، أخذ التفسير عن شيخه أبي عبد الله محمد بن عرفة المالكي (ت803هـ/1400م)، من تصانيفه: تفسير القرآن الكريم، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون -دار الفكر للطباعة والنشر والموزع بيروت -لبنان -1402هـ- 1982م-صج1 صص438-439. رضا كحالة: معجم المؤلفين -معنى به وجمعه أخرجه: مكتب تحقيق التراث -مؤسسة الرسالة -ط1 -1414هـ-1993م-ج1 ص253.

6- هو يحيى بن أحمد بن محمد بن حسن بن القس الفزري الحميري الرندي ثم القاسي الموفى بنفس سنة 803هـ/1400م، كان قتيلاً محنتاً حيث انتهت إليه رئاسة الحديث في وقته إضافة إلى اطلاعه على الأدب لغة ونظماً وقراً. من آثاره فهرسه التي ترجم فيها لشيوخه. البكي: نيل الانباج ص634 -نفسه: كفاية الخناج -ج2 ص278. ابن القاضي الكاسي: درة المجال في غرة أسماء الرجال -حققه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1423هـ-2002م-ص448. ابن سودة: دليل مؤرخ للغرب الأقصى -ضبط واسترآه: مكتب البحوث والدراسات -دار الفكر -بيروت -لبنان -ط1 -1418هـ-1997م-ص209 -التركلي: الأعلام -دار العلم للملايين -بيروت -ط17 -2007م-ج8 ص136.

7- البكي: كفاية الخناج -ج2 ص71.

- 8- نفسه - نفس الجزء والصفحة. ابن خلدون: رحلة - ص 71. وينظر عادل تويهيض - سجع أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر - مؤسسة تويهيض الثقافية - بيروت - لبنان - ط 3 - 1403هـ - 1983م - ص 187.
- 9- التبيكي: كهية الحاج - ج 2 - ص 69.
- 10- لقد صدر فهرسه هذه، بقوله: "الحمد لله الذي بحمده يجب أن يستفتح..." "وجد النصف الأول عدد بعض الكتّابين بفلس، وأما النصف الثاني بعد الآن مفقودا لأن صاحب "السوة" وصفها في آخر كتابه بلقا في سفرين. ابن سودة: نفسه - ص 209.
- 11- التبيكي: نفسه - ج 2 - ص 70. نفسه: نيل الإبحاج - ص 431. الحفاوي: تعريف الخلف برجال السلف - مؤسسة الرسالة - بيروت - وللكة الحقبة - تونس - ط 2 - 1405هـ - 1985م - ج 1 - ص 111. ابن خلدون: نفسه - ص 69.
- 12- ابن خلدون: نفسه - ص 69.
- 13- نفسه - ص 69.
- 14- ابن مريم: نفسه - ص 164.
- 15- التبيكي: نيل الإبحاج - ص 430. نفسه - كهية الحاج - ج 2 - ص 69.
- 16- الحفاوي: نفسه - ج 1 - ص 111.
- 17- مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - دار الفكر - بيروت - لبنان - ص 234.
- 18- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار - ص 6 مكة والمدية ومصر وبلاد المغرب - نشر وتعليق: د/ سعد زغلول عبد الحميد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - المغرب - 1985م - ص 177. الحميري: الروض الماطر في خبر الأقطار - تحقيق: د/ إحسان عباس - مكية - لبنان - ط 2 - 1984م - ص 135.
- 19- التبيكي: كهية الحاج - ج 1 - ص 290. نفسه: نيل الإبحاج - ص 350.
- 20- الله: تعود على تلمسان.
- 21- لقري: فتح الطيب من غصن الأتلس الرطيب وذكر وزوها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي - دار الفكر - بيروت - لبنان - ط 1 - 1419هـ - 1998م - ج 6 - ص 187.
- 22- محمد مخلوف: نفسه - ص 220. وينظر غاذج من فواه عبد الوترسي: لغار العرب والجمع للمغرب عن فواى أهل إفريقية والأندلس والمغرب - أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: د/ محمد حجي - نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية - 1401هـ - 1981م - ج 1 - ص 116 - ج 2 - ص 36 - ج 4 - ص 480 - ج 6 - ص 44 - ج 8 - ص 261 - ج 9 - ص 310 - ج 11 - ص 383. وينظر عادل تويهيض: نفسه - ص 300 - 301.
- 23- التبيكي: كهية الحاج - ج 1 - ص 187. ابن مريم: البستان - ص 125. ابن فرحون: الدياج للذهب في معرفة أعيان الذهب - دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجان - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط 1 - 1417هـ - 1996م - ص 250.
- 24- التبيكي: نفسه - ج 1 - ص 187 - ص 232. ابن فرحون: نفسه - ص 250.
- 25- هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير 719هـ، كان أحد الأقطاب الذين تلمز عليهم الهوى ولنا وبه خطه القضاء بفلس. ابن فرحون: نفسه - ص 305 ولويد من المعلومات ينظر: ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة - شرحه و ضبطه وقدم له - د/ يوسف علي طريل - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط 1 - 1424هـ - 2003م - ص 158. ومخلوف: شجرة النور الزكية - ص 215. السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى - دار الكتب العربي - الدار البيضاء - المغرب - 1418هـ - 1997م - مج 1 - ج 3 - ص 101 - 102.
- 26- هو علي بن عبد الرحمن بن تميم المغربي، المعروف بالطنجي (ت 734هـ/ 1335م) كان قضا فريقي حساني. التبيكي: نفسه - ج 1 - ص 267. نفسه: نيل الإبحاج - ص 325 - 326. مخلوف: نفسه - ص 218. ابن القاضي للكناسي: ذرة الحجال - ص 404.



- 27- هو أبو الحسن علي بن محمد النخعي القيرواني (ت478هـ/1085م) تظفر في ترجمته ابن فرحون: نفسه ص298. مخلوف: نفسه ص117.
- 28- ابن خلدون: نفسه ص48. البكي: كفاية الحاج - ج2 ص50. نفسه - نيل الإبهاج - صص408-409. مخلوف: نفسه ص221.
- 29- هي قرية من قرى الأتلس تقع في بجاية. الحميري: نفسه صص79-80.
- 30- ابن خلدون: نفسه ص49.
- 31- المقرئ: نفسه - ج6 ص203.
- 32- البكي: نيل الإبهاج ص411.
- 33- ينظر عن هذا الحصار. ابن سناك العاملي: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - حراسة وتحقيق: أ.د. بوبالة عبد القادر - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 - 2010 صص271-272. ابن خلدون: يحيى: بقة الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - تقديم وتحقيق وتعليق: د/ عبد الحميد حاجيت - المكتبة الوطنية - الجزائر - 1400هـ/1980م ص211.
- 34- تظفر ترجمته عبد البكي: نيل الإبهاج - صص83-84.
- 35- ابن خلدون: رحلة ص41. البكي: نفسه ص416.
- 36- هو محمد بن علي بن حايي الغافقي الأتلسي. البكي: كفاية الحاج - ج2 ص96.
- 37- البكي: نفسه - ج1 ص170. نفسه: نيل الإبهاج - صص225-226. مخلوف: نفسه ص234. الحفناوي: نفسه - ج2 ص245 وما يليها.
- 38- ابن الخطيب: الإحاطة - ج3 ص377.
- 39- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - مكتبة الحياة - بيروت - لبنان - صج2 - ج4 ص145 وما يليها.
- 40- البكي: نيل الإبهاج ص250 وما يليها. البغدادي: هدية العارفين - ج5 ص529. بالثيا: تاريخ الفكر الأتلسي - نقله عن الابنية - حسين مؤنس - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - مصر - دت - ص259. وما يليها. رضا كحالة: نفسه - ج2 - صص119-120.
- 41- البكي: كفاية الحاج - ج1 ص91-93. نفسه: نيل الإبهاج - صص48-49. الرزكلي: الأعلام - ج1 - ص75.
- 42- البكي: نفسه - ج2 صص73-74. نفسه ص435. الحفناوي: نفسه - ج1 ص115.
- 43- البكي: نفسه - ج2 ص72. الحفناوي: نفسه - ج1 ص114.
- 44- الحفناوي: نفسه - ج1 ص119.
- 45- البكي: نيل الإبهاج ص437.
- 46- تظفر ترجمته عبد ابن مريم: نفسه ص27 وما يليها.
- 47- البكي: كفاية الحاج - ج2 ص70. الحفناوي: نفسه - ج1 ص111.
- 48- ابن خلدون: رحلة ص69. مخلوف: نفسه ص234.
- 49- أباط وهو من الإباط، مارق من الرمل وباطن للكب. القيروز آباتي: القلوس الخطوط ضبط وتوثيق: يوسف القناي - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1425هـ - 1426هـ/2005م ص592. وينظر الرمحشري: أسس البلاغة - تحقيق: أ. عبد الرحيم محمود - دار المعرفة - بيروت - لبنان - دت - ص1.
- 50- البكي: كفاية الحاج - ج2 ص71. نفسه: نيل الإبهاج - ص432. الحفناوي: نفسه - ج1 ص113.
- 51- البكي: كفاية الحاج - ج2 ص72. الحفناوي: نفسه - ج1 ص114.

- 52- نفسه -ج2 ص77. نفسه: نيل الإبهاج ص439.
- 53- نفسه -ج2 ص74.
- 54- نفسه -ج2 ص75. نفسه: نيل الإبهاج ص438.
- 55- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص70. نفسه: نيل الإبهاج صص430-431.
- 56- هو موسى بن محمد بن معلي أبو عمران القاسي، ينظر ترجمته عند التبكي: نفسه -ج2 صص249-250. نفسه: نيل الإبهاج صص604-605. محطوف: شجرة النور الزكية صص234-235. ابن قفط. كتاب الوفيات -تحقيق: عادل نويس - مؤسسة نويس الثقافية - بيروت - لبنان -ج1 ص117.
- 57- التبكي: نيل الإبهاج ص436. الحفناوي: تعريف الحلف...ج1 ص117.
- 58- ينظر عنه: البغدادي: هدية العارفين -مج3 ص212. حاجي خليفة: كشف الظنون -مج1 ص289. رضا كحالة: معجم المؤلفين -ج3 ص734.
- 59- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص75. نفسه: نيل الإبهاج ص436. الحفناوي: نفسه -ج1 ص117.
- 60- ينظر عنه ابن الأثير: روضة السمرين في دولة بني مرين -تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور - للطبعة الملكية - الرباط - ط3 - 1423هـ/2003م ص37.
- 61- التبكي: نفسه -ج2 ص76. نفسه: نيل الإبهاج ص437. الحفناوي: نفسه -ج1 ص118.
- 62- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص70.
- 63- التبكي: نيل الإبهاج صص436-437. الحفناوي: نفسه -ج1 ص118.
- 64- نفسه ص438.
- 65- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص72. نفسه: نيل الإبهاج ص433. الحفناوي: نفسه -ج1 ص113.
- 66- الحفناوي: نفسه -ج1 صص119-120.
- 67- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص73. نفسه: نيل الإبهاج ص434.
- 68- نفسه -ج2 ص74. نفسه ص436.
- 69- نفسه -ج2 ص75. الحفناوي: نفسه -ج1 ص117.
- 70- سورة آل عمران -آية 171.
- 71- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص79.
- 72- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص75. نفسه: نيل الإبهاج ص436.
- 73- سجل مملكة مدية سهيلة أرضها سبخة وحوها أرباض كثيرة وفيها دور ريفية ومياه وبساتين كثيرة. البكري: المسالك والممالك -حققه ووضع فهرسته: د/ جمال طلبة -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1424هـ -2003م -ج2 ص332.
- 74- التبكي: كناية الخناج -ج2 ص73.
- 74- قاضي الجماعة بونس، إماما علما حافظا متفتا في علمي الأصول والعريّة، وعلم الكلام وعلم اليان فصيح اللسان، علما بالحديث، لم يكن في بلده في وقته مظه. ابن فرحون: الدياج للنهب ص418. وليريد من المعلومات عنه ينظر الباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاة والفتا -تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي -دار الأفاق الجديدة -بيروت -لبنان -ط5 -1403هـ -1983م. ص161 وما يليها.
- 75- الزوزني: تاريخ الحكماء والسمي: المختبات للقطعات من إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقطعي -تحقيق: يوليس أليوت -مكتبة الآداب -القاهرة -ط1 -1429هـ -2008م ص418. وليريد من المعلومات عن ابن سينا ينظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأقباء في

- طبقات الأطباء - ضبطه وصححه ووضع فهرسه: محمد بلسل عيون السود - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط1 - 1419هـ - 1998م ص 401 وما يليها.
- 76- ابن خلدون: رحلة - ص 70 وينظر التبكي: كفاية الحاج - ج 2 ص 70.
- 77- الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 118.
- 78- سورة الرعد، الآية 19.
- 79- التبكي: كفاية الحاج - ج 2 ص 72-74/نفسه- نيل الإبهاج - ص 433/الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 114.
- 80- ابن خلدون: رحلة - ص 70.
- 81- التبكي: كفاية الحاج - ج 2 ص 76. الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 118-119.
- 82- ابن خلدون: رحلة - ص 70.
- 83- الأرواني: مختصر تاريخ الحكماء - ص 418. ابن أبي أصيمة: نفسه - ص 419.
- 84- تظفر ترجمه عند الضبي: بغية للتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس - قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهرسه: صلاح الدين الخوارزمي - لكبة العصرية صيدا - بيروت - ط1 - 1426هـ - 2005م - ص 54.
- 85- ابن خلدون: نفسه - ص 70. وينظر التبكي: كفاية الحاج - ج 2 ص 71.
- 86- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العلم - ديوان للطبعات الجمعية - الجزائر - ط7 - 1415هـ - 1994م. ج 2 ص 211.
- 87- التبكي: نيل الإبهاج - ص 437. الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 119.
- 88- الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 117.
- 89- التبكي: نيل الإبهاج - ص 436. الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 117.
- 90- نفسه ص 437. نفسه - كفاية الحاج - ج 2 ص 76.
- 91- مخلوف: شجرة النور الزكية - ص 234.
- 92- الحفناوي: نفسه - ج 1 ص 118.
- 93- التبكي: كفاية الحاج - ج 2 ص 76/نفسه- نيل الإبهاج - ص 437/مخلوف- نفسه - ص 234.
- 94- الونشريسي: للبيان - ج 2 ص 47.
- 95- نفسه - ج 9 ص 268.
- 96- نفسه - ج 11 ص 362.
- 97- نفسه - ج 12 ص 163.



## العلاقات الخارجية للدولة الزيانية.

~~~~~ أ.حاج عبد القادر يخلف \*

دبّ الضعف إلى كيان التّولة الموحّدية عقب موقعة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، ونتج عن ذلك ظهور ثلاث قوى متصارعة حول السّلطة، فكان كلّ أمير منها يدّعي أنّ له الحقّ في لقب الخليفة، وبالتالي يحقّ له فرض سيطرته على جميع بلاد المغرب الإسلامي باعتباره الوريث الشرعي للموحّدين، وبناء على ذلك تحوّل المغرب برمته إلى مسرح لتراع طويل أدّى إلى تجزئته وانقسامه بين إمارة بني مرين في المغرب الأقصى، وإمارة بني زيّان في الجزائر، وإمارة بني حفص في تونس، ودارت بين هذه الإمارات حروب طاحنة كانت أرض الزيانيين - في الغالب - ساحة لها بحكم موقعها الوسط بين التّولتين.

العلاقات الزيانية- الحفصية: استقلّ يغمراسن بن زيّان بملك تلمسان وما يليها فأصبح أوّل سلطان لهذه الإمارة الناشئة خلال عام 633هـ/1236م، وكان ذلك على عهد الخليفة الرّشيد الموحّدي الذي سعى إلى توثيق الصّلة بيغمراسن، ويذكر أنّه " ضاعف له البر والخلوص وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة وعاوذه الإتحاف بأنواع الألفاف والهدايا تيمّما لمسراته وميلا إليه من جانب أمثاله بنى مرين المجليين على المغرب والدولة"، ويشير هذا النصّ بوضوح إلى أنّ سبب تقاربهما هو اتّفاقيتهما على عداوة بني حفص، الذين كانوا يشكلون خطرا على كلتا التّولتين، فكان هذا التحالف بين الخليفة بمراكش والأمير الجديد بالمغرب الأوسط سببا في تحيّر يغمراسن لبني عبد المؤمن، حيث أصبح يسالم وتيهم ويحارب عدوهم.

واستكر الأمير أبو زكريا الحفصي اتصال الرّشيد بيغمراسن فسعى إلى ضمّ حضرة مراكش لإمارته، ولكي يحقق ما يسمو إليه أدنى أمراء زنّاة منه وألزمهم جواره، ولم يطل انتظاره

\* - أستاذ مادة العلوم الاجتماعية في التعليم المتوسط- وأستاذ مستخلف بقسم التاريخ- جامعة

لتحقيق مسعاه، إذ وفد إليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض وفد بني منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة يستصرخونه على يغمراسن فسهّلوا له أمره وسوّلوا له الاستبداد على تلمسان. وقام أبو زكريا بتنفيذ مخططه فاستجاش أهل إفريقية لغزو تلمسان سنة 640هـ/1242م<sup>2</sup>، وانتهى الغزو بعقد الصلح مع صاحبها والرجوع عن المدينة مقابل دعوة يغمراسن لأبي زكرياء على منابر تلمسان<sup>3</sup> وعداوة بني عبد المؤمن.

وعندما بلغ السعيد ما تعاقدا عليه، قرّر الاستيلاء على مملكتيهما بتعاون مع بني مرين<sup>4</sup> فانحاز يغمراسن إلى جبل تيمزجرت<sup>4</sup> جنوب وجدة، والتقى الجيشان هنالك سنة 646هـ/1247م، حيث انهزم الموحدون<sup>5</sup> وقتل أميرهم أبو الحسن علي السعيد على يدي يوسف بن خزرون<sup>5</sup>، واستولى يغمراسن على جميع أسلابه وذخائره. وتوطدت العلاقة بين الحفصيين والزّيانين بالمصاهرة بين الأمير عثمان بن يغمراسن والأمير الحفصي صاحب بجاية الذي زوجته ابنته على عهد أبيه يغمراسن، وكادت العلاقات تسوء بين الطرفين عندما حاول الأمير عثمان غزو بجاية، لكنّها سرعان ما عادت إلى مجاريها الطّبيعية، واستمرّ بنو زيان تابعين للحفصيين إلى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة 698هـ/1299م وفرض عليها حصارا طويلا أسّس فيه مدينة المنصورة كمعسكر لجيشه.

واستبعد حينئذ عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي أبا زكرياء الأوسط فأمدّه بجيش كبير التقى بالمرينيين في معركة جبل الزّاب، التي تعرف أيضا بمعركة مرسى الرّؤوس لكثرة ما تساقط فيها من الرّؤوس<sup>6</sup>، وانتهت بهزيمة فاشتدّت شقّة الخلاف بين يوسف المريني وصاحب بجاية الحفصي، الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس السلطان أبو عصيدة بن الوائق الحفصي، فحاول هذا الأخير استمالة السلطان المريني للإطاحة بعرش تلمسان، فأسقط الأمير أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بناء على ذلك الدّعوة الحفصية من منابر تلمسان وقطع الصّلة بعرش تونس الحفصي.

وفي عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأوّل بن موسى (718هـ/1318م إلى 737هـ/1337م) غزا بنو عبد الواد تونس بجيوشهم مع ابن أبي عمران الحفصي<sup>7</sup> الذي نهض من طرابلس مطالبا بعرش تونس، وتغلّب في عدّة جولات على الخليفة الحفصي<sup>7</sup>، فلقيهم ملكها أبو يحيى فهزموه هزيمة نكراء، استولوا فيها على حرمه وذخائره وأفلت هو جريحا إلى قسنطينة، واتجهوا تلقاء

تونس التي تمكنوا من دخولها سنة 730هـ/1329م<sup>8</sup>، وأقاموا فيها أربعين يوما وأسلموها إلى ابن أبي عمران وقفلوا. وتغيرت علاقات تلمسان الزبانية بالحفصيين في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760هـ/1359م إلى 791هـ/1389م)، فاختلقت علاقاته بهم عن علاقاته بالمرينيين، إذ كان الحفصيون يشتركون معه في عدائهم للمرينيين.

وكانت حملات المرينيين المتكررة على المغرب الأوسط واحتلالهم لحضرته ولعديد المناطق الواقعة تحت سلطان الزبانيين والحفصيين كقسنطينة وبلد العتاب مما زاد هذا التقارب بين أبي حمو الثاني والحفصيين لدفع خطر المرينيين الزاحف، وقد ظهر تعاطفهم معه في وقت مبكر من قبل أن يستولي على السلطة في تلمسان، إذ احتضنوه وحموه وأكرموا نزلهم على إثر مقتل عمه أبي ثابت على يد أعوان المرينيين سنة 753هـ/1352م، وتجهز أبو حمو واستعد لنيل ملكه بمساندة الحفصيين المعنوية والمادية، فقام أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى السلطان الحفصي ووزيره ابن تفرجين بإصلاح شأن أبي حمو بما قلروا عليه من آلة السلطان سنة 759هـ/1358م<sup>10</sup>، فسار إلى تلمسان مستغرقا حوالي ستة أشهر بسبب المواجهات مع أتباع المرينيين وأعدائهم في المغرب الأوسط، وبوصول نبأ وفاة السلطان أبي عنان سنة 760هـ/1358م ارتفعت معنويات رجال أبي حمو فحملوا على تلمسان، فازلخوا ثلاثة أيام واقتحموها عنوة في اليوم الرابع، وبايعه الناس بالخلافة غرة ربيع الأول سنة 760هـ/1358م<sup>11</sup>، وأطلق عليها اسم الدولة الزبانية بعد أن كانت تسمى إمارة بني عبد الواد.

غير أن الأمور لم تكن كذلك بين أبي حمو والحفصيين جميعهم لانقسامهم فيما بينهم، ولكون بلادهم كانت على تخوم بلادهم، كانت له أطماع على بعض بلادهم، فبينما نجد بعض الحفصيين نزل عند رغبته كأبي عبد الله محمد بن يحيى الحفصي صاحب بجاية<sup>12</sup> رفض بعضهم الخضوع له كأبي العباس أحمد بن محمد بن السلطان أبي بكر الحفصي<sup>13</sup>، وتقع المعارك بين هذه الفئات المختلفة وتتراوح أجزاء من أرض المغرب الأوسط في التبعية السياسية، تارة لأحد الحفصيين وتارة لأبي حمو الزباني<sup>14</sup> وتقع معركة كبيرة سنة 767هـ/1365م قرب بجاية فيخسرها أبو حمو لأنه لم يحسب حسابه امتناع بجاية، وأغفل الاستعداد منخدعا برأي مشيخة بني عبد الواد من دعاة الفتنة فخرج إلى علوه مخالفا لرأي أولي التهي فاهزم شر هزيمة، ووجد نفسه وحيدا ففجأ بنفسه، ونزل له وزيره عن ركوبه حتى يستطيع تحصيل تلمسان<sup>15</sup>، وعاد الحفصيون للتدخل

من جديد في الشؤون الداخلية للزيانيين بعد ضعف الإمارة المرينية وتردي الأوضاع الداخلية للإمارة الزيانية نفسها نتيجة النزاعات والحروب بين أمرائها.

ومن ذلك أن السلطان الحفصي أبو فارس عزّوز أعد جيشاً ضخماً من خمسين ألف محارب اتجه بهم إلى تلمسان، وعجز أبو مالك عبد الواحد الزياني عن مواجهتهم لضخامة عددهم وعنفهم، وتمكّن أبو فارس الأمير الحفصي من احتلال تلمسان عام 827هـ/1424م، ونصب عليها محمد بن الحمراء ليكسب وده ويضمن ولاءه ويحمي مؤخرته، وبعد مدة أعلن أبو مالك خضوعه واستسلامه له فأعادته إلى عرشه بعد أن نكث محمد بن الحمراء عهده بفساده وسوء سيرته<sup>16</sup>. وحدث أن حاول الأمير أبو ثابت محمد الرابع قطع الدعوة للحفصيين على منابر تلمسان فأرغم على الخضوع والاستسلام لضعف الإمارة الزيانية في هذه الأثناء<sup>17</sup>. وقد خضعت الجزائر الحفصية التي شملت عمالي قسنطينة والجزائر إلى ما بعد مليانة في الشمال الغربي، وما بعد ورقلة جنوباً، إلّا ما افتكته زنّانة من بعد، وغالباً ما تستقلّ مدناً بعضها عن بعض، وكان أوّل الولاة الحفصيين على الجزائر الحفصية أبو يحيى زكريا، الذي أتزله أبوه أبو زكريا يحيى الأوّل ببجاية سنة 633هـ/1236م، وكان آخر وال حفصي بالجزائر هو أحمد بن الحسن، ولي بونة أيام أبيه إلى أن نبذ أهل تونس للحسن عهده، فبايعوه مكانه سنة 943هـ/1536م، ولم يعد للحفصيين بعده نفوذ إداري بالجزائر<sup>18</sup>، وضعفت زنّانة آخر القرن الثامن، وما لبثت أن ضعفت الدولة الحفصية هي الأخرى، فلم يكن بين الحفصيين والزيانيين ولاء ولا عداء إلى أن ملك الأتراك الجزائر.

العلاقات الزيانية- المرينية: غلب عليها النزاع المستحكم بين الطرفين، ويعود السبب الرئيس في ذلك إلى أن كلاّ منهما كان يعدّ نفسه الوريث الشرعي للموحّدين، فالمرينيون على أساس أنهم استولوا على عاصمتهم مراكش والأندلس، أمّا الزيانيون فلكوهم كانوا من أخلص مساعديهم وأنصارهم، صف إلى ذلك عوامل أخرى أهمّها الجوار في الوطن والمنافسة في الاستقلال فسادت الحروب بينهما، وكان الفوز للمرينيين في معظم المواجهات، وكانوا عادة ما يتجثّون على زنّانة بدعوى أنهم آووا ثأراً عليهم، أو بأنهم ردّوا شفاعتهم في من خرج عنهم من رعاياهم، أو لسبب تافه كترك السبيل للممالك الحفصية على أراضيها، ولم يكن بإمكان زنّانة إرضاعهم، وكانت أيام السّلم بينهما هي أيام انشغالهما بفتن داخلية.



وقد بدأ النزاع بينهما عندما ضرب يوسف بن يعقوب المريني حصارا طويلا على تلمسان، في عهد أميرها أبي سعيد عثمان عام 698هـ/1299م، "وشرع سلطانهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق في بناء منصوريته"<sup>19</sup> وهي تلمسان الجديدة، وضيق الخناق على أهلها، فلما كان عام 703هـ/1304م توفي الملك أبو سعيد والحصار متصل لثلاثة أصابته بالحمى بعد ملك إحدى وعشرين سنة<sup>20</sup>، وبويع ابنه الأمير أبو زيان محمد لحكم الزيانيين لكن الموت فاجأه بعد مرض اعتراه، فلم يلم حكمه طويلا فولي بعده أخوه الملك أبو حمو موسى الأول بن عثمان سنة 707هـ/1308م، وتمادى الحصار بتلمسان ثمانية سنين وثلاثة أشهر، " فلما كان يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة عام 706هـ/1307م، دخل الخصي الذي اسمه سعادا على يوسف بن يعقوب وهو نائم، فألقى الله في قلبه طلب ثار مولاه فوجأه بسكين في بطنه "<sup>21</sup>، فانتقم بذلك لأبي علي الملباني الذي رباه وكان يوسف بن يعقوب قد قتله، وعندها حلّ الفرج بأهل تلمسان.

ولما قتل يوسف بن يعقوب ولي مكانه ابنه أبو سالم وكان ابن أمة، فلم يرض أبو ثابت بن أبي عامر، فبعث إلى السلطان أبي حمو أن يعينه بما أمكنه من الجيش مصطلحين ما عاشا ففعل، وغلب أبو ثابت وقتل عمه وانصرف موفيا بما التزم<sup>22</sup>، ثم توجه إلى شرق تلمسان فأخضع القبائل الطائفة في تيجن ومغراوة التي خلعت الدعوة أيام الحصار، ومدت سيطرته إلى مدينة الجزائر سنة 711هـ/1312م، وإقليم الزاب بالصحرى الشرقية.

وفي هذه الأثناء استغل أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني فرصة انشغال الزيانيين شرقا، فقاد حملة ضد تلمسان لكنه فشل في اقتحامها فاضطر إلى الانسحاب، فقام أبو حمو عقب ذلك بتصفية نفوذ المرينيين في المغرب الأوسط بالقضاء على أشياعهم من الثعلابة بمتيجة، ومطاردة راشد بن محمد المغراوي إلى بلاد القبائل، وتآمر على أبي حمو ابنه أبو تاشفين بسبب " إيثاره لابن عمه مسعود بن أبي عامر علىه، حيث كان أبو حمو يقدمه على ولده في كل أمر سرا وجهوا على رؤوس الملا "<sup>23</sup> وقتل أبو تاشفين وأتباعه أباه في جوان من سنة 718هـ/1318م. ثم بويع أبو تاشفين الأول للحكم فعقد معاهدة صلح مع السلطان المريني أبي سعيد، وسرعان ما ساءت العلاقات بينهما بسبب غزو أبي تاشفين لمدينة قسنطينة، وسيطرته على بجاية عام 719هـ/1318م، ورفضه رجاء الحفصيين الذين وسطوا بني مرين في ذلك، وفي إخلاء ما احتلوه بالجزائر الشرقية وخاصة بجاية<sup>24</sup>، وغزا أبو تاشفين تازة وردة عليه السلطان المريني أبو

الحسن بغزو موانئ تلمسان الساحلية بأسطوله، ثم عاد إلى المنصورة وحاصر تلمسان واحتلها في أبريل 737هـ/1336م، وقتل أميرها أبا تاشفين وقضى على دولته وأخضع تلمسان للمرينين<sup>25</sup>. وظل المرينيون يهيمنون على تلمسان إلى أن أقرم سلطانهم أبو الحسن قرب القيروان، على يد عرب بني سليم وأحلافهم وبني عبد الواد، الذين انحازوا إليهم في سابع محرم من عام 749هـ/1348م<sup>26</sup>، لتنتهي بذلك مرحلة الاحتلال الأول لتلمسان من لدن بني مرين، التي استمرت من 737هـ/1336م إلى 749هـ/1348م. وبايع بنو عبد الواد أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمان بن يغماسن سنة 749هـ، واستألفوا تحيين ومغراوة وتحالفوا على المناصرة عند الحاجة إليها متفرقين في شلف، بينما واصل بنو عبد الواد سيرهم إلى تلمسان واقتحموها في سبتمبر سنة 749هـ/1348م، فلقى عمران بن موسى بن جرّار الذي خرج على رأس الجيش للقاء بني عبد الواد حتفه<sup>27</sup>. بينما سأل أخوه عامل المرينين عثمان بن جرّار الأمان فأمن<sup>28</sup>، وعين أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت على رأس الجيش، فاستطاع هزيمة السلطان المريني أبي الحسن في الجرائر، وهو عائد من تونس وأرغمه على الانسحاب<sup>29</sup> مهزوماً مخذولاً إلى المغرب الأقصى، حيث وجد ابنه أبو عنان قد استحوذ على السلطة في غيابه، وانتهى الأمر بقتله وسيطرة ابنه أبي عنان على العرش.

ووجه أبو عنان أنظاره إلى تلمسان، فلما سمع الأمير أبا سعيد باستعداده لغزوها خرج له بقواته إلى وجدة، والتقى الطرفان في معركة وادي القصب، " فلما حمى الوطيس خدعت بنو عامر، فكان ذلك سبب الهزيمة، وكبا بالسلطان أبي سعيد فرسه فأخذ وقتل يوم السبت حادي عشر جمادى الأولى سنة 753هـ/1352م<sup>30</sup>. واحتلوا تلمسان وتبعوا أبا ثابت الذي لجأ مع ابن أخيه أبي حمو إلى بجاية على إثر هزيمة السلطان وأخيه أمامهم، فقبض عليهما أتباع المرينين وهما متكبران، فادّعى أبو حمو أنه هو السلطان رغبة منه في الدفاع عن عمه، وسرعان ما اكتشف أمرهما، وسئل أبو ثابت عن هوية صاحبه فادّعى أنه أحد أتباع دولته، ورجاهم أن يسرحوه فخلّوا سبيله، وفيما كان العم يساق إلى الموت<sup>31</sup>، سلك أبو حمو طريقه إلى تونس مع جماعة من أصحابه طلباً للجوء عند السلطان أبي إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى الحفصي ووزيره ابن تفرجين التينملي، فأقام لديهما بتونس معزّزاً مكراً لمدة خمس سنوات<sup>32</sup>، وأوعز السلطان أبو عنان المريني إلى صاحب إفريقية الحفصي بإخراج أبي حمو وقومه من بلادهم فرفض صاحب إفريقية طلبه،

فاغرى ذلك أبا عنان بالحملة ضده<sup>33</sup>، وشرّق سنة 758هـ/1357م فملك قسنطينة وبلد العتاب وحاصر أسطوله تونس وملكها، فارتحل السلطان أبو إسحاق الحفصي إلى الجريد ورافقه أبو حمّو وأصحابه حتى نزلوا بتبسة، وحدثت أحداث اضطرت أبا عنان للرجوع إلى المغرب وإلى سحب جيشه وأسطوله من تونس دون أن تتم أية مواجهة بينه وبين خصومه<sup>34</sup>.

ومن هناك أخذ أبو حمّو وقومه يعدّون العدة للاحتجاج لتلمسان " وساعده على ذلك عرب من زغبة كانوا خارجين عن السلطان أبي عنان، اضطروا إلى ترك أراضيهم في صحراء المغرب ولحقوا بإفريقية، فلما قتل أبو عنان راجعا إلى فاس رغبوا في العودة إلى بلادهم، فدعوا أبا حمّو إلى مرافقتهم على أن يحالفوه في اقتحام تلمسان وينصّوه للأمر فوافقهم على عزمهم<sup>35</sup>، ووجد السلطان الحفصي ووزيره ابن تفرجين في ذلك إزعاجا لعدوهم المريني، فقاما بمساعدته وسار به معه في رحلة زادت عن ستة أشهر، وكان خبر وفاة السلطان أبي عنان مما زاد في تثبيت عزائم رجال أبي حمّو، فحملوا على تلمسان ولم يتمكن ابن أبي عنان من صدّهم فافتحموها عنوة في اليوم الرابع من منازلها، وبايعه الناس بالخلافة ليلال خلون من ربيع الأول سنة 760هـ/1352م<sup>36</sup>، وانتهى بذلك عهد تلمسان بالاحتلال المريني الثاني الذي دام من 753 إلى 760هـ/1352 إلى 1359م. وأمر السلطان أبو حمّو موسى الثاني بإخراج بني مرين، وصفح عنهم وكان فيهم ابن السلطان أبي عنان<sup>37</sup>، ولما كان المرينيون أشدّ أعداء أبي حمّو فقد ناوهم أحيانا وصالحهم في أخرى، وكان حكمه يمثّل انبعاث دولة بني عبد الواد من جديد، لذلك اعتبره المرينيون عدوّا يجب التخلص منه، فبعد استقراره بتلمسان أكثر من شهر ونصف أرسل المرينيون جيشا عرمرما في آخر شهر ربيع الثاني من سنة 760هـ اضطره إلى الخروج من عاصمته إلى الصحراء<sup>38</sup>، ومن يومها خاض أبو حمّو معارك جمة ضدّ المرينين، حالفه النصر في بعضها وخانه في غيرها، وأرغم أربع مرّات على ترك قاعدة ملكه تلمسان في قبضة المرينين لفترات متفاوتة الزمن:

كانت أولاها سنة 760هـ/1359م، حيث غادر فيها تلمسان مدّة ثمانية وعشرين يوما<sup>39</sup>، بينما كانت الثانية في السنة الموالية، وفيها ترك تلمسان ليعود إليها بعد أربعين يوما<sup>40</sup>، وكانت كلاهما أمام قوات السلطان المريني أبو سالم، في حين امتدّت الثالثة من احتلال حضرته - وكانت هذه المرّة من لدن السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني - في الخامس والعشرين محرّم من سنة

772هـ/1371م إلى وفاة الملك المريني أبي فارس في الثاني والعشرين ربيع الثاني سنة 774هـ/1373م، وقد دامت مدة الاحتلال هذه أكثر من ستين، وكانت الأسوأ مقارنةً بسابقاتها على أبي حو<sup>41</sup>، وأما آخرها فكانت في صفر من عام 784هـ/1383م حتى عام 786هـ/1385م، حيث حوَّب المرينيون عمران المدينة وهنَّموا خلالها القصور الجميلة التي بناها الزيانيون مسعينين بخبرة الأندلسيين<sup>42</sup>.

وفي كلِّ مرةٍ من هذه المرات كان أبو حو يتحمَّل الصَّعاب في المنفى بشجاعة ورباطة جأش، يتحَيَّن الفرص السَّانحة للعودة إلى حمل السَّلاح محاولاً إعادة سلطانه، وهو ما نلاحظه بخاصَّة في خرجة سنة 772-774هـ، التي قاسى فيها من التشرُّد ومن شلَّة هول البرد والعري والجوع والعطش والهزيمة والإشراف على الهلاك، وقد سَمَّى أبو زكريا بن خلدون هذه الخرجة بـ " التمهيص الأكبر والابتلاء الأشهر بما لم يعرف لملك من ملوك الإسلام نظيره، ولا عدَّ في مثلات العجم الخالية شبهه"<sup>43</sup>. إلَّا أنَّ عزيم أبي حو كان يقابله إصرار المرينين للقضاء عليه، وكانت الفرصة الكبرى أمامهم عندما لجأ إليهم ابن السلطان أبي حو أبو تاشفين عبد الرَّحمان الثاني، الذي طلب منهم إعانتته للتخلُّص من أبيه ليستقلَّ بالسلطة بمفرده، بعد أن أخفق في ذلك بين سنتي 788هـ/1388م و790هـ/1389م، فأعانوه بجيش كبير، ودخل تلمسان برجال بني مرين سنة 791هـ/1390م، فكانت نهاية أبي حو في معركة بني وريند قرب جبل بني راشد في نوفمبر من نفس السنة قتلاً على يد حليف ابنه المريني<sup>44</sup>.

ولمَّا تقهَّم يتضح لنا أنَّ نجاح المرينين في إخضاع أبي حو نهائيًا كلَّفهم ثلاثين سنة من العناء والمحاولات المتكرَّرة على تلمسان لضمِّها إلى مملكتهم، فأصبح يخطف على منابرهما للسلطان المريني، ويعثُّ إليه بالجباية كلِّ سنة وصار أبو تاشفين مجرد عامل لبني مرين ليس إلَّا<sup>45</sup>. ورغم ذلك لم يسلم من منازعة أخيه أبي زيَّان حاكم الجزائر فاشتعلت الحرب بينهما طويلاً للاستقلال بعرش تلمسان، وانتهت بهلاك أبي تاشفين. وأدَّى الصِّراع بينهما إلى تدخل المرينين مجدداً بواسطة السلطان المنتصر فاحتلَّ تلمسان والمناطق الشَّرقية لها عام 795هـ/1393م، فأزال بذلك الدَّولة الزَّيَّانية للمرة الثالثة.

وللإشارة فإنَّه كان للمرينيين اليد الطولى في دفع أبي زيَّان بن أبي سعيد للثورة ضدَّ أبي حو الخصم اللدود لهم، وبعد حوالي عشرين سنة (من سنة 761هـ/1360م إلى سنة 781هـ/1380م) انتهى أمر الصِّراع بينهما، عندما أصبح أبو زيَّان عاجزاً على تحريك دواليب هذه الحرب، واستحال عليه تحقيق النصر على أبي حو موسى الثاني<sup>46</sup>.

واللآقت للنظر أن أبا حمو هو الآخر لجأ إلى التآمر ضدّ علوة المريني - عملا بالمثل - ونكاية بعلوة وذلك عندما احتضن منافسين لسلطانين من السلاطين المرينيين في فترتين متباعدتين أثناء حكمه، الأول هو الأمير عبد الحليم بن أبي علي المريني، وقد احتضنه أبو حمو سنة 762هـ/1361م مكيدة للسلطان أبي سالم المريني، فأمر بني مرين الواصلين من الجزائر إلى تلمسان ببيعته، ولما دعا له بالمغرب كساه شارة الملك وسرّحه في شيء من الآلة والتاس مكرماً<sup>47</sup>. أمّا الثاني فكان محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق، وقد جمع العرب من أصحابه على بيعته سنة 770هـ/1369م، وكساه شارة الملك وأرسله مع العرب لحصار سجلماسة مكيدة للسلطان عبد العزيز المريني<sup>48</sup>. واستطاع أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو (814 هـ/1411م) التغلب على بني مرين، وفرض عليهم أحد المطالبين بالعرش وهو محمد بن أبي طريق بن أبي عنان<sup>49</sup>.

العلاقات الزّيانية - السّعدية: في سنة 957هـ/1550م جهّز الشريف محمد المهدي مؤسس الدولة السّعدية جيشاً قوياً بقيادة ابنه الشريف محمد الحمران ليتولّى فتح تلمسان، فحاصرها تسعة أشهر وقتل في حصارها ولده الحمران، ثم استولى على المدينة سنة 957هـ/1550م<sup>50</sup>، ومدّ نفوذه إلى نهر الشلف، فخرج إليه الجزائريون تحت قيادة حسان قورصو، فانهزم جيش السّعديين وتراجع إلى مستغانم، وجاءهم المدد لكنهم انهزموا عند الحلود المغربية، وقتل الشريف عبد القادر قائد الجيش المغربي ابن الشريف محمد المهدي، فتراجع جيشهم إلى ما وراء الملوية.

العلاقات مع الأندلس: كانت العلاقات الزّيانية بالأندلس وأهلها جيّدة عموماً، وبرزت في شكل مساعدات من نقود ذهبية وخيول وحبوب وسلاح ومراكب مشحونة للاستعانة على حرب النصارى، كما حدث في زمن أبي حمو الثاني خلال سنة 763هـ/1361م وسنة 767هـ/1365م، حيث أُنْذِي أسرى المسلمين لدى النصارى جميعاً<sup>51</sup>، وكان تبادل الهدايا ثمّ اعتاد عليه سلاطين بني عبد الواد وبني الأحمر فيما بينهما، ومن ذلك مثلاً أن السلطان أبا عبد الله محمد الغني بالله أرسل رسوله في أول رجب من سنة 774هـ/1373م بمهدية تحف بها السلطان أبو حمو موسى الثاني، "وهنّاه فأكرم السلطان نزله، وأرجعه بما يناسب تودّد صاحبه من الشكر والثناء العاطرين"<sup>52</sup>. كما استقبلت تلمسان مهاجري الأندلس من المسلمين الفارين من خطر الموت أو التّصغير، ومن هؤلاء آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف

بالزغل الذي وصل إليها عبر وهران، فاستقبله أبو عبد الله الثالث المعروف بالثاني بما يليق بمقامه من الحفاوة والإكرام<sup>531</sup>.

وبالمقابل لا يمكن أن ننسى الدور الذي قام به الأندلسيون في تقديم المعونة للزيانيين في بناء وتشيد قصورهم الجميلة بتلمسان، ويذكر أن قصور تلمسان كانت من حسنات ما جادت به خبرة الصناع الأندلسيين، ومنها دار الملك و دار السرور و أبو فهر، ويخبرنا ابن خلدون عن العهد الذي تمت فيه هذه الصفقة فيقول: " كانت لا يعبر عن حسناتها، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين، واستدعى لها الصناع والقلة من الأندلس لحضارتها وبدأوا دولتهم يومئذ بتلمسان، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد بن الأحمر صاحب الأندلس بالمهرة والحدائق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعلمهم أن يأتوا بمثله"<sup>541</sup>.

#### العلاقات الزبانية - الأوربية: تأرجحت بين السلم والحرب:

في حالة السلم: كان التجار يوافلون على تلمسان من القطرين الشقيقتين ومن الأندلس وبلاد السود ومن جوة والبنليقية، فيترددون إلى المدينة من خلال موانئ وهران والمرسى الكبير، وبعد احتلالها من قبل الإسبان لم يبق للمملكة غير مينائين هما : أرشقون وهين لعرض بضائعهم المتمثلة أساسا في الثياب القطنية والحريية والخردوات والتحاس والججاج والعطور وغيرها، وكانت تأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شرعية من البنليقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان، ولم يقطع التجار عن تلمسان حتى في الأوقات العصية للحصول على متوجات بلاد السودان من عاج وذهب وعبيد، كانت تأتي بها قوافل تجار تلمسان، وكان أهم أسفارهم ذلك الذي يقومون به إلى هذه البلاد، وتوجد بتلمسان جميع الصنائع والتجارات موزعة على مختلف الساحات والأرقة، كما كان بها فلانان لمقام تجار جنوة والبنليقية، وكانت تصلر الصوف والمنسوجات والماشية والحبوب والكتب، وهي إلى ذلك ممر للبضائع الإفريقية والأوربية يتاجر فيها بحري قيصارية القديم وقد نوه ليون الإفريقي في أول القرن السادس عشر بما اشتهر به تجار تلمسان من قوة<sup>551</sup>.

#### في حالة الحرب: تلمسان والصراع الإسباني العثماني: استغل الإسبان تنافس الأسرة المالكة

في تلمسان على العرش، فاحتلوا المرسى الكبير سنة 1505 و وهران 1509 ثم بجاية سنة 1510 و جزيرة الصخرة بالعاصمة ومستغانم سنة 1511 ودلس و غنابة وهين عام 1531م. وتقرب أبو حمو الثالث من الإسبان، فاجتمع بالامبراطور الإسباني شارلكان معلنا تبعيته له، فرج بالملك الشرعي

أبي زيان في السجن، واستنجد أهل تلمسان بعروج فاندفع نحو تلمسان لنجدة الملك السجين وشيعته للتخلص من الإسبان، وحاول أبو حمو صده عن المدينة ففشل في ذلك، وهزم جيشه شر هزيمة واقتحم عروج المدينة التي استقبلته كمنقذ<sup>56</sup>، أما أبو حمو فقد فرّ إلى فاس ومنها إلى وهران طالبا المساعدة من حاكمها العام لاسترجاع ملكه.

وأجلس عروج السلطان أبا زيان الثالث المسعود على عرش تلمسان، وبعد فترة وجيزة من الاستقرار عادت تلمسان لتسقط في الفتنة، التي كان وراءها السلطان أبو زيان وأشياع عمه أبي حمو معا، وغادر عروج تلمسان حين ثم عاد إليها ليقول أبي زيان مع رؤوس الفتنة، وعندها أمر شرلكان حاكم وهران بمساعدة أبي حمو لاسترجاع عرش تلمسان، الأمر الذي أدخل تلمسان في دوامة من التقلبات السياسية جعل سلاطينها يتأرجحون بين ولاء للأتراك العثمانيين وخيانة للدين والوطن بالخضوع للإسبان مقابل الحفاظ على الملك أو طلب المساعدة لاسترجاعه في أحداث يطول شرحها، واستغلّ الإسبان احتضار التولية الزيانية من خلال تلك الأحداث المؤلمة داخل الأسرة الحاكمة، فأرغموا ضعفاء سلاطينها على الخضوع لاتفاقيات كلّها لصالحهم، وقد تعاقب على ملك تلمسان في هذه الفترة الممتدة من 924هـ/1518 إلى 962هـ/1554م:

أبو حمو الثالث الذي عاد رفقة الجيش الإسباني واحتلّ تلمسان سنة 924هـ/1518م ومات في نفس السنة، وأبو محمد عبد الله الثاني الذي أعقبه على عرش تلمسان في السنة نفسها، فثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود، الذي احتلّ تلمسان بمساعدة الجزائريين سنة 925هـ/1519م وطرده من العرش، وباع السلطان سليم العثماني ثمّ نقض البيعة والارتباط بالجزائر. ودخلت تلمسان بعدها في سلسلة من التقلبات في عرشها ما بين التبعية للاحتلال الإسباني والتبعية للأتراك العثمانيين وكان حكم تلمسان بين مدّ وجزر في هرم سلطتها حيث حكمها في ظرف وجيز محمد السابع وأبو زيان أحمد الثاني وأخبرهم الحسن بن عبد الله الثاني الذي نصبه حسان قورصو بعد تخلصه من السعديين الذين طاردوهم إلى ما وراء الملوية، وبقي تحت إشراف الضابط التركي سقطة، فكان عبارة عن جسد بلا روح، إلى أن قرّر مجلس العلماء سنة 962هـ/1554م خلعوه وأعلن البايبرباي صالح رايس حينئذ نهاية دولة بني زيان، وانضمامها إلى الأبد للتولية الجزائرية بعد أن عمّرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما<sup>57</sup>.

العلاقات بين أبي زيان والظاهر برفوق: ذكر التنسي أنه "لما وردت على أبي زيان بن محمد بن أبي حمو هدية ملك مصر سيف الدين أبي سعيد الملقب برفوق أول الممالك البرجين، بعث إليه عملا بالمثل هدية جليلة ووجه معها قصيدة لامية من نظمه تحتوي على سبعة وخمسين بيتا مطلعها:

لن الركائب سيرهن ذميل فالصبر إلا بعلمن جليل

يا أيها الحادي رويدك إنها ظعن يميل القلب حيث تميل<sup>58</sup>

وهذا ما يؤكد أنهما كانا على علاقات ودية، وذكر ابن خلدون أن هدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها الموهبة وأحمال من الأقمشة<sup>59</sup>.

الخاتمة: أن العلاقات الزيرية الحفصية تميزت مبدئياً بالتبعية لهم وتدعمت بالمصاهرة، إلا أن التقارب الحفصي المريني للإطاحة بعرش تلمسان، قطع أوصال هذه العلاقات، وتمكن الحفصيون من غزو تلمسان واحتلالها إلى حين تم رجوعا عنها بعد أن نصبوا عليها ابن أبي عمران وهو أحد المطالبين بالعرش، وسيتحول التقارب الحفصي المريني - لاحقا - إلى عداوة بسبب الأطماع التوسعية المرينية، ولإحداث التوازن في المنطقة كان على الحفصيين مساعدة الزيرانيين في إعادة بناء دولتهم، لمواجهة العدو المشترك وتأمين حدود دولتهم، إلا أن الحفصيين سيستغلون تطور الأحداث ويستثمرونها لصالحهم بعد ضعف إمارة المرينيين وانشقاق البيت الزيري على نفسه فيقومون باحتلال تلمسان وإخضاعها لسلطانهم، وللإشارة فإن الجزائر الحفصية انتقلت من التبعية الحقيقية ل تونس الحفصية إلى الاستقلال عنها تدريجياً ثم نهائياً سنة 943هـ/1536م.

أما العلاقات مع المرينيين فإن أيام السلم فيها بين الطرفين هي أيام انشغالهما بفتن داخلية، وبعبارة أخرى فإن النزاع المستحكم ساد بينهما، وكان غالبا ما يكون لصالح المرينيين، الذين احتلوا تلمسان في العديد من المرات: كان أطولها الاحتلال الأول في عهد أبي الحسن المريني، الذي دام قرابة اثنتا عشرة سنة ( من 737هـ/1336م إلى 749هـ/1348م). بينما كان أقصرها مدة، ذلك الذي وقع سنة 761هـ/1360م، على عهد أبي سالم المريني، الذي أرغم أبا حمو على الغياب عن تلمسان لمدة أربعين يوما. في حين تمكن الزيرانيون فيما بعد من تحقيق النصر على المرينيين في عقر دارهم بواسطة السلطان أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو سنة 814هـ/1411م، وفرض عليهم أحد المطالبين بالعرش وهو محمد بن أبي طريق بن أبي عنان.



أما السعديون فمُنذ تأسيس دولهم أظهروا أطماعاً توسّعية على حساب تلمسان، التي احتلّوها بعد حصار دام تسعة أشهر سنة 957هـ/1550م، وبسطوا نفوذهم إلى واد الشلف، فردّهم حسان قورصو بهجوم معاكس إلى ما وراء الملوية خائبين منهزمين.

وكانت العلاقات مع الأندلس ودية أخوية مبنية، على التعاون المشترك للدولتين، ولما أنشأ الإسبان محاكم التفتيش التي كانت تفرض التصير على مسلمي الأندلس أو الموت، استقبلت تلمسان أفراجاً من الأندلسيين الذين فرّوا بدينهم وتمّموا شطرها.

بينما تارجحت العلاقات مع الأوربيين بين السلم والحرب، ففي السلم كان التشاط التجاري طابع هذه العلاقات باعتبار أنّ تلمسان كانت همزة وصل بين البضائع الإفريقية والأوربية. وفي الحرب تميّزت بغارات الإسبان على سواحل المغرب الإسلامي الإستراتيجية، فاحتلّوا عدداً منها، أما تلمسان فقد خضعت لهم بسبب ضعفاء الشخصية من سلاطينها الذين كان همهم الوحيد الظفر بالحكم بغض النظر مع من يتحالفون للوصول إلى سدّته، حتّى ولو كانوا إسبانياً مسيحيين. إلّا أنّ التلمسانيين استقبلوا مثل هذه التصرفات واستتجّلوا بالأخوين المسلمين عروج وخير الدين، فاشتدّ الصّراع بين القوتين الإسبانية والعثمانية على تلمسان الزبانية إلى أن دخلت في كنف التّولة الجزائرية بعد أن ضمّها صالح رايس سنة 962هـ/1554م، بخلع آخر سلاطينها وهو الحسن بن عبد الله الثاني.

ويذكر أنّ أبا زيّان والظاهر برقوق أوّل الممالك البرجين على مصر كانا على علاقة ودية، ويؤكد ذلك الهدايا التي بعث بها كلّ منهما للآخر.

الهوامش:

1- ابن خلدون عبدالرحمن- كتاب العبر ودوان المتبدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر -مؤسسة منشورات الأعلمي للمطبوعات- بيروت- 1391هـ/1971م- ج6 ص286 وج7 ص80. وانفرد علي ابن أبي زرع القاسي بخبر جاء فيه: "أنّ الرشيد بعث إلى يغمراسن بملية عظيمة مؤملاً منه ما كان ممن قبله من الخطبة لهم، فلم يجبه إلى ذلك وأظهر كلّ واحد عداوة الآخر، فهم الرشيد بالتحرك نحوه فعاجلته منيته". ينظر: الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- اخني بطبعه وتصحيحه: يوحى نورنرخ- دار الطباعة المدرسية- أويسالة- 1833- ص456.

2- ابن خلدون يحيى- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات- المكنبة الوطنية- الجزائر- 1400هـ/1980م- ج1 ص205. علي ابن أبي زرع القاسي- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية- الرباط- 1392هـ/1792م- ص61. ابن خلدون عبد الرحمن - للمصدر السابق- ج6 ص256-257. وجاء في تاريخ

- الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي- تحقيق وتعليق: محمد ماضور- المكتبة الحيقية- تونس- 2002- ط2- ص29. وفي تونس في أنجبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار- مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها اخميتة- 1286هـ- ط1- ص126: "أن تحرك أبا زكريا لتلمسان كان سنة 639هـ/1241-1242م". في حين يذكر ابن القنفذ القسنطيني: "أن التحرك لتلمسان كان سنة 639هـ، أما دخولها فكان سنة 640هـ". ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية- تقديم وتحقيق: محمد الشاذل البفر وعبد المجيد التركي- الدار التونسية للنشر- 1968- ص109.
- 3- ابن الأزرق أبو عبد الله- بدائع السلك في طبائع الملك- تحقيق: علي سامي النشار- دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة- الإسكندرية- 1429هـ/2008م- ط1- ج2 ص672.
- 4- ابن خلدون يحيى، المصدر نفسه- ج1 ص206. ويسمى ابن أبي زرع في ذخيرته: تلمزجلرت- ص72. وهي عند محمد بن عبد الله التسي: تلمززدت. ينظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان- تحقيق وتعليق: محمد بوعباد- المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية- الجزائر- 1405هـ/1985م- ص118.
- 5- التسي- المصدر نفسه- ص119. ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص72. ويسميه في روض القرطاس: "يوسف بن خورور" ينظر: ص456-457. الزركشي- المصدر نفسه- ص31.
- 6- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص98. ويسمى مبارك بن محمد الميلي هذه المعركة " معركة جبل الزان" ينظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ج2 ص407.
- 7- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج6 ص439-440.
- 8- نفسه- ج6 ص340-341. التسي- المصدر نفسه- ص144.
- 9- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص123-124 و132-133 و141-142. الناصري أحمد بن خليل- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- 1955- ج4 ص57-58-67-76-77.
- 10- التسي- المصدر نفسه- ص157. وذكر أبو هو أن بداية استرجاع ملكه كانت من تونس إلا أنه لم يذكر شيئا عن الإغاة بأالة السلطان من قبل صاحب تونس حيثنظر: أبو هو موسى بن يوسف الزياي- كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك- تقديم المعهد الهندي- أو كسفورد- 1880- ص13.
- 11- ابن خلدون يحيى - بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- المطبعة الشرقية للأخوين فرنطانة وشركانهما- الجزائر- 1911- ج2 ص37. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص123. أبو هو موسى- المصدر نفسه- ص14. التسي- المصدر نفسه- ص159.
- 12- ابن خلدون يحيى - نفسه- ج2 ص151. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص128.
- 13- ابن خلدون يحيى - ج2 ص182. ابن خلدون عبد الرحمن - ج7 ص128-129.
- 14- ينظر مثلا "تدلس" في البغية- ج2 ص103 أخذها الربانيون وفي ص151 انتزعها منهم الحفصيون. ينظر أيضا في العبر- ج7 ص171.
- 15- ينظر تفاصيل هذه الواقعة في البغية- ج2 ص182-183. العبر- ج7 ص128-129.
- 16- التسي- المصدر نفسه- ص241-243. الزركشي- المصدر نفسه- ص125-126.
- 17- الزركشي- نفسه- ص127-128.

- 18- مبارك بن محمد الملي - المرجع نفسه- ج2 ص390 و398.
- 19- ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج1 ص209-210. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص96.
- 20- التسي- المصدر نفسه- ص131. ابن خلدون عبد الرحمن - نفس الجزء والصفحة.
- 21- التسي- نفسه- ص134. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص233.
- 22- التسي- نفسه- ص135. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص233-234.
- 23- التسي- نفسه- ص138. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص104.
- 23- التسي- نفسه- ص145. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص107-109.
- 25- التسي- نفسه- ص145-146. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص147-148.
- 26- ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج1 ص235. الزركشي - المصدر نفسه- ص85.
- 27- ابن خلدون يحي - نفسه- ج1 ص245-246. التسي- المصدر نفسه- ص151. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص116.
- 28- التسي- نفس الصفحة. ابن خلدون عبد الرحمن - نفس الجزء والصفحة.
- 29- التسي- نفسه- ص152-153. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص118-119.
- 30- التسي- نفسه- ص154. ابن خلدون يحي - نفسه- ج1 ص245-246.
- 31- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص17-18. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص121-122. الزركشي- المصدر نفسه- ص94.
- 32- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص18-20. مبارك الملي - المرجع نفسه- ج2 ص459.
- 33- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122-124.
- 34- أبو حمو موسى - المصدر نفسه- ص13. الزركشي- المصدر نفسه- ص96-98.
- 35- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122. الناصري - المصدر نفسه- ج3 ص201-202.
- 36- أبو حمو موسى - المصدر نفسه- ص14. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص39.
- 37- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص122-123.
- 38- إسماعيل بن الأحمر- روضة السرين في دولة بني مرين- المطبعة الملكية- الرباط- 1962- ص55. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص51. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص5.
- 39- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص52.
- 40- ينظر تفاصيل ذلك في البيعة- ج2 ص76-79. إسماعيل بن الأحمر- المصدر نفسه- ص56. ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه- ج7 ص124-125 و311-312. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص33-34.
- 41- ابن خلدون يحي - نفسه- ج2 ص238 و269. ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص132-135-329-330-336-337. الناصري- نفسه- ج4 ص57.
- 42- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص141-143.
- 43- نفسه- ج7 ص330-334. ابن خلدون يحي - المصدر نفسه- ج2 ص237.
- 44- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه- ج7 ص143-148. الناصري- المصدر نفسه- ج4 ص76.

- 45- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه - ج 7 ص 147-148. الناصري - نفسه - ج 4 ص 76-77.
- 46- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه - ج 7 ص 124-125 و 139.
- 47- نفسه - ج 7 ص 316. ابن خلدون يحيى - المصدر نفسه - ج 2 ص 90-91 وخاصة ص 95. الناصري - المصدر نفسه - ج 4 ص 43 و 74.
- 48- ابن خلدون عبد الرحمن - نفسه - ج 7 ص 129. ابن خلدون يحيى - نفسه - ج 2 ص 235-236.
- 49- التسي - المصدر نفسه - ص 240-241.
- 50- الناصري - المصدر نفسه - ج 5 ص 25.
- 51- ينظر نقاديل ذلك في البنية - ج 2 ص 114 و 193.
- 52- نفسه - ج 2 ص 276.
- 53- المقرئ التلمساني - فتح الطيب بن غصن الأندلس الرطب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت - 1388هـ / 1968 - ج 4 ص 524.
- 54- ابن خلدون عبد الرحمن - المصدر نفسه - ج 7 ص 142. ليون الإفريقي - وصف إفريقيا - ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1983 - ط 2 - ج 2 القسم الرابع - ص 20.
- 55- ليون الإفريقي - نفسه - ج 2 ص 19-20-21. شارل أندري جوليان - تاريخ إفريقيا الشمالية - تعريب: محمد دزالي والبشير بن سلامة - الدار التونسية للنشر - 1983 - ط 2 - ج 2 ص 202.
- 56- كان الشيخ أبو العباس أحمد بن القاضي الثولوي هو من كاتب عروج وخير الدين لئجلة أهل تلمسان. ينظر: الاستقصا - ج 4 ص 162.
- 57- أحمد توفيق المدي - نفسه - ص 310 و 329.
- 58- التسي - المصدر نفسه - ص 220 إلى 227.
- 59 - ابن خلدون عبد الرحمن - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا - تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1951 - ص 345.



## إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري(13م).

أ.د عبد القادر بوباية\*

مقدمة: بفضل الجهود التي بذلها أمراء وخلفاء بني أمية صارت العروة الأندلسية بداية من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قبلة لطلبة العلم، ومقصدا للعلماء الذين جاءوها من المشرق والمغرب، وساهموا في ازدهار الحركة العلمية بها، وقد استمر ذلك العطاء العلمي حيث بلغ أوجه على عهد ملوك الطوائف رغم التشرد السياسي والتناحر المقيت ومدّة الأيدي للعدو النصراني، ولكنها لم تلبث أن فقدت هذه المكانة بعد أفول نجم ملوك الطوائف سنة 483هـ/1090م، وعلى الرغم من المساعدة التي قدمها المرابطون والموحدون من بعدهم فإن مسلمي الأندلس أصبحوا أكثر من أي وقت مضى عرضة لهجمات النصارى وبخاصة منذ استيلائهم على مدينة طليطلة سنة 478هـ/1085م.

نتيجة لذلك كله اضطر سكان الأندلس عامة، وفي مقدمتهم العلماء إلى مغادرة بلادهم بحثا عن مستقر جديد يوفر لهم الأمن والدعم المادي من أجل مواصلة عطائهم العلمي، وكانت هجراتهم تلك نحو مختلف مدن بلاد المغرب، ومنها تلمسان التي صارت قبلة كثير من هؤلاء العلماء، وبخاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

إن هجرة هؤلاء العلماء سيكون له الأثر البالغ في وضع النواة لمركز علمي جديد سيضاهي بعد زمن يسير المراكز العلمية المتواجدة ببلاد المغرب الإسلامي، وبخاصة منها جامع القرويين المتواجد في مدينة فاس وجامع القيروان الوجود بإفريقية، كما أن استقرار هؤلاء العلماء في تلمسان سيضع البنود الأولى لحركة علمية ستتجسد من خلال بروز عديد العلماء التلمسانيين.

\* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب والأندلس - قسم التاريخ - ومدير مخبر تاريخ الجزائر - جامعة وهران.

ومن خلال هذه المقالة المتواضعة سأعمل على إبراز أهم العوامل التي دفعت هؤلاء العلماء الأندلسيين إلى الهجرة نحو بلاد المغرب عامة، وتلمسان بصفة خاصة، كما سأتطرق إلى الجهود التي بذلها هؤلاء العلماء في تطوير الحركة العلمية فضلاً على إيراد تراجم لأبرز العلماء الأندلسيين الذين استقروا في مدينة تلمسان.

### عوامل هجرة العلماء الأندلسيين إلى تلمسان:

1- تدهور أوضاع المسلمين في العدة الأندلسية: تعرّض المسلمون منذ سقوط مدينة طليطلة إلى هجمات النصارى التي ستأتي على ما بقي بأيدي المسلمين من حواضر وقرى، ونتيجة لذلك لم يبق في أيديهم إلا الجزء الجنوبي فقط، والذي سيفقدونه رغم الجهود الذي بذله المرابطون والموحدون حيث سيطر عليه النصارى، الذين استولوا على سرقسطة سنة 512هـ/1118م، والمرية وأشبونة سنة 542هـ/1147م، وطرطوشة سنة 543هـ/1148م، وشتتين سنة 555هـ/1160م<sup>1</sup>، وازداد الأمر سوءاً بعد هزيمة الموحدين في موقعة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، حيث سيطر النصارى على قرطبة سنة 633هـ/1236م، وبلنسية سنة 636هـ/1238م، ثم تلاها سقوط مدن شقر سنة 639هـ/1241م، وجيان سنة 643هـ/1245م، وشاطبة سنة 644هـ/1246م، وإشبيلية سنة 645هـ/1247م، ومرسية سنة 664هـ/1265م<sup>2</sup>.

ونتيجة لذلك "بادر المسلمون بالجواز إلى العدة من المراسي..."، ومنهم "أهل المرية إلى تلمسان"<sup>3</sup>، ولعلّ الذي دفعهم إلى ذلك ما ذكره ابن سعيد المغربي حين قال: "والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياها وبساتينها وكثرة صنائعها"<sup>4</sup>.

2- مكانة تلمسان العلمية: كانت مدينة تلمسان أحد المراكز العلمية على عهد الحكام الذين تعاقبوا عليها، ويؤكد ذلك جلّ الكتاب الذين وصفوا هذه المدينة في كتاباتهم، ومن ذلك ما جاء في كتاب المسالك والممالك الذي يقول مؤلفه: "ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين، وحملت الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله<sup>5</sup>، ونفس الكلام يورده مؤلف كتاب الاستبصار الذي يقول: ومدينة تلمسان مدينة علم وخير، ولم تزل دار العلماء والمحدثين"<sup>6</sup>.

3- عناية ملوك بني زيان بالعلم والعلماء: ازدادت أهمية تلمسان العلمية عقب قيام دولة بني عبد الواد، ويؤكد ذلك ابن خلدون حين يقول: "ترها آل زيان، واتخذوها داراً للملكهم، وكرسيا لسلطانهم، فاخبطوا بها القصور المؤقتة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين،

وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب"، ونتيجة لذلك كله "رحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"<sup>7</sup>.

ويضيف ابن خلدون في مكان آخر من مؤلفه قائلاً: "ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلطة والشورى بمكان اصطفاه له"، ووفد في جملة أبو بكر بن الخطاب المبايع لأخيه بمرسية، وكان مراسلاً بليغاً، وكاتباً مجيداً، وشاعراً محسناً؛ فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين براكش وتونس في عهود يبعثهم ما تنوّل وحفظ"<sup>8</sup>، ويؤكد يحيى ابن خلدون ما ذهب إليه أخوه حيث قال: "إن يغمراسن بن زيان كان "يؤثر الصالحين والعلماء، وبجالسهم كثير"<sup>9</sup>.

وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه أبو عبد الله التنسي حيث يقول: "وله في أهل العلم رغبة عالية، يبحث عليهم أين ما كانوا، ويستقدمهم إلى بلده، ويقابلهم بما هم أهلهم"<sup>10</sup>، ويضيف أيضاً: "ولما اشتهر اعتناؤه بالعلم وأهله، وفد عليه من الأندلس خاتمة أهل الآداب، المبرز في عصره على سائر الكتاب أبو بكر محمد بن عبد الله ابن داود بن خطاب؛ فأحسن نزله ومثواه، وقربه من بساط العزّ وأدناه، وجعله صاحب القلم الأعلى، ومقام ابن خطاب هذا في العلم شهير لا سيما الأدبيات، واستوفى التعريف به ابن رشيد قال: "وبوفاته انقرض علم الكتابة"<sup>11</sup>.

نتيجة لهذه العوامل كلها هاجر العديد من العلماء الأندلسيين إلى مدينة تلمسان سواء من أجل اتخاذها كموطن دائم أو من أجل التدريس بها، واختارت الأغلبية الاستقرار بها نظراً لما أحاطهم به حكام المدينة، وبخاصة ملوك بني زيان، من كرم ومكانة عالية فضلاً، على الدعم المادي الذي وفر لهم ما كانوا في حاجة إليه من أجل مواصلة نشاطهم العلمي.

أبرز العلماء الأندلسيين بتلمسان ونشاطهم بها:

- 1- أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي: وهو محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي، إشبيلي الأصل، روى ببلده عن أبي بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة، وأبي عبد الرحمن التجيبي وأبي عبد الله بن عبد الحق وأبي محمد بن حوط الله.

كان أديبا بارع الكتابة، شاعراً مجيداً، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفاً متقناً، فسر الكتاب العزيز، وشرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكتب في أصول الفقه، وله في التصوف نظم حسن كثير في الزهد وسبل الخير والوعظ، وتزيه الباري سبحانه وتعالى، وتوفي بتلمسان<sup>12</sup>.

2- أبو عبد الله الحلوي، الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلمسان، ومن كبار العباد العارفين، حدث الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المعروف بابن المرأة قال: "أتيت من مرسية زائراً عمّة لي بتلمسان، وتطوفت يوماً بتلمسان، فرأيت هذا الشيخ...، قال لي: بماذا تحترف؟ قلت: بالقراءة، قال: "أتريد أن تقرأ؟" قلت: "نعم"، قال: إيتني إن شاء الله بالمسجد الذي بخندق عين الكسور من المنية التي بخارج باب القرمدين، وتقرأ ما تريد"، فخرجت إليه من الغد فوجدته جالسا بالمسجد لوعدي، فسلمت وجلست، فقال: ما الذي تريد قراءته؟ فقلت: ما ألهمك الله إليه، قال: اقرأ كتاب الله أولاً فهو أحق أن يفتح به، فاستعدت بالله من الشيطان الرجيم، وقرأت بسم الله الرحمن الرحيم، فكلّم في فضلها عشرة أيام، ثم قرأت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم شيئا من الأدب، قال المخبر: فكل ما تسمعون من أدبي فمنه استفدت، وعنه أخذته في مدة حولين كاملين لم ينتقل فيها عما عهدته.

ومما ينسب إليه من النظم قوله:

إذا نطق الوجود أصاخ قوم      بأذان إلى نطق الوجود  
وذاك النطق ليس له انعجام      ولكن دق عن فهم البليد  
فكن فطنا تنادى من قريب      ولا تك من ينادى من بعيد

وقيل إنه ولي القضاء بإشيلية آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم فر بنفسه منه، وآوى إلى تلمسان في زيّ الجاني<sup>13</sup>.

3- أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي، من أهل مالقة، وسكن مرسية، يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن المرأة، روى عن أبي الحسن بن حنين وأبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم، حدث بالموطأ عنهما، وكان فقيها حافظاً للرأي مشاوراً.



كان أبو إسحاق مُتقدماً في علم الكلام، حافظاً ذاكراً للحديث والتفسير والفقه والتاريخ وغير ذلك، وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكراً لكلام أهل التصوف، يطرز مجالسه بأخبارهم، وكان بحراً للجمهور بمالقة ومرسية، بارعاً في ذلك، مفتناً له، مقبلاً فيه، حسن الفهم لما يلقى، له وثوب على التمثيل والتشبيه فيما يقرب للفهم، وكان صاحب حيل ونواحر مستظرفة، يلهي بها أصحابه ويؤنسهم.

مؤلفاته: منها شرحه كتاب الإرشاد لأبي المعالي، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد، وشرح الأسماء الحسنى، وألف جزءاً في إجماع الفقهاء، وشرح محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن العريف، وألف غير ذلك، وتوالياً نافلة في أبوابها، حسنة الرصف والمباي، ولم يزل بمرسية يناظر عليه ويتحلق إليه إلى أن توفي بها في صدر سنة 611هـ/1214م<sup>14</sup>.

تجول أحياناً، ودرس في غير ما بلد، وكانت العامة حزبه<sup>15</sup>، ومن بين المدن التي زارها تلمسان، ويؤكد ذلك يحيى ابن خلدون حيث يذكر أنه التقى بأبي عبد الله الحلوي وأخذ عنه، ويضيف أنه "كان يدرس كتاب الطهارة من الملوثة بالجامع"<sup>16</sup>.

4- أبو بكر بن خطاب الغافقي المرسى: وهو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي أبو بكر، نزبل تلمسان، من أهل مرسية، روى عن أبي بكر بن جهور وأبي بكر بن محرز وأبي بكر الغافقي وأبي علي الحسن بن عبد الرحمن الرفاء وأبي عيسى محمد بن محمد ابن أبي السداد وأبي المطرف بن عميرة وغيرهم، وأجازه أبو الربيع ابن سالم<sup>17</sup>.

كان ابن خطاب كاتباً بارعاً، وشاعراً مجيداً، كما كانت له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل وحسن سمت، وقد ورد على غرناطة، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القدر، معظماً عند الكافة، ثم رجع إلى مرسية، وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، وقد اشتدت أحوالها، واستقر في نهاية المطاف بمدينة تلمسان كاتباً عن سلطانها أبي يحيى يغمراسن بن زيان.

روى عن القاضيين أبي السداد وأبي بكر بن محرز وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابه أبو الربيع بن سالم وغيره، ومن شعره قوله:

اقنع بما أوتيته تل الغنى وإذا دهتك ملمة فصبر

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رمننا زيادة ذرة لم نقدر  
والله أرحم بالعباد فلا تسل أحدا تعش عيش الكرام وتوَجِر  
وإذا سخطت لئس حالك مرة ورأيت نفسك قد غوت فلتصبر  
وانظر إلى من كان دونك تذكر لعظيم نعمته عليك وتشكر<sup>18</sup>

بعد هذه الحياة الحافلة بالعطاء العلمي والمشاركة في تسيير الحكم من خلال خطة الكتابة  
توفي ابن خطاب في مدينة تلمسان يوم عاشوراء سنة 686هـ/1287م<sup>19</sup>.

5- محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي، يكنى أبا عبد الله، من  
أهل لقنت عمل مرسية<sup>20</sup>، بينما يقول ابن القاضي وغيره إنه من أهل إشبيلية<sup>21</sup>، أخذ القراءات  
بمرسية عن أبي أحمد محمد بن معطى التجيبي وأبي الحجاج يوسف بن إبراهيم الثغري وأبي عبد الله  
بن الفرس وسمع منهم، ومن أبي محمد بن عبد الله وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي وأبي جعفر بن  
مضاء وأبي عبد الله بن الفخار وأبي زيد السهيلي وغيرهم.

رحل إلى المشرق فأدى الفريضة، وأطال الإقامة هنالك، واستوسع في الرواية، وكتب  
العلم عن جماعة كثيرة زادت عن مائة وثلاثين من العلماء، ومنهم أبو طاهر السلفي الذي صحبه  
واختص به، كما عن حماد بن هبة الله الحراني وعبد الرحمن بن محمد بن منصور الحضرمي وأبي  
الرخاء أحمد بن طارق بن سنان وأبي محمد بن بري وأبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي وشهدة  
بنت أحمد بن أبي الفرج، وغيرهم.

وحكى أنه لما ودع شيخه أبي طاهر سأل عما كتب عنه فأخبره أنه كتب كثيراً من  
الأسفار ومئين من الأجزاء فسر بذلك، وقال له: "تكون مُحَدَّث المغرب إن شاء الله، قد جمع في  
أسمائهم على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار.

وقفل من رحلته الحافلة هذه فأخذ عنه في سبعة سنة 594هـ/1197م، ثم نزل تلمسان  
واتخذهاوطناً، وحَدَّث بها وألف، ورحل الناس إليه، وسمعوا منه كثيراً، وكان حافظاً للحديث،  
محافظاً على إسماعه، عدلاً خياراً، مُقَيِّداً لما روى، مُقَيِّداً بما جمع.

نظراً لعلو روايته وتشاهر عدالته روى عنه جماعة، ومنهم أبو العباس بن العزفي وأبو عبد  
الله الأزدي وأبو عبد الله بن جعفر بن فرتون الذي ذكره في كتابه، وابن الأبار القضاعي الذي  
كتب إليه بإجازة ما رواه وألفه في العشر الأواخر من رمضان سنة ثمان وستمائة.

مؤلفاته: برنامج الأكبر، وبرنامج الأصغر، ومعجم شيوخه في مجلد كبير، والأربعون حديثاً في المواعظ، والأربعون في الفقر وفضله، وأربعون في الحب في الله، وأربعون في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلسته في جزء، وكتاب فضائل الشهور الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، وكتاب فضل العشر من ذي الحجة، وكتاب مناقب الحسن والحسين، وكتاب الفوائد الكبرى في مجلد، والفوائد الصغرى، وكتاب الترغيب في الجهاد، خمسون باباً في مجلد، وكتاب المواعظ والرفائق سفران، وكتاب في مناقب شيخه أبي طاهر السلفي وفهرسة. ولد في لقت في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفي بتلمسان في جمادى الأولى سنة عشرة وستمائة/1213م<sup>22</sup>.

6- أبو الحجاج يوسف بن علي بن محمد بن عبد الرزاق الأشعري: من أهل الأنجرون من بشرة غرناطة، أصولي، أديب بليغ، روى عن أبي جعفر بن حكم الزاهد وأبي زكرياء الأصبهاني وأبي الحجاج بن الشيخ وغيرهم، مولده في أخريات ذي قعدة سنة 577هـ (1181م)، وتوفي في عشر الأربعين وستمائة بمدينة تلمسان، روى عنه أبو علي بن أبي الأحوص وأبو عبد الله الطنجالي وذكره<sup>23</sup>.

7- أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن شلوط المعروف بالشباري، من أهل بلنسية، له رحلة حج فيها، وسمع بمكة من أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي وأبي محمد المبارك بن الطباخ، ثم قفل إلى المغرب فسكن تلمسان مدة، وأخذ عنه هنالك، وتحول بعلمها إلى بلده أين روى عنه أبو عبد الله بن الآبار، وكان محدثاً عدلاً خياراً، مُحترفاً بالطب ماهراً فيه، وتوفي في نحو العشر وستمائة<sup>24</sup>.

8- أبو الحسن طاهر بن علي بن محمد بن عبد الرحمن السلمي: من جزيرة شقر، وسكن مرسية ثم تلمسان، تلا بحرف نافع على أبي بكر بن أبي القاسم محمد بن وضاح، وروى عنه، وعن أبي الحجاج بن محمد بن طملوس وتفقّه به، وأبي الحسن ابن عمر بن أبي الفتح وتفقّه به، وأبي الحسن ابن حريق وتأدّب به، وأبي الحسن ابن قطال وأكثر عنه وأجاز له، وأبي الخطاب ابن واجب وأبي الربيع بن سالم، وأكثر عنه وأجاز له، وأبي زكرياء بن أبي يحيى أبو بكر بن عصفور العبلري التلمساني ولقيه بها، وأبي عبد الله بن يحيى بن داود التادلي، ولازمه في النحو والأدب، وأبي العباس بن علي بن مطرف، وأبي محمد ابن باديس وأبي محمد عبد الحق بن محمد

الزهري، وأبي المطرف بن عميرة وانتفع به كثيراً في الطريقة الأدبية، وأجاز له أبو الحسن ابن خيرة سنن أبي داود وشهاب القضاعي.

أجاز له ولم يلقه أبو الحسن ابن محمد ابن القطان، وأبو الحسن محمد بن محمد بن زرقون، وأبو العباس بن محمد العزفي، وأبو علي عمر بن محمد ابن الشلوين، وأبو مروان محمد بن أحمد الباجي وسماه عبد الملك وهما.

روى عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى الحسيني الذي لقاه بتلمسان، وكان ذا حظ من النظم والنثر، شديد العناية بتقيد الأشعار والرسائل، وله فيها مصنفات، وكتب بخطه الكثير في كل فن، وشهر بسرعة الكتب<sup>25</sup>.

9- أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبي: سكن مراکش وهو من برشانة، وسكن قبلها سرقسطة، أخذ عن أبيه وأبي الخطاب أحمد بن أبي الحسن محمد بن واجب وأبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، وكانت له عناية تامة بالأدب، وكتب عن المستنصر أبي يعقوب يوسف بن الناصر أبي عبد الله من آل عبد المؤمن والمأمون فمن بينهما، وكان كاتباً مُحسناً بارع الخط، رائق الطريقة فيه، نفاعاً لأصحابه وذوي معرفته بجاهه وماله، كان مثله مألفاً لطلبة العلم يأوون إليه، وقد استقضى بسبته وتلمسان، ومن المؤكد أنه قد درس في هذه الأخيرة كما فعل في بلده، وتوفي متلبساً بالكتابة عن المأمون، وقيل توفي بسبته قاضياً له في محرم سنة 629هـ (1231م)<sup>26</sup>.

10- محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة: من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر وأبا عبد الله، أخذ القراءات عن أبي الحسن شريح بن محمد، وأبي العباس بن حرب وسمع منهما، ومن أبي بكر بن العربي وأبي بكر بن مديبر بن رزق، وأجازوا له هم أو منهم، وأبو طاهر السلفي، ولم يسمع من شريح إلا موطاً مالك رواية يحيى بن يحيى، وصحيح البخاري رواية أبي ذر خاصة.

روى عنه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن أحمد الهواري، وأبو زكرياء يحيى بن عصفور، وأبو العباس بن المزي، وأبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي.

كان مجوداً للقرآن، محدثاً ضابطاً، عالي الرواية، نزل تلمسان وعمر بها، وأخذ عنه الناس حتى عمّر وأسنّ، وحكى أبو العباس بن المزيّن أنه لقيه بتلمسان في شهر ربيع الآخر سنة ستمائة (1203م)، ويقول ابن الآبار: إنه "توفي سنة ستمائة"<sup>27</sup>.

11- عبد العزيز بن يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم بن فيرة بن عمر اللخمي: من أهل مرسية، وسكن تلمسان، وأصله من أندة، يُعرف بابن الدباغ، ويكنى أبا الأصم.

شيوخه: روى عن أبيه القاضي الإمام المحدث الحافظ أبي الوليد يوسف، وعن جدّه لأمه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن وضاح القيسي، وسمع صحيح مسلم من أبي عبد الرحمن مساعد بن أحمد الأصبحي، وأجاز له أبو عامر بن حبيب وأبو عبد الله ابن الحاج الشهيد وأبو الحسن شريح بن محمد وأبو بكر بن العربي ويونس بن مغيث وأبو القاسم بن بقي وغيرهم، وشيوخه أزيد من خمسين.

لم يكن الحديث شأنه، أجاز لأبي محمد عبد الله بن الحسن القرطبي الحافظ سنة 598هـ (1201م)، أجاز له في التاريخ، وحدث عنه أبو القاسم الملاحي وأبو العباس بن المزين الذي لقيه بتلمسان سنة 600هـ (1203م)، وقد نيف على السبعين<sup>28</sup>، وكانت وفاته سنة 602هـ (1205م)<sup>29</sup>.

الخاتمة: من خلال كل ما سبق ذكره يتبين لنا الدور الكبير الذي قام به العلماء الأندلسيين في النهضة العلمية التي شهلتها مدينة تلمسان خلال هذا القرن، والقرون التي سلتها حيث كانوا واضعي البنود التي ستتج تلك الحركة العلمية المتميزة التي شهلتها المغرب الأوسط عامة، ومدينة تلمسان بصفة خاصة.

لقد قنم هؤلاء العلماء جلّ خبراتهم ورصيدهم العلمي في سبيل خدمة تلمسان باعتبارها إحدى مراكز العلم والثقافة في المغرب الإسلامي، وبذلك فقد عوضوا ما فقدته الأندلس، وواصلوا عطاءهم العلمي نتيجة لتوفير حكام تلمسان سواء في العهد الموحد أو العهد الزياني للشروط التي تسمح للعلماء بالإبداع والتأليف فضلا على تقديم العلم للطلبة المتعطشين إليه.

تجسد العمل الكبير الذي قنمه هؤلاء العلماء الأندلسيين وغيرهم في الازدهار الذي شهدته الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، والذي سيُجسّد إنشاء المدارس الخمسة<sup>30</sup> التي ستؤتي تليغ العلم إلى طلبة العلم الذين أموا تلمسان من مختلف الأصقاع.

الهوامش:

- 1- عبد الرحمن علي الحجي- التاريخ الأندلسي- دار القلم- دمشق- ط4- 1415هـ- 1994م- صص 440 وما بعدها.
- 2- أبو العباس المقرئ- فتح الطيب من غصن الأندلس الرطب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1415هـ- 1995م- ج6 ص 219 وما بعدها/عبد الرحمن علي الحجي- التاريخ الأندلسي- صص 472-482.
- 3- مجهول- كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر- تحقيق ألفريد البستاني- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ط1- 1423هـ- 2002م- ص 48.
- 4- ابن سعيد المغربي - كتاب الجغرافيا- تحقيق إسماعيل العربي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1982م- ص 140.
- 5- البكري أبو عبيد- المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري- بيت الحكمة- قراچ- الدار العربية للكتاب- تونس- 1992م- ج2 ص 746.
- 6- مجهول- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار- تحقيق سعد زغلول عبد الحميد- دار النشر المغربية- الدار البيضاء- 1985م- ص 177.
- 7- ابن خلدون عبد الرحمن- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- بيت الأفكار الدولية- الأردن- د.ت- ص 1845.
- 8- ابن خلدون- العبر- ص 1846.
- 9- يحيى ابن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تحقيق عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية- الجزائر- 1400- 1980م- ج1 ص 204.
- 10- محمد بن عبد الله التسي- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم المر والعيان في بيان شرف بني زيان- تحقيق محمود بوعيد- إصدارات المكتبة الوطنية- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1405هـ- 1985م- ص 126.
- 11- التسي- تاريخ بني زيان- ص 127- 128.
- 12- بغية الرواد- ص 103-104/أبو القاسم محمد الحفاوي- تعريف الخلف برجال السلف- سلسلة الأئیس- موفم للنشر- الجزائر- 1991م- ص 168- 169.
- 13- بغية الرواد- ص 127-128/ابن مريم الملقب المدبوي- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1986م- ص 68- 70.
- 14- ابن الخطيب لسان الدين- الإحاطة في أخبار غرناطة- تحقيق يوسف علي طويل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1424هـ- 2003م- ج1 ص 168/ابن فرحون المالكي- الدياج المنهب في معرفة أعيان علماء المنهب- دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1417هـ- 1996م- ص 147/أحمد ابن القاضي المكاسي- جنوة الاقياس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط- 1973م- ج1 ص 90/ابن الأبار- التكملة لكتاب الصلة- ج1 ص 140.
- 15- ابن الأبار القضاعي- التكملة لكتاب الصلة- تحقيق عبد السلام اهراس- دار الفكر- بيروت- 1415هـ- 1995م- ج1 ص 140.
- 16- ابن خلدون- بغية الرواد- ص 128.
- 17- نفسه- ص 129.

- 18- ابن الخطيب- الإحاطة- ج2 ص295/ بغية الرواد- ص129.
- 19- الإحاطة- ج2 ص299.
- 20- ابن الأبار القاضي- التكملة لكتاب الصلة- ج2 ص102.
- 21- ابن القاضي المكاسي- جنوة الاقباس- ج1 ص276/ القري- فتح الطب- ج3 ص136.
- 22- ابن الأبار القاضي- التكملة لكتاب الصلة- ج2 صص102-104/ ابن القاضي- جنوة الاقباس- ج1 ص276-277/ محمد بن محمد مخلوف- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية- تحقيق عبد المجيد خيالي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1424هـ- 2003م- ج1 ص248.
- 23- ابن الزبير الثقفي الغرناطي- كتاب صلة الصلة- تحقيق عبد السلام المراس وسعيد أعراب- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الرباط- 1413هـ- 1993م- ق5 صص291-292.
- 24- ابن الأبار- التكملة لكتاب الصلة- ج3 ص227/ أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت- د.ت- السفر الخامس- ق1 ص413.
- 25- أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة- السفر الرابع- ص155-156.
- 26- ابن الأبار- التكملة لكتاب الصلة- ج1 ص105/ أبو عبد الله بن عبد الملك- الذيل والتكملة- السفر الأول- ق2 صص464-465.
- 27- التكملة لكتاب الصلة- ج2 ص86/ يحيى بن خلدون- بغية الرواد- ص129.
- 28- التكملة- ج3 ص96-97/ ابن الزبير- صلة الصلة- ق3 ص253.
- 29- عبد الحميد حاجيات- الحياة الفكرية في الجزائر في عهد المرابطين والموحدين- الجزائر في التاريخ-3- العهد الإسلامي- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984م- ص342.
- 30- أول مدرسة أسست بتلمسان هي التي بناها أبو حو موسى الأول، ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول المدرسة التاشفينية بجانب الجامع الأعظم، وبنى أبو الحسن للريني مدرسة بقرية العباد سنة 748هـ (1347م)، وأنشأ ابنه عنان مدرسة أخرى بجانب مسجد الولي الصالح أبي عبد الله الشاذلي الإشبيلي سنة 754هـ (1353م)، وأسس أبو حو موسى الثاني للمدرسة يعقوبية سنة 765هـ (1363م). عبد الحميد حاجيات- الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان- نفس المرجع- ص438.







## إفراد المحدثين من كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم الشريف التلمساني.

د. يونس قدوري الكيسي\*

المقدمة: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد وقع اختياري على هذا العنوان؛ وذلك بعدما تصفحت كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف التلمساني؛ فقد مررت على مجموعة كثيرة من العلماء المحدثين الذين ترجم لهم ابن مريم، فأردت أن أفردهم رغبة مني بخدمة محلي تلمسان؛ وإبراز مكانة تلمسان ودورها في خدمة الحديث النبوي الشريف؛ وكذا الإشارة إلى أن كثير من الأولياء هم ممن اشتغلوا في علم الحديث النبوي وخدمته.

وقد قمت بإخراج التراجم الذين صرح المؤلف بأنهم محدثون، أو الذين أشار أنهم تناولوا أحد كتب الحديث النبوي قراءة أو سماعاً ونحو ذلك، ورتبهم على حسب ترتيب صاحب كتاب البستان؛ على حروف الهجاء، وقد بلغ عددهم (47) ترجمة.

وقد التزمت بذكر اسم صاحب الترجمة ونسبه وكنيته أو لقبه كما ورد في كتاب البستان، ثم أنتقل إلى وصفه وتخصصه، وغالباً أركز على انتقاء ذكر الألفاظ التي تؤكد أو تشير إلى ما يثبت أنه كان من أهل الحديث أو ممن سمع أو قرأ أحد كتب الحديث؛ وإذا كان له تأليف

\*- رئيس شعبة الدراسات والنشر وسكرتير مجلة "آفاق الثقافة والتراث" - مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي.

في الحديث ومتعلقاته ذكرته غالبا؛ وكل هذه المعلومات مستقاة من كتاب البستان؛ وأختم الترجمة بذكر وفاته كما جاءت في "البستان".

وقد قمت بتوثيق هذه التراجم من بعض المصادر التي عنيت بهذه الطبقة؛ مثل: الضوء اللامع للسخاوي، ونيل الإبتهاج للتبكي، وشجرة النور الزكية لمخلوف وغيرها، وقد قدمت في الهامش ذكر كتاب البستان على غيره؛ وذلك لأن جميع المعلومات الواردة في الأصل مستقاة منه.

أما ما يتعلق بعدد جميع التراجم الواردة في كتاب البستان؛ فقد اعتمدت في عملي هذا على طبعة "ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر لسنة 1987م" والذي اعتنى بها وقدم لها الأخ عبد الرحمن طالب، بجامعة وهران بالجزائر، وقد ذكر في تقديمه للكتاب<sup>1</sup> فقال: ترجم العلامة ابن مريم في "البستان" لأثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدنا بتلمسان أو عاشوا بها.. أهـ. !!

كما ذكر الحفناوي أيضا في كتابه تعريف الخلف برجال السلف<sup>2</sup> بترجمته لابن مريم فقال: وحيلة العلماء الذين ترجم لهم في "بستانه" رضي الله عنه نحو مئة واثنين وخمسين عالما. أهـ. !! ثم سرد أسمائهم جميعا وسني وفياتهم كما جاء في البستان.

قلت: وقد أحصيتهم في مواضعهم في كتاب تعريف الخلف فوجدتهم (151) ترجمة. كما قمت في إحصاء التراجم في كتاب البستان بالطبعة المذكورة فوجدت (177) ترجمة؛ وهذا هو الصواب في عددهم والله أعلم.

وفيما يلي تراجم المحدثين الذين أفردتهم من كتاب "البستان" وهم:

1- سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق<sup>3</sup>.

الشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث... له تعليق لطيف على البخاري في نحو عشرين كراسا؛ اقتصر فيه غالبا على ضبط الألفاظ وتفسيرها للمحصلين لرياضة العلم والعمل، وله جزء صغير في علم الحديث في ورقتين مختصرا حسنا، توفي سنة 899هـ.

2- إبراهيم بن محمد بن علي اللتي التازي نزيل وهران الشيخ أبو سالم وأبو إسحاق<sup>4</sup>.

وقد أخذ بمكة عن كبير محدثيها قاضي قضاة المالكية سيدي الريف تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي، قرأ عليه كثيرا من الحديث والرقائق وأجازه، وكذا أخذ من علماء المدينة المنورة وتونس وغيرها، توفي سنة 866هـ.

3- سيدي جعفر بن أبي يحيى أبو أحمد الأندلسي<sup>5</sup>.

قال القلصادي في رحلته هو شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام العالم الخطيب الكبير الشهير له اعتناء بحفظ الفروع والفرائض والعدد ومشاركة في علم الحديث والقراءات والعربية.

4- سيدي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي، أبو علي الشهير بأبركان<sup>6</sup>.

الشيخ العالم القطب الغوث الشهير، أخذ عن الإمام ابن مرزوق الحفيد، والحافظ التنسي وغيرهم، قال أحد تلاميذه: دخل علينا السلطان أحمد يوما في شهر رمضان وأنا أقرأ صحيح مسلم على الشيخ فأردت أن أقوم فجزني الشيخ وصاح علي لا تقطع الحديث، ومكث الشيخ جالسا في موضعه، فمشى السلطان إليه حتى قبل يده، وجلس يآزانه ولم يكلمه الشيخ حتى فرغنا من معتادنا في القراءة وقد مكثنا في ذلك بعد جلوسه... توفي آخر شوال سنة 857هـ.

5- سيدي خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة<sup>7</sup>.

ذكره ابن فرحون في الديباج وقال إنه جامعا بين العلم والعمل مقبلا على نشر العلم والعمل واجتمعت به في القاهرة وحضرت مجلس أقرائه الفقه والحديث والعربية كان صدرا في علماء القاهرة، مجمعا على فضله وديانته... ثاقب الذهن أصيل البحث... فاضلا في مذهبه صحيح النقل نفع الله به المسلمين. ذكر ابن حجر أن وفاته في ربيع الأول سنة 767هـ.

6- سيدي سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمن بن بلعش المقرئ<sup>8</sup>، فقيه تلمسان وعالمها ومفتيها وخطيبها بالجامع الأعظم خمسا وأربعين سنة، وهو حفيد حفيده سيدي محمد ابن مرزوق، له باع في حديث البخاري وغيره. كان حيا سنة 1011هـ.

7- سيدي سعيد بن محمد بن محمد العقباي التلمساني. قال ابن فرحون: فقيه في مذهب مالك<sup>9</sup>، قرأ الفرائض على الحافظ السطي وروى البخاري والمدينة عن السلطان أبي عنان المريني عن عز الدين بن جماعة وغيره ولي قضاء بجاية وتلمسان وسلا ومراكش. توفي سنة 811هـ.

8- سيدي شعيب بن الحسن الأندلسي<sup>10</sup>، كان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي كان قائما عليه ورواه عن شيوخه عن أبي فر... وتخرج عليه جماعة

كثيرة من العلماء والحدثين.. وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث.. توفي سنة 594هـ..

9- سيدي شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي<sup>11</sup>، المقرئ الحافظ الضابط الفقيه. توفي سنة 929هـ..

10- سيدي عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسيني التلمساني<sup>12</sup>، الخقق الحافظ المتقن. قرأ على الخطيب بن مرزوق جملة صالحة من البخاري، وقرأ على القاضي أبي العباس أحمد بن الحسن موطأ الإمام مالك، وقد سمع من أبيه العلامة المشهور أكثر الصحيحين رواية عن شيخه بطن الحجازي وغيره وكثيراً من الأحكام الصغرى لعبد الحق. توفي سنة 792هـ..

11- سيدي عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم المجاصي الشهير بالبكاء<sup>13</sup>، أخذ عنه ابن مرزوق الجد ونقل عنه في مواضع من كتبه. وقال أحد تلاميذه دخلت عليه يوماً مع الفقيه أبي عبد الله السطحي في أيام عيد فقدم لنا طعاماً، فقلت له تأكل معنا نرجو بذلك ما يذكر من حديث من أكل مع مغفوراً له، غفر له، فبسم وقال لي دخلت على سيدي علي الفاسي بالإسكندرية، فقدم لنا طعاماً فسألته عن هذا الحديث فقال لي دخل علي شرف الدين اللمياطي فقدم لي طعاماً فسألته عن الحديث فقال لي وقع في نفسي منه شيء فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته فقال لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك. انتهى. قلت والحديث لا أصل له في المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

12- سيدي عبدالرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام أبو زيد<sup>14</sup>، هو الإمام العالم الشهير هو وأخوه أبو موسى عيسى، سمعا صحيح البخاري على الحجار قال المقرئ وقد سمعته أنا عليهما وناظراً تقي الدين بن تيمية. مات سنة 749هـ..

13- سيدي عبدالرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني المشهور بأبي يحيى<sup>15</sup>، قال في حقه الإمام ابن مرزوق الحفيد وهو سيدنا الشريف العلامة انتهى. سمع من الشيخ أبي القاسم بن رضوان صحيح مسلم الشفاء لعياض. توفي سنة 826هـ..

14- سيدي عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى، كان علامة في الفقه وعلم الحديث والنحو وعروض الشعر... توفي سنة 1011هـ<sup>16</sup>.

- 15- علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقصادي: صاحب التواليف الكثيرة، منها شرح الأنوار السنية في الحديث لابن جزي... ودرس على ابن مرزوق التفسير والحديث والفقه، مات سنة 891هـ<sup>17</sup>.
- 16- قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني الإمام أبو الفضل وأبو القاسم: الحافظ المجتهد المعمر انفرد بفني المعقول والمنقول، وكان قد ارتحل للحج في سنة 830 وحضر بمصر إماماً ابن حجر واستجاز ابن حجر فأجازه، مات سنة 854هـ، ودفن قرب الشيخ ابن مرزوق<sup>18</sup>.
- 17- قاسم بن عيسى ابن ناجي، أبو الفضل وأبو القاسم: شارح المودونة والرسالة، الحافظ البارع... توفي سنة 837هـ<sup>19</sup>.
- 18- أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي: نزيل تونس ومفتيها وفقهها وحافظها.. قال في إجازته لابن مرزوق الحفيد: ومن أخذت عنه الشيخ الفقيه الرحالة الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب، قرأت عليه شيئاً من الصحيحين.. وكذا ابن عرفة فقد قرأت عليه ما تيف على الثلاثين سنة قرأت عليه بعض مسلم وسمعت عليه جميعه وجميع البخاري والموطأ ومن لفظه، توفي سنة 842هـ، وقيل سنة 844هـ<sup>20</sup>.
- 19- سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي التلمساني الشهير بالمقري: قال ابن الخطيب في تاريخ غرناطة: كان مشاراً إليه اجتهدا ودعوا وحفظا وعناية وإطلاعا ونقلًا ونزاهة... ويحفظ الحديث والأخبار والتاريخ، توفي سنة 758هـ<sup>21</sup>.
- 20- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن محمد بن القاسم بن حمود بن علي بن عبد الله بن ميمون بن عمر بن أدريس بن أديس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شيوخنا أعلم أهل عصره بإجماع، وقال ابن خلدون هو صاحبنا الإمام الفذ فارس المعقول والمنقول، صاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله الشريف ويعرف بالعلوي، توفي سنة 771هـ<sup>22</sup>.
- 21- محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب: شمس الدين المشهور بالجلد وبالخطيب شارح الشفاء والعمدة في الحديث، ذكره ابن فرحون في الديباج وأثنى عليه، توفي 781هـ<sup>23</sup>.

22- محمد بن محمد بن عرفة الورغمي من القصبات التونسي: إمامها وعالمها وخطيبها، المبعوث على رأس المائة الثامنة حسبما ذكره السيوطي في نظمته عرف به في الدياج وأثنى عليه، وقال تلميذه الحافظ ابن حجر في أنباء الغمر هو شيخ الإسلام بالمغرب سمع من ابن عبد السلام وابن سلامة... وقال الزيدوني: قرءنا عليه جميع صحيح البخاري من أوله إلى آخره، توفي سنة 803هـ<sup>24</sup>.

23- محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني: الحافظ المحقق الثقة الثبت، الفقيه المفسر الأصولي المحدث الحافظ المسند الراوية.. قال تلميذه الإمام أبو زيد التعالي وقدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق وأخذت عنه كثيرا وهو الإمام العالم الصلبر الكبير المحدث الثقة بقية المحدثين وإمام الحفاظ الأقدمين والمحدثين سيد وقته وإمام عصره... توفي سنة 842هـ<sup>25</sup>.

24- سيدي محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي: الفقيه المحقق، أخذ العلم عن أبي الحسن شريح وأبي العباس بن حرب المسيلي وأبي بكر بن العربي، كان مجودا للقرآن ضابطا محدثا ناقدًا عالي الرواية، نزل تلمسان وعمر بها، وتوفي سنة 600هـ<sup>26</sup>.

25- سيدي محمد بن قاسم بن تونز التلمساني: قال تلميذه السنوسي: كان شيخنا صالحا عالما بالمتقول والمقول والنحو<sup>27</sup>.

26- سيدي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الإمام السنوسي: وقد قرأ عليه الصحيحين وغيرهما الإمام أبو زيد التعالي، وقد شرح مشكلات البخاري في كراسين ومختصر الزركشي على البخاري... وكان لا يتحدث في علم إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره... ولا يقرئ في علوم الظاهر إلا خرج منها إلى علوم الآخرة لاسيما التفسير والحديث لكثرة مراقبته وخوفه لله تعالى. توفي سنة 895هـ<sup>28</sup>.

27- سيدي محمد بن محمد بن أحمد ابن الخطيب الشهير محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني عرف بالكفيف: قال أحمد بن داود البلوي: هو شيخنا الإمام... المسند الراوية، المحدث العلامة المتقن القدورة.. وقد أجازته الحافظ ابن حجر العسقلاني مكتبة مع أولاد ابن مرزوق عام تسعة وعشرين وثمانمائة. توفي سنة 901هـ<sup>29</sup>.

- 28- سيدي محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني: له شروح وحواشي كثيرة على الكتب، وله تواليف منها في المنهايات ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووي في التقريب ... توفي سنة 909هـ<sup>30</sup>.
- 29- سيدي محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يحيى بن أحمد بن الخطيب الشهير ابن مرزوق: وهو العالم الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الحائز قصب السبق في ذلك وخصوصا علم الحديث... وقال: قرأت على ابن السيدة حفصة بنت محمد ابن مرزوق الحفيد صحيح البخاري، وسمعت عليه أيضا جملة الصحيحين...، كان حيا سنة 918هـ<sup>31</sup>.
- 30- سيدي محمد بن أبي مدين التلمساني: قال أبو عبد الله بن العباس فيه: الحائز على قصب السبق في المنقول والمقول... وسمعت عليه دولا من البخاري... توفي سنة 915هـ<sup>32</sup>.
- 31- سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوغزاني التلمساني: قال أحمد المنجور كان فقيها علامة مشاركا في كل فن موحدا مفتيا خطيبا استغدت منه في العقائد والفقه والحديث... مات سنة 981هـ<sup>33</sup>.
- 32- سيدي محمد بن العباس الصغير حفيد الشيخ ابن العباس الكبير العبادي التلمساني: أخذ عن الولي الصالح سيدي علي بن يحيى السلوكسي الجاديري مختصر ابن الحاجب الفرعي ورسالة ابن أبي زيد وألفية ابن مالك والفرائض، وغير ذلك من أحاديث البخاري وغيره... توفي سنة 1011هـ<sup>34</sup>.
- 33- سيدي محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني أبو عبد الله: رحل إلى مكناسة لزيارة الصالح عبد الله بن حمد وأصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري في مكناسة عند خزانة الكتب سنة 818هـ<sup>35</sup>.
- 34- سيدي محمد بن محمد بن عيسى البطوي نسا التلمساني دارا: الولي الصالح الفقيه المحدث... وكان فقيها في علم الحديث وفي علم التصوف.. كان عارفا بالبخاري يقرأه للناس في الجامع الأعظم... توفي بالمدينة المنورة ودفن بالقيع<sup>36</sup>.
- 35- سيدي محمد بن عياد الكبير الراشدي العمراني الشريف: كان شاعرا ماهرا في الشعر وعلم الحديث، وكان يقرأ الحديث أولا على الشيخ سيدي محمد أبي السادات، توفي سنة 964هـ<sup>37</sup>.

36- سيدي محمد بن يحيى بن موسى المبراي التلمساني: وقد أخذ عن الإمام السنوسي المنقول والعقول، وكان لا يقرئ علو الظاهر إلا خرج منه لعلوم الآخرة لاسيما التفسير والحديث لكثرة مراقبته وخوفه لله تعالى<sup>38</sup>.

37- سيدي محمد بن عبد الله المديوني: الفقيه العالم المحدث. مات بعد الستين وتسعمائة<sup>39</sup>.

38- سيدي محمد بن عبّو الورنيدي العبد السلامي: الفقيه العالم المحدث النحوي... توفي بعد السبعين وتسعمائة<sup>40</sup>.

39- سيدي محمد بن محمد بن الشرفي: الفقيه العالم المفتي الخطيب المسند الراوية المحدث... توفي سنة 964هـ<sup>41</sup>.

40- محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري ثم التونسي عرف بالرصاص: قاضي الجماعة بها الفقيه العالم الصالح، قال السخاوي: ولي رحمه الله قضاء الحلة ثم الأندلس ثم الجماعة، ثم صرف نفسه في كاتبة المربي، واقتصر على إمامة جامع الزيتونة وخطاباتها، متصلا للإفتاء والإقراء في الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وغيرها، وجمع شرحا في الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم... واختصر شرح البخاري لابن حجر، مات سنة 894هـ<sup>42</sup>.

41- سيدي محمد عاشور بن علي بن يحيى السلوكسي الجادري التلمساني: له باع في الفقه والتصوف والحديث.. توفي سنة 1014هـ<sup>43</sup>.

42- سيدي محمد بن عبد الرحمن الكفيف السويدي: الفقيه في الحديث والفروع والتوحيد... توفي حدود سنة 945هـ<sup>44</sup>.

43- سيدي محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالأدغم السويدي: كان فقيها صوفيا محدثا عروضا نحويا... توفي رحمه الله حدود الثمانين وتسعمائة<sup>45</sup>.

44- سيدي محمد بن علي بن رَحْو الزكوطي: كان فقيها صوفيا نحويا محدثا محدثا... توفي في حدود التسعين وتسعمائة<sup>46</sup>.

45- سيدي موسى النجار. من فقهاء تلمسان المحدثين في عصره<sup>47</sup>.

46- سيدي يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل، المعروف بابن النحوي: قال ابن الأبار أخذ صحيح البخاري عن اللخمي... توفي سنة 513هـ<sup>48</sup>.

47- سيدي يحيى بن الصيقل: الفقيه الصالح كان محدثا حافظا للحديث<sup>49</sup>.



الهوامش:

- 1- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم المديني التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، 1987م-المقدمة-ص3.
- 2- نفسه-ص179.
- 3- نفسه، ص45/الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي "ت902هـ"، منشورات مكتبة الحياة- بيروت، ج1 ص222/شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحلي بن أحمد بن محمد العسكري الخبلي "ت1089هـ"، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، دار بن كثير، دمشق، سنة 1406هـ، ج7 ص363/شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، ط1، ص267.
- 4- البستان 58، نيل الإبهاج بتطريز الدياج، لأحمد بابا التيكلي "ت1036هـ"، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، مكتبة الدعوة الإسلامية- طرابلس- ليبيا، ط1، 1989م، ج1 ص59/شجرة النور الزكية، ص263.
- 5- البستان 73/رحلة القاصدي، لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي "ت891هـ"، تحقيق: محمد أبو الأجفان- الشركة التونسية للتوزيع- شارع قوطاج- تونس- سنة 1985م، ص85/نيل الإبهاج 153.
- 6- البستان، ص74/الضوء اللامع، ج2 ص129/نيل الإبهاج، ص161/شجرة النور الزكية، ص262.
- 7- البستان، ص96/درة الحجال، ج1 ص257/نيل الإبهاج، ص168/شجرة النور الزكية، ص223.
- 8- البستان، ص104، ولم أقف له على ترجمة.
- 9- البستان، ص106/الضوء اللامع، ج2 ص256، وذكر وفاته سنة (804هـ)/نيل الإبهاج، ص189-190/شجرة النور الزكية، ص250.
- 10- البستان، ص108/جنوة الإقباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، لأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضي "ت1025هـ"، دار المصور للطباعة والوراقة- الرباط- المغرب- سنة 1974م، ص531/نيل الإبهاج، صص193-199/شذرات الذهب، ج4 ص303/شجرة النور الزكية، ص164.
- 11- البستان، ص115/نيل الإبهاج، ص199/شجرة النور الزكية، ص277.
- 12- البستان، ص117/الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين؛ لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ط15، سنة 2002م، ج4 ص127.
- 13- البستان، ص121/نيل الإبهاج، ص218.
- 14- البستان، ص123/نيل الإبهاج، صص245-248/تعريف الخلف برجال السلف، لأبي القاسم محمد الحفناوي، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحلة الرغاية، الجزائر، 1991م، ج1 صص201-214.
- 15- البستان، ص127/نيل الإبهاج، ص252/شجرة النور، ص251.
- 16- البستان، ص129، ولم أقف له على مصدر آخر.
- 17- البستان، ص141/نيل الإبهاج، صص339-341/شجرة النور، ص261.
- 18- البستان، ص147/الضوء اللامع حرف القاف، ج6 ص181/نيل الإبهاج، صص356-366/شجرة النور 255. طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأذني، تحقيق: سليمان بن صالح مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، 1997م، ص319.
- 19- البستان، ص149/الضوء اللامع، ج11 ص137/نيل الإبهاج، ص364/شجرة النور، ص244.
- 20- البستان، ص150/درة الحجال في أسماء الرجال، لأحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاضي "ت1025هـ"، اعني بنشره وتصحيحه علوش. ي.س، معهد العلوم العليا المغربية- الرباط سنة 1935م، ج3 ص282/نيل الإبهاج، صص368-370/شجرة النور، ص245.
- 21- البستان، ص154/نيل الإبهاج، صص420-427/شذرات الذهب، ج6 ص193/شجرة النور، ص232.

- 22- البستان 164، وشجرة النور 234، وتعريف الخلف 106/1.
- 23- البستان 184، وجلوة الإقباس 140، ونيل الإبهاج 450-455، وشجرة النور 275.
- 24- البستان 190، والضوء اللامع 240/9، ونيل الإبهاج 463-471.
- 25- البستان 201، والضوء اللامع 50/7، ونيل الإبهاج 499-510، وشجرة النور 252.
- 26- البستان 227، غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف "ت 833هـ"، ط1، باب الميم.
- 27- البستان 237، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 28- البستان 237، ونيل الإبهاج 563-572، وتعريف الخلف 176/1.
- 29- البستان 249، ونيل الإبهاج 574، وشجرة النور 268.
- 30- البستان 253، ونيل الإبهاج 576-579، وتعريف الخلف 166/1.
- 31- البستان 258، ونيل الإبهاج 584.
- 32- البستان 259، ونيل الإبهاج 584-585.
- 33- البستان 260، ونيل الإبهاج 599، وشجرة النور 285.
- 34- البستان 263، ولم أقف له على ترجمة في موضع آخر، سوى ما جاء في ترجمة جلد: ابن العباس الكبير (ت 871هـ)، والذي ترجم له في كل من: نيل الإبهاج 574، وشجرة النور 264.
- 35- البستان 264، ونيل الإبهاج 417-499، وشجرة النور 251.
- 36- البستان 272، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 37- البستان 276، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 38- البستان 276، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 39- البستان 280، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 40- البستان 280، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 41- البستان 281، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 42- البستان 283، والضوء اللامع 287/4.
- 43- البستان 287، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 44- البستان 288، والضوء اللامع 48/8، ونيل الإبهاج 480-481، وشجرة النور 247.
- 45- البستان 289، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 46- البستان 290، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 47- البستان 294، ولم أقف له على ترجمة في مصدر آخر.
- 48- البستان 513، وجلوة الإقباس 346، ونيل الإبهاج 622-625.
- 49- البستان 305/المعجم أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصليفي، تأليف: محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأبار (ت 658هـ)، دار صادر - بيروت، ص 310، وقد ذكر وفاته سنة 450هـ.

## المدارس العلمية بتلمسان على عهد بني زيان: إشعاع فكري وحضاري.

~~~~~ أ. فائزة بوسلاح \*

مقدمة: تعد المدارس العتيقة بتلمسان بمثابة حصون وقلاع للثقافة الإسلامية والعربية لما تلعبه من دور كبير في نشر العلم والمعرفة وترسيخ العقيدة الإسلامية، والحفاظ على القيم الروحية، وكان للمدارس العتيقة فضل السبق والافتخار بأنها أخرجت كبار العلماء وفطاحل الفقهاء وجحافل الأدباء والشعراء.

ومما يمكن الإشارة إليه هو أن هذه المدارس العتيقة غالبا ما تنتمي إلى زاوية ما، حسب فقيه المدرسة، ومن هذا المنطلق أصبحت المدرسة تدرس علوما وفنونا مختلفة لطلبتها؛ فقد لعبت دورا كبيرا في تدريس معظم العلوم المتداولة آنذاك ببلاد المغرب العربي، من تفسير وفقه وحديث ولغة ونحو وأدب...

ومهما يكن فإن عددا من العلماء كما أشرنا آنفا تخرجوا من مدارس البوادي كمصطفى الرماصي، وأبو راس الناصر، وعبد القادر المشرفي، وابن زرقة الدحاوي والمقري التلمساني وعائلات عريقة كعائلة المرازقة وعائلة العقبايين وعائلة المازونيين.

وقد قامت هذه المدارس بتلقين العلوم الثقلية كالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية والمعارف الأدبية إلى جانب العلوم العقلية والكونية، وقد ساهمت هذه المدارس في نشر الدين الإسلامي والتعريف بتلمسان ونواحيها من الحواضر الإسلامية المعروفة، كما ساهمت أيضا في إغناء المكتبات بتلمسان ونواحيها التوفير بعدد لا يستعان به من مخطوطات شملت مختلف الميادين، وهو ما يدفع بالباحثين إلى التقيب عن الحقيقة التاريخية من خلال اشتغالهم بتراث هؤلاء الأعلام.

\* - أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - جامعة وهران.

وحاولنا في هذا العرض الموجز التعريف بمدارس تلمسان ومؤسسيها والتنبه بقلدها وشأنها. ومن هذه المدارس نذكر على سبيل المثال:

#### المدرسة الأولى بتلمسان:

مدرسة ابني الإمام: يشير أبو راس الناصر العسكري إلى أن أول مدرسة بنيت في الجزائر هي مدرسة ابني الإمام بتلمسان، بناها لهما الملك أبو حمو الزياني الأول<sup>1</sup>، قال ابن فرحون في "الدياج" عند ترجمته لابني الإمام<sup>2</sup> المذكورين: "ولما استقل أبو حمو بالحكم، اختط لهما المدرسة، وابنى لهما دارين على جانبيها، وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك، واختصهما بالفتوى والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية"<sup>3</sup>.

وقد كان والدهما إماما بجامع برشك<sup>4</sup>، وبعد مقتله في أواخر القرن السابع، ارتحلا إلى تونس ثم إلى المشرق، وبعد رجوعهما اتصل بهما الملك أبو حمو الزياني وبني لهما المدرسة التي لازالت إلى اليوم ذات إشعاع فكري يازاء مسجد يحمل اسمهما (جامع أولاد الإمام)، لقد أصبح صيت هذان العالمان يذكر في الآفاق، حيث كان من جملة تلامذتهما المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب السلماني، كما تخرج عليهما جم غفيرة من العلماء.

ومن جملة ما ذكر في ترجمتهما أنهما لما كانا في المشرق" ناظرا الإمام تقي الدين بن تيمية وظهرا عليه"، وكان ذلك سبب محنته<sup>5</sup>، قال عبد الجليل التسي في تأليفه "نظم الدر والعقيان في دولة بني زيان" عند ترجمته للملك أبي حمو موسى الأول: "كان أبو حمو صاحب آثار جميلة، وسيرة حسنة، محبا في العلم وأهله، ورد بعد موت يوسف بن يعقوب المريني الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ابنا الإمام فقام بحقهما، وأكرم مثناهما، وبني لهما المدرسة التي تسمى بهما، وكان يكثر مجالستهما، والاقتداء بهما"<sup>6</sup>.

المدرسة التاشفينية: هي المدرسة التي بناها الملك أبو تاشفين الأول<sup>7</sup> ولد الملك أبو حمو السابق الذكر، وهذه المدرسة هي التي اشتهرت بالمدرسة "التاشفينية"، وبقيت قائمة إلى سنة 1873م، ويعد أبو تاشفين مجدد منارة الجامع الأعظم المالكي بالجزائر، ولا زالت قطعة الرخام شاهدة عيان على تاريخ بنائها، حيث كتبت عليها أبياتا توضح تاريخ البناء؛ وهي محفوظة على حائط المنارة المذكورة، ومن جملتها نقتطف منها بعض الأبيات:

أَقَامَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ تَقَافَحًا      كَسَانِي بِهَا حُسْنًا وَتَمَّ بُنْيَانِي  
وَقَابَلَنِي بَلَرُ السَّمَاءِ وَقَالَ لِي      عَلَيْكَ سَلَامِي أَيُّهَا الْقَمَرُ الثَّانِي

كما بنى أبو تاشفين قصر " الياقوتة"<sup>8</sup> عند حصاره لبجاية، وهو شبيه بقصور بجاية "الناصرية"، ومازال سكان بجاية يطلقون على بعض دورهم اسم "الياقوتة".

لقد ضمَّ أبو تاشفين إلى ممرسته خيرة العلماء الفطاحلة أمثال أبو موسى عمران المشدالي البجائي<sup>9</sup>، صهر العالم ناصر الدين المشدالي، كما تخرج على يديه ثلة من العلماء منهم المقرئ الجد.

قال التسي في "نظم الدر والعقيان": "كان أبو تاشفين مولعا بتشيد القصور، فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده كدار الملك، ودار السرور، والصرح الأعظم. وكانت عنده شجرة من فضة، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاها صقر، فإذا استعمل المنافع في أصل الشجرة، وبلغ الريح مواضع الطيور، صوتت بمنطقها المعلوم. فإذا وصل الريح موضع الصقر، صوت فأقطع صوت تلك الطيور كلها.. وأحسن من هذا كله بناء المدرسة الجلييلة العديمة النظر، التي بناها يازاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئا مما اختص به قصره المشيد إلا وشيد مثله بها شكر الله صنيعه.. وقد عليه بتلمسان العالم أبو موسى عمران المشدالي، فأكرم نزل، وأدام المبرة له، وولاه التدريس بممرسته الجديدة"<sup>10</sup>.

وقال المؤرخ عبد الرحمن بن خللون في ترجمة شيخه محمد المقرئ: "ثم لزم الفقيه عمران المشدالي تلميذ أبي علي ناصر الدين، وتفقه عليه، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته، وبنى السلطان أبو تاشفين ممرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي بها أولاد الإمام"<sup>11</sup>.

مدرسة العباد<sup>12</sup>: وهي المدرسة التي أسسها الملك أبو الحسن المريني، قرب مسجد ضريح الشيخ أبي مدين، وقد درس بهذه المدرسة بن مرزوق الخطيب، إذ كان أفراد أسرته يتوارثون إمامة جامع العباد، ولهذا عرف بالخطيب، كما درس فيها حفيده الحافظ بن مرزوق الحفيد، وأستاذه عبد الرحمن بن خللون الذي كان ينوي الإقامة بها، والانقطاع لخدمة العلم بعد خروجه من سجن الملك أبي عنان، ومازالت المدرسة تحفظ بآثار الملك أبي الحسن منها؛ آيات شعر مكتوبة على قبة المسجد الخاص بها، الذي اتخذ كتابا لتعليم الصبيان وهي:

|                            |                           |
|----------------------------|---------------------------|
| بناني كي يقيم لدى دينا     | الإسلام (?) أمير المؤمنين |
| أبو الحسن الذي فيه المزايا | تفوق النظم بالدر الثمين   |
| إمام لا يعبر عنه وصف       | بما أجرى به الأعمال دينا  |
| سليل أبي سعيد ذي المعالي   | أقر إلى الأنام به عيونا   |
| وقد سماه خالقه عليا        | فأعلاه وأعطاها يقينا      |
| أبان بصالحات منه دينا      | وإنا يكون له معينا        |
| شهر ربيع الثاني لسبع       | خلون من السنين وأربعينا   |
| إلى سبع مئتين بدار سعد     | محوله مناصبه ففونا        |
| وكان له الإله على اتصال    | على مرضاته دأبا معينا     |

كما يوجد بالمسجد الجامع بالعباد، قطعة رخامية كتب فيها جميع ما حبسه الملك أبو الحسن على المسجد الجامع، والمدرسة الزاوية. يقول المحبس فيما يخص المدرسة والزاوية: "أمر ببناء هذا الجامع المبارك، مع المدرسة المتصلة بغريبه مولانا السلطان... وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتلريسه، وبعد أن يذكر كل ما حبسه يختم ذلك بقوله... يرسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء، والحجاج المقيمين، والواردين عليها... الخ"<sup>13</sup>.

مدرسة الشيخ الحلوي: وهي مدرسة بناها الملك أبو عنان فارس المريني<sup>14</sup> لما خلف والده أبا الحسن، وقد وجدت كتابة تخص المسجد منها ما كتب على كل من الساريتين اللتين رفع عليهما المخراب، الأولى كتب عليها "جامع ضريح الشيخ الولي الرضى الحلوي رحمه الله"، والثانية كتب عليها "أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين"<sup>15</sup>، وتوجد كتابة ثالثة فيها كلمات محو، وقد بنى أبو عنان زاوية ومدرسة قرب المسجد الجامع، ولم يعثر لهما على أثر، وكل ما عثر عليه هو وصف للزاوية، سجله الأديب الشهير أبو عبد الله محمد بن جزى الأندلسي كاتب أبي عنان الخاص، قال في وصفها:

|                                           |                             |
|-------------------------------------------|-----------------------------|
| والرفق بالسكان والزوار                    | هذا محل الفضل والإيثـار     |
| فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار                | دار على الإحسان شيدت والتقى |
| لابن السبيل وكل ركب ساري                  | هي ملجأ للواردين ومـورد     |
| أكرم بها في المجد مـن آثار                | آثار مولانا الخليفة فـارس   |
| باهم العلي محمد بن حـدار                  | بنيت على يد عبـلهم وخـديم   |
| من بعد سبع مئتين في الإعصار <sup>16</sup> | في عام أربعة وخمسين انقضت   |

وابن جزى هو الذي حرر رحلة بن بطوطة المشهورة في بلاط الملك أبي عنان، وقد غادر غرناطة لضم أدرکه بها، وقد اشتهرت الأبيات التي نظمها عند توديعه غرناطة، وصارت مضرب الأمثال قال:

|                                     |                              |
|-------------------------------------|------------------------------|
| ورود المنايا في سبيل المكارم        | وإني لمن قوم يهون عليهم      |
| بأجنحة من ماضيات العزائم            | يطيرون مهما أزرور للهمر جانب |
| رأيت احتمال الذل شأن البهائم        | وما كل نفس تحمل الذل إني     |
| لديكم فغندي تحفة قادر <sup>17</sup> | إذا أنا لم أظفر بـزاد مسافر  |

واندثار هذه المدرسة والزاوية كان لا محالة في العهد التركي، إذ عد الرحالة الشهير الوزان الفاسي المشهور بليون الإفريقي، أنه وجد بتلمسان خمس مدارس عندما زارها في أوائل القرن العاشر الهجري، هذا وإن فقدت تلمسان مدرسة أبي عنان، فإن التاريخ احتفظ لنا بمدرسة أبي عنان بفاس<sup>18</sup>.

ثم إن الملك أبا عنان عين لمدرسته العناية قضاة من أشهر القضاة خوفا وورعا مثل قاضي حضرته بتلمسان محمد المقرئ التلمساني، قبل أن تتوتر العلاقة بينهما، وذلك أنه صرح بأن النظام الملكي يخالف تعاليم الإسلام التي تحبذ الشورى، كما يدل عليه الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين، الذين تولوا انتخابهم تلقائيا. كما استدل على أن مصائب المسلمين جاءتكم من النظام الملكي، وقد وافقه تلميذه ابن خلدون على تسرب التهور للمسلمين في ذلك العهد أي

منتصف القرن الثامن، ورجع ابن خلدون ذلك إلى أسباب أخرى ذكرها في تاريخه، وكان لمحمد المقرئ هذا الموقف، وهو من صفرة، وجاء أحد أجداده مع الشيخ أبي مدين، وأسسوا أعظم شركة تجارية، لها نظام وجند تعجز عنها الدول، وقد خصه تلميذ من تلامذته بن مرزوق بتأليف سماه "النور البدرى في التعريف بالفقيه المقرئ"، كما أخذ عن المقرئ إمام القراءات الشهير أبو القاسم الشاطبي الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب، ومازال بعض أفراد هذه الأسرة بالمغرب وبجبال زاووة<sup>19</sup>.

المدرسة العيوقية: وهي التي بناها الملك أبو حمو موسى الثاني<sup>20</sup> (سادس ملوك بني زيان)، وبنى لها مسجدا على العادة المتبعة آنذاك، وكانت المساجد الملحقة بالمدارس خاصة بالأساتذة وتلاميذ المدرسة، وسماها "العيوقية" تخليدا لاسم والده أبي يعقوب، ولم يبق منها اليوم إلا مسجدها المشهور الآن بـ "جامع سيدي إبراهيم".

بنت هذه المدرسة سنة 765هـ بعد خروج المرينيين، وكان أبو حمو عالما أدبيا تربي ونشأ بالأندلس، وهو الذي أرسل إليه عبد الرحمن بن خلدون أخاه يحيى كاتباً ببلاطه، وفي قصره ألف كتابه المشهور "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، وفي الحقيقة كان هذا التأليف خاصا بماثر الملك أبي حمو موسى الثاني.

اتخذ أبو حمو بعد انتهائه من بناء المسجد والمدرسة مقبرة دفن فيها أباه ثم عميه (أبوه كان مجاهدا، واشتهر بالعلم والصلاح، توفي بالجزائر، وعماه دفنا بالعباد)، ثم بقية أفراد الأسرة المالكة، ولما توفي العلامة الشيخ إبراهيم المصمودي سنة 805هـ دفنوه بهذه المقبرة، إلا أن اسمه مع طول الزمان تغلب على اسم والد الملك والملك نفسه، وصار يعرف بـ "مسجد سيدي إبراهيم"<sup>21</sup>.

اندثرت هذه المدرسة كغيرها، وكان أبو حمو قد اختار لها العلامة الشيخ أبا عبد الله الشريف دفين تلمسان<sup>22</sup> الذي ترجمه ابن فرحون في الديباج فقال عنه: "علامة تلمسان؛ بل إمام المغرب قاطبة"<sup>23</sup>، وترجمه الحافظ ابن مرزوق الحفيد فقال: "شيخ شيوخنا أعلم أهل عصره بإجماع"<sup>24</sup>، وترجمه تلميذه ابن خلدون فقال: "تعلم بتلمسان فاخص بأولاد الإمام، ثم لزم شيوخنا الآبلى، وتضلّع من معارفه واستبحر، وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه، ثم رحل إلى تونس فلقى شيخنا ابن عبد السلام، وأفاد منهم واستعظم رتبته في العلم، وكان ابن عبد السلام يصغي



إليه ويؤثر محله حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التصوف من إشارات بن سينا، لأن أبا عبد الله الشريف قد أحكم الكتاب على الآبلى، ومن تلاخيص أرسطو لابن رشد ومن الحساب والهندسة والهيئة، وله اليد الطولى في الخلافات<sup>25</sup>، ثم ذكر بن خلدون أنه لما رجع إلى تلمسان فملأ المغرب معارف وتلاميذ، وتعرض لما لاقاه من محن في عهد المرينيين، ويحتم ترجعته بقوله: "لما استرجع الملك أبو حمو الثاني المذكور مملكته استدعى الشريف، وتلقاه براحته وأصهر له في بنته فزوجها له، وبني له مدرسته فقام يدرس حتى هلك سنة إحدى وسبعين، وكان مولده على ما أخبرني عام عشرة"<sup>26</sup>.

وهؤلاء العلماء المذكورين الذين عينوا بمدارس تلمسان كابني الإمام وعمران المشدالي وتلميذه محمد المقرئ، وأبو عبد الله الشريف، هم الذين شاركوا وقادوا الحركة الفكرية التي كان الفضل فيها لناصر الدين المشدالي البجائي، وتلميذه عمران المشدالي مدير المدرسة التاشفينية.

ولقد كان هؤلاء العلماء ممن شاركوا في المناظرات العلمية ونسخ الكتب وتأليفها، وعند حصار تلمسان من قبل أبي الحسن المريني، سجل أبو تاشفين موقفاً لن يُنس من ذاكرة التاريخ، وهذا ما يجسده قول ابن خلدون: "فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا، ورفعت رؤوسهم على عصي الرماح فطيف بها، وغصت سكك البلد من خارجها ودخلها بالعساكر، واكتظت أبوابها بالزحام حتى لقد كبّ الناس على أذقانهم، وتواقفوا فوطئوا بالخوافر، وتراكت أشلائهم ما بين البابين حتى ضاق المنهب ما بين السقف ومسلك الباب، وانطلقت الأيدي على المنازل فها واكتساحا، وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الإمام قدمهما من أعماله لمكان معتقه في أهل العلم فحضره، ورفعوا إليه أمر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه؛ فأناوب ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك فسكن الاضطراب"<sup>27</sup>.

كما حظي ابني الإمام بفضل حسن سلوكهما وعلمهما، بمعاملة خاصة من مختلف الملوك الذين تداولوا على حكم البلاد أو الذين حاولوا السيطرة عليها وعلى تلمسان على وجه التحديد، وبخاصة "لما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام، واختصهما بالشورى في بلدهما، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق،

ويعمر بهم مجلسه؛ فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس؛ فأشار عليه بـابن عبد النور هذا فأذناه وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جلسته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين<sup>28</sup>.

النور الريادي لهذه المدارس العلمية: يكمن دور هذه المدارس العلمية العتيقة أساسا في حفظ كتاب الله تعالى وبعض من أحاديث رسوله الكريم، ثم نشر العلوم العربية الإسلامية في كامل ربوع المغرب الأوسط آنذاك. ويتجسد ذلك من خلال نشر لغة الضاد والبيان والفقهاء وأصوله، وتفسير القرآن الكريم وشرح أحاديث الرسول الكريم وسيرته العطرة وشماله الشريفة. إلى جانب حضور مجالس التدريس وحلقات العلم والوعظ والإرشاد، التي يقيمها العلماء في أماكن العبادة ودور العلم أو تلك التي يقيمها الملوك والسلطين على هامش بعض المناسبات كتحكيم صحيح البخاري، والمولد النبوي، الخ...

وكل هذا حتى يتمكن طالب العلم من فهم ما يدرس من فقه وحديث وسيرة وما تحويه العريضة وبلاغتها من أسرار بحر لا ساحل له. وما يمكن الإشارة إليه هو أن الطالب في تلك المدارس لا يتأتى له الخوض في تلك العلوم، إلا إذا استأنس بحفظ بكتاب الله تعالى. وكانت طريقة العلماء التلمسانيين مثلا في تلقين العلوم لطلبتهم تبدأ من التأكيد على حفظ بعض المنظومات، مثل الأجرومية وألفية ابن مالك، ومنظومة الزواوي، ومنظومة الجمل، ولامية الأفعال والمبنيات، وكل هذا يدخل في باب الاهتمام بالنحو باعتباره منطق اللغة، أما ما يتعلق بالأدب فعادة يقومون بحفظ لامية الطغرائي، ثم باتت سعاد، ليأتي الدور على لامية الشنفرى، وبعد ذلك يحفظون مقامات الحريري.

ومن الملاحظات التي أثار الانتباه هو اعتناء طلبة المدارس العتيقة بتلمسان بمادة النحو والفقهاء، فكان لهم فضل السبق في هاذين المجالين، كعلماء عائلة المرازقة، والعقبانيين، والونشريسيين، الذين أثروا المكتبة المغاربية خصوصا بمدوناتهم ومصنفاتهم العلمية التي ظلت ملاذ الكثير من الباحثين والمهتمين بتراث الغرب الإسلامي عموما، وبطريقة تدريسهم لمختلف العلوم العقلية والنقلية.

ومن الملاحظات التي استلججني هو أن هذا الانكباب على اهتمامهم باللغة العربية؛ جاء من خلال إدراكهم بأن تداول الفكر الإسلامي داخل المجتمعات الإسلامية لا يكون إلا باللغة العربية ويفهم أسرارها ومعانيها.

إن خط سير هذه المدارس العتيقة منذ القرن الخامس الهجري، يتجهج ضمن استكمال حلقة التواصل العلمي الذي أسسه لنا أجدادنا. فهذه المدارس كانت منارات علم ودفاع، تجاوز إشعاعها العلمي والأدبي حدود المغرب الأوسط إلى المشرق العربي. واستمر هذا الإشعاع والإشراق، واتصلت حلقاته جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة.

خاتمة: إن هذه المدارس العلمية العتيقة بتلمسان استطاعت أن تخرج جيلا من العلماء رغم اختلاف أطيافهم، ساهموا في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي. ومن الأهمية بمكان أن تلعب هذه المدارس دورا فعالا خلال أحلك الفترات التي مرت بها تلمسان؛ فتراها تأوي إليها عددا من الفقهاء والعلماء والمتصوفة، الذين أكسوا تلمسان حلة علمية وفكرية، أضحت تضاهي حواضر العالم الإسلامي التي كانت معروفة آنذاك.

وهكذا ظلت المدارس العلمية العتيقة بتلمسان عبر التاريخ منارات يستضيء بنورها. ويغرف من معين علمائها. ويتبين لنا من خلال هذه الجرد لأهم المدارس العلمية الدينية بتلمسان أنها ظهرت مع عصر بدأ فيه تقدم العطاء العلمي عن طريق تخريج العديد من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال الدين والقضاء وأصحاب القراءات. كما برز إلى حيز الوجود في هذا العهد ما يسمى بالتأليف المدرسي وكتابة المصنفات العلمية وتحرير الكتب الثقافية.

ولذا كان للعلماء وطلبة العلم مكانة كبيرة في المجتمع ولدى سلاطين الدولة الزيانيين؛ لأنهم كانوا يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، ويناصرون الحق ويحاربون الظلم، ولا يخافون في الله لومة لائم.

## الهوامش:

- 1) أبو حو موسى الرياني: (665-718هـ/1267-1318م): رابع سلاطين بني عبد الواد من آل زيان، في تلمسان وبلاط المغرب الأوسط، كان عضداً لأخيه السلطان أبي زيان في حربه وسلمه، وخلفه بعد وفاته (سنة 707هـ) وشغل بإصلاح مدينة تلمسان وتحصينها للدفاع عنها أمام غارات المرينيين، وكان "قطا غليظا، حازما يقظا"، أخضع كثيرا من القبائل المجاورة له في الشمال والجنوب، وولي عليهم أصاغرهم، وأخذ رهائنهم، وأوغلت جرده في الزحف شرقا؛ فبلغت بجاية وقسنطينة وهما من بلاد الدولة الحفصية بونس، وصدة المرينيين عن التقدم من جهة الغرب، وساد بلاده الأمن. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1986، ج 7، ص: 325. ينظر: أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، ط 1903م، ج 1، ص: 126-132، إبراهيم زكي خورشيد (تحرير) عبد الحميد بونس، "دائرة المعارف الإسلامية"، دار الشعب، القاهرة، ج 1، ص: 327. واعتمد في ضبط (حو) بشليد الميم على موشح لأحد شعراته في أزهار الرياض، ينظر: القري الطلساني، أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض، القاهرة، 1939م، ج 1، ص: 248. وابن الأثير، روضة السير في دولة بني مرين، الطبعة الملكية، الرباط، ط 1962، ص: 243.
- 2) وهما: هذان الإخوان هما أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ولدا محمد بن عبد الله بن الإمام، كان أبوهما إماما بمجامع برشك كما سبق ذكره.
- 3) ابن فرحون، الدياج للذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1982م، ص 69.
- 4) برشك: مدينة قديمة، بينها وبين تيس في الساحل ستة وفلاون ميلا، وهي مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب، وهي على ضفة البحر، وشرب أهلها من عيون وماؤها غلب، وبها فواكه وجملة مزارع وحطة كثيرة وشعر، ومنها إلى شرشال عشرون ميلا وكان طاغية صقلية أدخلها واسولى عليها. محمد بن عبد المعمر الحيمري، الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط 2، 1980، ص: 88.
- 5) أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 5، ص: 11.
- 6) التسي: تاريخ بني زيان، تحقيق: محمد بوعباد، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ط 1985، ص: 139.
- 7) عبد الحفي بن عبد الكبر الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1980، ج 1، ص: 277. ينظر: رحلة ابن بطوطة: 95 وأزهار الرياض، المصدر السابق، ج 5، ص: 11.
- 8) أبو تاشفين: (750-795=1350-1393م) عبد الرحمن بن موسى الثاني (أبي حو) بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن بغماسن الرياني، من ملوك بني عبد الواد، أصحاب تلمسان، ملكها بعد قتل أبيه سنة 791هـ واستمر إلى أن توفي. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 3، ص: 339.
- 9) موضع قصر القوتة الذي بناه الملك أبو تاشفين هو ما يسمى الآن بملينة " القصر " والتي تبعد عن بجاية بنحو 20 كم.
- 10) قيل أن أبا عمران المشنالي فر من بجاية أثناء حصار الملك أبي تاشفين لها وسكن الجزائر، ولما سمع به أبو تاشفين دعاه إلى تلمسان، إذ كان الملوك يساقون إلى اختيار العلماء وأكرام وفادتهم وحسن معاملتهم.
- 11) العباد: قرية على بعد 2 كلم من تلمسان، بها دفن الشيخ أبا مدين شعيب وعلماء وصالحين وملوك. انظر: تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص: 286/حسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، طبع الشركة المغربية للنشر والتوزيع، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج 2/24.

- (12) أبو عنان المريني: (729-759=1329-1358م) فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو علنان، الموكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوا في قومه، لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة "تمسان" ثم ثار على أبيه، ويروي في حياته (سنة 749هـ) ولما مات أبوه (سنة 752هـ) استب أمره، فبدأ بانتحاض بني عبد السواد (وكانوا أمراء زناتة، بتمسان) فقاتلوه فقتلهم ودخل تمسان. وانتظم له أمر المغرب الأوسط. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، ص: 127.
- (13) ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ط1997، ج3، ص: 206.
- (14) ينظر: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عيسى، دار صادر، بيروت، ط1968، ج7، ص: 538.
- (15) الحسن الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ج2، ص: 235.
- (16) أبو حمزة موسى الثاني: (723-791=1323-1389م) موسى (الثاني) بن يوسف أبي يعقوب بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، أبو حمزة، ويقال أبو حاتم: مجدد الدولة (العهد الوادية) في تمسان. ولد في غرناطة، وكان أبوه مبعدا إليها وانتقل إلى تمسان، في سنة ولادته، مع أبيه. ونشأ ذكيا فطيا أدبيا، يقول الشعر. وشهد زوال دولتهم. الأولى في عهد أبي تاشفين (سنة 737هـ) وخرج مع أبيه إلى نلمرومة. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 331.
- (17) أبو عبد الله الشريف التلمساني: هو عبد الله بن محمد بن أحمد، الشريف الحسني، أبو محمد، الإمام العلامة الختلق الحافظ الجليل الملقب بالمتن، ابن الإمام العلامة الحجة النظار أبي عبد الله الشريف التلمساني إمام وقته بلا منافع، وكان أبوه محمد من أكابر علماء تمسان ومحققهم كآبيه، ولد سنة 748هـ فشأ على عفة وصيانة وجد، مرضي الأخلاق، محمود الأحوال، موصوفاً بالنبل والفهم والخلق والحرص على طلب العلم، أخذ عن أبيه، وتوفي غريقاً سنة 792هـ أثناء انصرافه من مالمقة إلى تمسان. "انظر أحمد بابا التبكيتي: نيل الإجهاد بطريق اللباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2004، ص: 150. محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط1، دار الكتابة العربي لبنان، ص: 234، محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف بالرباط (1340-1345)، ج4، ص: 83. محمد الفوحي الحبلي المعروف بـ "ابن البحار"، شرح الكوكب المنير المسمى (مختصر التحرير في أصول الفقه)، تح: محمد الزحيلي، مكتبة العيكان، الرياض، ط1418هـ، ص: 431.
- (18) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1999، ج7، ص: 111.
- (19) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (20) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (21) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (22) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (23) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (24) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (25) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (26) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (27) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.
- (28) المصدر نفسه، ج7، ص: 394.

## المقالات

### في التاريخ الحديث

## تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الإسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م.

✦~~~~~✦ أ. د. محمد دادة ✦

كانت تلمسان وقت ظهور الإسبان والعثمانيين تمثل عاصمة الدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون، واجهت ضغوط كل من الحفصيين والمرينيين. وحاولت القوى المتصارعة الاستيلاء عليها، فشأت عن ذلك صراعات عنيفة عملت على زعزعة أركان هذه الدولة. ولم يستطع التلمسانيون أن يدافعوا عن أنفسهم داخل المدينة، وأن يتحملوا ثقل الضغط الخارجي الذي أخذ ينحو منحى جديدا منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

والسؤال المطروح: هل استيلاء القوى المتصارعة على تلمسان استند إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، أم أن هناك عوامل أخرى سمحت لهذه القوى أن تسيطر عليها؟ كانت لمدينة تلمسان دور متميز في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، ونالت منطقة المغرب العربي حضا وافرا من تلك التجارة، وظلت هذه الأهمية الاقتصادية قائمة طوال العصر الإسلامي. وهذا ما دفع كل من المرابطين والموحدين والمرينيين للتهافت عليها، وظمها لأملاتهم. زيادة على ذلك أهميتها الإستراتيجية وموقعها المهم، حيث عدت بوابة مهمة بين شرق المغرب الأقصى والجزائر، من يملكها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر. ولكن مدينة تلمسان لن تحافظ على أهميتها، ففي بداية القرن السادس عشر بدأت بالانحيار بسبب تسلط الإسبان عليها، إضافة إلى ذلك فإن الحكام الذين عينوا عليها من قبل الإسبان لم يعملوا على تقويتها وتحصينها، وشيئا فشيئا بدأ الفساد والضعف يسودانها، وبدأت الفوضى تعم مختلف مناطقها.

استغل المغاربة ضعف الزيانيين والصراع القائم بين الأسرة الحاكمة، فتدخلوا في تلمسان ومحاولة احتلالها أكثر من مرة. وكانت تلمسان منذ نشأة دولتها الزيانية عام 1235م، ظلت عرضت

لغزوات المغاربة من المرينيين الذين حاصروها سنوات عديدة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها، فدخلوا فيها من جديد سنة 1337م واسولوا عليها وظلوا مسيطرين عليها مدة إحدى عشرة سنة حتى عام 1348م، ثم غزوها سنة 1352م إلى أن تمكن الأمير الزياني أبو هو الثاني من استعادتها سنة 1359م، وفي عهده استولى المرينيون على تلمسان مجددا سنة 1360م، ثم غادروها، ليعيلوا غزوها سنة 1372م، حيث بقيت تلمسان تابعة لهم حتى سنة 1374م، حيث تخلوا عنها، لكن نفوذهم فيها لم ينته إلا في سنة 1431م. ولكن منذ 1485م دخلت الدولة الزيانية مرحلة من الضعف والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة للأسبان والعثمانيين والمغاربة، فدخلت مملكة تلمسان في دوامة الصراع بين هذه الأطراف الثلاثة حتى قضى عليها الأتراك عام 1554م.<sup>(1)</sup>

استدعى أهل الجزائر بابا عروج للدفاع عنهم، وفي كل مكان يهدده الأسبان. ونجح عروج في سنة 1516م في دخول مدينة الجزائر وتصفية خصمه العبد الشيخ سالم التومي، لتعامله مع الأسبان(2). ووجه بابا عروج اهتمامه بتوطيد سلطته في الجزائر، ففرض إجراءات أمنية مشددة، إزاء ذلك ازدادت ثقة السكان بالأتراك العثمانيين، وظهروا استعدادهم للتعاون معهم، وقد استطاع العثمانيون كسب ثقة الجميع من خلال معاملتهم الجيدة للأعيان والعلماء والأهالي(3). كان الوجود العثماني في مدينة الجزائر تهديدا خطيرا لاسبانيا في المنطقة، لاسيما بعد أن عمد التراك العثمانيون بعد تركهم في مدينة الجزائر على تشكيل حكومة قوية، يمكنها أن تهدد مصالح اسبانيا في شمال افريقيا. وبالفعل كان بابا عروج يريد التخلص من النفوذ الاسباني في الغرب الجزائري وبخاصة في تلمسان، ولهذا شرع في إعداد القوة اللازمة لانجاز هذا العمل.

واستغل عروج ضعف السلطة الزيانية، ونقمة اهل تلمسان على الأمير الزياني أبي هو خضوعه للنفوذ الاسباني، فقرر التدخل في تلمسان بحجة انقاذها من النفوذ الاسباني. وكانت تلمسان قد خضعت للأسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير(1505م) ولوهران(1509م). ولم يلبث الأمير الزياني أن يبعث في سنة 1512م وفدا إلى اسبانيا يعلن خضوعه وتبعيته للملك الاسباني(4).

ونجح عروج في الاستيلاء على تلمسان سنة 1517م بدون صعوبة، وما ساعد على هذا النجاح أن أهالي المدينة لم يكونوا راضين عن حكم بني زيان لهم، وم ينسوا ما فعله أبو هو بابن أخيه واغتصابه للسلطة منه، وكانوا يتركون جيدا حرصه على الارتباط بالاسبان، وهذا ما أدى إلى



كرهم له، إضافة إلى أنه أثقل كاهلهم بالضرائب، وغدا الاسبان كأنهم حكام تلمسان الحقيقيين(5).

والتجأ أبو حمو إلى قائد وهران الاسباني ثم إلى بلاط ملك اسبانيا لطلب عونه. وكان التقرير الذي زوده به قائد وهران له أهمية في فهم التحرك الاسباني في المنطقة. وقد أكد هذا التقرير على ضرورة احتلال تلمسان، أو إقامة حكومة عربية فيها موالية للعرش الاسباني. وتضمن هذا التقرير الاستراتيجية الاسبانية في ضرورة طرد الأتراك العثمانيين من تلمسان وربطها بهم، حتى يعزز الوجود الاسباني في المنطقة الغربية من الجزائر، ومن ثمة يتسع نفوذ اسبانيا ليشمل كافة السواحل الإفريقية. وقد اقترح المجلس الملكي الاسباني بأهمية السيطرة على تلمسان، ولذلك قرر الملك إرسال قوة عسكرية إلى وهران مؤلفة من عشرة آلاف جندي(6).

ولم تفلح جهود عروج في البقاء في تلمسان، على الرغم من استعداده للرد على أي حركة تصدر عن الاسبان ومؤيديهم. فقد نجحت القوات الاسبانية بقيادة "دون مارتين" في فرض حصار محكم وعنيف على مدينة تلمسان، ودام الحصار ستة أشهر، وخلال هذه المدة كان القتال يستمر ليل نهار، ولكن الاسبان تمكنوا من السيطرة على نقاط الاستحكام. وفي هذا الوقت الحرج والمؤلم كان عروج ينتظر مساعدة ونجدة المغاربة الذين كانوا يعلنون عنه مسافة عدة أيام. ويدلو أن الأمير الوطاسي لم يكن متحمسا بتحالفه مع عروج ولم يوليه أي اهتمام يذكر، وكان بإمكانه فك الحصار على تلمسان بتدخل جيشه، لأن القوة الاسبانية ليست بالقوة الكافية لمقاومة الجيشين الإسلاميين(7).

وحدثت في هذه الأثناء اضطرابات في تلمسان لم تكن في صالح العثمانيين. وقد ثار أهل تلمسان ضد عروج وأجبروه على اللجوء إلى قلعة المشور. وتمكن الاسبان من الوصول إليه، والقضاء عليه وعلى رفاقه في عام 1518م في موقعة وادي المالح الواقعة بين وهران وعين قوشنت(8). وبعد مقتل عروج أعيد أبو حمو إلى عرش تلمسان، وفرض الاسبان عليه معاهدة مذلة وقبل الخضوع للسيادة الاسبانية(9).

لم يؤد مقتل عروج إلى توقف الصراع على تلمسان. فما من شك في أن كل طرف عرف كيف يستغل الأوضاع المضطربة لمدينة تلمسان والانقسامات التي كانت تعصف بهذه المنطقة، لكن

مهما قيل عن تصرفات عروج في تلمسان، فإنه نجح في توجيه ضربة قوية للنفوذ الاسباني، وفي إضعاف الأسرة الزيانية، وفي رسم الطريق لحلفائه لإقامة نظام جديد في مواجهة الاسبان. خلف عروج خير الدين في زعامة القوات العثمانية، وجعل مركزه مدينة الجزائر. وكان وضعه في غاية الصعوبة، حيث خشي تدخل الاسبان الذين كان بإمكانهم أن يستثمروا نجاحهم فيها. جروا مدينة الجزائر ويطردون خير الدين وقوته البسيطة وظل الموقف الداخلي حرجا، بعد رجوع الأمير الزياني إلى عرش تلمسان الشاغر، فبدأ هذا الأمير يحرض القبائل ضد العثمانيين مستعينا بالاسبان. أدرك خير الدين أنه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة، ولن يتمكن من مجابهة الخطر الاسباني في الخطر الزياني بقوات قليلة، وأدرك أيضا أن عليه أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على الهيبة والقوة التي تسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط، فقرر الاستعانة بها، وكانت آنذاك في أوجه قواها(10).

وفي الوقت الذي كانت فيه تلمسان تعاني من التمزق السياسي، بسبب منافسات الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط الزياني، وتدخل الاسبان في شؤونها، كان خير الدين يبحث عن وسيلة للتدخل في شؤون تلمسان التي لم تتغير أوضاعها، فقد ضجر سكانها من تصرفات الحكام الزيانيين، وبدأت الأغلبية منهم تريد الاتصال بالأتراك العثمانيين من أجل إنقاذهم من الطغيان الزياني. وكان هذا التدخل في بادئ الأمر، حينما أعان الأمير الزياني المسعود على انتزاع الملك من أخيه عبد الله، ولكنه لم يلبث أن تمرد عليه، وحين إذ أعان عبد الله المخلوع على انتزاع الملك من أخيه المسعود، بشرط أن تكون السكة والخطة للسلطان العثماني. إلا أن عبد الله ما لبث هو الآخر أن تمرد على خير الدين ومال إلى الاسبان، فحاربه خير الدين وانتصر عليه، ولكنه عفا عنه وأبقاه في ملك تلمسان، وتعهد له عبد الله بمضاعفة ضريبة التبعية. غير أنه ما لبث أن تقرب مرة أخرى من الاسبان وتحالف معهم. فحرضه هؤلاء على الثورة ضد خير الدين وأملوه بالمال والعتاد، ووجهوا إليه أربع عشرة سفينة لمساعدته واتفقوا معه على أن يهاجم مدينة الجزائر من البر، في حين تهاجمها السفن الاسبانية من البحر، وكان ذلك في سنة 1533م(11).

وتحرك عبد الله على رأس قوات كبيرة من تلمسان نحو مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين تمكن من تحقيق الانتصار عليه قبل وصوله إلى الجزائر. واضطر عبد الله إلى طلب العفو، فعفا عنه خير

الدين ورجع إلى مدينة الجزائر. ويبدو أن هذا الأخير كان يريد الرحيل إلى اسطنبول لم يشأ أن يدخل تغييرا على الحكم في تلمسان قد لا يساعد على استقرار الأمور في الغرب الجزائري(12).  
تأثر حسن آغا خليفة خير الدين في الجزائر من الأحداث الدائرة على الساحة الجزائرية، و التحركات الزبانية المعادية للعثمانيين. ففي عام 1535م تعهد محمد ابن عبد الله أن يكون تابعا للملك الاسباني "شارلكان" وأن يدفع الضريبة له بل وأبدى استعداده لأن يحارب الأتراك العثمانيين ويقبض على خير الدين إن التجأ إليه بعد هزيمته ويسلمه إلى الاسبان. إلا أن الإمبراطور "شارلكان" لم ير ضرورة فيما يبدو لتوقيع معاهدة مع سلطان زباني لا حول له ولا قوة، متذبذب الولاء، في الوقت الذي كان فيه أخوه عبد الله اللاحق عنده مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل أن يجلسوه على كرسي الملك في تلمسان(13).

وبما أن الأحداث جرت بعكس ما كان يتوقعه الأمير الزباني اضطر الإمبراطور "شارلكان" إلى الحذر منه. و يبدو أن سنة 1541م، التي شهدت انكسار حملة "شارلكان" في الجزائر، هي التي ستهيا الجو لإعادة العلاقات الماضية.

لم يتحمل حسن آغا تصرفات الأمير الوباني أثناء حملة "شرلكان" على مدينة الجزائر. فتحرك سنة 1542م إلى تلمسان لإخضاع محمد ابن عبد الله الذي انتقل إلى صف الاسبان. ولكن قام هذا الأخير باسترضائه، و تعهد له بقطع كل صلة مع الاسبان، فقفل راجعا إلى مدينة الجزائر دون أن يترك في تلمسان حامية عسكرية كما كان يعتزم أن يفعل(14).

لكن ما إن عاد حسن آغا إلى مدينة الجزائر حتى اضطربت مدينة تلمسان من جديد، فقد اشتكى أعيان المدينة إلى الأمير الجديد الذي نصبه الاسبان من الأفعال المفسدة التي ارتكبها الاسبان في مدينتهم أثناء حملتهم عليها في 27 يناير 1543م. إلا أن الاسبان كانوا حريصين على عدم استقرار الأمور في تلمسان للأتراك العثمانيين أو للأمرء الزبانيين الموالين لهم، ولذلك فإن الأمير الزباني محمد ابن عبد الله الذي استرجع ملكه من أخيه عبد الله، ما لبث أن أطاح به أخوه الآخر أحمد، الذي كان يدعمه خاله المنصور ابن أبي غانم الموالي للاسبان، مما جعل حسن باشا ابن خير الدين أن لا يتأخر كثيرا عن المسير إلى تلمسان لإزاحة أحمد عن الحكم(15).

وقد تمكن حسن باشا في بداية جوان 1545م من الدخول إلى مدينة تلمسان دون أن يجد مقاومة تذكر، لأن ملكها الزباني فر إلى حلفائه في وهران، لما علم بقدوم الأتراك إليه. بعد أن عين حسن

باشا الأمير التابع له وهو أحمد، عاد إلى مدينة الجزائر غير أن الاسبان في وهران أعادوا الملك المخلوع سنة 1546م(16). وسار حسن باشا بدوره نحو تلمسان للحيلولة دون تحقيق غرضهم، إلا أنه حدث في هذه الأثناء أن وصله نبأ وفاة والده خير الدين مما أثر فيه، فرجع إلى مدينة الجزائر دون أن يصطلم بالقوات الاسبانية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه وكأن أمر تلمسان قد انتهى لفائدة العثمانيين، إذ بالأشراف السعديين الذين قضوا على الدولة الوطاسية واستكملوا توحيد المغرب، يوجهون أنظارهم لضم تلمسان إلى ممتلكاتهم، وتمكنوا من احتلالها سنة 1550م. ولكن قوات حسن باشا تمكنت من إجلائهم عنها في السنة التالية بعد صراع عنيف، وإبعادهم إلى ما وراء نهر الملوية(17).

وإزاء هذه الأوضاع، وتدخلات الاسبان والمغاربة قرر حسن باشا سنة 1551م تعيين قائد عثماني في تلمسان، وأن يقيما فيها حامية عسكرية، فوضع بقراره ذلك نهاية حكم الأسرة الزيانية(18).

لما استدعيا حسن باشا ابن خير الدين إلى اسطنبول استخلفه على الجزائر صالح رايس في عام 1552م. وقد عمل صالح رايس في بداية الأمر على تحسين علاقاته مع حكام المغرب السعديين، ووصل إلى اتفاق سلام معهم لم يلم طويلا. وكان الهدف من هذا السلام هو التفرغ للاستيلاء على وهران وإخضاع المنطقة الغربية من الجزائر. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على مدينة تلمسان سنة 1554م وإنهاء الحكم الزياني نهائيا في تلمسان. ولكن لم يحالفه الحظ في ذلك وتوفي فجأة سنة 1556م. وشهدت الجزائر بعد ذلك اضطرابات سياسية بسبب الصراع حول الحكم، وكانت هذه فرصة ذهبية للسعديين والاسبان للتدخل في الغرب الجزائري وتحقيق أطماعهم في تلمسان. وبالفعل شن محمد الشيخ السعدي حملة على تلمسان في جوان 1557م، وتمكن من احتلالها بسهولة ولكن لما علم محمد الشيخ بزحف القوات العثمانية إلى تلمسان، آثار فك الحصار على حامية تلمسان في أوت 1557م قبل وصول القوات العثمانية والانسحاب إلى المغرب(19).

ولم يفر حسن باشا محمد الشيخ السعدي تدخله في تلمسان فصمم القضاء عليه، والتخلص منه وعمد إلى المؤامرة، فأرسل جماعة من الجند العثماني دخلوا المغرب مدعين أنهم هاربون من الجيش العثماني ونجحوا في كسب ثقة محمد الشيخ ثم قاموا باغتياله في شهر أكتوبر 1557م. وهكذا كان مصير محمد الشيخ الذي رفض الدخول تحت السادة العثمانية، ورفض السلام مع العثمانيين، ومضى في التقرب مع الاسبان وانتهاز الفرصة للتدخل في الغرب الجزائري، والتآمر مع الاسبان

للقضاء على العثمانيين في شمال إفريقيا مما جعل العلاقات بينه وبين العثمانيين يغلب عليها طابع التوتر والعداء أكثر من طابع الدبلوماسية. وبدأ عبد الله عهده بالانتقام من العثمانيين قتل والده محمد الشيخ. وكان رد فعل حسن باشا على ذلك بالإقدام على شن حملة على المغرب في عام 1558م، انتقاما لحملة السعديين في الغرب الجزائري. وكان الصدام عنيفا بأحواز فاس، وكانت الخسائر كبيرة من الطرفين. واضطر حسن باشا إلى الانسحاب من المعركة(20).

كان حاكم وهران "دالكوديت" ناقما لفوات فرصة ضرب حسن باشا من الخلف حين كان يهاجم المغرب، وذلك بسبب نقص قواته. وكان "دالكوديت" يبرك أن استرجاع الأتراك لتلمسان يهدد الوجود الإسباني تهديدا خطيرا، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها الأتراك قاعدة لهم للهجوم على وهران. وفي هذا الإطار، اعتمد على تأييد المغاربة له، واتفق مع السعديين على أن يهاجموا الأراضي الجزائرية والاستيلاء على تلمسان. وقد استغل عبد الله الغالب الصراع بين العثمانيين وزعماء القبائل من بني عباس، للتحرك نحو تلمسان. وكان حسن باشا قد علم أن السلطان السعدي يستعد لغزو تلمسان وأن ملك إسبانيا هو الآخر يجمع قوة بحرية للهجوم على العثمانيين بالتنسيق مع المغاربة. ولكن الهزيمة الساحقة التي لحقت بالإسبان في مستغانم أفشلت مخطط الإسباني المغربي. ومنذ ذلك الوقت امتنع الإسبان عن القيام بعمل هجومي على تلمسان واكتفوا بالدفاع عن وهران التي أصبحت منطقة محاصرة(21).

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعد حملة على السعديين في المغرب، كانت الإنكشارية قد اعتقلته وأرسلته مقيدا إلى إسطنبول في جويلية 1561م بدعوى أنه كان يريد الاستقلال عن السلطان العثماني(22). إلا أنه بعد رجوعه إلى الجزائر للمرة الثالثة في سنة 1562م، استأنف مشاريعه السابقة ضد الإسبان والمغاربة. وكما يبدو لحسن باشا أن التحالف المغربي الإسباني كان ما يزال مستمرا، وأن المغاربة حارصون على طرد العثمانيين من شمال إفريقيا. ولعل في هذا محاولة من السعديين لإحياء تقاليد البول التي سبقتهم في محاولة بسط سيطرتهم على المنطقة المغربية. وإن الخطة الإستراتيجية هي القضاء على سلطة الزيانيين، وضم ممتلكاتهم، لتأمين حدودهم الشرقية من الأخطار العثمانية التي تهددهم بها وجود الزيانيين إلى جوارهم.

ومما يلاحظ على هذه الفترة أنها لم تشهد تعاونا بين العثمانيين والمغاربة، بل اتسمت في الكثير من الأحيان بالعداء والتوتر بين الطرفين، لأن الثقة كانت دوما مفقودة. غير أن الصراع على

الحكم في المغرب بين الإخوة هيا للعثمانيين بالتدخل في شؤون المغرب. ففي سنة 1574م توفي عبد الله الغالب، فخلفه ابنه محمد المتوكل، ولم يتمتع هذا الأخير بالملك طويلا، لأن عمه عبد الملك الذي كان لاجئا في الجزائر مع أخيه أحمد، طالب بحقه في الملك، ورحل إلى إسطنبول، فطلب من السلطان العثماني المساعدة على العودة إلى المغرب وخلع ابن أخيهما محمد المتوكل. وتعهد الأمير السعودي بدفع تكاليف الحملة ووعد أن يكون المغرب تابعا للسلطان العثماني(23).

وتصادف هذا الحدث مع الانتصار الباهر الذي حققه الأتراك على الاسبان في تونس سنة 1574م، وقد شارك كل من عبد الملك وأحمد فيه، إلى جانب علي. استغل العثمانيون هذا الانتصار وصداه في كل بلاد المغرب ليجهزوا حملة كبيرة ضد محمد المتوكل، هدفها تنصيب عبد الملك على عرش المغرب.

نحج عبد الملك بدخول فاس بمساعدة العثمانيين سنة 1576م. ولكنه سرعان ما تنكر للأتراك بعد عودة الحملة التركية إلى الجزائر. وبينما كان الأتراك يعلنون حملة جديدة ضد المغرب فاجأهم نأ الانتصار الصاعق الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578م، فتخلوا عن مشروعاتهم. ولكن ما يهمنا في هذا الموضوع، أن عبد الملك طبق سياسة مخادعة مع الأتراك والاسبان، متجنباً إثارة المتاعب معهما، فقد عمد فور استلامه السلطة إلى الاتفاق مع ملك إسبانيا في توحيد الجهود ضد العثمانيين. وفي الوقت الذي كان فيه الملك يفاوض الاسبان كان على اتصال مستمر مع الأتراك، يعلمهم بعلم التدخل في تلمسان و بالتخلي عن سياسة التحالف مع اسبانيا(24).

أعطى انتصار وادي المخازن للمغرب و للسلطان الجديد أحمد المنصور هبة و سمعة دولية استند إليها المنصور في سياسته الخارجية واستفاد منها. فقد نجح في تجنب الغزو العثماني لبلادته بالوسائل الدبلوماسية. وكانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور، فقد كانت أوروبا تعيش في فترة صراع دولي بين اسبانيا من جهة و إنجلترا و فرنسا و البلاد المنخفضة من جهة أخرى. وقد أثرت هذه الحروب على نشاط اسبانيا في إفريقيا الشمالية. كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوروبا في صراعتها مع إيران، وفي اضطرابات البلاد العربية، ولم يعد بإمكانها مساعدة الجزائر في تهديد المغرب كما كان ذلك في السابق. وفي مثل هذه الظروف كان المنصور في وضع يجعله أكثر حرية في اختيار حلفائه وفق ما تقتضيه ظروفه ومصالحه. وكان يستخدم اسبانيا ضد الأتراك والعكس. وكانت مصلحته أن يداري ويداور الجميع دون أن يتورط بالالتزام مع أحد.

سار السلطان أحمد المنصور في سياسته السعدية التقليدية نفسها وهي سياسة المحافظة على التفاهم مع الاسبان و كذلك مع الأتراك، وتجنب الدخول في حرب مع الدولة العثمانية. ولهذا كانت الجرائر باتت تتحضر جانب المنصور، الذي بات على درجة كبيرة من الحنكة الدبلوماسية. وكان السلطان العثماني على علم بالتقارب بينه وبين البلاط الاسباني. ولكن لم يكن لدى المنصور السعدي الوسائل اللازمة ليندفع إلى احتلال تلمسان. وكان جل اهتمامه منصرفا إلى استرجاع الموانئ المغربية التي يسيطر عليها الأوروبيون(25).

كانت السنوات الأخيرة من حكم المنصور مضطربة جدا، فقد انتشر الطاعون وتعطلت الزراعة وتلا ذلك مجاعة مخيفة. توفي المنصور سنة 1603م تاركا البلاد لمصير مظلم. هل سيستمر خلفاؤه في مهاجمة تلمسان، وإتباع سياسة التفاهم مع الاسبان؟ أم سيحرصون على إبقاء الصلات الودية مع جيرانهم الأتراك؟

هكذا، يظهر أن أطماع الأطراف الثلاثة المتنازعة في الاستيلاء على تلمسان قد استند، قبل كل شيء آخر، إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، إذ كانت هذه الأطراف قد اعتمدت في تدخلاتها على ضعف الإمكانيات العسكرية والاقتصادية لهذه المدينة. زد على ذلك انفصال هذه المدينة، مما شجع التدخل الخارجي وعجل به، وفي الوقت نفسه زاد هذا التدخل في الضعف وخلق مضاعفات خطيرة في المنطقة. ومن أخطر هذه المضاعفات وقوع الاضطراب في المعسكر الإسلامي. ويبدو أن السعديين كانوا يريدون احتلال تلمسان التي هي قرية من فاس، وإذا تحقق لهم ذلك فهذا يعد مكسبا كبيرا لهم، يضع تحت أيديهم المراكز التجارية المهمة في مملكة الزيانيين ويوسع حدودهم في الناحية الشرقية من المغرب. ولكن هذا كان على حساب سكان المنطقة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد الجهود بين البلدين الإسلاميين لإزالة الاحتلال الأجنبي الذي أضعفهم وأهلك قواهم. أما تلمسان، فكانت تصارع للبقاء، ولكن أمرها انتهى لفائدة حكومة الجزائر العثمانية.

الهوامش:

<sup>1</sup>- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد ميزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م/لاشيد بوروية وآخرون، الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث، العهد الإسلامي، من الفتح إلى العهد العثماني، الجزائر، 1984م.

2- Diego De Haedo: histoire des Rois d'Alger, éditions grand-Alger-Livres, Alger 2004, p29

- 3- عزيز سامح آلر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص53.
- 4- عمال بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والغرب في القرن السادس عشر، الجزء الأول، دار الأمل، الجزائر، 2006م، ج1 ص17.
- 5- عزيز سامح آلر، المرجع السابق، ص60.
- 6- Diego De Haedo: op. cit, p39.
- 7- بعد نجاح عروج بن تلمسان، شرع في إجراء مباحثات مع الأمير الوطني في فاس التعاون معه ضد الأسبان، ولكن "دو غرامون" يشك في قيام هذا الحلف دون أن يفي إن كان وجود مشروع تحالف لم ينفذ لأن وجود الأتراك على حدود المغرب أكبر خطراً من وجود الأسبان العاجزين عن أي تهديد للمغرب. انظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دار الشرق، بيروت، ص26. H-De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque, paris, 1887, p25.
- 8- أحمد توفيق اللبي، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492م-1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م، ص192.
- 9- عمال بن خروف، المرجع السابق، ص22.
- 10- أصبحت الجزائر ولاية عثمانية بتاريخ 925هـ/أوائل نوفمبر 1519م، انظر: أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م في المجلة التاريخية المغربية، عدد 6، 1976م، تونس، ص119.
- 11- عمال بن خروف، المرجع السابق، ص25.
- 12- نفسه، ص26.
- 13- نفسه، ص32.
- 14- Diego De Haedo : op. cit, p73.
- 15- عمال بن خروف، المرجع السابق، ص82/34. Diego De Haedo : op. cit, p82/34
- 16- صالح عبد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514/1830)، دار هو، الجزائر، 2005، ص72.
- 17- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2000م، ص40.
- 18- عمال بن خروف، المرجع السابق، ص36.
- 19- H.Terrasse. Histoire du Maroc, tome2, éditions ATLANTIDE, Casablanca, 1947, p171.
- 20- إبراهيم شحاتة حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية (1510م-1947م) مطبعة القلم، الإسكندرية، 1981م، ص152. Diego /152
- De Haedo : op. cit, p124.
- 21- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص44-45.
- 22- DIEGO De HAEDO : op. cit, p130.
- 23- عزيز سامح آلر، المرجع السابق، ص236.
- 24- H.Terrasse. op cit, pp185-186.
- 25- عمال بن خروف، المرجع السابق، ص139-140 /238-231. H-De Grammont- Op cit-



## موقف علماء تلمسان من التواجد العثماني في الجزائر

(10-13هـ/16-19م).

~~~~~ د. محمد بو شنافي \*

مقدمة: شكل قدوم الأخوين عروج وخير الدين إلى المغرب الأوسط حدثا تاريخيا هاما، ذلك أنه أدى إلى تغيير جذري في كثير من الأوضاع السياسية والعلمية في المنطقة، وأمام ذلك برزت الكثير من المواقف المؤيدة والمعارضة لهذا القلوم، قادها عدد من الرجال السياسة والأعيان، وشيوخ القبائل وزعماء الطرق الدينية وحتى العلماء الذين انقسمت آراءهم في هذا المجال.

ما تتفق عليه المصادر أن مجيء الأخوين إلى المنطقة كان استجابة لنداء النجدة الذي أرسله السكان إليهما بهدف إنقاذهم من سيطرة الأسبان الذين كبلوهم وقيدوا حرياتهم بمجموعة من المعاهدات المهينة، ومثال ذلك ما حدث مع سكان مدينة الجزائر التي يادر حاكمها سليم بن التومي وجماعة من الأعيان إلى إرسال وفد في يوم 31 يناير 1510م إلى بجاية لمقابلة القائد الاسباني "بيدرو دي نافارو"، وتوجت المفاوضات بتوقيع معاهدة خضوع وتبعية للملك "فرديناند" إلى جانب العهد بإطلاق سراح الأسرى في المدينة ودفع ضريبة سنوية، ومنحه قلعة الصخرة التي لا تبعد عن المدينة إلا بثلاثمائة متر يقيم عليها الأسبان قاعدة يراقبون من خلالها المدينة (1)، ونفس الحال حدث لمدن أخرى مثل تنس.

إن ما يهمنا في هذه الدراسة ليس سرد الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة قبيل مجيء العثمانيين أو بعده وإنما موقف العلماء، وخاصة علماء تلمسان، من التواجد العثماني، باعتبار أن هؤلاء كانوا خلال هذا العهد محل تأثير على أصحاب القرار خاصة والسكان عامة، كما أن مواقفهم تضاربت وتعارضت لأسباب عديدة. وعموما فإن المصادر التي أرخت لاستقرار العثمانيين في الجزائر تتفق على الدور البارز الذي مارسه هؤلاء في إضفاء الشرعية على هذا

\*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة الجبالي لياس (سيدي بلعباس).

التواجد، وبالمختص في اليهود الأولى، ويرز ذلك من خلال مباركتهم ودعمهم لجهود الأخوين الجهادي في صد الهجوم الصليبي الاسباني ودر عماله في المنطقة ودعوة السكان إلى الالتفاف حولهما.

كان من أبرز وأوائل من تحالف مع عروج من علماء المغرب الأوسط العالم الفقيه محمد بن يوسف الملياني، الذي رأى في هؤلاء المخلصين للمنطقة من التهرشات الصليبية والقوضى السياسية المتولدة عن الصراع على الحكم. ويذكر أن أول اتصال تم بين هذا الولي الصالح وعروج كان عند شاطئ كريشتل غرب مدينة وهران، أين نزل عروج رفقة دليله ومترجمه، وكان قد قال لهذا الأخير بأنه سيصدق كرامات هذا الولي إذا استطاع أن يخبره بنواياه، فكان أول ما نطق به هذا العالم "عزمت إذن وأصحابك هجوم العدو"، فما كان من عروج إلا أن صدق كراماته، وأخذ يقبل رجليه ويطلب دعاءه<sup>(2)</sup>، وتعتبر هذه الحادثة بمثابة بيعة من الشيخ لعروج.

وإن صدقت هذه الرواية فإن العثمانيين كانوا محل تأييد ودعم من قبل العلماء، وبخاصة في بداية عهدهم بالجزائر، ولعل هذا ما جعل السكان يعترفون بهم أسيادا على الجزائر لأكثر من ثلاثة قرون من الزمن، رغم ما طرأ على سياستهم من ظلم وجور بعد ذلك.

كما كان الفقيه والعالم أحمد بن القاضي، شيخ إمارة كوكو بجبال جرجرة، من أكبر المدعين والمساندين للإخوة باربروس، حيث شارك في كل الأحداث الهامة في الالة، ومنها حصار بجاية في عام 1514م، ودخول مدينة الجزائر في عام 1516م، ثم تلمسان سنة 1518م، فكان ذلك دافعا جعل خير الدين يرسله على رأس وفد إلى السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م) بهدف إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية<sup>(3)</sup>. إلا أن العلاقة توترت بين الطرفين بعد ذلك لما استولى ابن القاضي على مدينة الجزائر في عام 1521م، وطرد منها خير الدين الذي لجأ إلى جيجل، ولم يعد إليها إلا في عام 1526م<sup>(4)</sup>.

كما أن عروج كان لا يبادر بالتوجه إلى منطقة ما إلا بعد استشارة العلماء والأخذ برأيهم، ويظهر أن ذلك راجع إلى المكانة التي كان يتبوها هؤلاء داخل المجتمع، فغرضه من ذلك عدم إثارة أي معارضة ضد أعماله العسكرية، وكسب المزيد من المؤيدين والمنخرطين في جيشه، الذي كان يعاني في كثير من الأوقات من قلة العدد، فيخبرنا صاحب "الزهرة النائرة" أن سكان مدينة

تس استنجبوا بعروج ضد حاكمهم حميد العبيدي عميل الأسبان، وقبل خروجه إليهم "استنقى علماء المدينة فأفتوه بإباحتهم دمه ودم من معه من المفسلين"<sup>(5)</sup>، وهكذا تمكن من إخضاعها في شهر جوان 1517م بعدما تخلص من حاكمها العميل للأسبان.

سنخصص دراستنا لموقف علماء تلمسان من العثمانيين، وبخاصة أن مواقفهم من ذلك كانت متعارضة ومتباينة، وذلك لأسباب عديدة، فمدينة تلمسان كانت تشكل حالة خاصة مقارنة بكثير من مدن الجزائر آنذاك، فهي عاصمة الدولة الزيانية المتهاوية، والتي كانت لفترة طويلة من الزمن منارة علمية تعج برجال العلم وطلابه<sup>(6)</sup>، كما كانت تمثل نقطة عبور إلى المغرب الأقصى الذي كان في صراع متواصل مع الزيانيين ثم العثمانيين فيما بعد، بسبب أطماعهم التوسعية.

أدت هذه الأوضاع مجتمعة، وبالاخصصوص الصراع الزياني العثماني إلى تدهور أوضاع تلمسان خلال القرن السادس عشر ميلادي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فولد ذلك مواقف متباينة بين علماء تلمسان الذين لم يقفوا على الحياد، ماعدا بعضهم، فكان منهم من ساند العثمانيين ورأى فيهم خلاصا لتلمسان وسكانها من الحكم الزيانيين الضعفاء والعلاء للأسبان، ومنهم من رأى في هؤلاء القادمين مجرد سفاكين للدماء لا يهمهم إلا اضطهاد السكان، فجلبوا الولايات على تلمسان بسبب ذلك، وبخاصة أنهم كانوا أعاجم فلم يتأقلموا ويندمجوا مع السكان.

وكان قدوم عروج إلى تلمسان بعد استقباله لوفد عن المدينة لما كان يتس، أين اتصلت به جماعة من سكان المدينة طالين منه مساعدتهم على التخلص من حاكمهم أبو حمو الزياني عميل الأسبان، الذي كان قد بادر إلى سجن الوريث الشرعي للعرش مولاي بن زيان<sup>(7)</sup>.

وكان من بين من ساعدوه ودعموه للقدوم إلى تلمسان بعض العلماء والفقهاء، وذلك ما شجعه على القدوم إلى تلمسان ودخولها دون عناء كبير، فحرر الوريث الشرعي وأعادته إلى العرش، أما أبو حمو فلجأ إلى طلب الدعم من الأسبان، ولعل السهولة التي وجدها في دخول تلمسان ترجع إلى مباركة العلماء والأعيان لهذا القدوم ودعوة الناس إلى الالتفاف حوله.

أ- نماذج لعلماء تلمسانيين عارضوا العثمانيين: إلا أن ما يسترعي الانتباه في سياسة عروج بعد دخوله تلمسان كان تغير سياسته تجاه العائلة الحاكمة وأعيان المدينة، إذ وبعد أيام من ذلك

نجدته يتخلص من السلطان أبا زيان وسجنه مع ستة من المرشحين للملك ونحو ستين من الأمراء، فولد ذلك معارضة لدى علماء تلمسان وعامتها، وكان من بين أبرز المعارضين العالم أحمد بن ملوكة التلمساني إذ يذكر صاحب "دوحة الناشر" أن سكان تلمسان استغلوا خروج عروج إلى جبل بني يزناسن واتصلوا بابن ملوكة يشكون من سياسته ويتخوفون عودته إلى المدينة مجدداً، فغضب الشيخ غضباً شديداً ثم ضرب الأرض بيده، وقال: "لارجع إلى تلمسان أبداً اعتماداً على الله تعالى"<sup>(8)</sup>. فكان ذلك ما حدث، إذ استشهد عروج مع عدد كبير من جنوده. غير أنه لا بد أن نين بأن تحول سياسة عروج كان نتاجاً لتجدد الفتن داخل المدينة، وذلك ما هدد مشروعه في توحيد الجزائر<sup>(9)</sup>.

إن معارضة علماء تلمسان للعثمانيين وسياستهم لم تتوقف طيلة بقائهم في المدينة، حيث نصادف كثيراً من الوقائع والأحداث التي تبين لنا أن علماءها كانوا غير راضين في كثير من الأوقات على تصرف هؤلاء، حتى أن بعض المرابطين الذين كانت لهم كرامات، سعوا إلى إبعادهم عن المدينة وإثاء حكمهم، فهذا الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن اليعقوبي الندرومي، كان قد قلم إلى تلمسان، وخرج ليلاً إلى ضريح سيدي أبا شعيب، ولما وصل عند بابهِ صاح قائلاً: "خدعك يا أبا مدين عبد الرحمن اليعقوبي يستأذنك في الدخول إن أذنت وإلا رجع"، فدخل إلى الضريح وشاور أبا مدين في عزل العثمانيين، فأجابه: "ما كان شيء نبلهم به إن أردت أن نجعلك في موضعهم"، فأجابه بالرفض<sup>(10)</sup>.

فهذه الحادثة تبين لنا أنه وجدت معارضة سرية للوجود العثماني في المدينة، إلا أنها لم تستطع أن تبرز إلى العلن لعدم وجود طرف قوي بإمكانه تولى شؤون المدينة في حال مغادرة العثمانيين لها.

وما يجب التأكيد عليه في هذا المجال أن كثيراً من تصرفات العثمانيين تجاه علماء تلمسان كانت سبباً في إثارة غضب هؤلاء ونصبهم العداء تجاههم، ومثال ذلك ما قام به حاكم تلمسان القائد حفيظ، لما أساء معاملته الشيخ ابن لولو التلمساني، ورغم أنه حاول بعد ذلك استرضاء بعض المواد الغذائية كاللحبق والسمن وغيرهما، فإن الشيخ رفض ذلك، بل ويقال بأنه أمسك بلحية القائد حفيظ وجلبه منها حتى أخذ منها بعض الشعر، كما أنه أقسم بأن يهجر تلمسان

ويسكن بلد النصارى، ويذكر أنه فعلا خرج منها مصطحبا معه أهله ونزل في مكان بوادي غريس ثم معسكر أين استفتى علماءها في عيینه<sup>(11)</sup>.

ولعل من أبرز من ناصب العداء للعثمانيين من علماء تلمسان، الشاعر والفقيه أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني خلال القرن 11هـ/17م، فلقد عاصر عهد الثورات ضد الحكام الأتراك العثمانيين بل وكان من بين المخرضين والداعين إليها، وكان قد اشتهر بالمدايح النبوية فهو كاتب منظومة "العقيقة" التي شرحها أبوراس عدة مرات، وكذا الحال لأدباء آخرين، وكتب الشعر الفصيح والملاحون<sup>(12)</sup>. إلا إن ما يهمنا في هذا المقام موقفه من العثمانيين والأسباب التي جعلته يظهر عداءه علنا لهم، فقلد كان المنداسي من الأدباء البارزين في تلمسان ويظهر أن الوضعية الثقافية المتدهورة بما جعلته ينقم على من كان المتسبب فيها، كما أنه كان على اتصال دائم بعلماء المغرب وسلاطينها إذ ربطته بهم علاقة جيدة، وهذا ما جعله يهجو العثمانيين، باعتبار أنه وجد ملجأ في المغرب، وحتى أن سلطان المغرب محمد بن الشريف العلوي كان قد منحه حوالي خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص مقابل أشعار مدحه فيها<sup>(13)</sup>.

وبعد هجرته إلى المغرب باشر المنداسي هجاء الأتراك وكشف عيوبهم، مستعملا في ذلك شعره اللاذع، فتجده يستعمل أبشع الأوصاف في حقهم متهما إياهم بالظلم وحب المال، فهم لا يتأخرون- حسب- في استعمال كل السبل من أجل الحصول عليه، كما أرجع تدهور حال تلمسان إلى سياستهم، وما يقوله في هذا المجال<sup>(14)</sup>:

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا فان بما من قوم يأجوج إخوانا

بنى السد ذو القرنين للناس رحمة فيا ليت من شوكة الترك هنانا

سمعنا حديثا صادق النقل ربه بأن جنس الترك في الأرض إخوانا

ثم يواصل في هجائهم مينا مثالهم فيقول:

فما دب فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا

ولا طار مثل الترك للسمع طارق ولا وجد الشيطان كالترك فنانا

عوا واستغفروا المسلمين من القرى وقد عبدوا حمر الدنانير أوثانا

كأكل الربا من السفاح تناسلوا فلا مارد إلا ويترك شيطانا

وأكبر شيئا فسدته اكفهم تلمسان عين الغرب علما وإيمانا

ولم يسلم من هجائه حتى مفتي المدينة آنذاك، أحمد بن زاغو الذي اتهمه بمحاربة العثمانيين ومجاراتهم في ظلمهم، وبالظلم وتناول المسكرات، وأنه هدم دار العلم وما قاله في حقه<sup>(15)</sup>:

أقدم دار العلم في خانك الذي تبيت فيه وترضى فيه ويحك سكرانا  
لأن فعلت بالخلق مثلك سوقة فقد سد منك الظلم للناس أركاننا  
فأنت لسان الترك والسيف لا لفظ تسر ويمضى السيف قولك إعلاننا

ولم يتوقف المتداسي عند هجاء الأتراك بشعره، بل يقال إنه كان الخوَّص للسلطان مولاي إسماعيل على إعلان الحرب ضلهم، فكان أن اندلعت حرب بين البلدين في عام 1679م انتهت بفشل السلطان. وقد عاش المتداسي بقية أيامه في المغرب حتى أدرسته المنية بسجلماسة.

ب- نماذج لعلماء قدموا النصح للعثمانيين: وفي مقابل هذا الصنف من العلماء الذي أظهر معارضة علنية للعثمانيين في تلمسان، نجد صنفاً آخر حاول أن يتعايش مع هذا الواقع، رغم أنه كان غير قابل لذلك الوضع، وربما اتقاء للفتنة، فإنه كان يلجأ إلى تقديم النصح للعثمانيين حتى يغيروا من سياستهم ويتجنبوا بذلك غضب السكان الذين كانوا يثرون من حين لآخر ضلهم، وهذا ما حدث في عام 1035هـ/1625م لما ثار السكان ضد القائد العثماني محمد بن سوري بسبب ظلمه وجوره، فدفع ذلك بالشيخ محمد بن علي العبدلي إلى الدخول على هذا القائد وتقديم النصح له بأن ينتهي عن أفعاله وتوعده بكوادث الأمور إن هو واصل في ذلك قائلاً له: "لا تجعل نفسك هدفاً للنصال، ولا تنصبها لرمي النبال، باعد البلاء ياعدك البلاء"<sup>(16)</sup>، ويذكر صاحب "كعبة الطائفين" عن دور الشيخ العبدلي في إخماد نار الفتنة فيقول: "ولقد رأيت سيدي العبدلي اجتمع عليه العامة والغوغاء، والجنود محصورون في المشور، والنساء يزغردن على اجتماع العامة؛ فقام الشيخ العبدلي يكي وينوح نواح الثكلى بصوت عال، وازدحم عليه الناس في مسجد الوزان، ووعظ كبار القوم وطلب منهم التدخل لمنع العامة من تنفيذ ثورتها وذكرهم بما حدث لوهران إذ قال أن سبب ضياعها هو أن كبارها لم يمنعوا العامة من الثورة، ولم يحكموا الشريعة الإسلامية في ذلك"<sup>(17)</sup>، ويذكر أن الشيخ العبدلي سافر إلى مدينة الجزائر من أجل حل هذا الخلاف وإيقاف الصراع بين العثمانيين وأهل تلمسان غير أنه توفي في طريق عودته إلى المدينة<sup>(18)</sup>.

ج- نماذج لعلماء أيلوا العثمانيين: إلا أن ما يجب الإشارة إليه في هذا المجال، أنه لم يكن كل علماء تلمسان معارضين للتواجد العثماني في المدينة منددين بسياساتهم، بل نجد الكثير منهم قد أيلوا هؤلاء وبينوا فضلهم على الجزائر، ودورهم الهام في الدفاع عنها ضد الصليين والطامعين، وخلدوا ذلك في كتاباتهم وأشعارهم، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى الذي أشاد في قصيدة بانتصارات اليلر باي حسن بن خير الدين باشا، وبخاصة بعد تمكنه من فتح حصن المرسى الأعلى، وإجبار الأسبان على الخروج منه واللجوء إلى الحصن الأسفل؛ فكان مما ذكره في هذه القصيدة<sup>(19)</sup>:

هنيئاً لك باشا الجزائر والغرب    بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب  
سفتح وهرانا ومرساتها التي    أضرت بهذا الإقليم طرا بلاريب  
فثق بالله واستعن به واصبرن    ينلك المراد يا أميري ومطليبي

وكان قبل تخليد هذا النصر قد نظم قصيدة يواسي فيها هذا الباشا على ما أصابه من حزن بعد مقتل عدد من جنوده أثناء حصار الحصن، وذلك قبل أن يصله المدد من مدينة الجزائر الذي مكّنه من فتح هذا الحصن، ومما يقول فيها<sup>(20)</sup>:

تحبي بنصر مع فوح تواتسرت    على نجل خير الدين خير المطالب  
وترضيه يا مولاي في كل وجهة    وتمنحه عزاً وخير العواقب  
وتكشف ضرره وتحفظ سره    تفرج كربه باعطا المآرب

كما أن كثيراً من كبار علماء تلمسان كانوا قد تولوا الوظائف الدينية في المدينة، وهي تحت حكم العثمانيين، وربما هذا يكون دليلاً على اعتراف هؤلاء بالأسيااد الجدد للمدينة، ومن أشهر هؤلاء العالم والفقيه سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمن بن بلعش المقرئ، الذي جلس على كرسي الإفتاء والخطابة بالجامع الأعظم لأكثر من خمسة وأربعين سنة، كما أنه كان من كبار علماء عصره حيث برع في شتى أصناف العلوم النقلة كالوحيد والفقه واللغة والشعر والأمثال والتاريخ، وكذا الحال في العلوم العقلية كالحساب والهندسة والطب والتشريح والتنجيم والفلاحة وغيرها من العلوم<sup>(21)</sup>، وإلى جانبه نجد العالم المفتي محمد بن أحمد الخلفاوي الذي نظم أرجوزة تخلد فتح وهران الأول في عهد الداى محمد بكداش عام 1708م، والتي شرحها الجامعي،

والمفتي أحمد بن زاغو الذي كان الشاعر المنداسي قد هجاه متهما إياه بالخضوع للعثمانيين والتعدي على حدود الدين.

د- نماذج لعلماء هاجروا تلمسان رفضاً للواقع الجديد: عرفت الجزائر عامة، وتلمسان خاصة، خلال هذا العهد نزيفاً كبيراً نتيجة لهجرة عدد كبير من العلماء لأسباب كثيرة، منها السياسية ممثلة في الاضطرابات التي عرفتها الإيالة آنذاك، وأخرى علمية حيث هاجر كثير من العلماء طلباً للعلم خاصة إلى المراكز العلمية المعروفة آنذاك كالقرويين والأزهر أو الحرمين الشريفين، غير أن بعضهم الآخر هاجر من أجل نشر العلم، ومن هؤلاء أحمد المقرئ التلمساني (ت 1631) الذي درس في القاهرة والحجاز وبلاد الشام، ومن الأسباب الأخرى الدافعة للهجرة الدوافع الدينية، وبخاصة زيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، وكان كثير من العلماء يعاود الزيارة لمرات عديدة، ومنهم من كان يفضل الاستقرار نهائياً بجزائر الحرمين الشريفين.

ومن المناطق التي استقطبت الكثير من علماء تلمسان المغرب الأقصى، ويظهر أن ذلك ارتبط بالأوضاع السياسية التي عرفتها المنطقة الغربية للإيالة، وبالمخصوص تلمسان، ومنها فشل الحملة السعدية لاحتلال المدينة، حيث رافق السلطان السعدي عند مغادرته للمنطقة في عام (968هـ/1560م) عدد كبير من العلماء الذين استقروا هناك، وتولوا الوظائف الدينية كالتقضاء والإفتاء<sup>(22)</sup>.

ومن العلماء الذين غادروا تلمسان واستقروا بفاس، سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني (908-981هـ/1502-1573م)، وهناك تقلد وظيفة الإفتاء والخطابة، إلى جانب أنه برع في الفقه والحديث والأدب، وتوفي بفاس يوم 8 رمضان 981هـ/1573م<sup>(23)</sup>. أما عبد الرحمن المغراوي المدعو ابن جلال، فقد ولد بتلمسان في عام 908هـ/1502م، وكان من مقرري السلطان السعدي خلال حملته على تلمسان، وبعد مغادرة هذا الأخير إلى فاس رافقه ابن جلال إلى هناك فعول وظيفة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين لأكثر من عشرين سنة<sup>(24)</sup>.

ولعل من أشهر العلماء الذين غادروا تلمسان نحو المغرب الأقصى، محمد شقرون بن هبة الله الوجدليجي التجيني التلمساني (1503-1575م)، وكان قد ولد وتعلم بتلمسان، كما تولى وظيفة الفتوى بها، وبرع في شتى العلوم كالحساب والفرائض والبيان والمنطق والتفسير، ورحل



إلى فاس عام 967هـ/1560م، وتقلد الفتوى بمراكش حيث ذاع صيته حتى أصبح يكنى "بمالك الصغير"، وتوفي بفاس سنة 983هـ/1575م عن عمر يناهز خمسا وسبعين عاما<sup>(25)</sup>.

وكان محمد بن أحمد بن الوقاد التلمساني قد ولد بتلمسان وتعلم بها، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، وهناك تقلد وظائف شتى كالقضاء بتارودانت والخطابة بمكناس ثم بجامع الأندلسيين في فاس، وأخيرا استقر بتارودانت وبها توفي عام 1001هـ/1593م<sup>(26)</sup>.

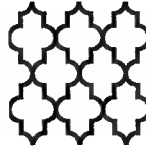
ويعتبر المقرئ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد من أهم العلماء الذين غادروا تلمسان، وكان قد ولد بها عام 986هـ/1578م، ودرس هناك على عمّه عثمان سعيد مفتي تلمسان، أما وجهته فكانت حاضرة فاس حيث تولى وظيفة الإفتاء والخطابة والتدريس بجامع القرويين حوالي ثلاث عشرة سنة، ومن هناك انتقل إلى المشرق العربي، فترس بالأزهر الشريف وبلاد الشام والحجاز، ويقال إنه حج البيت الحرام خمس مرات كما زار بيت المقدس ودمشق وتوفي بالقاهرة، وهو مؤلف كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"<sup>(27)</sup>.

إلا أن ما يلاحظ على هؤلاء العلماء المهاجرين، أنهم لم يظهروا أي معارضة للعثمانيين، مثل ما فعل المنداسي، فلا نصادف في كتاباتهم ما يدل على ذلك، رغم أنهم في كثير من الأحيان كانوا يبدون شوقا وحنينا إلى تلمسان، وهذا ما نلاحظه في كتابات المقرئ الذي ظل يحن إليها رغم أنه توفي بعيدا عنها، وعموما فإن هجرة العلماء من الجزائر لم يرتبط بالعهد العثماني فحسب، بل سبق ذلك العصر وامتد إلى العهد الفرنسي، ويتواصل إلى غاية يومنا هذا، أما فيما يخص مواقف علماء تلمسان من العثمانيين، فلقد تحكمت فيها عوامل شتى، ذاتية وأخرى موضوعية.

الهوامش:

- 1- المني أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492- 1792، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص127.
- 2- صادق محمد حاج ، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989، ص103.
- 3- التميمي عبد الجليل ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519" ، المجلة التاريخية المغربية العدد 6، تونس، جويلية 1976 ، ص ص 116- 120.
- 4- Haede (fray Diégo de). « Histoire des rois d'Alger », traduit et annotée par H.D de Grammont, R.A, Tome 24, pp. 124-125.
- 5- الجليدي محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجليلي بن رقية التل مساني ، " الزهرة النادرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جود الكفرة " تحقيق سالم بابا عمر ، مجلة تاريخ و حضارة المغرب كلية الأدب الجزائرية ، عدد 3 ، جويلية 1976، ص7.
- 6- يعطينا حسن الوزان تفاصيل هامة عن الوضع الثقافي في تلمسان قبل مجيئ العثمانيين ، لمزيد من التوضيح انظر: الحسن بن محمد الوزان القاسي، وصف أفريقيا، ترجمة حجي محمد والأخضر محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 ، ص ص 20-21.
- 7- Gaïd Mouloud. L'Algérie sous les turcs. 2ème édition, Edition Mimouni, Alger, 1991, p.41.
- 8- الحسني محمد بن عسكر الشفشاوني ، دوحة الناشر لخمس من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (تحقيق حجي محمد)، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الثالثة، مطبعة الكرامة، الرباط، 2003، ص ص 121-122.
- 9- للمني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص189.
- 10- ابن مريم الملقب التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ، البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان (تقديم طالب عبد الرحمن )، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، ص 134.
- 11- سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005، ص 421.
- 12- نفسه، الجزء الثاني، ص 265.
- 13- سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 428.
- 14- ذكر هذه القصيدة الشيخ المهدي عند تقديمه لمخطوط النغراجماني . لمزيد من التوضيح انظر، ابن سحون احمد محمد بن علي الراشدي، النغر الجماني في انساب النغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعيليل، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة، 1973، ص 56-57.
- 15- نفسه، ص 57.
- 16- سعد الله أبو القاسم، أبحاث و آراء في التاريخ الجزائر، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005، ص 225.
- 17- نفسه ، ص ص 225- 226.
- 18- نفسه، ص 226 .
- 19- ابن مريم التلمساني ، المصدر السابق، ص 132-
- 20- المصدر نفسه ، ص 133.
- 21- نفسه ، ص ص 104-105.
- 22- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 43، وراجع كذلك: ابن مريم التلمساني، المصدر نفسه.
- 23- للمصدر نفسه، ص ص 260، 261.
- 24- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج1، ص 433.

- 25- ابن مريم، التمساني، للصدر السابق، ص 261.  
و كذلك نويبيض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الطبعة الثانية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1980، ص 188.
- 26- هلال عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية خلال القرنين التاسع و العشرين الميلاديين (3-14هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص 166-167.
- 27- الحفاوي أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم النيسي بن سيدي إبراهيم الغول، تعريف الخلف برجال السلف، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت و المكتبة الحيقية بفرنس، ص ص 434-435.





## سلاطين مملكة تلمسان الزيانية في مواجهة الإخوة بربروس

1546-1517

د. بن عو بلبروات\*

تمهيد: في مطلع القرن السادس عشر أضحي المغرب الأوسط الممزق إلى جمهوريات وإمارات صغيرة متناثرة ومتافرة، يعيش مخاضا عسيرا، دام سنوات، ليلد لنا حكومة مركزية عاصمتها مدينة الجزائر، ويشرف عليها الأتراك العثمانيون الذين بشأنهم انقسمت المملكة التلمسانية الزيانية المتضعضعة إلى ثلاثة صفوف، الأول يعاديههم ويستعين بأعدائهم، مثل السلطان أبو حمو الثالث الزياني وأنصاره من قبائل المنطقة الغربية في التل ومشارف الصحراء، والثاني يسانداهم ويناصرهم مثل عدد من أعيان تلمسان وكثير من الكادحين، والثالث يتأرجح بين المناصرة والعداوة مثل أشقاء أبي حمو الثالث المذكور والذين حكموا بعده بالتتابع (السلطان المسعود والسلطان عبد الله).

وبهذا الصدد ارتأينا أن نستعرض بعض تفاصيل الصراع الذي قام بين بعض سلاطين تلمسان الزيانيين وقادة الترك في الجزائر وعلى رأسهم الإخوة<sup>1</sup> بربروس<sup>2</sup> في النصف الأول من القرن السادس عشر، وهو صراع لا يزال يكتنفه الغموض أمام تضارب الأطروحات التاريخية بين المصادر التركية والعربية وبين دراسات المستشرقين الفرنسيين. وعليه سنسلط الضوء على أبرز محطات الصراع التلمساني - التركي ودور القوى الأجنبية في تأجيجه في عهد السلطان أبو حمو الثالث المتوفي سنة 1528، وبعده السلطان مسعود والسلطان عبد الله.

1- الصراع بين أبي حمو الثالث الزياني والإخوة بربروس 1517-1528: يرجع

تاريخ الصراع التركي - الزياني إلى أول مبادرة للتلمسانيين في إظهار تأييدهم لمشروع الإخوة بربروس في الجزائر سنة 1517 حيث استغل ممثلوهم فرصة انتصار عروج<sup>3</sup> على أمير تنس المسمى بحميد العبد نسبة إلى شدة سمرته والذي عرف بعمالته للاسبان، وانضمام سكان منطقة المتيحة

\* - أستاذ محاضر في التاريخ الحديث - قسم التاريخ - جامعة الجيلالي ليايس (سيدي بلعباس).

ومليانة والمدينة والشلف وجزء من جبال الظهرة والونشريس إلى جيش الترك، فقصدوا مقر إقامته ببلدة تنس وعرضوا عليه التدخل في تلمسان لتحرير غالبية ساكنيها من ملكهم الزياني أبو حمو الثالث الذي أظهر ولائه للأسبان المحتلين لوهراة والمرسى الكبير من خلال قبوله لمعاهدة الحماية الأسبانية على تلمسان سنة 1512م وما تتضمنه من شروط أبرزها دفع الجزية للأسبان سنويا والمقدرة بإثني عشر ألف دوكة وعدد من الخيول، ثم إطلاق سراح الملك الشرعي مولاي أبو زيان وإعادته للعرش الزياني.

وجد أبو حمو الثالث نفسه أمام قوة عسكرية تركية غازية تسنها قوة شعبية تلمسانية تقرر الحرب ومعه محتويات الخزينة المالية، وجنيها تمكن عروج من دخول تلمسان دون مقاومة تذكر. وأولى الإجراءات التي اعتمدها عروج بتلمسان هي: تنصيب نفسه على عرش بني زيان أمام هتافات السكان<sup>4</sup>، والإفراج عن الأميرين الأخوين للملك أبي حمو الثالث الفار، وهما مولاي عبد الله ومولاي المسعود اللذان توجهوا إلى فاس، كما لم يغفل تسريح كل المساجين.

رأى أبو حمو الثالث أن مناصريه من المقاتلين لا يمكنهم استعادة عرشه بتلمسان إلا بمساعدة قوة خارجية، وفضل أن تكون أولا المملكة المغربية، فلجأ في سبيل ذلك إلى فاس وحل على سلاطها المريني، راجيا منه حمايته ومده بالعون للجلوس على عرش آباءه بني زيان التزاما بعلاقات الود والصداقة بين ملوك فاس المرينيين وسلاطين تلمسان الزيانيين في وقت الأزمات عبر التاريخ<sup>5</sup>.

والملفت للانتباه في هذا الصدد أن عروج أقدم على إعدام مولاي أبو زيان - الملك الشرعي المخرر - ونحو سبعين فردا من حاشيته ومن العائلات الزيانية وأكثر من ألف من أهل البلد حسب رواية الناصري أبو راس، ولا تزال هذه الحادثة المروعة محل استغهام، لكن الأستاذ أحمد توفيق المدني يرجع سبب ذلك إلى تجدد الفتن<sup>6</sup> في تلمسان، ولعله وجد الملك الزياني وحاشيته وراء ذلك مثلما فعل سليم التومي أمير مدينة الجزائر.

ولما كانت ضواحي قلعة بني راشد الحصنة طبيعيا، ذات أهمية زراعية، فقد ركر الأسبان الذين بوهران على استغلال كل ما تتسجه تربتها الخصبة والأخص الحبوب، حيث فرضوا على ساكنيها نقل موادهم إلى وهران، وهو ما أثار حفيظة عروج بتلمسان فهدد بمعاقبة كل من مارس التجارة مع الأسبان وموهم بما يحتاجونه.

استغل أبو حمو الثالث هذه الحادثة ففقر من الاسبان طالبا منهم المساعدة لاعتلاء كرسي العرش بتلمسان، فكتب رسالة إلى حاكم وهران العسكري، ذكر له فيها أن منذ سقوطه من على عرش تلمسان وصعود الأتراك العثمانيين، تراجع نفوذ الاسبان بالمنطقة، والدليل على ذلك انقطاع التموين الغذائي لقلعة بني راشد وما جاورها. لكن في ظل التحالف بين الطرفين ضد عروج ومساعدة الاسبان للملك المخلوع، بالعساكر والمال، سيكون الاسبان دوماً يميلون عن القحط والجماعة. يجب على الاسبان أن يحدوا عواقب تصاعد قوة عروج ويختاروا أفضل السبل لايقافه وإلا سيصيرون ضحايا لتفريطهم، وحينئذ يكون ضياع القلعة التي يسيطرون عليها، هي أهون الأضرار التي تنتظرهم<sup>7</sup>.

جاءت الموافقة الاسبانية بشأن التعاون العسكري مع الملك المخلوع "أبو حمو الثالث" ومناصريه ضد العدو التركي العثماني المشترك، وتلبية مطالبه العسكرية والمالية وكل ما يراه ضرورياً لتقهر عروج شريطة التحضير الفوري لهجوم ضد عروج وجيشه. وكان لرسالة الحاكم الاسباني لوهـران وقع على نفسية الملك المخلوع فطلب منه أن يمدّه بالمال لجمع جيش من القبائل الجزائرية لاسترداد تلمسان من الأتراك العثمانيين ووعدهم بتزويدهم بالمواشي والحبوب والخضر وجميع المستلزمات، حالما يفتك منهم، المناطق التي خضعت لهم.

صدر الرد الاسباني بشكل فوري متضمناً، تزويد أبو حمو الثالث بسبعة آلاف دوكة Ducats مقابل ستين رهينة من أبناء شيوخ القبائل العربية كضمان لوفاء السلطان للاتفاق المبرم بين الطرفين. وفعلاً جمع الملك الزياني المخلوع خمسة عشر ألف فارس وأرسل الاسبان من وهران سبعة آلاف وخمسمائة جندي من المشاة<sup>8</sup>.

لما علم خير الدين بتحركات الاسبان والملك الزياني المخلوع ضد عروج، أرسل فرق عسكرية تركية إلى قلعة بني راشد بقيادة شقيقه اسحاق بربروس، وعند بلوغهم مشارف القلعة وجلوها محاصرة من طرف الاسبان وأعوانهم، فقرر اسحاق منازلتهم فأسفر ذلك عن انتصار الطرف التركي العثماني الذي قتل ستمائة اسباني في ساحة المعركة، وأسر ثلاثمائة منهم ثم دخلوا القلعة وتحصنوا بها.

حاصر السلطان الزياني أبو حمو الثالث، قلعة بني راشد بجيشه المتكون من العرب والاسبان، من جوانبها وجرت مناوشات عسكرية بين العساكر الأتراك والجيش العربي-

الاسباني، وبعد أيام قلائل اقترح الأتراك العثمانيون بقيادة إسحاق بربروس، العمل على إيجاد منفذ للنجاة من الحصار، لكن لم يفلح ذلك حيث نبه جواسيس بالقلعة، سلطان تلمسان المخلوع، بتشديد الحراسة على المخارج. أما الاسبان فقد صوبوا أحد البطاريات نحو المنفذ المقرر للهروب، وشرعوا في قصفه بعدة رميات مدفعية مما أودى بحياة العديد من الأتراك العثمانيين، وقلة منهم، عادوا إلى القلعة وصمدوا لمدة ستة أشهر<sup>9</sup>.

في غضون هذه الفترة حاول المحاصرون اختراق سور القلعة وحصونها بواسطة الألغام، لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من طرف الترك، مما جعل جيش أبي حمو الثالث الزياني يصر على مواصلة الحصار والقتال ولو كلفه ذلك ست سنوات. وأمام هذا الإصرار الزياني-الاسباني على افتتاح قلعة بني راشد من الأتراك العثمانيين، أعلن إسحاق بربروس وجماعته عن مغادرتهم للقلعة مصطحبين أسلحتهم ومستلزماتهم، وفي المقابل أجبرهم المحاصرون على تحرير الأسرى المسيحيين، وتقديم ستة عشر رهينة من كبار الضباط الأتراك.

تم الاتفاق على هذا الشرط وخرجت الحامية التركية من القلعة لكن باغتها قوات الزياني والاسبان ونقضت عهد الأمان وجرى قتال بين الطرفين وكانت المحصلة، مقتل جميع العساكر الأتراك العثمانيين بما فيهم القائد إسحاق.

سيطر أبو حمو الثالث الزياني على قلعة بني راشد، وشرع في إنجاز أهم الأعمال التي تتطلبها القلعة، وأقام بها حامية عسكرية قوية، ثم توجه إلى مدينة تلمسان وحاصرها مدة ستة وعشرين يوما حتى شعر عروج بربروس بحلول القحط، وقيل أن سكان المدينة ثاروا ضده<sup>10</sup>، فقرر الابتعاد عن الأعداء، فخرج من تلمسان وبصحبه صناديق، من الذهب والفضة، كانت مودعة بالخزينة المالية حتى لا يستولي عليها أعداءه.

طارد الاسبان عروج بربروس وجنوده مستعملين خيل بني موسى ولم تنطل عليهم خدعة القطع النهيية التي رامها عروج على الأرض لإلهائهم عن ملاحظته، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة قرر عروج مواجهة المطاردين الاسبان فأصيب في بداية القتال بطلقة نارية أودت بحياته وهو لم يتجاوز الخمسة والأربعين من عمره، ولم يسلم أحد من جنوده البواسل<sup>11</sup>. وكان ذلك في يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/ شتاء 1518.



غير أن المؤرخين لا يتفقون على مكان استشهاد، فصادف أنه قتل قرب واد المالح أو في جبل بني موسى غرب تلمسان قرب نهر وجدة على الحدود الجزائرية المغربية، أو في جبل بني يزناش<sup>12</sup>.

تأثر خير الدين بوفاة شقيقه عروج واسحاق وجنودهما، فانتظر فصل الربيع ليفزو الغرب الجزائري بجيش يتكون من ستمائة تركي وعشرون ألف فارس عربي، قصد إعادة إخضاع سكانه. ولما تحقق له ذلك قرر العودة إلى مدينة الجزائر وأوصى أنصاره من سكان المقاطعة الغربية بتجنب مقاومة سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" عندما يغزو أراضيهم بل عليهم إظهار ولائهم لسلطانهم اتقاء للضرر إلى أن يحين موعد الانتقام منه ومن أسياده الأسبان.

وعليه لم يتأخر أبو حمو الثالث الزياني في غزو المناطق الغربية الخاضعة للأتراك العثمانيين، مدنا وأريافا حتى وصل إلى ضواحي مدينة الجزائر في حين أرسى سفن أسبانية قرب المدينة وجرى القتال بين الأتراك العثمانيين والأسبان وبعد أن تبين للسلطان الزياني، هزيمة حلفائه الأسبان، عاد أدراجه إلى مدينة تلمسان<sup>13</sup>، وكان ذلك في سنة 1520م.

وفي أعقاب ذلك بدأت تتصاعد قوة خير الدين بربروس، فقد نجح في إلحاق الجزائر بالباب العالي ومنحه السلطان العثماني لقب بابلر باي (باي البايات أو أمير الأمراء) وشرع في إعادة تحصين مدينة الجزائر ومينائها مما أثار قلق سلطان تونس الذي هرع إلى مكتبة سلطان تلمسان "أبو حمو الزياني" قائلا له فيها: "أن الأتراك المتمركزون بمدينة الجزائر، يتميزون بالطموح إلى فرض سيطرتهم على ممتلكات جيرانهم من الحفصيين بتونس والزيانيين بتلمسان، وإذا تركنا المجال مفتوحا أمام خير الدين لتقوية مركزه فإننا سنفقد مستقبلا، مناطق حكمنا. وعليه أدعوك إلى اتخاذ التدابير اللازمة ما دام هناك متسعا من الوقت. وليكن في علمك أن مصلر ثموه العسكري والسياسي بالجزائر هي تلك المداخل الناتجة عن القرصنة البحرية الممارسة في عرض الحوض الغربي للبحر المتوسط، والدعم المادي الذي يقلمه له السلطان العثماني. وبالتالي فلا مناص من أن يكون هدفه هو إزاحة الحفصيين والزيانيين من عرشيهما، مما يفرض علينا العمل سويا لاختراق هذه الامبراطورية الناشئة، ولعل أولى الإجراءات التي تتخذها هي استمالة شخصيتين عسكريتين مواليين لخير الدين تقاسمان مناطق نفوذ الأتراك العثمانيين بالبلاد، أحدهما في مقاطعة الشرق وهو أحمد بن القاضي والآخر في مقاطعة الغرب وهو محمد بن علي، فعليك

كسلطان لمملكة تلمسان أن تظهر بمحمد بن علي، ولما ننجح في إثارة الانقسام بين الرجلين من جهة وخير الدين من جهة أخرى، تبقى أمامنا تدابير أخرى سهلة الإنجاز<sup>14</sup>.

كانت هذه الرسالة قوية في تحريك أحقاد سلطان تلمسان "أبو جو الثالث" ضد خير الدين بربروس، حيث يعلم أن هذا الأخير، يكن له هو الآخر، حقاً ويتعجل الانتقام منه ما دام هو المتسبب في قتل أخويه عروج وإسحاق، ناهيك عن مساندته للإسبان في غزو مدينة الجزائر. لقد رأى أبو جو الثالث أنه من الضروري الاستجابة لنصيحة سلطان تونس وتجنب التريث وإضاعة الوقت بغية الحفاظ على حياته وعرشه.

سارع سلطان تلمسان إلى مكتبة محمد بن علي قائلاً له: "أنه بلغني من أطراف موثوقة بأن خير الدين عازم على تجريدك من مهامك كقائد للمقاطعة الغربية، فالعربي في نظره، كائن بخس، وقد عول عليك لما كان فاقداً للقوة، أما الآن فيمكنه الاعتماد على الدعم العثماني، وهو يعتقد أن مكانتك تليق بشخصية تركية. وإذا كنت تتق في شخصي فاسمع نصائحي واستعد إلى أن تبغني وتحارب إلى جانبي، وهذا هو السبيل الوحيد لحماية نفسك من المهالك التي تنتظرك، وإذا ظللت وفيما خير الدين فلا تفكر في اللجوء إلى بلاطي، فما عليك إلا التفكير في نصيحتي التي قلتي عليك الحذر"<sup>15</sup>.

وبالموازاة بدأ سلطان تلمسان "أبو جو الثالث" في تعبئة القبائل العربية، طالبا منهم غزو المناطق الخاضعة لخير الدين في المقاطعة الغربية للآيالة، فقابلها البايبراي خير الدين بربروس بحزم، حيث نجح في إخضاع المناطق الثائرة ضده وفرض على أعدائه التراجع عن أراضي آيالته، وبالتالي فشل سلطان تلمسان في مسعاه مثله مثل سلطان تونس الذي لم يوفق في استمالة القائد أحمد بن القاضي<sup>16</sup>، أما محمد بن علي فيقال أن شارك في الحرب وكان مصيره الهلاك<sup>17</sup>.

وجد سلطان تلمسان "أبو جو الثالث" نفسه في مأزق سياسي، فقرر استخدام أخويه "عبد الله والمسعود" من فاس قصد مساعدته، فبعث كتاباً إلى السلطان المغربي طالبا منه تسريحهما إلى تلمسان، لكن لم يستجب سلطان المغرب خشية التكيل بهما، فجدد سلطان تلمسان الطلب وكتب له عهداً بالأمان وأنه لا ينبغي سوى إصلاح أخطاء الماضي مع أخويه ومعاملتهم معاملته أخوية. وعندها لم يكن بوسع سلطان فاس المريني إلا دعوة الأخوين إلى مجلسه وإعلامهما بكتاب

سلطان تلمسان وخيرهما بين الانتقال إلى تلمسان أو البقاء بفاس مبديا لهما رغبته وواجهه في معاملتهما معاملة أبوية.

قرر الأخوين الانتقال إلى تلمسان نزولا عند رغبة شقيقهما السلطان "أبو حمو الثالث" مصحوبين برفقة من شيوخ العرب، ولما بلغا أراضي تلمسان تشاورا فيما بينهما ولم يتمكنوا من احواء قلقهما حيال نوايا شقيقهما السلطان، فحرض التزول بمدينة تلمسان، افترق الأخوان، أحدهما (الأمير عبد الله) اتجه إلى وهران حيث الاسبان والآخر (الأمير المسعود) إلى إيالة خير الدين بربروس، حيث نزل على أحد شيوخ العرب قرب مدينة الجزائر.

2- الصراع بين المسعود وخير الدين 1528-1529: خطط الأمير المسعود للإطاحة بشقيقه، سلطان تلمسان "أبو حمو الثالث" حيث كتب لخير الدين طالبا منه حمايته ومده بالدعم العسكري للاستيلاء على مملكة تلمسان. وقد اعتبر خير الدين هذا المسعى فرصة للانتقام من سلطان تلمسان، فدعا شيوخ العرب في كافة أنحاء البلاد إلى التقرب منه لتعيين "المسعود" على كرسي عرش تلمسان<sup>18</sup>.

رحبت العديد من القبائل الجزائرية باقتراح خير الدين بربروس، فقدمت عشرون ألف فارس لمساعدة الأمير "المسعود"، كما انضم إليهم خير الدين بقوة تركية تتكون من المشاة، وتوجه الجيش العربي- التركي بقيادة المسعود نحو تلمسان. ولم يجرؤ سلطان تلمسان "أبو حمو" على مجابهة هذه القوة الغازية، ففضل الفرار من مدينة تلمسان، تاركاً العرش الزباني للأمير المسعود الذي صار حينئذ سلطاناً لمملكة تلمسان تحت حماية خير الدين بربروس حسبما وعد به. لكن بعد انصراف الفرق العسكرية التركية إلى مدينة الجزائر، سارع السلطان المسعود إلى زعزعة القيود التركية من خلال عقده اتفاق عسكري هجومي ودفاعي بينه وبين حاكم وهران الاسباني ضد أتراك الجزائر.

استاء خير الدين من تطور موقف سلطان تلمسان "المسعود" حيال الأتراك العثمانيين، فكتبه يهدده بالعلول عن تعاونه مع الاسبان وإلا سيكون عبرة لمن تسول له نفسه بالتمسك بقميص الإسلام وأمن البلاد، وفي الوقت ذاته أمر بجمع العساكر لغزو تلمسان وإسقاط سلطانها<sup>19</sup>.

وفي سياق ذلك برز "الأمير عبد الله" المقيم بوهران، على الساحة السياسية حيث كلّف أحد أعوانه بزيارة شيخ صوفي يحظى باحترام وتقدير خير الدين بربروس طالبا منه أن يتوسط له

عنده لمساعدته على اعتلاء كرسي عرش تلمسان محل شقيقه " المسعود " المناوي له، ويعهد له أن يحكم تحت أوامره.

وافق خير الدين على طلب الأمير عبد الله احتراماً للشيخ الصوفي، واشترط عليه أن يزور مدينة الجزائر لبحث الترتيبات الكفيلة بتتصيبه ملكاً على تلمسان إلا أن عبد الله قد رأى شقيقه المسعود يراقب تحركاته، فطلب منه أن يسيطر على مدينة مستغانم حتى يتمكن من الانتقال إليها ومنها إلى مدينة الجزائر، وهو ما حدث فعلاً<sup>20</sup>.

وبعد السيطرة على مدينة مستغانم توجه جيش خير الدين إلى قلعة بني راشد وتمكن من الاستيلاء عليها بعد مقاومة ضعيفة، ومنها إلى تلمسان التي حاصرتها القوات الموالية لخير الدين لمدة عشرين يوماً دون تحقيق نتيجة بفعل غياب المدفعية وحصانة مدينة تلمسان. وفي نهاية المطاف لجأ المحاصرون إلى خدعة حرية مفادها أنهم أوهوا جيش المسعود بالانسحاب وترك أخيتهم مما جر جيش تلمسان وملكهم إلى الخروج والسعي إلى تحصيل الغنائم التروكة وتبع أثر الجيش الغازي، وحينها ظهر جيش الترك والعرب فجأة وانقض عليهم. وإذا تمكن الملك مسعود من العودة إلى داخل المدينة رفقة جيشه، فإنه شعر بالهزيمة وخيبة الأمل مما حفز عدداً من عساكر تلمسان إلى مبايعة خير الدين -وقد سبق لهم أن بايعوا عروج قبله-، وأشاروا على قائد الحملة بغزوات تلمسان التي تسمح له بالدخول إليها عبر سلام، نصبت لعساكره.

بدأ التسلل إلى مدينة تلمسان ليلاً على الساعة الثالثة، وتوزعت الفرق العسكرية على الأبواب والأسوار والمآذن وبدأت صفارات تقلم الجيش نحو أبواب المدينة المفتوحة، ثم اتجه العساكر إلى القصر للقبض على السلطان " المسعود " لكنه فر رفقة مائة فارس باتجاه الصحراء.

فرح خير الدين ببروس بدخول جيشه مدينة تلمسان، فكتب لقائد الحملة يوصيه بمبايعة الأمير عبد الله سلطاناً على تلمسان وإلباسه القفطان الشرقي شريطة الالتزام بضرب عملة تلمسان باسم السلطان سليم خان، وأن تدعو خطب الجمعة في جميع أنحاء المملكة التلمسانية للسلطان العثماني. وقد وافق السلطان عبد الله على شروط خير الدين وطلب من قائد الحملة أن يعين بتلمسان حامية عسكرية إنكشارية يستعين بها في حالة قيام أنصار شقيقه "المسعود" بتمرد داخل المدينة<sup>21</sup>.

انطلقت ردة فعل المسعود ضد ملك تلمسان عبد الله من الصحراء حيث عقد الملك الهارب اتفاقا مع العديد من شيوخ القبائل العربية والبربرية المنتشرة بجنوب الغرب الجزائري، بغية محاصرة تلمسان واحتكاكها من عبد الله والأتراك العثمانيين على السواء. وقد اختار السلطان عبد الله القرار من تلمسان إلا أن قائد الحامية التركية العثمانية فرض عليه الالتزام بقصره في انتظار النجدة من الجزائر العاصمة، وفعلوا وصل إلى مشارف تلمسان حوالي خمسمائة مقاتل تركي الذين أحرقوا هزيمة نكراء بالقبائل المحاصرة للمدينة مما دفع بالمسعود إلى الهرب مجددا<sup>22</sup>.

وفي المقابل قام السلطان عبد الله بهتنة المقاتلين الأتراك العثمانيين وبعث لرؤساء القبائل المنتصرة للمسعود بإعلان ولائها له وللعثمانيين وكل من يستجيب لذلك، يكافأ بوسام الشرف. وبالنسبة لشقيقة المسعود الهارب، فكل من يقبض عليه ويسلمه حيا لبلات تلمسان، تغفى قبائنه من الضرائب لمدة عشر سنوات، لكن كان السلطان عبد الله، يعلم جيدا أن إغراءاته ودعواته لا تلقى تجلوا من قبل شيوخ القبائل العربية والبربرية بالغرب الجزائري، فراح بالمواظاة يتبع أخبار أحد رؤساء القبائل الذين تمعوا بفضائل المسعود، لعله يكون ملاذه، وهو ما كان مؤكدا، فجهاز قوة عسكرية من الفرسان وتمكنت من القبض على السلطان الهارب، وتسليمه لشقيقه مولاي عبد الله الذي زج به في زنزانة ضيقة، أما أتباعه فقد قطعت رؤوسهم، وبهذه الطريقة انتهت المعارضة السياسية ضد السلطان عبد الله وحينها قام بتسريح الجيش العثماني للعودة إلى الجزائر العاصمة<sup>23</sup>، وهنا نلاحظ مدى خطورة الصراع بين الإخوة الأمراء الزيانيين على عرش المملكة التلمسانية ودوره الكبير في تهديد السبل للتدخل الخارجي مهما كانت طبيعته وجنسه.

3- الصراع بين عبد الله وخير الدين 1529-1546: في ظل تمرد أحمد بن القاضي وقارة حسن التركي اللذان كانا يتقاسمان مناطق النفوذ بالشرق الجزائري ضد خير الدين بربروس، وتساعد خطر الاسبان بيجاية<sup>24</sup>، وانشغال خير الدين بقمع أعدائه المسلمين من جهة والنصارى من جهة أخرى وخوضه غمار القرصنة في مياه البحر المتوسط وغزوه لتونس، ومن ثمة غيابه عن الجزائر العاصمة بين سنتي 1529-1531، رأى سلطان تلمسان عبد الله أن الفرصة مواتية للتملص من وصاية الأتراك العثمانيين وتحديد وصاية خير الدين على تلمسان، فأصدر الأوامر بأن تضرب عملة تلمسان باسمه وأن تدعو جوامع المملكة التلمسانية أثناء خطب الجمعة للسلطان الزياني مولاي عبد الله<sup>25</sup>.

لما بلغ مسامعه أن خير الدين بربروس قد عاد إلى مدينة الجزائر، انتاب السلطان عبد الله القلق وأخذ يستعد لمواجهة هجمات خير الدين، وبعث بكتاب لشقيق أحمد بن القاضي يعرض عليه التحالف للانتقام من خير الدين الذي يسعى إلى الاستيلاء على ملك آباءهم والفك بهم الواحد تلو الآخر. ولما علم خير الدين بالأمر، راسل سلطان تلمسان عبد الله وحذره من عواقب تصرفاته وأمره أن يعيد خطب الجمعة وعملة تلمسان إلى ما كانت عليه سابقا، وأن يدفع ضريبة سنوية للجزائر العاصمة، قدرها عشرة آلاف دوكة قصد صرفها على الجيش الانكشاري -وهي ضريبة خفيفة مقارنة بالضريبة التي كان يدفعها الزيانيون للاسبان- وستون ألف دوكة أخرى كديون لدى ست سنوات سابقة، ثم وعده بأن يغفو عنه ويدافع عن الأخطار التي قد تملكه إذا امتثل لشروطه ونفذها بشكل كامل وفي المقابل نهه أن يعظ من تجربة شقيقه المسعود ودعاه إلى أن يكون وفيًا لثقافته مع الأتراك العثمانيين. وفي الوقت ذاته أوصى خير الدين رسوله إلى تلمسان أن يبين للسلطان عبد الله خطورة التحالف مع الاسبان المحتلين لوهران والمرسى الكبير باعتبارهم أعداء الإسلام وأن أقوالهم وصدقاتهم لا تعدو أن تكون زائفة ويتوجب عليه أن يساعد خير الدين لدفعهم إلى بلدهم، وهذا يدل على أن خير الدين بربروس كان على علم بالمراسلات التي جرت بين سلطان تلمسان عبد الله، والملكة ايزابيل Isabelle- التي كانت تحكم اسبانيا نيابة عن شارل كان Charles-Quint سنة 1531، ثم مع شارل كان نفسه سنة 1532، بواسطة اليهودي يعقوب أليجر Jacob Alegre كممثل لمولاي عبد الله، ونشرت الجمعية التاريخية الجزائرية بمجلتها الأفريقية Revue Africaine سنة 1955 رسالتين لمولاي عبد الله، وكلاهما باللغة الإسبانية .

لم يحرق السلطان عبد الله جوابا لخير الدين بربروس لكنه صرح لرسوله قائلا: " لا أنذكر أنني استلمت قرضا من سيدك، يجبرني على تسليده. وإذا اعتقد أن قواته كافية لحاصرة مملكتي، فليفعل ذلك. إنني أحفظ بمتلكات آبائي وأجدادي، ولم يكن الأتراك على الإطلاق، ورثة لحقوق بني زيان"<sup>26</sup>.

وبعد مغادرة رسول خير الدين، مدينة تلمسان، دعا مولاي عبد الله مستشاريه ووزرائه وزعماء عائلة بني عبد الواد وذكر لهم أن صعوده على عرش تلمسان، كان شرعا باعتباره من أحفاد يغمراسن بن زيان، وتساعل أمامهم عن السبب الذي يجعل خير الدين يفرض عليه دفع

الزمة السنوية، ثم تطرق إلى أن خير الدين قد استولى على مدينة الجزائر وما جاورها بطرق وجدت مجراها داخل مجتمع مترهل، وهي جزء من مملكة تلمسان التي تصل حدودها إلى المسيلة.

ثم استطرد قائلا: "وهذا خير الدين المتوحش الذي صير مناطق نفوذه جميعا وأذى العرب، يريد الآن تجريدي من ميراث آبائي وتحويلكم أنتم آل عبد الواد إلى عبيد، وأسس مطامحه على بعض الخدمات التي قدمها لي في غضون التزاعات التي جرت بيني وبين أشقائي. صحيح أنه زودني بحماية عسكرية تركية ساعدتني لصعود العرش الزياني، ولم أكن يوما ناكرا لجميله، لكنني كافأت عساكره الذين قدموا لي النجدة، واعترافي بفضائله هو النريفة التي جعلت خير الدين يسعى إلى تجريد بني زيان من ميراث آبائهم وأجدادهم". وفي نهاية حديثه قال لهم: "أطلب منكم أيها الأمراء والأعيان بمملكة تلمسان أن تعينوني بحكمتكم وترشدوني إلى ما يمكن فعله وأيهما أحتج إليه، الحرب أم السلم؟".

فخص أحد كبار عائلة بني عبد الواد وقال أمام الحضور: "لا يحتاج سلطان تلمسان إلى مشورتنا، فهو الذي يمكنه أن يقرر الحرب أو السلام، وفي جميع الأحوال سنكون الرعية الوفية لولي أمرها، وسنتقدم له موجبات تلاحمنا"<sup>27</sup>.

قرر السلطان عبد الله خيار الحرب فجمع جيشه وأمر بالاستعداد لمهاجمة خير الدين ببروس، وفي خضم التحضير للحملة، انتاب الابن الأكبر للسلطان عبد الله قلقا بشأن عواقب محاربة الأتراك العثمانيين، فاختار اللجوء إلى بلاط خير الدين بالجزائر العاصمة، فلقى ترحابا من لدنه وأسكنه منزلا أنيقا وسخر له عددا من الإماء والعبيد، وأجرى له جناية، وحول هذه النقطة يرى المستشرقون الفرنسيون أن هذا الابن للسلطان عبد الله هو الأمير محمد، الذي سبق وأن ثار ضد والده بتلمسان وطلب الدعم الإسباني لكنه لم ينل سوى الوعود، فكان مصيره الحبس لأنه كان من مصلحة الأسبان توثيق الروابط مع عبد الله للتصدي لخطر الأتراك العثمانيين، الأمر الذي جعل الأمير محمد يلجأ إلى خير الدين بمدينة الجزائر ثم يستخلم في محاربة أبيه عبد الله ويحاصره بتلمسان ثم يجلس على كرسي العرش بمساعدة خير الدين ببروس، وهذا ما يتناقض مع كتابات سنان شاوش كمصدر تركي.

وعليه نلاحظ أن العائلة الزيانية المالكة قد عرفت تفككا بين الإخوة من جهة وبين الأب وأبنائه من جهة أخرى وكلا الجهتين قد اختارتا قوة خارجية حسب الميول والمصلحة، فأى مستقبل للمملكة التلمسانية على ضوء هذه المستجدات الخطيرة؟

تحرك جيش تلمسان والتقى بجيش خير الدين بمنطقة الجزائر العاصمة، ودارت المعارك بينهما وكان النصر حليف الأتراك العثمانيين<sup>28</sup>، وعاد السلطان عبد الله وأمامه سوى خيار الخضوع لخير الدين بربروس، فأرسل إليه بعض أعيان تلمسان، يطلبون منه العفو والسلام، ودفع ستين ألف دوكة التي اشترطها على السلطان، والزيادة في مقدار الزمة السنوية لتصل إلى عشرين ألف دوكة، كما يدفع السلطان ضرائب إضافية في شكل خيول وعبيد سود وأقمشة رفيعة.

كان موقف خير الدين من شروط السلطان هو القبول وإشارة لعفوه أرسل له قفطانا ثم توجه لإخضاع شقيق أحمد القاضي الناصر في الشرق الجزائري وقد نجح في ذلك وكلفه ذلك سنتين من المطاردة والغياب عن مدينة الجزائر<sup>29</sup>.

في خضم تصاعد خطر خير الدين في البحر المتوسط والسلطان العثماني في البلقان، طلب ملك البحر، الخاضع بقلعته، النجدة العسكرية من الملك الإسباني شارلكان فطلب هذا الأخير المشورة من وزرائه ومستشاريه وبينهم هم قلقه من استغلال خير الدين بربروس، انشغال العساكر الإسبانية بمساعدة البحر لتنفيذ حملته ضد إسبانيا، فاقترح عليه رئيس وزرائه باللجوء إلى إثارة الاضطرابات بداخل الجزائر، قصد إلهاء خير الدين وقواته، ومن ثمة تأمين الأراضي الإسبانية من أي غزو عسكري تركي، وذلك من خلال استمالة سلطان تلمسان عبد الله وإغداقه بالمال شريطة إعلان الحرب ضد خير الدين.

وافق الجميع على مشروع الوزير الأول الإسباني باستثناء شارلكان الذي راوده الشك والتردد بشأن نجاح المشروع العسكري، إلا أن جموع الوزراء يبنوا لملكهم أن خير الدين سيخرج بنفسه بخارية سلطان تلمسان لأن ثورة عبد الله -الذي لولا خير الدين لما كان سلطانا- ستصلحه نفسيا ولا يعد يثق بأحد. وحينها اقترح الملك الإسباني بمجدية الفكرة فأمر بالاتصال بسلطان تلمسان وتركيز العمل معه للمرور إلى الخطوة الثانية وهي إشغال فيل الحرب بالجزائر<sup>30</sup>.



في أثناء زيارة خير الدين للسلطان العثماني باستبول، أرسل شارلكان-ملك اسبانيا- أحد أعوانه إلى سلطان تلمسان عبد الله وعرض عليه أموالا تكفيه لخوض حرب برية ضد خير الدين بربروس بالجزائر العاصمة في حين أن الاسبان يحاصرون المدينة بحرا، وبعد السيطرة على مدينة الجزائر، تصير جزءا من مملكة تلمسان وتحت سلطة مولاي عبد الله في إطار استرجاع ميراث أسلافه الزيانيين.

أعجب سلطان تلمسان بمشروع الملك الاسباني وأخذ يتشوق لاسترجاع مدينة الجزائر وما جاورها وقرر خوض حرب ثانية ضد خير الدين، فشرع في جمع جيشه و تعبئة عرب الصحراء ونصب الأخبية خارج مدينة تلمسان. أما ملك اسبانيا فقد جهز أربعة عشر سفينة حربية وورست بخليج رشغون غير بعيد عن مدينة تلمسان<sup>31</sup>.

لما علم خير الدين بما يخطط ضده، أمر بإرسال إحدى مراكبه البحرية التي تسير بالتجديف لاستطلاع عدد سفن الأسطول الاسباني، على أن لا تتجاوز المهمة مدة عشرة أيام. وفي أثناء ذلك انطلق جيش تلمسان من مختلف أنحاء المملكة -وكان للقبائل العربية حضورا قريبا في هذه الحملة- ونزل بمنطقة البليدة القريبة من الجزائر العاصمة، فسارع أحد الشيوخ العرب وأعلم خير الدين بوصول جيش سلطان تلمسان عبد الله، فلم يكن بوسع خير الدين سوى الاستعداد للخروج ومقابلة الجيش الغازي بالبليدة، فأمر حامياته العسكرية المنتشرة في مناطق نفوذه بالاقتراب منه ومنع رياس البحر من مهاجمة الأسطول الاسباني في مياه رشغون وطلب منهم الانضمام إليه، وجرت المعركة بين جيش خير الدين وجيش مولاي عبد الله الذي انهزم مجددا بفعل انسحاب القبائل العربية من المعركة لعوامل تبقى مجهولة<sup>32</sup> لكننا نعتقد أن عامل المصلحة كان وراء الانسحاب.

قرر خير الدين بربروس، ملاحقة مولاي عبد الله، ومحاصرة مدينة تلمسان، فخيم قرب أسوارها، وعندئذ رأى السلطان الزياني ضرورة مفاوضته، فبعث إليه كبار دولته، وأعيان المدينة، يعرضون عليه السلام مقابل دفع ثلاثين ألف دوكة ذهبية.

صمت خير الدين أمام إلحاح المفاوضين التلمسانيين ثم قال لهم: "هذا الرجل فاقد للإيمان والشرعية، ولا يمكننا الوثوق بقسمه وعهده، فتارة يتخلى عن نزواته، وتارة أخرى يتحالف مع النصارى، وإني أراه، لا يكف عن حمل السلاح ضدي، ولا أستطيع مساعدته في أية تسوية"<sup>33</sup>.

عاد المفاوضات إلى مولاي عبد الله بجواب يعث على القلق، لكن سلطان تلمسان كان يترك جيلا مدى سماحة خير الدين فقصدته بنفسه إلى مخيمه، وترجاه وألح عليه، فقال عفوه، ورجع الاثنان إلى مقر حكمهما.

أما أسطول الملك الاسباني شارل كان فقد تلقى خبر انتكاسة حليفه مولاي عبد الله وانشغل بمحلمته لإنقاذ ملك الجبل من الحصار التركي بقيادة سليمان القانوني، لكنه رجع على أعقابها بعدما سمع أن القلعة التي كان من المفترض أن يجردها قد سقطت بيد الأتراك العثمانيين<sup>34</sup>.

خاتمة: في سنة 1546م توفى خير الدين بربروس متأثرا بالحمى تاركا مملكة تلمسان تحت إمرة مولاي عبد الله، ومدينة الجزائر تحت حكم ابنه بالتبني، حسن بربروس الذي وصله لقب أمير أمراء الجزائر (بابلر باي) وحمل على عاتقه الدفاع عن تلمسان ومناطق نفوذها من الاسبان المحتلة لوهرا والمرسی الكبير وأعوانهم من القبائل الجزائرية من جهة والجيش الفاسي المغربي من جهة أخرى، بمشاركة سلطان تلمسان، مولاي عبد الله وشقيقه الأمير عبد الرحمن<sup>35</sup>.

وبوفاة خير الدين بربروس ينتهي مسلسل الإخوة بربروس لكن لم ينته مسلسل الصراع بين الأتراك العثمانيين وبنو زيان بمملكة تلمسان، وكل ما يمكن استنتاجه على ضوء ما سبق أن السلطان أبو حمو الثالث طيلة فترة حكمه كان دائما وفيًا لتحالفه مع الاسبان الموقع سنة 1518م، أما السلطان المسعود فقد لعب على الحبلين إذ راح يستجد بخير الدين للإطاحة بشقيقه أبي حمو الثالث ولما بلغ أمانيه انقلب على الأتراك وتحالف مع الاسبان وبشأنه لا حظنا أن أبا راس الناصري قد اختلطت عليه الحقائق حيث يصف أحداثا تاريخية لأبي حمو الثالث ضد عروج، لكنه ينسبها للمسعود، ولا ندرى مصيره بعد سجنه بتلمسان. وفيما يتعلق بالسلطان عبد الله فقد لاحظنا أنه انقلب على خير الدين مرتين كما انقلب على الاسبان كذلك، وبخصوص سياسته، لاحظ الرواد الفرنسيون للجمعية التاريخية الجزائرية أنهما سياسة مغامرة لسابقه حيث تعامل مع الطرفين على السواء، الأتراك من جهة والاسبان من جهة أخرى سعيًا منه إلى تصفية الخصمين ووسط سيادته على كامل التراب الجزائري<sup>36</sup>.

## الهوامش:

- (1) وهم عروج وخير الدين واسحاق من جزيرة منلي، والهم تركي مسلم، ووالدقم نصرانية.
- (2) بربوس لفظة روسية تعني اللحية الحمراء.
- (3) عروج أصلها أرووج وتعني الصيام أو رمضان.
- (4) يذكر المؤرخ التركي التر Ilter أن عروج نصب أولا أبو زيان سلطانا لتلمسان ثم عزله وأعدمه وأعلن نفسه حاكما للبلد.
- (5) Sinan chaouch. Fondation de la régence d'Alger -histoire des frères Barberousse Aroudj et khair Ed din- Traduction de jean Michel venture de paradis, éditions grand Alger livres, Alger, 2006.p.74.
- وبهذا الصدد تشير الدراسات التاريخية أن العديد من العائلات التلمسانية وعلمائها، استقروا بفاس مما وثق علاقات المودة والإخاء بين التلمسانيين والفاسيين.
- (6) أعقد أن المقصود بالفتة في هذا المقام هو أن بني زيان رغبوا الناس في ملك آل عبد الواد وهجموا على الترك على منبر الجامع الأعظم.
- (7) Sinan chaouch. Op, cit, p.75.
- (8) Ibid, pp.75-76.
- (9) Ibid, p.77.
- (10) أبو راس الناصري. تاريخ الجزائر. مخطوط بالملكية الوطنية الفرنسية، رقم 4614، ورقة 135ظ.
- (11) Sinan Chaouch, op, cit, pp.77-78.
- (12) بوشافي محمد. "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الاسباني على المغرب الأوسط". مجلة عصور، العددان 04-05، وهران، جوان 2004، ص 275.
- (13) Sinan Chaouch, op, cit, p.83.
- (14) Ibid, pp.99-100.
- (15) Ibid, pp.100-101.
- (16) Ibid, p.102.
- (17) أبو راس الناصري. المخطوط السابق، ورقة 135 و.
- (18) Sinan Chaouch, op, cit, p.103.
- (19) Ibid, p.104.
- (20) Ibid, pp.105-106.
- (21) Ibid, pp. 108-110.
- (22) Ibid, p.114.
- (23) Ibid, p.115.
- (24) احتل الاسبان مدينة بجاية المحصنة سنة 1510، وحاول الإخوة بربوس تحريرها سنة 1515 لكنهم فشلوا وفيها أصيب عروج برمية مدغمية أدت إلى بتر ذراعه اليمنى.
- (25) Sinan Chaouch, op, cit, p.139.
- (26) Ibid, p.140.
- (27) Ibid, p.141.

(28) يعكس هذا الانتصار العسكري لخير الدين وجيشه إلى ضعف الجيش التلمساني من حيث التنظيم والتدريب والتجهيز ولذلك كانت المملكة التلمسانية تبحث دائما عن قوة خارجية تسند لها، فأجبرتها سوء الأحوال والمصلحة إلى اختيار الاسبان كقوة عسكرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

(29) Sinan Chaouch, op, cit, pp.142-143.

(30) Ibid, p.170.

(31) Ibid, p.171.

(32) Ibid, p.172.

(33) Ibid, p.173.

(34) Idem.

(35) إفر، عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص 180.

(36) Chantal de la Vérone. " Deux lettres inédits d'un roi de Tlemcen 1531-1532". In Revue Africaine, Année 1955, p.174.



## الغارات الإسبانية على مدينة تلمسان خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

~~~~~ د. عبد القادر فكاي\*

مقدمة: عرفت الدولة الزيانية متاعب كثيرة، منها التدخلات الأجنبية في شؤونها الداخلية، من سلاطين الدول المجاورة، المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في تونس. ومع بداية القرن السادس عشر زاد ظهور الخطر الإسباني من تلك المتاعب، حيث كان تدخلهم في المملكة قد تطور إلى التلاعب بمصيرها من أجل السيطرة عليها. وكانت المملكة خلال هذه الفترة تعاني من ضعف داخلي خطير بسبب النزاع الداخلي بين أمرائها على كرسي الحكم. وقد شجع هذا الوضع الإسبان على تطبيق مخطط عملي للنيل من هذه الدولة، منها الأعمال التجسسية والإسراع في احتلال أهم موانئها، ثم الاتصال مع حكام تلمسان وترغيبهم في الوقوف إلى جانبهم. وكانوا من حين لآخر ينظمون هجوما على تلمسان لتأمين تلك التبعية، كما أنهم ألزموا ملوك تلمسان الموالين لهم بدفع الضرائب.

1- تجسس الإسبان على تلمسان: بدأت أعمال التجسس على مملكة بين زيان عقب سقوط مملكة غرناطة، إذ عينت الملكة إيزابيلا "لورينثو دي باديا" Lorenzo de Padilla، حاكم مدينة القلعة في الأندلس في مهمة سرية تجسسية تتمثل في استطلاع أحوال تلمسان وتوابعها التي لجأ إليها كثير من الأندلسيين؛ فذهب إلى هذه المملكة خلال سنة 1493<sup>(1)</sup>، متكررا في صورة تاجر من أهل البلد، واستقر بها لمدة زمنية تجاوزت السنة، تمكن خلالها من رصد أخبار هامة عن المنطقة، وجمع المعلومات الضرورية للقيام بأعمال الغزو الذي كان بصدد التحضير له. أما الكاردينال "خيمينيس"، فقد قرب إليه تاجرا من البندقية يدعى "جيرومينو فيانيلي" (Geromino vianelli)، الذي كان عارفا بشؤون الرحلات إلى شمال إفريقيا، وعلى اطلاع

\* - أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - المركز الجامعي خميس مليانة.

واسع بسواحلها، وحتى بعض مناطقها الداخلية؛ فقد سبق له وأن تردد على تلك المناطق عدة مرات بصفته تاجرا، وخلال لقاءاته المتكررة مع الكاردينال كان يبلغه عن أخبار المنطقة الساحلية؛ فهو الذي وجه أنظار الإسبان نحو ميناء المرسى الكبير، الذي اعتبره موقعا ممتازا، ووكرا رئيسا للتجار المغاربة والأندلسيين الذي التحقوا به، كما أنه وجه عنايتهم إلى مدينة وهران التي اعتبرها المدينة الأجل، وأكثر المدن الساحلية غنى ويسرا<sup>(2)</sup>، ولتوضيح المناطق الساحلية وتقريب معالمها أكثر إلى ذهنية الكاردينال خيمينيس، قام الجاسوس المذكور برسم خريطة لكل الساحل إلى جانب ذلك صنع نموذجاً مصغراً من الشمع يمثل بلدة المرسى الكبير وقلعتها<sup>(3)</sup>.

وكانت عناية الإسبان قبل توجيهات "فيانيلي" منصبه نحو مناطق ساحلية أخرى، حيث كان تفكيرهم في البداية موجها نحو مدينة هنين الزبانية لأنها مدينة مشهورة بتجارها، كما أنها كانت في بعض الأحيان هدفا لغارات القراصنة الإسبان الذين سبق لهم أن استولوا منها على كثير من الأسلاب والأسرى<sup>(4)</sup>.

وفي سنة 1494م أرسل فرديناند جاسوسا آخر يدعى "فيرنانلو دي زافرا" ( Fernando de Zafra ) الذي كان كاتباً للملكين الكاثوليكين، فقد سبق له أن كلف منذ سنة 1492م بمراقبة حركة الأندلسيين المهجرين إلى السواحل الإفريقية، كما سمحت له الظروف بالاطلاع على أحوال القبائل الساحلية الخارجة عن طاعة مملكة تلمسان<sup>(5)</sup>، وفي نهاية مهمته أرسل هذا الجاسوس تقريراً إلى سيده يبلغه فيه عن حالة الفوضى السياسية والاضطراب التي كانت تتخبط فيه المملكة. استغلت الملكة إيزابيلا تلك المعلومات وقررت تنفيذ مشروع غزو مملكة تلمسان؛ وأعدت جيشاً بلغ عدده 12000 جندي، ترأسه "دي تينديا" DeTendilla الحاكم السابق لغرناطة، غير أن موقها سنة 1504م عطل تنفيذ مخططها، غير أن رغبتها لم تذهب أدراج الرياح، بل ظلت موجودة ضمن وصيتها<sup>(6)</sup>، التي تكفل بتنفيذ زوجها الملك فرديناند والكاردينال خيمينيس. وتمكن الإسبان إثر ذلك من احتلال المرسى الكبير وهران وبجاية، وفرض سيطرتهم على مدن أخرى بواسطة المعاهدات.

وبعد احتلالهم لهنين سنة 1531م، واصل الإسبان نشاطهم التجسسي، وذلك باستخدام بعض العرب الذين كانوا يكيئون الملك تلمسان أبي عبد الله محمد (1528-1540)<sup>(7)</sup>، إذ جاء في خطاب أرسله حاكم هنين "د. إنيغو دي باليخو باتشيكو" (D.Inigo de Vallejo Pacheco)، مؤرخ في 13 مارس 1534م، إلى شارل الخامس يخبره فيه عن الأحوال الداخلية

لتلمسان بناء على تلقيه في أيام 9 و 10 و 11 من الشهر ذاته ثلاثة تقارير تجسسية من العرب الجواسيس "قد حذروني عادة عما يحدث في داخل المملكة، وأن المعلومات التي زودوني بها تعد صحيحة على النوام، ولي أن أتق فيما قالوه لي"<sup>(8)</sup>.

وكانت تقاريرهم أحيانا تحمل أخبارا كاذبة، نذكر منها على سبيل المثال التقرير المؤرخ في 26 أبريل من سنة 1534م، الذي أرسله حاكم هنين قبل تلميرها، "الدون إينغو دي بايكو باتشيكو" إلى الإمبراطور تكلم فيه عن الأوضاع السائدة في تلمسان، ثم جاء فيه أن ملك تلمسان مولاي محمد أعد جيشا يهدد به الإسبان، وأضاف بأنه أعلم من طرف أحد الجواسيس بموت خير الدين، مبرزا له تأثير ملك تلمسان بعد سماعه ذلك الخبر<sup>(9)</sup>، لعلاقته الحميمة مع خير الدين<sup>(10)</sup>، وقد مكنت هذه الأعمال الاستطلاعية الأسبان الحصول على أخبار المملكة، حتى جعلت قواهم العسكرية تتغلغل ابتداء من سنة 1515م إلى السهول العليا الوهرانية عند المتحدرات الرملية لجبل عمور<sup>(11)</sup>، ثم استغلوا استجداد بعض الأمراء الزيانيين بهم، فكانوا يرسلون الغارات العسكرية ضد تلمسان.

2- الغارات الإسبانية على تلمسان: لقد ظل الإسبان في وهران حريصين على إبقاء ملوك تلمسان موالين لهم بعد قبول ملك تلمسان محمد الخامس بن محمد الثابتي (1505-1516)، الخضوع لسيادتهم في سنة 1512<sup>(12)</sup>؛ فأبدوا كل أمير زياتي تعاون معهم ضد منافسيه، وكانوا يشنون الغارات على تلمسان من حين لآخر من أجل إزاحة الأمراء المعادين لهم وتنصيب المستجبرين بهم في سنوات: 1518، 1535، 1543، 1544، 1547، وفيما يلي عرض لهذه الحملات:

- حملة 1518 على تلمسان: وفي عهد أبي هو الثالث بن محمد الثابتي (1516-1528) الذي التزم بمبدأ مسالمة الإسبان متبعا سياسة أخيه، تجدد الصراع العائلي على الحكم في تلمسان عندما تحزب ضده أنصار أخيه أبي زيان- الذي السجن- واستجتلوا بعروج؛ فوجه هذا الأخير إلى تلمسان وأطلق سراح الملك المسجون، ونصب أبا زيان في الحكم، وفر أبو هو الثالث إلى وهران عن طريق فاس<sup>(13)</sup>.

لم يكن أنصار أبي هو مرتاحين للأوضاع الجديدة التي أصبحت تعيشها مدينتهم، فكانوا ناقلين على عروج، وكانت سياسة هذا الزعيم ترمي إلى تكوين سلطة قوية في هذه المنطقة، حتى تتمكن من مواجهة الأخطار التربصة بها وخاصة الإسبان الذين ذهب استجار بهم أبو هو،

وأدت سياسته هذه وسلوكات البعض من جنوده تجاه السكان التي أثارت غضبهم، إلى وقوع الفتنة من جديد في تلمسان، أدت بعروج أن يقلم على قتل الملك أبي زيان، إلى جانب سبعين شخصا من أفراد أسرته، كما قضى جنوده على بعض سكان المدينة<sup>(14)</sup>، ثم اتخذ عروج من قلعة المشور مقاما له، وقام بترميم أسوارها، وأعاد تحصين المدينة تحسبا لمواقف أبي حمو والإسبان، كما راح يعمل على كسب ولاء سكان ضواحي تلمسان وأحوازاها، فأرسل إليها مفازا عسكرية يدعوها إلى إعلان الطاعة له<sup>(15)</sup>؛ فأعلنت قبائل بني عامر وبني سناسن ولاءها له، والتمت بدفع الضرائب حوبا لتموين الجيش من أجل صد الحصار الإسباني المتوقع على تلمسان.

ومن فاس راسل أبو حمو الإسبان في وهران قبل التحاقه بها، واستغل سوء أحوال الإسبان فيها لأن عروج منع أهل قلعة بني راشد تزويدهم بالخاصيل الزراعية التي كانت تستجها المنطقة، وما قاله لهم: "أنظروا ما حل بك حين انقطعت دولتا عنكم وتمكنت منها الأتراك، كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها"، كما ذكر لهم أن سبب ذلك يعود إلى عدم تقديم النصارى العون له لقتال عروج ورجاله<sup>(16)</sup>.

وكان أبو حمو قد توجه إلى وهران في سرية تامة مع أبنائه وأبناؤه، ومن أجل النجاح في مهمته أرسل أحد إخوانه إلى الإمبراطور شارل الخامس، الذي كان يتخذ من مدينة طليطلة مقرا لحكمه، وبعد استقبال الإمبراطور للأمير الزياني، وعده بتقديم المساعدة التي طلبها<sup>(17)</sup>، وذكر بعض الكتاب الأوربيين أن أحد شيوخ ضواحي تلمسان، ويدعى بورقية، توجه هو الآخر إلى وهران يطلب من القائد الإسباني مساعدات عسكرية لمحاربة قوات عروج، وأنه سلم له اثنين وثلاثين طفلا من أبناء الأعيان كرهائن بناء على طلب الإسبان مقابل تقديم المساعدات<sup>(18)</sup>.

استغل القائد الإسباني غوماريس نداءات أبي حمو وبورقية، وأرسل تقريرا إلى الملك الإسباني يدعوه فيه إلى ضرورة ضم تلمسان إلى سلطتهم، أو تشكيل حكومة موالية لهم فيها. كما طلب مساعدات عسكرية لتنفيذ ذلك المخطط، فوافق الملك على تزويده بجيش يتألف من عشرة آلاف رجل<sup>(19)</sup>، وقبل وصول تلك القوات من إسبانيا أرسل دي غوماريس نجدة عسكرية تتألف من ثلاثمائة جندي إلى قلعة بني راشد لاعتراض المساعدات التي طلبها عروج من أخيه خير الدين في مدينة الجزائر، ثم أرسل القائد الإسباني قوات أخرى تتكون من 600 جندي<sup>(20)</sup>.



وتوجت هذه الإجراءات بخروج القائد مارتينيز دي أرغوت من وهران رفقة أبي حمو متوجها إلى تلمسان، وفي طريقه إليها استولى على قلعة بني راشد، وقضى على الحامية التابعة لحكومة الجزائر، التي كان على رأسها اسحاق أخو عروج، ولما وصل إلى تلمسان ضرب عليها حصارا استمر لمد ستة أشهر، ولشدة القصف المدفعي الإسباني اضطر عروج إلى ترك قلعة المشور، فتعقبته القوات الإسبانية وقتلته في معركة شديدة، وذلك في شهر ماي 1518م<sup>(21)</sup>، وعقب ذلك دخل جيش الأسبان تلمسان وعينوا أبا حمو الثالث ملكا عليها، وأملوا عليه معاهدة أخرى مؤرخة في 13 سبتمبر 1535م كانت تحتوي على قيود كثيرة تجعله واقعا تحت هيمنتهم<sup>(22)</sup>، لعل من أخطرها المادة التي تقول: "أن يكون الملك صديقا لمن يصادق جلالته، وعدوا لمن يعاديه"، كان ذلك الشرط موجها من دون شك إلى عدم تعاونه مع السلطة في الجزائر، وقد استغل الأسبان هذا التحالف مع تلمسان وخططوا لضرب مدينة الجزائر، واتفقوا مع أبي حمو أن يهاجم المدينة من البر، ويتولون مهاجمتها من جهة البحر، ولما جاء هيغو دي مونكادي مع جيوشه سنة 1519م، تخلف أبو حمو عن الموعد<sup>(23)</sup>، وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها.

- حملة "أونجيلو مارتينيز" 1535: وفي عهد الملك أبي محمد عبد الله بن محمد الثاني (1528-1540) تعرضت تلمسان إلى مكيدة أخرى أدت إلى غزوها مرة أخرى، لقد كان هذا الملك يميل إلى التحالف مع خير الدين لعاضم شأن الدولة الجزائرية في عهده خاصة بعد تمكنه من تحرير الصخرة من الوجود الأسباني بها سنة 1529م، وكان عبد الرحمن بن رضوان أحد كبار شيوخ قبيلة بني عامر يود تنصيب حفيده الطفل<sup>(24)</sup> عبد الله الأخ الأصغر لمحمد بن عبد الله على ملك تلمسان، ولهذا الغرض اتصل بالإسبان في وهران، الذين وافقوا على مساعدته؛ فأرسل حاكم وهران "ميلغاريجو" (Melgarejo) خطابا إلى الإمبراطور مؤرخا في 11 سبتمبر 1534م، يخبره فيه عن رغبة ابن رضوان في السماح له بالالتحاق بمدينة وهران مع حفيده، كما نصح الإمبراطور في نفس الرسالة على ضرورة استقباله من أجل كسر التحالف بين ملك تلمسان والسلطة في مدينة الجزائر<sup>(25)</sup>، وقد أدت تلك المساعي إلى انتقال ابن رضوان مع حفيده إلى مدينة وهران في 3 فيفري 1535م<sup>(26)</sup>، ووافق الكونت دي الكوديت - الذي التحق بوهران خلال تلك السنة - على تزويده بقوة عسكرية تتألف من ستمائة رجل، وأرسل معهم أربع قطع من المدفعية الصغيرة<sup>(27)</sup>.

وقد أدت تلك التحركات إلى تعرض تلمسان من جديد إلى غزوة أخرى؛ ففي سنة 1535م وجه قائد وهران الكونت دالكوديت حملة أخرى على تلمسان قادها ابن عمه، "ألونسو مارتينيز دي أونجيلو" (Alonso Martinez de Angelo) مصطحبا معه ابن رضوان ومعه أربعمائة فارس، وسلم ملك تلمسان قيادة جيشه للمنصور بن بوغانم زعيم قبيلة بني راشد، فخرج لنزع المعتدين من التلمسان، وبدأ القتال بين الطرفين، واستمر لمدة ثلاثة أيام<sup>(28)</sup> اضطر خلالها مارتينيز إلى الاحتماء مع قواته بين خرائب الأسوار.

وفي 4 جويلية تغلغل مائتا فارس من بني راشد إلى داخل المعسكر الإسباني، وتمكنوا من تشتيت قواتهم، وأجبروهم على القتال في حالة تراجع حتى ينسحبوا بأقل الخسائر، وخوفا من الهلاك تظاهر مارتينيز بجنوحه إلى التفاوض مع قائد بني راشد، بينما ذكر مارمول أن المنصور "لما تحقق من ضعف مارتينيز جاء فوراً إلى تبدة مع جميع الأعراب والبربر بدعوى التفاوض"<sup>(29)</sup>، حيث أرسل مترجمه يطلب من ابن غانم السماح له ولقواته بالعودة بسلام إلى وهران، لكن المنصور أدرك نية عدوه في ربح الوقت ريثما يتمكن من طلب المساعدات من وهران؛ ففوت عليه الفرصة، وتقدمت قواته إلى داخل التحصينات الأسبانية، وألحقت بهم وبمن كان معهم من العرب هزيمة نكراء، وقضت على عدد كبير منهم<sup>(30)</sup>، من بينهم أحد الضباط يدعى "بالبو" (Balboa)، أما عن عدد الأسرى فهناك من حددتهم بسبعين رجلاً<sup>(31)</sup>، كان من بينهم القائد مارتينيز، الذي اقتيد مع الأسرى الآخرين إلى تلمسان، وكان مصيره فيما بعد القتل، بينما تمكن الآخرون من الفرار والالتحاق بوهران في أيام متفرقة<sup>(32)</sup>، أما عن الخسائر البشرية التي ألحقت بأهل تلمسان فقد بلغت مائتي رجل<sup>(33)</sup>.

- حملة "الكونت دالكوديت" على تلمسان 1543م: عندما توفي الملك أبي محمد عبد الله سنة 1540م خلفه في الحكم ابنه أبو عبد الله محمد<sup>(34)</sup>، وكان الملك موالياً للإسبان في وهران؛ فثار عليه أخوه أبوزيان أحمد سنة 1542م بتأييد من قوات حسن باشا بن خير الدين، وافلتك منه الحكم؛ فهرب محمد السابع إلى وهران يستجير بالإسبان كالعادة، ووضع نفسه تحت حمايتهم، ولهذا عزم الكونت دالكوديت على غزو تلمسان بنفسه، وشرع في تنظيم حملة كبيرة على تلمسان يقودها بنفسه.

وفي 27 جانفي 1543م، خرج إلى تلمسان على رأس قوة عسكرية تتألف من أربعة عشر ألف جندي، وخمسمائة فارس<sup>(38)</sup>، وقبل خروجه ببضعة أيام اتصل ابنه ألونسو ببعض القبائل مثل أولاد موسى وتسالة لاستمالتهم إلى جانب الأسبان، وترويلهم بعدد من الجمال والماشية غير أن هؤلاء رفضوا العرض الإسباني، وحسب بعض الروايات التاريخية الأوربية فإن أبا زيان حاول التفاوض مع الأسبان، ومنحهم مائتي ألف دوقا مقابل تخليهم عن فكرة الزحف على المدينة، فرفض الكونت ذلك العرض.

ولما فشلت تلك المساعي، دعا قائد بني راشد المنصور بن بوغانم إلى الخروج بقواته<sup>(39)</sup> من تلمسان لمواجهة الدالكوديت وقطع الطريق عنه؛ فقاتلهم عند وادي يسر لكنه لم يتمكن من وقف زحفهم، فراجع أمام القوات الأسبانية نتيجة للتسلح الجيد للأسبان، وارتفاع عدد القتلى في صفوف رجاله، حيث أكد ذلك مارمول في قوله إن الإسبان: "قتلوا العديد منهم"<sup>(37)</sup> وهكذا تمكن الأسبان من بلوغ حصن تيلة وعسكروا فيه.

ولما وصلت أنباء هزيمة جيش المنصور إلى تلمسان، قتل الناس نساءهم وأطفالهم إلى الجبال المجاورة في ليلة 4-5 فيفري، ثم عادوا إلى المقاومة، وخرج من جهته الملك أبو زيان على رأس قواته<sup>(38)</sup> بالإضافة إلى الأربعمائة جندي التي تركها لديه حسن آغا.

وفي يوم 5 فيفري واجه أبو زيان الكونت دالكوديت عند أسوار المدينة في معركة عنيفة استمرت من العاشرة صباحا إلى غاية المساء، وفي الأخير أجبر أبا زيان على الانسحاب مع رجاله إلى منطقة أنغاد<sup>(39)</sup>، وقد ذكر بعضهم أن الخسائر البشرية كانت كبيرة من جانب ملك تلمسان دون تحديد حجمها، وقتل من الجيش الإسباني ثمانمائة جندي، وجرح ما بين ثمانية واثني عشر آخر<sup>(40)</sup>، كان من بينهم ابن الكونت "اللون مارتين دي كوردوبا" (Martin de Cordova Don).

وفي 6 فيفري دخلت القوات الإسبانية مدينة تلمسان ومعها أبو عبد الله محمد، وتعرضت المدينة إلى النهب والتدمير، فقد "هبوا من أقصاها إلى أقصاها، وهم يقتلون أو يأسرون كل من يصادفونه فيها"<sup>(41)</sup>، وانتقموا خاصة من القبائل التي رفضت مسانلتهم<sup>(42)</sup>. كما وضعوا في أيديهم كل ما وجدوه من مختلف أنواع المؤونة كالقمح والشعير والزبيب والأنعام، وبعد مرور خمسة وعشرين يوما من دخوله المدينة؛ خرج دالكوديت من المدينة للسطو على قافلة كبيرة كانت تحمل القمح والشعير لسكان المدينة الفارين الذين كانوا يقيمون في أحواضها، وتمكن

من الاستيلاء على ثلاثمائة وخمسين جملا ومائة وخمسين من الرماح، وأسر ألف رجل وقتل ستين آخر<sup>(43)</sup>، ولم تسلم حتى المؤسسات الدينية من آذاهم فقد ربطوا دوابهم بالجامع الأعظم، واستمرت أعمال العدوان ثلاثة عشر يوما<sup>(44)</sup> أبدى فيها السكان مقاومة باسلة، قضوا خلالها على أكثر من ألف جندي إسباني<sup>(45)</sup>.

وبعدما نصب أبو عبد الله على عرش تلمسان، أبرم مع الدكوديت معاهدة في يوم 26 فيفري أعلن فيها الولاء للإمبراطور<sup>(46)</sup>. وفي 11 مارس خرج الدكوديت من تلمسان في طريقه إلى وهران، ومعه عدد من الأسرى وكثير من الأسلاب.

استغل الملك المخلوع أبو زيان المتعاون مع السلطة العثمانية في مدينة الجزائر انشغال الإسبان بمحلتهم على مستغانم سنة 1543م، وتقدم نحو تلمسان لاسترجاع عرشه وحاصرها؛ فخرج إليه أخوه أبو عبد الله محمد وقتله خارج المدينة وانتصر عليه، لكنه عندما كان راجعا إلى تلمسان، أغلق السكان أبوابها في وجهه لقبوله التحالف مع الأسبان، واستدعوا أبا زيان ليحكمهم؛ فاستقبلوه بخفاوة كبيرة<sup>(47)</sup>.

أسرع أبو عبد الله محمد إلى وهران لطلب التجارة مرة ثانية من الكونت الدكوديت، ولم يتردد هذا الأخير في الإستجابة، حيث خرج على رأس جيش يتألف من ألفي جندي من المشاة، بالإضافة إلى عدد من قطع المدفعية متوجها عبر وادي تليالات إلى معسكر حيث كانت قوات أبي زيان المؤلفة من ألفين وأربعمائة مقاتل معسكرة هناك<sup>(48)</sup>، وجرت معركة بين الفريقين كانت الغلبة فيها لصالح جيش أبي زيان، مما أجبر الدكوديت على الانسحاب، وعندما كان راجعا إلى مدينة وهران تعرض إلى هجوم آخر شنه عليه سكان منطقة مديوني أوشك الدكوديت خلاله على الهلاك<sup>(49)</sup>، وتمكن أتباع أبي زيان من القبض على أبي عبد الله، فقتلوه وحملوا رأسه إلى أخيه في تلمسان<sup>(50)</sup>.

وأصبحت تلمسان إثر ذلك محل تنافس كبير بين حكومة الجزائر والإسبان، وبخاصة في عهد حسن بن خير الدين الذي كان وراء صد الإسبان في غاراتهم على مستغانم عامي 1543 و1547م، كما أنه كان وراء تنصيب الملك حسن بعد وفاة أبو زيان أحمد سنة 1550م. وشهدت تلمسان هذه السنة تدخل الأشراف السعديين، حينما حاول محمد الشيخ بسط نفوذه عليها، لكن قوات حسن بن خير الدين تمكنت من طرده في السنة الموالية (1551م). ولما وصلت





































جبهة التحرير بالمغرب، عين نائباً لرئيس فدرالية الجبهة بالمغرب، شارك في مؤتمر طرابلس عام 1962م. وابتعد بعد الاستقلال عن الحياة السياسية<sup>(14)</sup>.

#### 9- قران الجبالي (سي عفان): قيادي في الولاية الخامسة.

ولد بالخميس قرب تلمسان عام 1935م، درس بالكتاب ونشأ في أسرة محافظة، ارتبط بنشأة الحركة الثورية مبكراً حيث كانت قريته الواقعة على الحدود تستقطب كثيراً من الوطنيين، ومنهم بوالصوف، انخرط في تحضير العمل الثوري بالمنطقة تحت إشراف سي جابر، بدأ مشواره النضالي بالعمل السياسي والتحق في نوفمبر 1955م بجيش التحرير الوطني، كلف بعدة مهام ثورية، وعين بعد مؤتمر الصومام عضواً في قيادة أول فيلق شكل بالمنطقة، شهد العديد من المعارك، وفي أواخر أبريل 1957م أشرف على نقل عبان ودحلب، من سيلدي بلعباس إلى الحدود المغربية، فضل الاستقرار في المنطقة الأولى داخل الوطن بدل الانتقال إلى القاعدة الخلفية بالمغرب، وظل فيها إلى غاية وقف إطلاق النار، عين بعد استشهاد سي جابر في فيفري 1958م مسؤولاً عن ناحية سيلو، وكان تابعاً لقائد المنطقة سي الزوير، وقد اختاره هذا الأخير ليكون عضواً في قيادته مكلفاً بالاتصال والأخبار، وكان يساعده في إدارة شؤون الثورة وفض بعض النزاعات التي كان يعرط فيها سي الزوير، وكان يبوب عنه في خرجاته الكثيرة إلى المغرب، والتي كانت آخرها الخرجة التي أعلن فيها التمرد نهاية عام 1959م، وكان مصيره الإعدام، تولى بعدها سي عفان قيادة المنطقة الأولى، وكلف بعدها بمسؤولية التنسيق بين المناطق، ورفقي بعدها إلى رتبة رائد عضواً في قيادة الولاية، وقد عمل مع الرائد عباس مشرفاً على قيادة الولاية الخامسة بالداخل منذ نهاية عام 1961م، وخاض خلالها العديد من المعارك الكبرى والاشتباكات، بعد وقف إطلاق النار تولى الإشراف على قيادة الولاية إثر خروج قيادتها إلى طرابلس، وكان شاهداً على صراع المرحلة الانتقالية بين هيئة الأركان وقيادة الداخل في الولاية الخامسة، وهو ما أثار تنهده وجعله يفضل التخلي عن الخدمة العسكرية.

عين عضواً في أول مجلس تأسيسي، وتعرض للتهميش في عهد بومدين، وعين عضواً في المكتب السياسي للجبهة خلال مؤتمرها الرابع، وما يزال على قيد الحياة<sup>(15)</sup>.

#### 10- لواح محمد بن احمد (سي فراج): عضو قيادة الولاية الخامسة وشخصية ثورية

مرموقة السمعة.

ولد عام 1936م في غورايا ناحية سبلو التابعة لتلمسان، زاول دراسته الأولى بالكتاب والمدرسة الابتدائية بمسقط رأسه، وانتقل إلى مدينة الخميس لمواصلة الدراسات الشرعية. وفي سنة 1952 عاد إلى مسقط رأسه ليمارس مهنة التعليم، وانخرط في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وأصبح عضواً عاملاً في خلايا المنظمة الخاصة.

التحق بصفوف الثورة مبكراً، وشارك بفعالية في تنظيم العمليات العسكرية بوهران ابتداء من أكتوبر 1955، وكان على رأس فرقتين مسلحتين وهو لم يبلغ بعد سن العشرين من العمر، تمكن من إرساء التنظيم وإنجاح العمليات العسكرية، واعترفت قيادة الولاية الخامسة بمواجهه وقدراته الحربية فعيّنه في ماي 1958 قائداً للمنطقة الخامسة، ثم عضواً في قيادة الولاية الخامسة برتبة رائد. بذل جهوداً كبيرة في مواجهة المخططات الفرنسية بالمنطقة الخامسة، وخاض معارك واشتباكات عنيفة في جبال سبلو ومرباح وجبل يوسف، عرف بأخلاقه الرفيعة وتواضعه وأشهره بمحكنه السياسية وثقافته الواسعة.

كان رفقة قائد الولاية سي لطفي في طريق العودة من اجتماع المجلس الوطني للثورة عندما اكتشفت القوات الفرنسية طريقهما، وواجهتهما في معركة ضارية بجبل بشار يوم 25 مارس 1960 فكانت نهاية البطلين بعد حياة حافلة بالبطولات والانجازات<sup>(16)</sup>.

11- تيجاني هدام: شخصية سياسية وتاريخية مرموقة، ولد في جانفي 1921 بتلمسان، واصل دراسته العليا في الطب وشارك في النضال الطلابي، التحق بصفوف الثورة التحريرية بداية سنة 1955، كان مقرباً من ابن بلة وعمل مساعداً له في الوفد الخارجي بالقاهرة، وبعد اعتقال ابن بلة شارك في تأدية عدة مهام سياسية وعسكرية، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات عليا: منها وزيراً للشؤون الدينية سنة 1964، ثم وزيراً للصحة سنة 1965، وعميداً لمسجد باريس، عاد إلى أرض الوطن واشتغل أستاذاً للطب بجامعة الجزائر، عين في جانفي سنة 1992 عضواً في المجلس الأعلى للدولة<sup>(17)</sup>.

\* ثالثاً: النخب الطلابية: ساهمت النخبة الطلابية بلور فاعل في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى، ومن رموزها البارزة عدد من المجندين في الجزائر والمغرب اثر الإضراب الطلابي، ومنهم نذكر:

1- خميسي محمد: أمين عام الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وأول وزير للخارجية في عهد الاستقلال.

ولد يوم 11 أوت 1930 بمدينة ولاية تلمسان، درس المرحلة الثانوية بوهران، ودخل كلية الطب بمونبيليه الفرنسية، وهناك ساهم في نشاط الطلبة الجزائريين، وانتخب ضمن قيادة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في أوائل سنة 1956، أُلقي عليه القبض يوم 12 نوفمبر 1957 وهو طالب بجامعة مونبيليه، وبعد أسابيع من التعذيب نقل إلى سجن برباروس، وقد وجهت له تهمة القيام بنشاطات سياسية للمس بالأمن العام الفرنسي، أطلق سراحه بعد ستين ليوم إلى نضاله ويتم دراسته في الطب، انتقل إلى المغرب وعمل في فدرالية جبهة التحرير الوطني بقاعدة المغرب، عين عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة، وانتخب سكرتيرا عاما لرئيسها فارس عبد الرحمان، وبواسطته كانت قيادة الثورة تطلع على ما يجري من تطورات.

ساند ابن بلة، وقد شارك بعد أزمة صيف 1962 في انضمام الجزائر في هيئة الأمم المتحدة، عين نائبا في المجلس الاستشاري، ووزيرا للخارجية إلى غاية أفريل 1963، حيث اغتيل في ظروف غامضة<sup>(18)</sup>.

2- شريف بلقاسم: مناضل وسياسي محنك، تولى مسؤوليات قيادية في جيش الحدود الغربية وفي الحزب والدولة في عهد الرئيس هواري بومدين .

ولد عام 1930 وهاجرت به عائلته إلى المغرب، أتم دراسته الاكاديمية والثانوية بالدار البيضاء وانتسب لكلية الحقوق بالرباط، ولما اندلعت الثورة التحريرية التحق بصفوفها عام 1955، عين في البداية مسؤولا عن الطلبة الجزائريين في المغرب، ثم قائدًا على منطقة صبرة بتلمسان، وتولى في عام 1959م قيادة المنطقة الأولى من الولاية الخامسة (تلمسان). التحق بقيادة هيئة الأركان في وجدة، وكلفه بومدين بالإشراف على معسكرات التدريب والتأطير، عين عضوا في قيادة المنطقة الشمالية التي كلفت بدخول تراب الولاية الخامسة، وعشية الاستقلال ساهم في تجنيد قيادة الجيش وبعض السياسيين لدعم تحالف هيئة الأركان- بن بلة، وكان واحدا من مجموعة تلمسان.

عين بعد الاستقلال عضوا في المجلس التأسيسي ثم وزيرا للإرشاد القومي، شارك في انقلاب 19 جوان 1965م وعين عضوا في مجلس قيادة الثورة ووزيرا للمالية، كان مساعدا لبومدين في تطبيق سياسته الزراعية والصناعية، وفي عام 1975 حدثت اختلاف معه، غادر الجزائر ليعود بعد سنة 1988م لمراقبة الساحة السياسية، وقد توفي مؤخرا<sup>(19)</sup>.

3- رحال منصور: ضابط في جيش التحرير الوطني ومخابر بالولاية الأولى.

ولد عام 1938 بمدينة وجدة المغربية، من أسرة تعود في أصولها إلى ندرومة، نشأ في وجدة وبها درس، شارك في إضراب 19 ماي 1956 وهو طالب في الصف الثانوي والتحق بصفوف الثورة، فاختير ليكون ضمن الفوج الثاني الذي دخل مدرسة الناظور للاتصالات السلكية واللاسلكية، وبعد تخرجه في ماي 1957 نقل إلى تونس لمباشرة عمله.

في نهاية عام 1957 أرسل إلى ولاية الأوراس للعمل في ميدان الاتصالات، واستقر في المنطقة الثانية التي كان يقودها علي النمر، وقد بذل جهود كبيرة في ربط الاتصالات بين قيادة الولاية الأولى وقيادة الثورة في الخارج وتذليل كثير من الصعوبات، تعرف على كثير من قيادات الثورة، وكان شاهدا على كثير من الأحداث التي نقلها لنا في مؤلفه "الثوار" الصادر عام 2000، وخاصة ما تعلق بالصراع الذي شهدته الولاية الأولى وتصفية المشوشين، والصعوبات التي واجهها العقيد لخضر عبيدي، وانعكاسات خطة شال على ولاية الأوراس.

واصل تأدية مهامه إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية، وبعد الاستقلال فضل الابتعاد عن السياسة، أكمل دراسته وعمل في ميدان الهندسة المعمارية، وهو ما يزال على قيد الحياة<sup>(20)</sup>.

4- عبد العزيز بوتفليقة: قيادي بجيش الحدود وبالجبهة الجنوبية، ورئيس الجمهورية الجزائرية الحالي.

ولد سنة 1935 بمدينة وجدة المغربية من أسرة مهاجرة تعود أصولها إلى ندرومة، نشأ بوجدة في أسرة فقيرة، واصل تعليمه في معهد مولاي إدريس الثانوي.

التحق بصفوف الثورة عام 1956م في المغرب، وعمل ضابطا في الولاية الخامسة مكلفا بالنشاط السياسي، واختاره قائد الولاية هواري بومدين ليكون أمين سر الولاية ومساعدته في تسير شؤون الولاية، وانتقل معه للعمل في القيادة العامة للجيش بالحدود الغربية، كلفه قائد هيئة أركان الجيش في بداية عام 1960م بفتح جبهة جنوبية في أقصى الصحراء، فوفق في قيادة هذه الجبهة وإنجاح مهامها.

وفي ظل صراع هيئة الأركان مع الحكومة الجزائرية المؤقتة منذ جويلية 1961م تولى مسؤوليات حساسة منها خلافة الثلاثي المستقيل من هيئة الأركان، كان محل ثقة هواري بومدين وقد أدى له المهمات الحساسة، ومنها الاتصال بالزعماء الخمسة المعتقلين في فرنسا بقصد عقد التحالفات المستقبلية، وقد تحاور مع بوضياف وابن بلة ومال إلى كفة هذا الأخير.



بعد الاستقلال عين الرائد بوتفليقة عضوا في المجلس التأسيسي ووزيرا للشباب والرياضة، وتولى سنة 1963م وزارة الخارجية التي قضى على رأسها ستة عشر عاما، أزيح من قبل فريق الشاذلي بن جديد عام 1979م فهاجر خارج الوطن، عاد بعد عشرين سنة لينتخب رئيسا للجمهورية الجزائرية، وقد انتخب عام 2004 لعهدة ثانية، ولعهدة ثالثة في 2009م<sup>(21)</sup>.

5- رحال عبد اللطيف: من عائلة مناضلة، بدأ مشواره النضالي في صفوف أحباب البيان والحريّة ثم تحول إلى جمعية العلماء، وتأثر بالأفكار الثورية. كان طالبا عندما التحق بصفوف الثورة، وقد شغل العديد من المسؤوليات السياسية والعسكرية.

عشية وقف إطلاق النار عينته قيادة الثورة عضوا في الهيئة التنفيذية المكلفة بإدارة الشؤون الإدارية وتسليم السلطات. وبعد الاستقلال عين مديرا لديوان الرئيس بن بلة، وكلف بعدها بعدة مسؤوليات دبلوماسية، سفيرا وممثلا للجزائر في الهيئات الدولية، ثم تم تهميشه في عهد الشاذلي بن جديد. وكلف في عام 1991م بوزارة الداخلية، وعينه الرئيس بوتفليقة مستشارا سياسيا له.

6- الطاهر الزرهوني: ولد بندرومة، زاول تعليمه الابتدائي والمتوسط بالعتين، شب على مبادئ الوطنية، وتجدد مبكرا في صفوف الثورة الجزائرية، والتحق بعد الإضراب الطلابي بصفوف جيش التحرير الوطني، خاض العديد من المعارك وأصبح ضابطا في صفوف الجيش. بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة التعليم خلال سبعينيات القرن العشرين، ما يزال على قيد الحياة<sup>(22)</sup>.

7- يزيد زرهوني: ولد بندرومة، من اسرة محافظة وعلمية، درس بمسقط رأسه وبالمغرب، التحق مبكرا بصفوف الثورة وهو طالب، تلقى تكوينا في الاتصالات السلكية واللاسلكية، عين ضابط اتصالات، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة الداخلية.

\* رابعا: النخب النسوية: قامت المرأة التلمسانية بأدوار مختلفة إبان الثورة التحريرية، يمكن الوقوف عليها في قسمين، الأول خاص بالنضال في المدن والثاني بالنضال في الأرياف؛ ففي مدينة تلمسان ومراكزها الحضرية اعتمد العمل الفدائي على المرأة في تأدية مهام حيوية، منها وضع المتفجرات في مراكز العدو والملاهي والمقاهي التي يتردد عليها غلاة المستوطنين والحركة، ونقل

المعدات والأسلحة والوثائق السرية من مكان لآخر داخل المدينة وخارجها، وكذا جمع الاشتراكات وتوزيع النفقات على مستحقيها من أسر الشهداء، والقيام بالدعاية والتعبئة بين أوساط النساء.

وفي الأرياف كانت المرأة حاضنة أساسيا للغار، فهي توفر لهم المأوى، وتقدم لهم الأكل والمستجدات، وتجمع لهم المؤونة وتحضر لهم الأكل، وقد نهضت المرأة في مناطق تلمسان الاستراتيجية بأدوار مضاعفة، وذلك نتيجة للوجود المكثف لجيش التحرير الوطني وكثافة النشاط المسند لها كونها منطقة حدودية ومنطلق للنفوذ إلى باقي مناطق الولاية الخامسة.

وتؤكد لنا الشهادات أن عدد مهما من الفتيات المتفقات التحقنا بصفوف الثورة منذ اضراب الطلاب عام 1956م، وتلقين تكويننا سياسيا وعسكريا بمنطقة تلمسان وفي قاعدة وجدة، وعُدن إلى المنطقة الثانية (تلمسان ونواحيها) للمشاركة في صفوف جيش التحرير الوطني وبين أوساط المدنيين، ومنهن نذكر: حميلو مليحة، ورحال لطيفة، وحجاج مليكة، وأنيصة بركات، وجيلة مهدي، ووسعيدة نميش، وفتيحة بريكسي، وباية مرابط، وعويشة حاج مسعود... الخ.

وقد تحمل هؤلاء مسؤوليات شاقة ونهضوا بأدوار استراتيجية مدنية وعسكرية، وضربن أروع الأمثلة في الشجاعة والتضحية، فقد لاقت عويشة حاج سليمان الجندي الشجاعة الشهادة في ناحية مسردة عام 1957م، وتحملت زميلاتها مهام شاقة في مراقبة جيش التحرير الوطني والتمريض، وفي تنظيم النساء وتوجيههم وتثقيفهم ورعاية شؤونهم<sup>(23)</sup>.

وفيما يلي نعرف بنضال بعضهن:

1- بركات أنيسة درار: ولدت بندرومة، من عائلة عريقة مشهورة بالعلم، درست بتلمسان وبتانوية التعاليم بالعاصمة.

التحقت بالثورة التحريرية بعد إضراب الطلبة في ماي 1956م، وعملت بالمنطقة الثانية من الولاية الخامسة بعد أن تلقت تكوينا عسكريا ووطيا بقاعدة وجدة، نهضت بمهام عديدة كالتمريض والاتصالات والتعبئة في صفوف المواطنين، وأصبحت في إحدى الاشتباكات سنة 1957م بجروح بليغة. وبعد الاستقلال واصلت دراستها في الأدب العربي، وعملت أستاذة بجامعة الجزائر إلى جانب نشاطها في الكتابة الأدبية والتاريخية<sup>(24)</sup>.

2- حاج سليمان عائشة (فوزية): الشاهدة من مواليد تلمسان سنة 1940م، من أسرة محافظة استطاعت أن تواصل دراستها إلى غاية المرحلة الثانوية. وعندما أعلن إضراب الطلبة والثانويين في ماي 1956م التحقت رفقة زميلاتها في الثانوية الثعالية بالثورة التحريرية، كلفت بالعديد من المهام النضالية والتحقت في نهاية سنة 1956م بمركز جيش التحرير الوطني بوجدة، حيث تلقت تكوينا عسكريا وسياسيا واختصت في التمريض، وبعد تأهيلها أرسلت إلى المنطقة الثانية من الولاية الخامسة، حيث فُضت بالعديد من المهام منها إعداد التقارير الإدارية والإرشاد الاجتماعي، استشهدت في سبتمبر 1957م بالمنطقة الثانية ناحية مسيردة قرب ندرومة عندما حوصرت رفقة عدد من المجاهدين في إحدى المغارات ورفضت الاستسلام؛ فقام العدو بتفجير المغارة بمن فيها. عرفت بصمودها وإقدامها وبروحها الثورية العالية، وهي صفات بوأها مكانة هامة في أعين أفراد جيش التحرير وسكان المنطقة الثانية من الولاية الخامسة<sup>(25)</sup>.

3- عوالي ويسى: ولدت سنة 1938م بأولاد ميمون، استطاعت أن تواصل دراستها الثانوية بمدينة الجزائر، واثرا الاضراب الطلاي قررت الالتحاق بصوف الثورة، نقلت الى القاعدة الخلفية رقم 15 بوجدة، حيث تلقت تكوينا في المجال السياسي والطبي والعسكري، وأرسلت الى المنطقة الثانية في أكتوبر 1956م، ونقلت بعدها الى المنطقة الثالثة أو الرابعة، وأصبحت مراقبة ومحافظة سياسية تشرف على مراقبة الوضع في كامل المنطقة الثانية<sup>(26)</sup>.

4- فييحة رمعون (رشيدة): ولدت المجاهدة عام 1932م، واصلت تعليمها وتحصلت على شهادة التمريض، عملت في المستشفى العسكري الفرنسي بهران، قدمت الكثير من الخدمات لصالح الثورة، وفي سنة 1957م قررت الالتحاق بصوف جيش التحرير الوطني، فعملت في المنطقة الثانية من الولاية الخامسة حيث فُضت بعدة ادوار، ممرضة ومجاهدة وموجهة اجتماعية، انقضت عددا من المجاهدين بخبرتها ومهارتها في التمريض، كما شاركت في عدة معارك، ومنها معركة جبل فلاوسن ومعركة وادي السباع، التي عليها القبض بمنطقة السواحلية في أوت 1957م، تعرضت لصنوف التعذيب المختلفة لكنها صبرت ورفضت الاعتراف بنشاطات الثورة وأسراها في المنطقة، قام الجيش الفرنسي بتشويه جسد لها وإفقاد ذاكرتها ومثل بها بين السكان<sup>(27)</sup>.

5- نعيش سعيدة: السيدة غميش المدعوة سعيدة ممرضة ومجاهدة في جيش التحرير الوطني، ولدت عام 1936م، والتحق بصفوف الثورة وعمرها عشرون سنة، كانت تقوم بمعالجة المرضى والجرحى، شاركت في عدة معارك، وكانت مرافقة باستمرار للشهيدة فيحة رمعون بالمنطقة الثانية، ونجت بأعجوبة من الاعتقال عندما اعتقلت رفيقتها رمعون<sup>(28)</sup>.

6- باية مرابط (أمنية): من تلمسان، ولدت في حدود عام 1945م، تذكر أنيسة بركات أنها فرت من بيت أهلها يوم زفافها لتلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني عام 1957م، أوكلت لها مهمة علاج المرضى فقامت بواجبها على أكمل وجه<sup>(29)</sup>.

7- بريكسي فيحة (حورية): ولدت في حدود عام 1947م، التحقت بصفوف الثورة وهي طالبة بوهران، عملت ممرضة، حيث كانت تقوم بمعالجة المرضى، وقد عرفت باخلاصها في عملها وبوطنيتها الجامعة<sup>(30)</sup>.

8- هائلة مهدي: ولدت بأولاد ميمون عام 1936م، استطاعت أن تواصل دراستها وأن تصبح معلمة في المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، تلقت تكوينا في وجدة، وارسلت الى المنطقة الثانية أواخر عام 1956م، حيث عملت ممرضة بين صفوف المجاهدين والمدنيين بالمناطق الحدودية<sup>(31)</sup>.

9- ولد قابلية زيدة (صليحة): ولدت عام 1934م بمدينة طنجة المغربية، حيث كان والدها يعمل ضابطا في الدرك الفرنسي، تابعت دراستها الابتدائية بمعسكر مسقط رأس والدها، وواصلت تعليمها إلى أن تحصلت على شهادة البكالوريا، ثم التحقت بجامعة الجزائر للدراسة طب الأسنان.

نشطت في النضال الطلابي بجامعة الجزائر، وعملت على كسب تأييد الطلبة للثورة التحريرية، التحقت بالثورة إثر الإضراب الطلابي عام 1956م، وكلفت في المنطقة السادسة من الولاية الخامسة بالإشراف على المراكز الصحية وتكوين الممرضين، شاركت في العديد من المعارك، وقد كانت تعمل مساعدة لطبيب المنطقة السادسة الشهيد عبد الكريم دامرجي.

لقيت استشهادها في 19 سبتمبر 1958م رفقة ثلاثة مجاهدين، وذلك في كمين نصبه العدو في الطريق الرابط بين بني شقران وبوحيفية<sup>(32)</sup>.

- 10- جميل مليحة: من عائلة محافظة، تلقت تعليمها في تلمسان، والتحق بصوف الثورة في وجدة، تلقت تكوينا سياسيا وعسكريا، وكلفت بعدة مسؤوليات أدتها بشجاعة وإخلاص، سقطت شهيدة في معركة ضد العدو بنواحي تلمسان.
- وعلى ضوء ما سبق عرضه من نخب نضالية ساهمت بأدوار فاعلة في الحركة الوطنية وثورة التحرير نخلص لتسجيل ما يلي:
- ان منطقة تلمسان أنجبت كثيرا من المناضلين المخلصين، لعبوا أدوارا وطنية مختلفة في خلمة القضية الوطنية، وذلك منذ عهد محمد بن رحال في نهاية القرن التاسع عشر إلى مصالي الحاج زمن الحركة الوطنية وصولا إلى مرحلة الثورة التحريرية، حيث برز بن بلة وسي لطفى وأبرز قيادات الولاية الخامسة.
- إن مختلف التيارات والفئات ساهمت بفعالية في الحركة الوطنية وثورة التحرير، ومنهم القادة الثوريون الاستقلاليون، ورجال الإصلاح والعلماء والمثقفين، وفئة الطلاب والنساء، وكل هذا أسهم في ثراء مساهمة التلمسانيين في الحركة الوطنية وثورة التحرير.
- إن البطولات المسجلة والصفحات النضالية المشرقة هي عنوان فخر واعتزاز لسكان المنطقة يسجلها التاريخ وتذكرها اليوم، وفيها كثير من العبر والدروس عن استبسال نخب المنطقة في مواجهة الاستعمار والتضحية من أجل الاستقلال.

#### الهوامش والتعليقات:

1-MERAD ALI , Apercus sur l'enseignement des musulman en algerie 1880-1960, in confluent , n juin- juillet 1963, p 615

2- ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار البصائر، الجزائر، ص 224-226

3- للتوسع انظر Mohammed benamar djebbari, op cit, p p 36-46

4- معلومات استقيتها من تلاميذ الشيخ بنبرومة، ومنهم الشيخ يخلف البوعناني وبركات انيسة فرار، وهران، ديسمبر 2006، وكلنا محاضرة للدكتور انيسة بركات حول مدرسة التعليم الحر بنبرومة

5- انظر عنه محمد ساري: من يتذكر محمد مصايف، جريدة الشروق اليومي، عدد 370 (22 جاففي 2002)، ولوزي مصمودي: الاديب الناقد الدكتور محمد مصايف النرومي حياته واثارة، مداخلة في ملتقى ندرومة ونواحيها، الجمعية الموحدة.

6- انظر عنه جيلالي صاري: بروز النخبة للثقافة الجزائرية ، تر عمر المراجعي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2007، ص 219-240، وقد التقياه مرارا وسجنا شهادته في ديسمبر 2006 بوهرا.

7- نتمتع في ترجمته مذكراته، احمد ابن بلة، مذكرات أحمد ابن بلة، ترجمة الصيف الاخضر، دار الاداب ، بيروت، 1979،

8- Ahmed Bensadoun , Guerre de liberation, parcelle de verités de la wilaya 5 Oranie, Editions EL BOUSTANE Teemcen , 2006, p p171.J177

- 9- معلومات جمعها من شهادة الجهاد الطاهر الزرهوني، مقابلة شخصية، ندرومة، 24 مارس 2001
- 10- انظر حوار معه أجريته مجلة الراصد، يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، عدد 3، (2002)
- 11- انظر عنه عبد القادر جلال: العقيد بن حلو يوحى المذبح "سي عثمان" 1927-1977، مجلة عصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، عدد 1، 2002، ص 86-88
- 12- مقالتي عبدالله: قفوس أعلام شهداء وإبطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص - ص 346-347
- 13- مقالتي عبدالله: المرجع نفسه، ص 523
- 14- معلومات جمعها من أرشيف الثورة الجزائرية، بئر خادم، الجزائر،
- 15- للتفصيل انظر عنه حوار أجراه معه محمد عباس، محمد عباس: خصومات تاريخية، دار هومة، الجزائر، 2010، ص - ص 303-316
- 16- انظر اشارت متفرقة عنه في ، Ahmed Bensadoun op cit , p 171- 177
- 17- مقالتي عبدالله: المرجع السابق، ص 194
- 18- غاشور شرقي: قفوس الثورة الجزائرية، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 159-160
- 19- مقالتي عبدالله: المرجع السابق، ص 333-334
- 20- RAHAL (mansour ) .les maquisads ( pages du maquis des aurès durant la guerre de libération , Alger , auto-edition, impr .echourouq, 2000, 446 p.
- 21- مقالتي عبدالله: المرجع السابق، ص 119-120
- 22- مقابلة شخصية مع الطاهر الزرهوني، ندرومة، 24 مارس 2011
- 23- أتيمة بركات درار: المصدر السابق، ص 42-43
- 24- شهادة قلمها المجاهدة للباحث في عدة مقابلات جمعا
- 25- مقالتي عبدالله: قفوس أعلام شهداء وإبطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص 212-213
- 26- أتيمة بركات : المصدر السابق، ص 42
- 27- مقالتي عبدالله: المرجع السابق، ص 298
- 28- أتيمة بركات : المصدر السابق، ص 45
- 29- المصدر نفسه، ص 45
- 30- أتيمة بركات : المصدر السابق، ص 45
- 31- أتيمة بركات درار: المصدر السابق، ص 42
- 32- مقالتي عبدالله: المرجع السابق، ص - ص 537-538

## الشيخ عبد القادر المجاوي التلمساني

1264-1332هـ/1848-1914م.

~~~~~ أ. حسني بليل \*

مقدمة: إن العالم الذي خصصنا له هذه الترجمة هو الذي قالت في التوبة بشأنه مجلة الشهاب عند تقريبها لكتاب الجزائر للأستاذ توفيق المدني: "إن الكتاب وُضع على الاختصار فما كنا لنطالب مؤلفه باستقصاء جميع الرجال، ولكنه سكت عن أفراد لا تكمل الصورة التاريخية إلا بهم، منهم العلامة الأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله هذا الرجل هو أبو النهضة العلمية بقسنطينة، وهو شيخ الناس بجميع عمالتها، عليه تخرّج القضاة ورجال المحاكم والتدريس والفتوى فلا تجد واحدا من هؤلاء إلا وهو من تلامذته، ولو كان هذا الرجل من أمة عالمة لأحييت ذكره في كل مناسبة..."<sup>1</sup>.

لقد كان من الشخصيات الوطنية التي ساهمت كثيرا في النهضة العلمية الجزائرية الحديثة، ولقد حاول جاهدا مستغلا ثقافته وإطلاعه الواسع لإخراج الأمة من براثن الجهالة إلى نور العلم، والحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ضد الممارسات التعسفية للاستعمار الفرنسي، ونظرا لاهتمام فحول علماء الجزائر بالشيخ المجاوي، فقد اخترت أن يكون موضوعي هو إبراز بعض الجوانب من سيرته الذاتية، وفقا للمحاور التالية:

اخور الأول: شخصيته: هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عيسى بن داوود بن أبي حناش بن حليلش بن علي بن محمد بن عبد الجليل المشهور بالمجاوي عالم الجزائر ومدرسها وخطيبها، وهو من البيوتات العلمية في تلمسان، فقد كان والده عبد الله بن محمد فقيه تلمسان الكبير، وقاضيا لمدة ربع قرن من الزمن، ورائد العلماء المرّسين في عصره، وعمه كذلك، وجده من العلماء الأعيان بتلمسان، وكذا سائر أصوله إلى عبد

\* - أستاذ العلوم الإسلامية - ثانوية الشيخ عبد القادر الياجوري - وهران.

الجليل، ومن هذه الأسرة الكريمة حفلة المولى عبد الجليل العلامة الأجل الشريف المجلد الشيخ شعيب بن علي قاضي محروسة تلمسان كان تغمده الله برحمته الواسعة آمين.

وقال القاضي حشلاف والجامع لهذه الفروع الكريمة الطيبة المباركة هو السيد عبد الجليل بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عبد السلام بن أيوب بن أحمد بن محمد بن مولانا إدريس بافي فاس ودفنها بن مولانا إدريس دفين زرهون بن مولانا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولانا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>2</sup>، ولد في تلمسان سنة 1266هـ/1848م، وبها قرأ القرآن، وأتم قراءته بمدينة طنجة حيث تقلد والده خطة القضاء بها.

الخوارج الثاني: حياته العلمية:

شيوخه وأساتذته:

I- شيوخه في القرآن الكريم: بدأ الشيخ عبد القادر المجاوي طلب العلم منذ صباه، شأنه شأن الصبيان المتميزين، قرأ القرآن بتلمسان، ثم هاجر والده إلى المغرب الأقصى، وتولى التدريس في جامعة القرويين، ثم تقلد خطة القضاء بطنجة، لما خرج إليها من فاس سنة (1262هـ/1857م)، فأتم قراءته بأحد كتاتيب طنجة، وهو لم يبلغ بعد سن التمييز فحفظ القرآن الكريم وجوده، ثم بعثه والده إلى تيطوان لمابعة دروسه الابتدائية والثانوية، وقد أثر والده تيطوان على طنجة نظرا للمحيط الذي اختاره وأودعه إنه ليكون في مأمن عليه من الناحية الأخلاقية لأن محيط تيطوان، وهي قاعدة بلاد الريف يختلف عن محيط طنجة التي كانت يومئذ مقر أوزاع من الناس وكان في الريف علماء صالحون يولون التعليم الابتدائي والثانوي في مساجدها، فأخذ مبادئ العلوم على علمائها الشيخ مفضل أفيال العلمي، والشيخ أحمد النجار، والشيخ الطيب يعقوبي<sup>3</sup>.

II- شيوخه وأساتذته في العلم:

- شيخ الجماعة بفاس في وقته، وفريد أهل زمانه وعصره، المبرز على جميع أقرانه من أهل عصره، العلامة المحقق، المحدث، المشارك المدقق المسن البركة أبو العباس أحمد بن أحمد بناني المعروف أو المدعو بـ: كلا، توفي 8 جمادى الأولى عام 1306م<sup>4</sup>.



- أبو عبد الله محمد الصديق بن الهاشمي العلوي: الشريف الجليل ، الماجد الأصيل ، الفقيه النوازلي ، المحدث ، الإمام ، البركة ، الصالح ، قاضي مدغرة ثم فاس<sup>5</sup>.
- محمد قنون (كنون): خاتمة المحققين، وحامل راية المدققين، أعجوبة أهل زمانه، وفريد عصره وأوانه، العالم العلامة، القدوة الفهامة، المشارك في كثير من القنون، أبو عبد الله الحاج محمد بن الحاج المديني قنون (كنون) صاحب اختصار حاشية الهوي، والدرر المكنونة في النسب الشريفة المصونة، وغيرهما<sup>6</sup>.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري: الفقيه العالم العلامة الأديب الدراكة اللوذعي الأريب ، خطيب جامع الأندلس بفاس، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن سودة المري، كان رحمه الله ممن له الباع الكبير في علم النحو ، وإليه فيه المصير، توفي أواخر ذي القعدة عام 1299هـ<sup>7</sup>.
- أبو محمد جعفر بن إدريس الكتاني الحسني الفاسي الإمام الفقيه الورع الناسك، الواعظ الدال على الله بحاله ومقاله، كان ناشرا للعلم، متحررا في دينه، متقشفا في عيشه، عاكفا على نفع الخلق، عالم بالتراجم، كثير التصنيف، له الشرب المختصر، وفتاوى، وغيرهما، توفي 1323هـ/1905م<sup>8</sup>.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن حملون بن الحاج: العلامة المحقق المشارك المدقق المسن البركة الأسعد المؤرخ الضابط الأجد، كان فقيها عالما أدبيا، ذا مروءة واستبصار ومعرفة بنوادر التاريخ والأخبار، له حاشية على المكودي في شرح الألفية، وحاشية على الأزهري على الأجرومية وغيرهما، توفي في 27 من ذي الحجة سنة 1316م<sup>9</sup>.
- الشيخ الحاج أبو العباس أحمد بن الطالب السوداني المري: شهاب العلم، وقبس التحصيل والفهم، بقية السلف وزينة الخلف، شيخ الجماعة بالمغرب، بحر العلوم العقلية والنقلية الزاخر وفلكها الدائر، له عدة تأليف فقهية حديثة، ولد سنة 1241م، وتوفي سنة 1321م بفاس، توسع في ترجمته عبد الرحمن بن زيدان في مؤلفه إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس<sup>10</sup>.
- الشيخ الحاج الصالح الشاوي.
- الشيخ مولاي أحمد العراقي الحسني الخطيب بجامع مولاي إدريس<sup>11</sup>.

- الشيخ أبو عيسى مهدي بن الفقيه العلامة محمد بن حملون بن الحاج: الفقيه العلامة المشارك، الحافظ الصوفي، كان رحمه الله متواضعا خاشعا، انتفع به خلق كثير، وتخرج به كثير من العلماء المدرسين، توفي سنة 1290هـ.

تلامذته: تخرج عليه كثير من العلماء والقضاة والمدرسين والأئمة والأدباء، ولهذه السمة التي امتاز بها أطلق عليه شيخ الجماعة في القطر الجزائري، ومن جملة هؤلاء التلاميذ:

- حمدان بن أحمد الونيسي: هو العلامة المدرس الفقيه المحدث المصلح من علماء قسنطينة، ولد بقسنطينة سنة 1856م، وحضر دروس الشيخ عبد القادر المجاوي، ثم ما لبث أن صار زميلا له في التدريس لأنه يقاربه سنا، عين مدرسا بالجامع الكبير بقسنطينة في يناير 1881م، درس النحو والحساب والأدب العربي والفقه والتوحيد، وأبعد عن سلك التعليم سنة 1910م بعد 30 سنة من العمل لأسباب غير معروفة، قد تكون من مكائد المستعمر الفرنسي؛ فهاجر حمدان الونيسي إلى الحجاز، واستقر بالمدينة المنورة، وظل مدرسا للحديث النبوي بها إلى حين وفاته سنة 1920م، وقد قال عنه الأستاذ أحمد لطفي السيد عند أدائه فريضة الحج سنة 1911م: "... أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الأستاذ الكبير الشيخ حمدان الونيسي مدرس الحديث والبيان بالحرم النبوي الشريف". قرأ عليه العربي التبائي تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل. وأكثر ما حفظ ذكره للناس هو تلميذه الإمام عبد الحميد بن باديس عليه، ومن مؤلفاته القول الحنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف<sup>13</sup>.

2- الشيخ محمود بن دالي المشهور بكحول (1872م-1936م): أخذ عن الشيخ المجاوي سمعا في مساجد قسنطينة وتخرج عليه، درس في سينيدي مسيد- المدرسة الفرنسية الابتدائية- اشتغل محررا في جريدة المبشر بالعاصمة، ولما أسست إدارة جوناو جريدة "كوكب إفريقيا" سنة 1907م عهدت إليه بإدارة تحريرها، ثم أسس مع لويس بودي "التقويم الجزائري"، التي صلحت سنوات 1911-1912 و1913م، ولو استمر لكان أكبر موسوعة لأعلام الجزائر، وكانت تصدر من ميزانية الإدارة، وتحت إشرافها ثم تولى الشيخ بعد ذلك التدريس في المدرسة الشرعية الفرنسية بالعاصمة، وعُهد إليه بالإمامة والفتوى بالجامع الكبير في الجزائر العاصمة، وكرّمته فرنسا بوسام جوقة الشرف الفرنسي، ثم تولى بعد ذلك التدريس في المدرسة الثعالبية، وعُهد إليه بالإمامة

والفتوى، اغتيل في سنة 1936م، واتهمت السلطات الفرنسية الشيخ الطيب العقبي بقتله واعتقلته من أجل ذلك<sup>14</sup>.

3- مولود بن الموهوب (1866م- 1939م): هو من أكثر تلاميذ الشيخ شهرة، فهو فقيه ومفت وخطيب وشاعر ونائر، أخذ عنه في المدرسة الشرعية الفرنسية بقسنطينة، ولما تخرج منها صار زميلا له في التدريس، وعاصر أحداثا هامة في قسنطينة، فتأثر بها بروز بوادر حركة الإصلاح، والنهضة الوطنية، وساهم فيها بحظ وافر، وما منظوته المسماة بمنظومة البدع، التي وضع عليها شيخه الجاوي شرحا قيما إلا دليل على ذلك، وهي منظومة في محاربة البدع التي انتشرت آنذاك، بوحى من فرنسا، ثم عين مدرسا بالمدرسة الكاثانية سنة 1895م، فمفتيا عاما لقسنطينة سنة 1908م، وفي سنة 1926م عُيِّن مفتياً في مسجد باريس، ولم يغادره إلى أن قضى إلى ربه ومواهب الشيخ ابن الموهوب جعلته يتقلد مناصب هامة وعديدة، فهو بالإضافة إلى التدريس والفتوى، كان يتولى الخطابة بالجمع الكبير، ويسهر على المساجد، وأوقافها في ولاية قسنطينة، ورئاسة الجمعية الخيرية، محاولا قدر المستطاع أن لا يضيع مصالح قومه وأمنه ودينه، وأن لا يغضب سلطة المحتل، وساهم بشكل لافت في تفعيل الحركة الأدبية بنشر المقالات في الجرائد والمجلات، فهو من أسس نادي صالح باي سنة 1907م، وشرح بعض أعمال شيخه الجاوي<sup>15</sup>.

4- أحمد مرزوق بن سعيد الحبياتي: هو أحد أهم أئمة وفقهاء مدينة قسنطينة في عصر النهضة الفكرية، ولد سنة 1284هـ/1867م في منطقة بني حبيبي بولاية جيجل شرق الجزائر، حفظ القرآن في سن مبكرة على يد مشايخ منطقته، وتلقى أولى مبادئ اللغة العربية والفقه، ثم انتقل بعد ذلك إلى قسنطينة لإكمال تعليمه، فكان له ذلك، حيث تلمذ على يد أهم فقهاء مدينة وهو الشيخ عبد القادر الجاوي التلمساني، استقر الشيخ أحمد الحبياتي في مدينة قسنطينة أين كان يؤم الناس ويلرس القرآن الكريم والفقه في كثير من المساجد كجامع سيدي عيد المؤمن في حي السويقة، هذا وقد حظي في زمانه بمكانة واحترام كبيرين بين سكان مدينة قسنطينة والشرق الجزائري كله، فكان يعتبر أهم ملجأ للناس يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، وكان على ذلك حتى وافته منيته في العاشر من شهر محرم سنة 1355هـ الموافق للفتاح أبريل سنة 1936م، كان للشيخ أحمد الحبياتي الفضل في تكوين جيل من الفقهاء والعلماء ممن ساهموا في توجيه الأمة كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم أن الاستعمار الفرنسي حاول كثيرا إثارة الفتنة وتدمير

المكائد بين الشيخ وبعض أعضاء الجمعية، وبخاصة عبد الحميد بن باديس، حيث أقيم الأخير بالتخطيط لمحاولة اغتيال الشيخ الحبياتي، لكن الجميع تخطوا وتيقنوا أن ذلك كان من كيد المستعمر للنيل من مكانة ابن باديس وعمله الإصلاحية، تخرج عليه من المدرسة الكتانية إماما ومدرسا وهو من صلى على رفيقه الشيخ كحول بقسنطينة لما اغتيل سنة 1936م<sup>16</sup>.

5- الشيخ عبد الله الدراجي: الذي كان يدرس بجامع محمد الشريف بحي القصبة، فإلازمه مدة ثلاث سنوات، وأكرمه الله يومئذ بأن أخذ عنه شرح "ألفية ابن مالك" في النحو، و"شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني"<sup>17</sup>.

اخور الثالث: رحلاته: بالنسبة لرحلاته خارج الوطن فلا نجد في المصادر المتاحة والمراجع المتداولة كتحريف الخلف والنهضة لدبوز، أو تاريخ الجزائر الثقافي في أجزائها كلها أو التكوين الجزائري 1911م... إلخ إلا إشارات طفيفة حول رحلته التعليمية الأولى إلى طنجة وتطوان وفاس، أما في المشرق العربي أو الدول الأوربية فلا نكاد نجد أثرا مع أن بعض مؤلفاته طبعت في تونس بالمطبعة الدولية التونسية وذلك سنة 1314هـ وفي مصر سنة 1294م، ولعل الإجابة عن هذا السؤال في مؤلفاته المخطوطة التي استحوذ عليها بعض الأفراد، والتي كان بإمكانها أن تبررنا في هذا الصدد، وربما نثر عليها يبقى السؤال مطروحا، أما التخمين والظن والاعتقاد بلون أدلة يقينية موصلة للمطلوب فهذا مستبعد في مجال المناقب لأنها وقائع، ولا بد أن يكون المستند فيها إلى وثيقة تريل اللثام عن مخدرات الأفهام، ولو تمكنا من الإطلاع على الأرشيف الفرنسي لزال الإشكال.

أما داخل التراب الوطني فقد زار يقينا عدة أماكن وعلى رأسها تلمسان ووهران ومازونة وغيرها، وكان الهدف منها استقراء أحوال البلاد، وتوثيق الصلة بينه وبين مشايخ هذه المناطق، ثم السعي للبحث للحصول على المخطوطات النفيسة، وقد ظفر بمكتبة ثرية إما شراء أو إهداء، وقد آلت بعد موته إلى نجله الفاضل الأجل العلامة المجل الشيخ مصطفى بن عبد القادر انجاوي قاضي محكمة البروقية، ثم آلت بعد وفاته إلى وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وبعضها الآخر إلى أفراد.

الخور الرابع: تأثيره وتأثيره: كان الشيخ متأثراً بالشيخ العلامة محمد عبده الذي كانت له زيارة للجزائر العاصمة وقسنطينة، وكان الشيخ يحمل نفس الهموم التي يحملها محمد عبده، وكانت مقالات الشيخ المجاوي في الصحف تنصب في نفس المنحى.

ومن تأثروا بالشيخ نفسه تلاميذه عامة، وبالأخص تلميذه المولود ابن الموهوب، فقد قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "انتشرت دعوته التي تبناها في قسنطينة بالذات تلميذه المولود بن الموهوب ثم الشيخ عبد الحميد ابن باديس...".

الخور الخامس: مميزاته ومشاركته في المعارف: من خلال متابعتي لأعماله المطبوع منها والمخطوط، وما سمعته به من عرفه استطعت أن أجمع جملة من المميزات كان الشيخ المجاوي يتصف بها: فهو العلامة الجليل والخبير الأصيل، الأديب المدرس الشهير، المفسر، الفقيه، الخبير الملم، ذؤابة العلماء الأعلام، أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة، حيث كان يتميز بقدرة فائقة في مجال التحصيل، حيث أن كل كتاب يقرؤه لا يعيد قراءته، وكان يرى أن مآل الأمور تتغير إن أخذنا بالجانب الأخلاقي...، ومن كلام الشيخ المجاوي في هذا الضند: "ما كثر الفساد في أمة إلا بعلم الترية، فإننا نرى الأولاد مهملين يتعلمون الفساد، وإننا نرى الأمم الحية إنما حصل لها الرقي بتربية أولادهم، وتعليمهم العلوم النافعة والمعرفة المفيدة..."، وما امتاز به أيضا عن بقية مشايخ وقته أنه كان يتأجج غيظا وحنقا وعداوة للاستعمار الفرنسي الذي يحتل وطنه الجزائر ويأخذ بخناقها، وكان يوقن بأن العدو الذي قيد الجزائر للاستعمار إنما هو الجهل وضعف الأخلاق بضعف الدين، وما ساد في المجتمع الجزائري والمغربي من خرافات وعقائد باطلة تساعد الاستعمار على الإمعان في دوس كرامة البلاد وأهلها بأقدامه الوسخة ونعاله القنصرة، آمن بأن الوسيلة لنهوض الجزائر والوصول إلى استقلالها إنما هي الترية والتعليم، والتربية الدينية العريضة الصحيحة التي تخلق الأجيال الصالحة التي تكسر أغلال الاستعمار وتكسبه إلى البحر، واللواء الناجع الثاني هو إصلاح المجتمع والقضاء على العvisية المنهية والجنسية التي زرعها الجهل وأنعشها الاستعمار، وكان الشيخ عبد القادر معتدا بدينه وبنفسه وبشخصيته الجزائرية الإسلامية كل الاعتداد، ترى ذلك في ملامحه وتقرؤه في أخباره وتلمسه في مؤلفاته، وما امتاز به أيضا غيرته على الدين والعربية.

كان غيورا على الدين الإسلامي واللغة العربية، ويدافع عنهما بالحجة البالغة والبراهين المقنعة، ويرد دعوى من يجرؤ على مسهما بسوء أو يحاول أن يحوم حول حماهما بالشبهات الباطلة، ولقد كان شجاعا صريحا، قوي الحجة، حاضر البرهان، لا يهاب ولا يخاف، وكان يجادل المستشرقين المتكبرين فيحجلهم ويفحمهم، ويظهر لهم جهلهم بالإسلام والعربية، كما يبين للعامة في دروسه دسائس المبشرين وكيدهم للإسلام والمسلمين، وكان حربا على البدع والخرافات التي انتشرت في المجتمع، وألف فيها كتابا سماه "اللمع في إنكار البدع"، وهو شرح لقصيدة تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب، وكانت ولاية قسنطينة أكثر استعدادا لقبول الإصلاحات والنهضة العلمية التي كان الشيخ المجاوي يسعى إليها، وهذا هو سبب مجيئه إليها وعمره يومئذ نحو اثنين وعشرين عاما<sup>18</sup>.

اخبر السادس: نشاطه وأعماله العلمية: بدأ الشيخ المجاوي حياته التعليمية بالتدريس في مساجد قسنطينة متطوعا منذ سنة 1870م، درس خلالها مختلف الفنون من نحو وصرف وبلاغة وفلك وتفسير وحديث، ونتيجة لذلك طارت شهرته وملأت آفاق قسنطينة وما جاورها، وكان حوله بهذه المدينة في هذه الفترة الحرجة من تاريخها بصفة خاصة وتاريخ الجزائر بصفة عامة، بمثابة نسمة الخير والبركة التي هبت من جهة الغرب عليها<sup>19</sup>.

- في سنة 1873م عينته الحكومة الفرنسية مئرساً في قسنطينة بـ "جامع سيدي الكناي"

- وفي سنة 1877م تمت ترقية، فعين أستاذا بالمدرسة الشرعية بقسنطينة المخصصة لتخريج قضاة الأحوال الشخصية والموقنين والأساتذة.

- لم ينتطع عن التدريس الحرّ في المساجد والخطابة فيها، فكأنما خلق ليكون مئرساً، فهو ممن كان يرى أنّ النهضة لا تكون إلّا بالتعلّم، وأنّ الجهود الإصلاحية لا تأت من فراغ، واستمر عطاؤه العلمي فيها- تدريساً وتأليفاً - إلى غاية سنة 1898م.

- في سنة 1898م نقل إلى الجزائر العاصمة؛ فانتسب إلى المدرسة العربية بشارع السفراء بباب الوادي، مدرساً لقنن العربية<sup>20</sup>.

- رقي إلى التدريس بـ "مدرسة الجزائر العليا" أو المدرسة العالية، التي بنيت بمرسوم من الحاكم العام للجزائر شارل جونا (1902-1912م)، والتي افتتحت للتدريس سنة 1905م.

- في 1908 مُنِحَ الإمامة والحِطَابَة بِـ "جامع سيدي رمضان"<sup>21</sup>.

المحور السابع: إجازاته العلمية: كان التعليم العالي في جامعة القرويين، وهي يومئذ في أوج ازدهارها واشتهارها، وفيها علماء أجلة مخلصون من تلامذة الشيخ محمد الجاوي والد المترجم له، ودخل عبد القادر جامعة القرويين فرجد بغيته وبخاصة في فنون العربية التي كان يجيها، ودرس فيها التفسير والحديث ومصطلحه والفقه وأصوله، والقرائن والمنطق والحساب والفلك، والتاريخ والتصوف، والنحو والصرف والبلاغة والأدب وعلم العروض، وتخصص في هذه العلوم، وأجازته شيوخه فيها بأسانيد متصلة بالكب المتداولة عندهم، وإسناده كإسناد الحجوي صاحب مختصر العروة الوثقى مع اختلاف في بعض المشايخ، والقادري صاحب إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية، وغيرها من الفهارس المغربية، ولولا خشية الإطالة لأوصلت جميع الكتب التي تلقاها عن شيوخه إلى مؤلفيها بسند متصل خال من كل شنوذ، أو علة قاذحة تسوجب نبذه.

#### المحور الثامن: مؤلفاته:

- مؤلفاته المطبوعة: لم يؤلف الشيخ الجاوي على الرغم من تمكنه من علوم مختلفة إلا بعد أن مارسها تدريساً لمدة عقد كامل من الزمن، في مساجد قسنطينة تدرّساً حرّاً، ثم في مسجد الكثاني ومدرستها الشرعية لما عينته سلطة المختلّ، حينما ذاع صيته وطارت شهرته في قسنطينة وما جاورها من المدن القريبة، ولاقت هذه المؤلفات قبولا واسعا ورواجا لدى طلاب العلم، وبالمقابل أحدثت زلزالا عنيفا في صفوف العلّو ومن يلور في فلكه، وقد طبعت جلّ هذه المؤلفات، ولا تزال بعض نسخ مخطوطاتها محفوظة، ونشير إليها في الحديث عن كل مؤلف منها، وتنوعت مواضيعها بحسب فنون العلم التي كان يدرّسها، وبحسب ما كانت تقتضيه ظروف الجزائر العامّة في ذلك الوقت، وسنبداً الحديث عنها بالتسلسل الزمني لتأليفها:

- إرشاد المعلمين: هي من أوائل رسائله تأليفاً، وقد قسم مباحثها إلى مقلّمة وأربعة فصول وخاتمة، وبين سبب تأليفها بقوله: "...ولقد ساعني ما رأيت في هذا الزمان من فساد المعلمين والمعلمين حتى أن أهل قنطرة من إخواننا المسلمين القسنطينيين والجزائريين والوهرانيين قد تراكم عليهم الجهل... وسبب ذلك هو علم اعتنائهم بالعلوم التي بها تهذيب أخلاقهم وإصلاح منطقتهم... قال عنها الأستاذ القماري: "هي رسالة كثيرة الفائدة في وقته، دعا فيها إلى الإصلاح

الاجتماعي بنقده للتقليد، كما دعا مواطنيه والمسلمين عامة إلى نبذ الركود، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة...<sup>22</sup>.

- المرصاد في مسائل الاقتصاد: بعد اللياجة المعتادة عند الأقدمين، نوّه بموضوع الكتاب فقال ما نصه: "... فإنه لما دلت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة النبوية على أن الله خلق هذا العالم للعمارة، وهي تتوقف على تنظيمات اقتصادية وافرة، وقوانين يصار إليها في المعيشة الدنيوية، وكان هذا العلم مفرقا في بطون الكتب والتواوين السامية؛ فصعب لأجل ذلك الإطلاع على قواعده واقطاف أزهاره وفوائده، ظهر لنا أن نجمع تلك القواعد لتكون على خير فوائد؛ فشرعنا في ذلك بعد الاستشارة وتكرار الاستشارة؛ فانشرح الصر لذلك، وإن كنا لسنا أهلا لنسلك تلك المسالك، وجعلناه مشتتلا على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، وسميناه "المرصاد في مسائل الاقتصاد"، والله العليم متوسلين إليه سبحانه بنينا الصادق الأمين"، وقد قسم مباحث الكتاب إلى أربعة أبواب وخاتمة<sup>23</sup>.

- شرح على المنظومة المرضية في المسائل النجومية للإمام ابن غازي: جاء في استهلال الشرح بعد البسملة والصلاة على سيدنا محمد وسلم ما نصه: "تحمّدُ مَنْ زَيْنَ السَّمَاءِ السُّنْبِيَّ بالكواكبِ والنُّجُومِ، الخالقِ البارئِ الحيِّ القيومِ، والصَّلَاةَ والسَّلَامَ على قُطْبِ دَائِرَةِ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي مَنْ اتَّبَعَ طَرِيقَهُ فَقَدْ اتَّبَعَ خَيْرَ السُّبُلِ، وَآلَهُ الطَّيِّبِينَ الْبَرَّةَ، وَأَصْحَابِهِ الْمُتَخَسِّينَ الْخَيْرَةَ، وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِ التَّابِعِينَ، وَجَمِيعَ أُمَّتِهِ الْمُتَّقِينَ، وبعد؛ فيقولُ العبدُ القاني عبد القادر الجاوي الحسني: إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي أَنْ أَشْرَحَ هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ الْمَخْصُورَةَ الْمُحْتَوِيَةَ عَلَى مَعْرِفَةِ دُخُولِ الْمَنَازِلِ وَالْأَبْرَاجِ الْفَلَكيَّةِ، لِنَاطِمِهَا الْعَلَمَاءِ ابنِ غَازِي قَلَسَ اللهُ سِرَّهُ قَاصِدًا بِذَلِكَ نَفْعَ الْعِبَادِ، وَاللهُ الْمُوقِفُ لِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَالسُّدَادُ، وَآخِرُهَا كَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَبْيِضِ هَذِهِ الرَّسَالَةِ فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَعْبَانَ الْمُعْظَمِ سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ بَعْدَ الْأَلْفِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ<sup>24</sup>.

- الذَّرَرُ النُّجُومِيَّةُ عَلَى الْمَنْظُومَةِ الشُّبْرَاوِيَّةِ: جاء في مقلمتها بعد البسملة والصلاة على سيدنا محمد وسلم ما نصه: "وبعد فيقول المعترف بالذنوب والمسأوي عبد القادر بن عبد الله الجاوي هذه كلمات قليلة محتوية على فوائد جلية لمنظومة العلامة الكامل الشيخ الشبراوي صاحب الفضائل... وآخرها وكان تمام جمع هذا الشرح المفيد ليلة الجمعة التاسع عشر من صفر الخير سنة 1296...<sup>25</sup>.



- شرح جبل الخونجي: وهو مختصر في المنطق، وكان الفراغ من تأليفه في 29 رجب سنة 1295هـ، صفحاته: 9 ورقات ضمن مجموع تحت رقم 650، بخط مغربي مقروء، وهو موجود بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث.

- كشف اللثام في شرح شواهد ابن هشام: أوله نحمد من شهد بوجوده وقدمه الفقار الكائنات، وآخره انتهى بحمد الله وعونه الشرح المبارك الجليل أحسن الله إلى من ألفه، وأطال حياته ببلوغ أملة على يد كاتبه ومتممه من عدد خمسة وعشرين من أوراقه عبد الواحد المانح الراجي منه العفو في الدارين ابن العتري مصطفى بن محمد الصالح في شعبان المبارك سنة 1295هـ، وهو كتاب قيم في المجال الأدبي والنحوي والبلاغي، شرح فيه كل الشواهد الشعرية التي تطرق لها صاحب قطر الندى وبل الصدى، وهو الإمام النحوي ابن هشام الأنصاري- رحمه الله- فشرحها الشيخ أبيهما شرحا لغويا، وإعرابا مع التطرق إلى الجانب البلاغي في الآيات المستشهد بها، وترجم للأعلام الوارد ذكرهم في القطر، وهذا دليل على تمكنه من فن التراجم.

- نزهة الطرف فيما يتعلق بمعاني والصرف: وهو شرح لطيف مختصر على متن البناء في الصرف أوله نحمد من بيده تصريف الأفعال، وآخره وكان الفراغ من تبييض هذه العجالة ليلة الإثنين الثاني والعشرين من أول الربيعين الأبركين عام 1298هـ...<sup>26</sup>.

- شرح منظومة الإمام المتزلي في آداب المريدين: وهو شرح لمنظومة محمد المتزلي التونسي القادري في التصوف، والمتزلي قادري الطريقة، وشرح الشيخ يدل على تمكنه من مصطلحات القوم، ولولا ممارسته لهذا الفن لما استطاع أن يدلي بدلوه في هذا المجال، وبخاصة أن الجانب التصوفي كان مستحكما في معظم زوايا القطر الجزائري، وما ذكره شيخ المؤرخين في قطرنا من أنه ربما كتبه من أجل أصهاره- عائلة الأمير عبد القادر- القادرين فيه نظر، ولعل أحد الباحثين في المجال التصوفي ممن تقوم همته ببحث أكاديمي يزيل الإشكال، ويدفع الإيهام، في هذا الموضوع بعينه<sup>27</sup>.

- الدرر البهية على اللامية الجرادية: طبع بالمطبعة الحجرية مطبعة جوردان بالجزائر، توجد منها نسخة بمصلحة الثقافة والتراث بوزارة الشؤون الدينية تحت رقم 464، وجاء فيها وكان الفراغ من الشرح المبارك عشية يوم عرفة من ذي الحجة الحرام عام 1320هـ، وعدد أوراقها 63 صفحة من الحجم المتوسط، كتبت بخط مغربي يمكن قراءته، وقد ذكر الأستاذ المؤرخ أبو القاسم سعد

الله في تاريخه أن هذه اللامية في الجمل اهتم بها العلماء والمدرسون في قسنطينة، وألف فيها الشيخ ابن الفكون شرحاً، غير أنه يرى بأن الشيخ الجاوي خير من انبرى لها شرحاً وتدريساً، لما له من فهم وخبرة في التدريس، فأفاد طلبة العلم وأثرى به المكتبة وبغيره من المؤلفات المختلفة.

- الفريدة السنية في الأعمال الجيبية: وهو كتاب موجه إلى التلاميذ، طبع على نفقة الإدارة سنة (1320هـ/1903م)، وهي رسالة في 85 صفحة، جعلها في مقدمة وعشرين باباً وخاتمة، وتطرق فيها إلى علم الحساب والقياس وتعديله، وضمنه أراجيز ليسهل حفظه<sup>28</sup>.

- منظومة في التوحيد: وضع تلميذه ابن الموهوب شرحاً عليها، ولا يُعلم هل طبع أم لا؟ وهل هي أساس كتابه: القواعد الكلامية أم لا؟ كما أن شرح تلميذه غير معروف<sup>29</sup>.

- القواعد الكلامية: طبع آخر سنة 1911م بمطبعة فونتانة بالجزائر في 157 صفحة، وقد قرّظه تلميذه ابن الموهوب وهو موجه إلى طلبة القسم العالي بالمدرسة الثعالبية، تطرّق فيه إلى علم التوحيد بأسلوب علمي سهل ميسر، بهدف تصحيح العقيدة بالدليل، وقد جعله في مقدمة وعشرة فصول وخاتمة<sup>30</sup>.

- اللمع في نظم البدع: وهو شرح لمنظومة تلميذه ابن الموهوب "المنصفة في البدع"، ويقع في 198 صفحة، وقرّظه تلميذه محمود كحول وأحمد بن الشيخ باش عدل بمحكمة سيدي عقبة، والكتاب امتداد لمنهج الإصلاح المعتمد في أول ما صلر له؛ وهو رسالته "إرشاد المتعلمين"<sup>31</sup>.

- منظومة في علم الفلك: هذا يدل على شدّة اهتمامه بهذا العلم، ومنظومة تقع في 86 بيتاً، استهلّها بقوله:

يقول عبد القادر الجاوي معترفاً بالذنوب والمساوي

ولعلّها آخر ما ألف كما يقول الدكتور ابن قينة في كتابه "صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث"<sup>32</sup>.

\* مؤلفاته المخطوطة: قد أشرنا لها عند حديثنا عن الكتب المطبوعة، وجلها قد طبعت، والفهرسة كناية بيان ذلك.

\* مقالاته في الصحف والمجلات: ساهم الجاوي في الحركة الصحفية، حيث ساهم في الكتابة في كل من "المنتخب"، و"جريدة المغرب" 1903م، كما شارك في تحرير جريدة "كوكب إفريقيا" في الفترة ما بين (1908-1909م).

أما عن المواضيع التي عالجه في مقالاته، فهي في المجال العقائدي والعبادات، أما في الجانب الاجتماعي فحارب مختلف الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الجزائريين، كالقمار ويظهر في قوله: "فلا تجدد قمارا لا يسا ثوبا حسنا، فضلا عن غيره من الضروريات، وقرنه الله تعالى بالحرمة في التحريم لشدة جرمه ولأنه من الكبائر".

\* شهادات ومواقف:

- قالت مجلة الشهاب مارس 1932: "العلامة الأستاذ عبد القادر المجاوي رحمه الله، ومما قال فيه المصلح الليبي سليمان الباروني المتوفى سنة 1359هـ/1940م حينما التقاه في قسنطينة:

سيويه العصر من هذبته      أدب العلم فأروى من ورد  
ذاك عبد القادر الطود الذي      لا يقول القول إلا بسند

قال الإمام محمد البشير الإبراهيمي: "... مع علو سنه أخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة، كالشيخين عبد القادر المجاوي وحمدان الونيسي، وغيرهما ممن الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشموخ الأنف".

\* الإستحقاقات والتشريفات:

- وسام الاحترام (شوفالي) (1906).

- وسام المعارف النّهبي (1898).

- وسام الافئدة التونسي من درجة التطويق (1910).

وفاته: جاء قسنطينة زائرا فوافاه أجله فيها في ذي القعدة من عام 1337هـ الموافق لسنة 1918م، وقبره على حافة طريق الوسط الذي يتوسط المقبرة على يمين المتجه غربا وقبله على بعد أمتار يوجد قبرا الشيخين المرحومين صالح بن مهنة وعاشور الختفي اللذين كانا متافرين في الدنيا، وشاء الله أن يتجاوزا في طريق الآخرة، هذه نبذة قصيرة عن حياة هذا العالم الجليل وجهاده البطولي وسلوكه المثالي قدمناه للقراء كمودج لنشأة الأدب الجزائري ورجاله في عهد الحروب والثورات التي قامت على أنقاضها ثورتنا التحريرية الكبرى، وأدت إلى استقلالنا السياسي والاقتصادي الكامل وقيام نظام حياتنا الجديدة في الثقافة والتربية وشؤوننا الاجتماعية والبعث النهضة الجديدة تبشر بمستقبل زاهر، هذا وإن ترجمة الشيخ المجاوي هي أوسع بكثير مما ذكرنا فمن أراد معرفتها كاملة فعليه بمراجعتها في كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" للمرحوم أبي

القاسم الحفناوي الجزائري، وأوسع منه ما كتبه عنه العالم الجليل المؤرخ محمد علي دبور أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر ففيه غنية وكفاية.

الهوامش:

1- مجلة الشهاب - الجزء الثالث - ديسمبر 1930 - ص 8.

2- عبد الله حشلاف - سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول الرسول - المطبعة التونسية - 1929 م - ص 53.

3- محمود كحول - القويم الجزائري لسنة 1329 - مطبعة فونطانا الأخوين وشركائهما - الجزائر - 1911 - ص 105.

4- محمد بن الحسن الحجوي - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي - ط 1 - 1416 هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - ج 2 ص 303 / أحمد بن محمد الزكاري - الفهرسة الصغرى والكبرى - تحقيق محمد بن عزوز - ط 1 - 2003 م - دار ابن حزم - بيروت - ص 164.

5- أحمد بن محمد الزكاري - نفس الرجوع - ص 153 / محمود كحول - نفس المرجع - ص 106 وما بعدها.

6- محمد بن القاسم القادري - إنحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية - تحقيق محمد بن عزوز - ط 1 - 2004 م - دار ابن حزم - بيروت - ص 83 / محمد بن الحسن الحجوي - الفكر السامي - ج 4 ص 136.

7- محمد بن الحسن الحجوي - مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والنفي - تحقيق محمد بن عزوز - ط 1 - 2003 م - دار ابن حزم - بيروت - ص 98.

8- محمد بن القاسم القادري - نفس المرجع - ص 82.

9- محمد بن الحسن الحجوي - مختصر العروة الوثقى - ص 60 - 61.

10- محمود كحول - نفس المرجع - ص 106.

11- محمد بن القاسم القادري - نفس المرجع - ص 80 - 81.

12- أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - ط 6 - 2009 م - دار البصائر - الجزائر - ج 3 ص 130 - 131.

13- نفسه - ج 4 ص 383 - 385 / محمود كحول - نفس المرجع - ص 105 وما بعدها.

14- أبو القاسم سعد الله - أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر - ط 2 - 1990 م - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ج 2 ص 193 - 196.

15- الشيخ العربي بوعمران ومجموعة من الأساتذة - معجم مشاهير المغاربة - 1995 م - جامعة الجزائر - ص 473 / محمود كحول - نفس المرجع - ص 105.

16- عبد القادر الجاوي - كتاب اللمع في إنكار البدع - مطبعة فونتان - الجزائر - 1902 م - ص 3 وما بعدها.

17- أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - ج 3 ص 128.

18- عمار الطالبي - آثار الشيخ ابن باديس - ج 1 ص 28.

19- محمود كحول - نفس المرجع - ص 106 وما بعدها.

- 20- نفسه- ص 106 وما بعدها.
- 21- نفسه- ص 106 وما بعدها.
- 22- طبعت بالمطبعة الوهية بمصر طبعة حجرية سنة 1294هـ/1877م، وقَرَطَها كاتبان كيران هما: حامد سليمان من الشام، ووهبي أفندي معلّم اللغة الفرنسية، وأعيد طبعها سنة 2008م بدار ابن حزم- بيروت.
- 23- طبعت بالمطبعة الشرقية لبيير فوتاتنا- الجزائر- 1904م.
- 24- طبع هذا الكتاب بمطبعة بومون-قسنطينة سنة 1879م.
- 25- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فوتاتنا- الجزائر- سنة 1907م.
- 26- طبع بالمطبعة الشرقية لبيير فوتاتنا- بالجزائر- 1907م، وتوجد نسخة مخطوطة ضمن مجموع تحت رقم 654 بوزارة الشؤون الدينية بالجزائر- مصلحة الثقافة والتراث، وعدل أوراقها 12 ورقة، وكان القراغ من نسخها يوم 26 ربيع الثاني من سنة 1298هـ، على يد الناسخ عبد الله محمد أمقران بقسنطينة.
- 27- ألفه بقسنطينة، وطبع بمطبعة الدولة التونسية سنة 1314هـ.
- 28- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7 ص249.
- 29- نفسه- ج 7 ص154.
- 30- محمود كحول-نفس المرجع- ص105/أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- ج7 ص153.
- 31- طبع سنة 1912م بمطبعة فوتاتنا الشرقية بالجزائر.
- 32- ابن قينة- صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث- ص75.
- 33- محمود كحول-نفس المرجع- ص107.



## التراث العربي الإسلامي

## الخطاب الإصلاحى فى تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبى حمو الزبائى.

~~~~~ د سعيد بنحمادة \*

يعود العمق الحضارى للقرن 8هـ/14م فى الغرب الإسلامى إلى هزيمة الموحدين فى معركة العقاب سنة 609هـ/1212م، التى أفضت إلى التفكك السياسى ببلاد المغرب والأندلس<sup>1</sup>، مما جعل أحداثها تتدرج ضمن "أزمة القرن الرابع عشر"<sup>2</sup>، الذى اعتبر لذلك من أسوأ العصور التى عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط<sup>3</sup>.

ومن مظاهر ذلك التحول بروز كيانات سياسية وريثة للحكم الموحدي؛ إذ عرفت الأندلس "عصر الطوائف الثالث"، قبل استقرار الأمر لبني الأحمر، والمرينيين بالمغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط، والحفصيين بإفريقية.

وكان من البديهي أن يعرف القرن 8هـ/14م، فى ظل هذه التحولات السياسية والعسكرية، إنتاجا يهدف لإصلاح الدولة والمجتمع والثقافة بالغرب الإسلامى؛ من قبيل "الإشارة إلى أدب الوزارة"، و"مقامة فى السياسة" للسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)، و"الشهب اللمعة فى السياسة النافعة" لابن رضوان (ت. 782هـ/1380م)، و"واسطة السلوك فى سياسة الملوك" لأبى حمو الزبائى (ت. 791هـ/1388م)، و"عين الأدب والسياسة فى زين الحسب والرياسة" لابن هذيل الأندلسي، و"المقدمة" لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

وتدخل هذه المصنفات ضمن كتب الأحكام السلطانية، التى تعد بمثابة فكر سياسى عملي، قائم على التجربة، عبر مبدأ النصيحة، المستمدة من المرجعية الفارسية واليونانية والإسلامية<sup>4</sup>.

ومن ثم جاء اهتمامنا بـ"واسطة السلوك فى سياسة الملوك" لأبى حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن (760-791هـ/1358-1388م)، أحد سلاطين دولة بني عبد الواد بتلمسان. غير أن ما يهمنا ليس سيرة هذا الملك، ولا التاريخ السياسى للدولة الزبائية بالمغرب الأوسط،

\* - أستاذ باحث - الرشيدية - المغرب.

بقدر نتوخى التركيز على الخطاب الإصلاحى كما يراه حاكم تلمسان، في إطار ما سمي بـ"النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزباني الثاني"<sup>5</sup>، من خلال الكتاب المذكور.

والكتاب عبارة عن وصايا سياسية عملية خص بها أبو حمو الزباني ولي عهده؛ إذ يقول محددا غرض الكتاب: ((فرأينا أولى ما نحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكمية، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك، وتنظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك؛ ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه))<sup>6</sup>.

وبذلك فالمصنف يندرج ضمن كتب "العهد"؛ فهو وصية سياسية يثبت فيها سلطان تلمسان طرق الحكم وآليات التدبير السياسى والاقتصادى والاجتماعى للدولة، مما يجعل منه دليلا عمليا، وأخلاقيا وسياسيا، هدفه تبيين الصفات الخلقية والأسس السياسية الواجب اتباعها من قبل ابنه للحفاظ على الحكم بتلمسان، وهو ما أعطى للسياسة الموصى بالاهتداء بها مفهومها تقنيا<sup>7</sup>.

وقد حظي كتاب "واسطة السلوك" باهتمام الباحثين المعاصرين، في إطار القراءات المتباعدة للآداب السلطانية عموما<sup>8</sup>؛ إذ منهم من تتبع بدقة مصادر الكتاب، وأسلوبه، والإطار التاريخي الذي ألف فيه، من خلال التركيز على دولة بني عبد الواد بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، وبالأخص زمن أبي حمو<sup>9</sup>.

وقد اختار أبو حمو تقنية النصيحة أو التمثيل التاريخي؛ فإذا كانت معظم كتب الأحكام السلطانية تتراوح بين التصورات النظرية والوقائع في صياغة متونها، فإن كتاب "واسطة السلوك" يقوم بالإسناد على التاريخ والتجربة السياسية والعسكرية لسلطان تلمسان نفسه، أكثر من اعتماده على التجارب الساسانية واليونانية والإسلامية السابقة.

كما أن بنية التأليف في الكتاب تستند إلى "شبكة فعلية للتفاعل النصي"، أي يؤر الناص المتداخلة فيه؛ إذ نقل من "سراج الملوك" للطوطوشي في 20 موضعا، ومن "العقد الفريد" لابن عبد ربه في 7 مواضع، ومن "النهج السلوك في سياسة الملوك" للشيزري في 7 مواضع أيضا، ومن كتاب "سلوان المطاع في علوان الاتباع" محمد بن ظفر المالكي في 3 مواضع<sup>10</sup>.

وقد أثنى المقرئ على الكتاب؛ فهو في نظره ((تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سلوان المطاع" لا ظفر، وزاد عليه فوائد، وأورد فيه جملة من نظمه، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصفته برسم ولي عهده أبي تاشفين))<sup>11</sup>.

ومن تم فالكتاب هو بمثابة مذكرة سياسية، تروم إصلاح الدولة واجتمع والاقتصاد، لاستمرار الدولة الزبانية بتلمسان. إلا أن هذا الخطاب الإصلاحى يجعل من أخلاق السلطان قطب الرحي، وهو ما



يلمح جليا من خلال أبواب الكتاب وأقسامه، التي فصلت في شخص السلطان، و سلوكه مع بطانته، ورعيته، ونظرائه من الملوك، وخاصة الباب الثالث المتعلق بـ"الأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله ومهجه وكماله، وهي قواعد أربعة: الشجاعة والكرم والعفو والحلم"<sup>12</sup>.

لقد أعاد أبو حمو بالإخلاق إلى أهمية العقل؛ "فالملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه؛ ... فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها؛ والأوصاف التي يتأهلها، اقتضى ملكه الدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجى له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام؛ فإن مات بقي ذكره دائما والنساء عليه قائما"<sup>13</sup>.

وهكذا يتضح أن أبا حمو لم يخرج عن المألوف في الخطاب السلطاني، لما ربط بين قوة الدولة واستمرارها بالبعد الأخلاقي في شخصية السلطان. بل إن تلك الكتابات حين تتحدث عن "أخلاقيات السلطة" لا تطرحها بمنظور تطوري مواكب لعمر الدولة، كما فعل ابن خلدون، وإنما من خلال رؤية سكونية مرتبطة بمدى نفعها أو ضررها للسلطان، دون الخروج بها عن "نظم القيم" في العقل الأخلاقي العربي<sup>14</sup>.

غير أنه، وبقدر تركيز أبي حمو على الجانب الأخلاقي، وخاصة ما تعلق بالكرم<sup>15</sup>، فإن الرواية المرينية تطفح بمعلومات عن جوانب من شخصية سلطان تلمسان؛ فحسب تلك الرواية، أنه كان "بخيلا مسيكا، لا يرى في وقته أبخل منه، وكان كنانا لا ينطق بكلمة حق، غدارا خائنا غشاشا، إذا عاهد خان، وإذا وعد أخلف"<sup>16</sup>، وتضيف الرواية المرينية، بنوع من التحامل، أن "بخله لم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم، كان يذبح في كل يوم رأسا من الضأن فيأكل نصفه ويبيع نصفه بالسوق"<sup>17</sup>.

كما نجد أبا حمو يركز على الحاشية؛ ويقصد بها المراتب أو الوظائف بنوعها الديني والدنيوي، والتي تشكل خدام السلطان وأعوانه، مركزيا ومحليا؛ إذ أدرك سلطان تلمسان أهمية الحاشية الملكية؛ فأوصى بها ابنه، جاعلا ذلك من أركان الدولة؛ مركزا على الوزراء والجلساء والكتاب وأصحاب الأشغال والفقهاء والقضاة والأعوان وقواد الجند والعمال وصاحب الشرطة والسفراء<sup>18</sup>.

وإذا كان كتاب "واسطة السلوك" لا يختلف عن باقي مؤلفات الآداب السلطانية في الاستناد إلى ركاتر السلطة؛ فإن التباين يكمن في ترتيبها حسب أبي حمو الزباني الذي أعطى الأولوية القصوى لـ"الجند"، على حساب "العمارة"، وهو ما يعزى إلى الطابع الحربي لبني عبد الواد في عهد السلطان المذكور<sup>19</sup>، بل إنه يربط النظم العسكرية بالبعد القبلي<sup>20</sup>؛ مما يفسر أهمية العvisية في هذه الفترة التاريخية، ليس في دولة بني عبد الواد بتلمسان، وإنما بالغرب الإسلامي كله.

وبالمثل فإن الدولة، في نظر أبي هو، تتوقف على وجود ثمنب سياسية وإدارية وثقافية، تتوفر فيها شروط الأخلاق، والكفاءة المهنية، والرأسمال الاجتماعي، من خلال تنصيب حاكم تلمسان على ضرورة انتماء بعض كبار رجال الدولة إلى قبائل وأسرة وجبهة ويوتات معروفة، ليكون ذلك مساعدا للموظف على التتره عن الفساد؛ فكون الوزير مثلاً من "خيار قومه وعشيرته، فإنه يكون محافظاً على يته ومروعة، مجانباً للتناقص والشبهات، متترها عن المعايير في جميع الحالات"<sup>21</sup>.

كما تزودنا المذكرة الإصلاحية بتوصيات مرتبطة بالعلاقة بين السلطان وشركائه المدنيين والعسكريين، مثل الجنود والمتطوعة، فيما يخص شؤون العطاء والتموين وتدير قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما دفع أحد الدارسين<sup>22</sup> إلى حصر وظيفة الدولة في العصر الوسيط في جمع الضرائب وممارسة العنف، مما يرسخ جدلية المال والجيش في النظرية السياسية لدى أبي هو الزياتي.

غير أن ما يفتح به الكتاب هو التجربة السياسية والعسكرية لأي هو، ومنها المعركة التي دارت بين بني عبد الواد والمريين قرب تلمسان سنة 760هـ/1358م، وكيف انتصروا عليهم، ونعم بنو عبد الواد بالاستقرار، رغم قوة المريين؛ "فاستقللنا بحضرتنا العلية، والبلاد كلها مريية، واستولينا على ما كان بتلمسان، واستقر لنا بها الملك والسلطان، ومريين محدقة بنا من كل جهة ومكانة؛ ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم. ومن شدة الحزم لم تكحل أجفاننا بنوم؛ فلم نزل ... نستعمل مهم المحاولات والمكائد، ونصب لهم الأشرار بكل المراسد، إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم، وجازيناهم على تعديهم؛ وذلك بين محاولة وقهر وتأييد ونصر. ولقد دخلناها عليهم دون كبير جيش، ولا مال؛ فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم، وأحوالنا أحسن من أحوالهم، وأعدادنا أكثر من أعدادهم، وأجنادنا أوفق من أجنادهم، وبلادنا أمهد من بلادهم"<sup>23</sup>.

وفي الميدان السياسي والدبلوماسي والعلاقات الخارجية مع الدول، يستلهم أبو هو تجربته كذلك لتوجيه ابنه، وخاصة فيما يخص التجسس وبث العيون والإيقاع بالعدو؛ فيذكره بما حصل له مع المريين من حروب وتجنس، وخاصة في عهد السلطان أبي سالم، مثلما أخبره بهزيمة أبي الحسن المريي في إفريقية وغرق أسطوله<sup>24</sup>، كما يحضر البعد التاريخي في الكتاب من خلال تاريخ الأندلس؛ مثل الاستراتيجية الحربية التي فُتجها ابن هود للإيقاع بابن رزمير بوشقة؛ وانتصارات النصور بن أبي عامر خلال القرن 11م<sup>25</sup>.

وإذا كان أبو هو قد لمر إلى الصراع بين بني عبد الواد والمريين، وأكد لابنه أهمية الشجاعة في تدبير الملك<sup>26</sup>؛ فإن هؤلاء لم يغفلوا الأمر، وحاولوا النيل من القدرات الحربية لسلطان تلمسان؛ ففي نظرهم أنه "كان جباناً لا يقدر على مدافعة الجيوش المريية خوفاً على نفسه"<sup>27</sup>؛ إذ "ما رئي يجري فرسه

قط، فإن اعتنر عن ذلك من رزائنه فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي بحري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل. وهذه عادة مطردة لهم، ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من القرس من جهله بالفروسية<sup>28</sup>.

كما أن من ملامح البناء الفكري لكتاب "واسطة السلوك"، توظيف أبي حو للبعد السياسي لاحتفالات بني عبد الواد بالمولد النبوي، ورسالة الأشواق التي بعثها إلى النبي صلى الله عليه وسلم<sup>29</sup>. ومن مظاهر التدبير العملي الذي يوصي به أبو حو، علاوة على المعايير الخلفية والكفاءة، ما يمكن نعتة بالاستعلامات؛ ففي تعيين الوزير قال: "ومع ما ذكرنا من الاختيار، فلا تخلية من الاختبار"<sup>30</sup>، كما ينصحه بالأمر نفسه فيما يخص العمال؛ إذ يوصيه بعلم الإفراط في الثقة في العمال، "وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال في جبايات الأموال"<sup>31</sup>.

وبناء على ذلك، فإن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" يمثل نموذجا للمذكرات السياسية والخطاب الإصلاح، للنهوض بالأوضاع العامة بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، في مناخ إقليمي ينذر بالتحول في الجناح الغربي للحوض المتوسطي، الذي سينتقل منه الثقل الحضاري إلى المحيط الأطلسي، و"كانه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"<sup>32</sup>.

وقد عملنا على إبراز ذلك من خلال إعادة تركيب فقرات الكتاب لتبين النظرية السياسية لأبي حو الزباني، وفق أبواب وفصول؛ فقسمنا الوثيقة المستخرجة من "واسطة السلوك" إلى أبواب، منها الباب الأول الخاص بقواعد الحكم، ويشمل فصول العدل، المال، والجيش؛ والباب الثاني المتعلق بأخلاق السلطان، ويضم الفصول الخاصة بالعقل، والشجاعة، والكرم، والحلم، والعفو؛ والباب الثالث المرتبط بموظفي الدولة، ويهم الوزراء، والحاشية، والكتاب، وصاحب الأشغال، والفقهاء، والقضاة، والأعوان، والقواد، والعمال، والحرس الملكي، وماليك الملك؛ أما الباب الرابع فنخصص بالحكمة السياسية؛ والباب الخامس المتعلق بالسياسة الحربية. وفي ما يلي نص المذكرة:

### الباب الأول: قواعد الحكم

#### العدل

— ((الملك بناء والعدل أساسه؛ فإذا قوم الأساس، دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس. ومن استعمل العدل حصن ملكه؛ ومن استعمل الظلم عجل هلكه)).

- ((إذا تقرر أن العدل أس الدولة، وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أقسام: أن يكون الملك عدلاً في نفسه، عدلاً في رعيته وأهله وخاصته؛ أن يكون الملك جارياً مع الرعية على العوائد المألوفة، والأحوال المعروفة، من غير خرق، ولا إحداث زيادة، مقلاً على أموره الدنيوية، وإن كان مفرطاً في بعض الأمور الأخروية)).
- ((العدل سراج الدولة؛ فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم)).
- ((صلاح الدولة بقواعدها، وفسادها بخرق عوائدها)).
- ((أربعة لا يزال معها الملك: حسن التدبير في الأمور؛ والعدل في الخاصة والجمهور؛ والأخذ بالخرم؛ والصبر في الأزم.
- أربعة لا يثبت معها الملك: سوء التدبير؛ ومخالفة النصيح والمشير؛ وخبث السريرة والنية؛ والجور على الرعية)).
- ((العدل نغم ما يجتنى، والجور بئس ما يقتنى، والعدل كثر الأمير، وحياة الغنى والفقير)).
- ((الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي؛ فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره، لا تطفئه عواصف الرياح)).

#### المال

- ((المال حرز الملك، وبه ينظم انتظام السلك؛ فاحرز حرز مالك بتقليل الشاء، وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء)).
- ((ابذل مالك في الشاء، فإنه خير من الغنى، ولا تكثر فيه السرف، فإنه يؤدي إلى التلف، ثم مالك تبلغ آمالك؛ فإن من قلّ ماله تلاشت حاله، وقلت أعوانه، وضعفت أنصاره)).
- ((المال زين والإقلال شين، والمال عون على العدى، وحسن يتقى به من الردى، به يستفتح الصياصي وتستملك النواصي، ويقاد العاصي، ويستدنى القاصي. وبالمال تستعبد الرجال، وتبلغ الآمال، وتدل به الرقاب، وتستفتح به الأبواب، وتستهل الأمور الصعاب، وتنال الرغائب، وتنجو به من المصائب)).
- ((خير المال ما وقع به الانتفاع، وشر المال ما تركته للضياح؛ فاجعه من مواضعه ووفره، وقوّ مادته بالعدل، وتوسط في العطاء والبذل)).

- ((استعن بثقة عمالك على جميع مالك، ولا يحملنك حب المال على المساحة في جور العمال؛ فإنه غذا هلك الرعايا علمت الجايا؛ وإذا عولمت الرعية بالرفق، كثر فيها النماء والرزق)).
- ((خذ المال من حقه، وأنفقه في مستحقه، تكن أعدل الناس، وأفضل من ملك وساس)).
- ((حاسب نفسك وعمالك، يحفظون مالك)).
- ((المال أعظم الذخائر الفاخرة، وبه تال الدنيا والآخرة)).

### الجيش

- ((تنتخب لجيشك أنجاد القواد من أنجاد الأجناد)).
- ((خير الجيوش أربعة آلاف، ولن يبلغ جيش يبلغ اثنا عشر ألفا من قلة إذا اتفقت كلمتهم)).
- الجيش ينقسم إلى أربعة أقسام: خاصتك، وقيلك، وأنصارك، وماليك)).
- ((ينبغي لك أن تتخذ خاصة من وجوه القبائل وكرام العشائر، تستخلصهم لنفسك، ليعلمك كل واحد محبا في جانبك ومائلا إليك، ومعتمدا في أموره عليك؛ لأنه إذا كان محبا في جانبك قاد جميع جماعته إلى بابك، وسعوا كلهم في مرضاتك وآرائك؛ فليزل كل واحد منهم في منزلته، وترتبه على قدر ما يليق به من مرتبته)).
- ((ينبغي لك أن تكون محافظا على قبيلك مواسيا لهم من كثيرك وقليلك، لا تحوجهم إلى غيرك، ولا تمنعهم من خيرك. وتخص منهم من يكون محبا ناصحا مخلصا، ومن تراه لا اختصاصك أهلا، ولا مصطفائك محلا. وتقدم الأشياء على الجموع؛ فإن التابع يصلح بالتبوع؛ فتجعل على كل جماعة منهم شيئا من كبارهم وأعيانهم وخيارهم محبا في سلطانك وجماعتك باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون القائلة من النميمة والغيبة، سالما من النقيصة والرية، محرضا لجماعته على طاعتك، مطالعا لك بأحوالهم في كل أحيانه، ولا يقول عنهم إلا الحق، ولا يُعامل سلطانه إلا بالحق)).
- ((الجيش والمال قسم واحد، لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، ومطلوب بمطلبه؛ فلا مال إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، وأصلهما العدل، لأن العدل مجمع المال، والمال يكفل الجيش، والجيش يحوط الرعية)).
- ((الملك بالنسبة إلى ذلك على أربعة أقسام:

- ((القسم الأول: الملك والجيش والمال بقدر ما تحب إيلاته من البلاد، وماله من الأقاليم والإعداد، لا أقل من ذلك ولا أكبر ولا أصغر.

ينبغي أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر أعدادك؛ فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا يكون مفرطا، لئلا يعثر عليك الحال، لأنك إذا ضعف مالك، كثر جيشك، بل همك، وتكد عيشك، وصار عليك جيشك أعوانك، وأصبحت لقلة ذات يدك مهانا، فيدعوك طلب الجيش إلى طلب الرعية؛ وإذا طلب الرعية، فسد ملكك بالكلية. وإن كنت قليل الجيش، كثير المال، كان ملكك صائرا لاختلال؛ فإنه ربما تدعوك الضرورة، وحوادث من أعدائك كثيرة، منها أن يزيد عدوك الاستيلاء على بلادك، ويحترق لقلة أجنادك، فيأخذ الأمر على حين غفلة، ويعترك العدو دفعة، ولا تجد مهلة، فلتتمس ضم الجيش بما عندك من المال؛ فلم تجده في نفس الحال، ولا من يأخذه منك، ولا يصار بنفسه)).

- ((ينبغي أن لا تنفق مالك إلا في حقه، ولا تخرجه إلا في مستحقه، ولا تعطيه إلا فيما يصلح عنك، ويجلب المنفعة إليك، ولا تسرفه فيه لذات دنياك، ولا في محارب لا تصلك إلى هواك. ينبغي أن لا تعطي لغير فائدة؛ فإن تلك سجية فاسدة، ولا تعطي ألفا لمن يستحق مائة، ولا مائة لمن يستحق ألفا؛ فإن فعلت ذلك كان ظلما وسرفا. إياك أن تحملك شهوة الشكر على بذل المال، فيفضي بك ذلك إلى الإقلال؛ فإنه إذا نفذ المال، نفذ الشكر.

إياك أن تحتقر ما تجمعته من المال، لا من كثير ولا من إقلال، ولا تتساهل بإخراجه، وإن سهل عليك جمعه من خراجه؛ فإن التبذير يؤدي إلى التدمير، والإمساك يؤدي إلى الإهلاك؛ فليكن مالك موازيا لجيشك، ومقاوما عندك؛ فقد يحدث في الزمان اعتلال من غير علو ولا قتال؛ مثل أن يكون قحط في البلاد، أو ثوران فتنة تؤذن بالفساد، فتجد ما ترجع إليه من المال. يقوي جيشك، ويعتمد عليه، فإن كانت الفتنة فيضعف عليك العدو، وتسكنه إذا أظهر العو. وإن كان القحط استعنت به على الرعية، وأنفقت في حقوق الرعية)).

- ((عليك أن تتشاغل بجمع أجنادك، وتوفير أحشادك وأعدادك، وترتيب خلمك وقوادك فعلهم في زمن الرخاء، لتجلبهم عند الشدة)).

- ((عليك باستسلاف قلوب الأنجاد من قبيلتك، ومشاركهم في كثيرك وقليلك، واصطنعهم بالإحسان، ولا تغلظ عليهم، واخفض لهم عند الاحتياج الجناح، وعامل من أظهر لك العداوة منهم بإظهار المودة، وسائسهم حتى يرجعوا إلى حزبك؛ فإنك تبلغ منهم بحسن المحاولة ما لا تبلغ منه بقبح المعاملة، وتال بالسياسة واللطف ما لا تدركه بالغلظة والعنف؛ فإن اصطناع الأعداء مكيدة، واستجلابهم بالخير ضرورة وكيدة)).

- ((ينبغي أن تدخل الدواخل بين بعض أعدائك لتهدي بذلك جانب أعدائك، ولتوقع الشتات في قلوبهم، وتصدعهم عن مطلوبهم؛ فإنك إذا أدخلت بينهم الدواخل، وجعلت أسافلهم وأعاليلهم هم أسافل، فطمئن من جوانبهم، وتحسر عواقبك بسوء عواقبهم، وتأمين من غوائلهم وشواغلهم؛ فيكون كل واحد يتحرز من صاحبه، ويطلب سقطة يقعها في جانبه، فيعلمك بما انطوت عليه أسراره، وما تحدث به صاحبه إضماره؛ إذا تشاغل بعضهم ببعض، وتشاجروا في رفع وخفض، ورجعوا إلى صداقتك واصطفائك، ودخلوا في حزب أولئك، ومالوا إلى جانبك، وإن لم يكونوا من أصحابك)).

- ((ينبغي أن تكون في سنة تدرك جيشك، وتدبر أمرك وترتبه شيئاً بعد شيء، وذلك بقدر تنمية المال وتكثيره، وضعفه وتوفيره، وعلى قدر الاستطاعة والسياسة والحركات والرياسة، لأن زيادة المال والجيش للملك تنويه للملك، وزيادة في نظم سلكه؛ فيعظم قدرك في عين أوليائك، وتقطع رهبة في قلوب أعدائك، وقل أعوانك، ونقص ملكك، وتلاشي سلطانك).

ويكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيتاقهم، وشجاعتهم، وسابقتهم للخدمة، واصطناعتهم، ومحبتهم، وانقيادهم، وألفتهم، واجتهادهم، وهؤلاء أهل الطاعة والمجاي والبلاد، وهم القليل والجماعة بل الحماة والأنجاد، والأنصار ما عدا مماليكك والمنقطعين إليك، المتصرفين في خدمتك بين يديك؛ فإن جراياهم في المرتب مشاهرة، وأرزاقهم من بيت المال مياسرة، جريا على توالي الشهور، وهم في جرايتهم على قدر طباقهم؛ فأصحاب البلاد يجبرونها في أوقات معلومة على حسب ما هي عليهم مقسومة، وذلك بقدر ما يقيم أولادهم، ويصلح أهلهم وأودهم، وخيلهم وعددهم، ثم تتفقد أحوالهم جهد استطاعتك، ليستمروا على خدمتك وطاعتك؛ لأن من فرط في جيشه أعار عدوه عليه، ومن تحفظ به فلا يجد العدو سبباً إليه)).

- ((القسم الثاني: أن يكون الملك يشغل بجمع المال ويفرط في الجيش؛ فهذا حاله غير محمود، وفعله عليه مردود؛ فإنه ربما دهمه عدو أقوى منه، فيوشك أن يطلبه ولا ينفك عنه، وإن كان أضعف منه في المال، فهو أشد عليه في القتال؛ فإن العدو يستعين عليك بقوته، وكثرة جيشه وشدة، فتأخذ بلاده، وتتل أطرافه وبلاده، فتكون ذلك سبب خرابه وذلته واكتابه، لأنه يطلب لمن يعطي المال، فلا يجده في نفس الحال، فتدخل عليه الآفة من هنالك، فلا يصل بالمنى وإن أعطى المال، فإنه لا يقبل منه، ولا ينفعه، ولا ترد عنه بأسه ولا يدفعه، فإن الناس تعودوا منه قلة العطاء في الشدة والرخاء، وإن همته مصروفة، بجمع الأموال مجبولة على قلة الأبدال)).

- ((القسم الثالث: أن يكون الملك يشغل بجمع الجيش، ويفرط في المال؛ وهذا أيضا غير محمود الفعال.

لا يقبل لك عنر في قلة العطاء، ولا حجة لك في ذلك عند الأولياء، لأنك ربما دهمك أمر عدوك، موازن لك، يكون في الجيش مثلك، وأقوى في المال، يريد أن يدخل عليك بعض إخلال، فيعطي المال لجيشه، ويخدع جيشك بماله وغشه)).

- ((القسم الرابع: أن يكون الملك يفرط في الجيش والمال، ولا تصرف همته في ملكه إلى إصلاح حال؛ وهذا في الملوك مرفوض معكوس، الآراء منقوص، لأنه اشتغل بالإهماك واللذات، والمباني والزخارف والزهات، واللهو واللعب، والقتك والطرب، والقيان والآلات، والاستغراق في كل الحالات)).

- ((لازم التقوى، وتجنب اللهو والهوى، ولا تغتر بالدنيا، وكن حازما في جيشك ومالك، تبلغ جميع آمالك)).

#### الباب الثاني: أخلاق السلطان

##### العقل

- ((الملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وآخره، وملك له عقل يصلح آخره دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون آخره، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخره)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به دنياه وآخره هو العقل التام الذي تميز فيه الخاص من العام، والسياسة الكاملة التي تعلق بالمنفعة الشاملة. وعلامة المتصف به أن يسير في الرعاية بأحسن سيرة،



وأن يكون حاكما على هواه؛ يؤثر عقله على ما سواه، وأن يحب لرعيته ما يحب لنفسه، وما يستجلب به الرعايا من لطف أنسه)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به آخرته دون دونه؛ فهذا له عقل ناقص وليس له سياسة. وعلامته أن يتشاغل بالعبادة ويجعل ما يتعلق من أمور خلافته كالزيادة ولا يترفه في ملبس ولا مطعم ولا يهتم بأمور رعيته، ويشغل بأهل الصلاح، ويفرط في الجيش والمال الذي بهما صلاح دنياه وآخره؛ فصارت الولاة تأخذ ماله ولا شعور له بهم، وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم؛ فإن دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده، لا يجد ما يصادر به عدوه عن رعيته، وذلك مما يؤول إلى خراب ملكه، وتعجيل هلكه، لعدم اكترائه بأمور رعيته، واتباعه بما جنى على نفسه)).

- ((الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون آخره؛ فهذا له سياسة وليس له عقل تام، ويروجو ثبوت ملكه وانتظام سلكه لحسن سياسته التي يقوم بها أمور رعيته؛ فهو يجري الناس على عوائلهم المألوفة، وأحوالهم المعروفة؛ وإن أحدث على رعيته زيادة لم يشعروا بها حتى كانت عادة، وذلك من لطف سياسته وحسن تدبيره ورياسته. يعامل رعيته بما يجذب به نفوسهم ويوجب الفتح وتأييدهم، ويصلح أمورهم، ويحوط خاصتهم وجمهورهم. هذا وإن كان قد ضيع أمر رعيته وأصلح دنياه بحسن محاولته، فيرضى له دوام دولته وبقاء مملكته)).

- ((ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخره؛ فهذا له عقل ناقص ولا سياسة له. وعلامته أن يجور على رعيته ويسئ إليهم، ويحدث الحوادث عليهم، ويحسن لمن أساء، ويسئ لمن أحسن، وينطق بخلاف ما أظهر ويظهر خلاف ما أنطق، وتقليد الأمور غير مستحقيها وتوليها غير أهلها)).

#### الشجاعة

- ((أصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجأش عن المخاوف، ورأسها الحذر والتوقي، وسياستها الممارسة عند التقي)).

- ((إذا وضعت قتالك في موضعه، وحذرت ما يتقى من مصرعه، كنت شجاعا كاملا، وفي الحروب شهما باسلا. وإن تركت الحذر في حين القتال، وتوكلت على شجاعتك في ملاقاتك الأبطال، والمباشرة بنفسك للأهوال، كانت شجاعتك هرجا، وقوام حريك عوجا)).

- ((إذا كان الملك شجاعا، كان منصورا مطاعا، ترهبه الأعداء، وتطمئن به الأولياء، يعتد به جيشه في مواقع الحروب، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب)).

- ((الشجاعة تنقسم على أربعة أقسام: الشجاعة التي يصيها الرأي، ما يصحبه العقل دون الرأي، شجاعة غير مفرطة، بل بين ذلك متوسطة، غير أنها يصاحبها الرأي المصيب، وينتفع بها مع الرأي في الموقف الصعب، والشجاعة التي لا يصحبها عقل ولا رأي)).

- ((رتب جيشك يوم الحرب واللقاء؛ فإن في ترتيبه إرهابا للعداء، وهيئة تهيئ حسن الانتظام، مضبوط الانقسام على أربعة أقسام: ميمنة من حماة أنجادك، وميسرة من كهافة أجوادك، وتقدمة من أبطال فرسانك، من أسود شجعانك. وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقداما بطالا ضرغاما.

فأما التلمذة فتقدم منهم فرسانا بين يديك، يكونون في نحر العدو، وإذا قصد إليك من أنجاد قبائلك الشجعان، وأهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان، وتقدم عليهم قائدا من الأبطال، الخائضين بحور الأهوال، واجعلهم على قسمين: قسم يلي الميمنة، بين يديها، وقسم يلي الميسرة، بين يديها، ويكون قتال كل قسم من هذين القسمين اللذين في الجهتين مستند لمن خلفه من الميمنة والميسرة، فتكون الأجنحة بأولئك الحماة منتصرة.

وأما الساقة، وهي قلب جيشك، توازي الميمنة والميسرة، والقلب يوقف الجيش، ويشده، ويصد العدو ويرده؛ فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والتجدة، والكفاية والشدة، من كل بطل مقاتل، وشهم في الحرب باسل؛ فترتب هذه الساقة، وتجعل عليها من زعماء خاصتك الأنجاد، وحماة الأسود الأفراد، قائدا عن يمينها، وقائدا عن يسارها، يضبطانها ويحفظانها، في إقبالها وإدبارها، وإيرادها وإصدارها، بحيث لا يقبل أحد من الساقة ولا يختل، ولا يتترجح ولا يتحول)).

### الكرم

- ((ينبغي للملك أن يكون كريما متوسطا، لا مقترا ولا مفرطا. الملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

أ- ليكن كرمك على نفسك، ورعيتك، من غير تبذير ولا إسراف في التقدير؛ فإذا ذلك هو الكرم المحمود.

ب- أن يكون الملك كريما على رعيته، دون نفسه وخاصته وأهل بيته؛ فهذا كرم غير محمود)).

ج- أن يكون الملك كريماً على نفسه وأهله، دون رعيته؛ فهذا الكرم غير محمود؛ فإن هذا الكرم يحمله على أخذ أموال الناس، بل الرعية، وجريانه على غير السبيل السوية، ينفق في لذات نفسه الأموال، ولا يؤثر رعيته بأفضل، ولا يواسي من تعلق به من الأبطال)).

د- أن يكون الملك لا يتكرم إلا على نفسه، ولا يتكرم على خاصته ولا رعيته، بل يحتكر المال بكليته؛ فهذا لا يعد من الكرام، ولا يتنظم في هذا النظام. ومثل هذا لا يترك شيئاً للرعية، ولا يجري على السوية، بل يأخذ من مستحق وغير مستحق، وينفق ذلك في المعاني والملاهي والمباني، فلا يجد ما يصادر به دنياه، ولا ما يلقي به أخراها)).

#### الحلم

- ((هو بالنسبة إلى الملك على أربعة أقسام:

أ- أن يكون الملك حليماً على خاصته ورعيته، يعاملهم بحسن نية، يحلم عنهم في صغار الجرائم، ويقتص منهم في العظام؛ فهذا ملك غالب عقله على هواه.

ب- أن يكون الملك حليماً على الرعية دون الخاصة، لا يؤاخذ إلا خاصة الخاصة؛ فمن عمل من الخاصة ذنباً، فيستوجب عليه العقوبة، عاقبه، ومن عمل من الرعية عملاً يستوجب به العقوبة ترك مطالبته، ويصفح عن هفواتهم، ولا يعاقبهم لضعفهم، وقلة قدرتهم، وخوفهم، وضعف عقولهم، وحقارتهم، وحمولهم، واختلاف طبائعهم، ولقلة وقائعهم، إلا أن الخاصة ينتقم منهم، ولا يعفو عنهم، يرى أن ذلك جزاء لهم، وردعا وكفا عن العامة، وقمعاً، لئلا يتأذى الضعيف، ويقع من أهل الجاه لهم التخويف؛ فهذا حلم غير محمود، لأن من العدل المساواة في الأحكام بين الخاص والعامة، بل الخاص أولى بالحلم في صغار الجرائم من العامة.

ج- أن يحلم الملك عن الخاصة دون العامة؛ فهذا عين الآفة الطامة.

د- أن يكون حلمه مضطرباً، أحياناً فأحياناً، تارة وتارة، لا يقف عند حد في أقواله وأفعاله، ولا يأمن أحد من اغتياله؛ فهذا حلمه مذموم، ولو نسب له الحلم، لأنه لا يأمن أحد حلمه، ولا من غائلته وسمه؛ فالعامة تخاف نكاله، والخاصة لا تأمن اغتياله)).

#### العفو

- ((الملك بالنسبة إليه على أربعة أقسام:

القسم الأول: أن يعفو الملك عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العفو، ولا يتم العفو عن هتك الحرم، وإفشاء السر المكتم، والقدح في الملوك.

القسم الثاني: أن يعفو الملك عمن لا يستحق العفو؛ فهذا عفو غير محمود، لأن من الجرائم جريمة لا يحسن العفو فيها، والعقاب أجل لتلافيها.

القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا، لا تاركا للعقوبة.

القسم الرابع: أن يعفو الملك عمن لا يستحق العفو.

#### الباب الثالث: موظفو الدولة

##### الوزراء

- ((يجب أن تختار وزيرا كبيرا، مهذبا خطيرا، بالأموار بصيرا. يجمع من محمود الخلال ثمانية، وهي أن يكون من خيار قومه وعثرته، وكبير عشيرته وبيته، وأن يكون وافر العقل عاريا عن الجهل، عاضد الذهن سريع الفهم، راجح الرأي محمود السعي، محبا ناصحا ودودا صالحا، شجاعا في المهمات وعند نزول الملمات، حسن الصورة فصيح اللسان، بديع العبارة بليغ البيان، كثير المال غير ذي حاجة ولا إقلال)).

- ((لا تخليه من الاختيار)).

- ((ينبغي للوزير أن يكون أحسن فطنة وسياسة ورأيا من الملك، لأن الملك يسوس من دونه من رعيته. وأما الوزير فإنه يسوس من فوقه وهو الملك، ومن دونه وهم الرعية)).

- ((أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه، ويمكن كونه عدة؛ فإذا وقع الأمر قابله لما يكون أعد له. وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لفظ فطنته وقوة حيلته ودربة ممارسته؛ فترك الإعداد للأمر قبل نزولها ثقة بنفسه)).

##### حاشية السلطان

- ((يجب أن تختار لنفسك جلساء رؤساء من قومك، ذوي عقول وافرة، وأذهان حاضرة، فصحاء اللسان، نصحاء في السر والإعلان، يجانبون مخالطة الناس؛ ويعظمونك إذا أظهرت لهم البسط والإيناس)).

- ((يجب أن تختار أحوالهم، وتمتحن أقرانهم وأفعالهم)).

- ((إن مات وزير من وزرائك اخترت وزيرا منهم لسبق معرفتك لما انطوت صدورهم عليه، وما تقدم منهم وما صغر من النصيحة عنهم، فتجعله مكانه، وتشد به أزر الملك وأركانه؛ فمن وجدته منهم بعد الاختبار مزيعة للأسرار، غير واف بالعهد ولا مبرم للعقد، وصدرت منه غيبة أو غيبة، أو ظهرت عليه زلة أو رية أبعدهت عن منزلة الرفعة والإيناس، وجعلته كسائر الناس)).
- ((جالس الفضلاء، وشاور العقلاء، وخذ الرأي مع النصحاء، واقتد بنوي التجارب النبلاء)).

#### الكتاب

- ((الكتاب عنوان المملكة لتبين الأمور المشتبكة)).
- ((تخير لسرك كاتباً من وجوه بلدك، موافياً لغرضك ومقصدك، فصيح اللسان، حرير الجنان، بليغ البيان، عارفاً بالآداب، سالكا طريق الصواب، بارع الخط، حسن الضبط، عالماً بالحل والربط، كاتماً للأسرار، متحلياً بتحلي الوقار، ذا عقل وافر، وفهم حاضر، وفهن ثاقب، وفكر صائب، حلو الشمائل، موسوماً بالفضائل، جميل الهيئة واللباس، والمؤالة للناس)).

#### صاحب الأشغال

- ((صاحب أشغالك وضابط أعمالك، تخير من وجوه بلدك الأخيار، وكفاة الحساب والنظار. ويكون ذا ثقة وأمانة وعفة وصيانة، وصلاح وديانة، وحزم وكفاية، وضبط ودراية، عدلاً في أحواله، صادقاً في أقواله، عارفاً بأنواع الخراج والجبايات، ضابطاً للزمام والحسابات. ويكون ذا مال ويسار، وأثاث وعقار)).

#### الفقهاء

- ((تختار لنفسك فقيهاً عالماً نبيهاً، موسوساً بالصلاح، سالكا طريق الرشاد والفلاح، يورث إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمور، ويأمر بالسداد، ليبين لك ما أشكل عليك من الأحكام، وما تأتبه من الحلال، وتدعه من الحرام، وما تقف عنده من الحدود الشرعية التي هي قوام الملك والرعية، وما يصلح لك من الأمور الدنيوية والأخروية، وينحو لك بالموعظة، ويذكرك أحوال الآخرة، ولينبهك من سنة الغفلة)).

#### القضاة

- ((يجب عليك أن تتخير قاضياً من فقهاءك، أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين؛ لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح لظلامة ظالم، يساوي بين الشريف

والمشروف، والقوي والضعيف، علما بتنفيذ الأحكام، مفرقا بين الحلال والحرام، قاضيا بالعدل،  
آخذا بالفضل، موجزا منجرا في الفضل)).

#### الأعوان

- ((تخير عونا تجعله مقلما على أعوانك، ومتصرفا في أمور سلطانك، يصرف شرطه بين يديك فيما  
لا يمكن توصلك إليه، ويعولون الانتفاع ممن سخطت عليه.

وينبغي أن يكون ذا دربة وشدة وكفاية ونجدة، مبادرا لامثال الأوامر، متيقظا لما تريد منه في  
الباطن والظاهر، عارفا بتصرفاتك وأخلاقك في حالتي توفيق وإرهاقك؛ فرما غضبت على من لا  
تريد أن يلزمه عقابك، بل يجره تخويفك وإرهاقك؛ فليبت في أمره ولا يجعل عليه من فوره إلى أن  
تسكن من غضبك، ويكون ذلك من جنس تصرفه في قضاء أربك.  
ويجب عليه أن يكون مرتقبا لبابك، شديد الحجة في جنابك)).

#### القواد

- ((تخير قوادا من أنجاد جنلك، زعماء صادقين في محبتك، وافين بعهديك، ذوي حزم وكفاية، ومعرفة  
ودراية، لا يصلون إلى الرعية بمضرة ولا ياذية، بل يسلون الثغور، ويصلون العدو الخنور، ويحيطون  
البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد وساع في الفساد، فتكون بهم مطمئن الخاطر، أمناء في الباطن  
والظاهر، لتسد بهم الثغور المخوفات، وكفهم الأكف العاديات، وإجزأهم عنك في المعضلات؛ بحث  
إذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد قابله بقائد من هؤلاء القواد)).

#### العمال

- ((تخير منهم العارفين بجبايات الخراج، وأهل البصر بالألقاب التي بها الاحتياج، ويكون ذوي حزم  
وكفاية ودربة ودراية وضبط وأمانة وفضل وديانة، لا يضيعون أعمالك المخزنية، ولا يضرون في ذلك  
الرعية، وتحتاطون في الخاتين جريا على السيل السوية)).  
- ((لا تظمن إلى العمال وإن أظهروا لك التقشف والإقلال، وتلبسوا بالعبادة والزهادة في الحال.  
وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختيار العمال في جبايات الأموال)).

#### الحرس الملكي

- ((ينبغي أن تتخذ لنفسك أنصارا لا يفارقونك ليلا ولا نهارا؛ وهم أربعة أقسام: ميمنة، وميسرة،  
وتقدمة، وساقية)).

- ((المينة: تخيرهم من ذوي الشدة والكفاية والنجدة والحماية، وتقدم عليهم من خاصتك الأجواد قائدا من القواد، رابط الجأش، صادق البأس. وأن يكون نزولهم في محلتك عن يمينك في المترلة متزينين أحسن زي وأجمله)).

- ((الميسرة: تتخذهم من حماة الأبطال المقتحمين للأبطال من مشاعرة الفرسان، وأسود الضراب والطعان، وأهل الجلال والإقدام والبطاح. وتقدم عليهم قائدا ثابت القلب، عارفا بمواقع الحرب، صابرا للطنع والضرب. ويكون نزولهم في محلتك عن يسارك مرتقين إليك)).

- ((الثقلمة: تخيرهم من أصحاب الخيول السوابق، العارفين بالشلائد والمضايق، من كل أسد باسل، وبطل صائد للمقاتل. وتقدم عليهم قائدا بصيرا بمواقع القرص والغرة؛ قد مارس الحروب المرة بعد المرة، لا يحجم عن الإقدام، ولا يتزحزح عند تولول الأقدام. ويكون نزولهم في محلتك أملك، لا يتجاوزون غرضك ومراك)).

- ((الساقة: أهل دخلتك المخصوصين بمواليتك ونصرك.

ينبغي لك أن تتخذ دخلة من الحماة الأعيان والأنجاد من سراة القبائل وصناديد المواقف والمخالف، ذوي ثبوت عند نزول التوازل، وصبر عند فراغ الكتاب، وأهل نجدة عند حلول المصائب؛ لأنهم القطب الذي عليه المدار والمرفد الذي يرجع إليه، وهم ترد المفزات، وتدفغ العظام، وتكشف الكروب، وتلور عليهم الحروب؛ فهم يرهون العدو بوقوفهم، ويخذلونه بثبوت صفوفهم؛ فيكون جميعهم يقاتل أهل الميسرة والمينة والثقلمة. وهذا رأي من ساس الحرب وقومه وأحكه وأبرمه؛ لأنه ربما وقع من بعضهم اختلال وعصيان وشنآن في بعض الأحيان؛ فتدفعهم بأهل الدخلة، وتردهم بهم عن تلك الفعلة.

وتقدم عليهم قائدا من خيار خاصتك الأقربين الممارسين للحروب الخجيين، ممن ظهرت نجابته، وكثرت إصابته، واعتورته الأمور، واشتهر في كل معترك مشهور من ذوي الحسب اللباب، والكرم في الأنساب. ويكون نزولهم في محلتك، وكذلك في ركوبك، وحالتي سلمك وخروجك.

وهذه الجموع المذكورة المخصوصون من الخلة هذه المنازل المشهورة يركبون لركوبك، ويتولون لتزولك، لتبلغ بهم غاية مقصدك ومأمولك؛ فيحذقون بك من جميع جهاتك في ليالك ونهارك وسائر أوقاتك، ويكونون مقاومين لقييلك في الشجاعة لئلا يخرج بعضهم عن الامتثال والطاعة؛ فإن ظهر من بعض قبيلك تخاذل وإنكار، فتدفعهم هؤلاء الحماة والأنصار)).

### ممالك الملك

- ((ممالك الملك على أربعة أقسام: الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان، وقد يكون قدر هؤلاء الذين ذكرناهم قدر الحماة والأنصار الذين قلمناهم؛ بحيث إذا ظهر منهم جموح لعصيانك، وإخلال لجانبك؛ فقمعهم هؤلاء الأصناف، وتمنعهم من الخذلان والخلاف)).
- ((ليكن هؤلاء المذكورون أهل شدة وكفاية ونجدة في غاية وزينة، وعدة وجرة وشدة وحدة)).
- ((ليكن سكانهم ببلد حضرتك لتجلمهم لعضدك ونصرتك، لا يفارقونك طرفة عين، ولا يزالون تلقاء وجهك كل أين)).
- ((أما ترتيبهم في الركوب وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب: فليكن أغزازك وأعلاجك بين يديك، وركاب خيلك يزاوئهم يتقدمون عليك، وكذلك النصارى والوصفان يركبون خلفك مع أهل دخلتك الفرسان. وليتقدم على كل جماعة من هؤلاء قائدا متحفظا ناجدا. وكذلك الأغزاز والعلاج يجرون في التقديم على هذا المنهاج.
- والأغزاز لتقسم إلى أربعة أقسام: وصفان وأتراك وأعلاج ومناصفون. وتقدم على كل جماعة منهم قائدا يقتلون به، ويكون لهم علم يمتازون بسببه. ويستحب للملك أن يتخذ رجلا أنجادا كفاة أطرادا، مشائين بين يديك إذا ركبت، ومنصرفين حيث ما صرت، يكون لهم ترتيب في اللباس يمتازون بذلك، يزينون بالألوان الحسان المختلفة الألوان، ويأيدهم الحراب، عليها صغار الرايات، لأنهم مما يزيلون به بهاء الملك وجهاله وضخامته وكماله، وهم مما يترى بهم الملوك والأمراء والأشراف الكبراء)).

### الباب الرابع: الحكامة السياسية

- ((أصل السياسة التدبير، ولا يكون التدبير إلا بفكر صائب سليم. ومن حسنت سياسته عظمت رياسته)).
- ((أن تكون سياسة الملك على تدبير شليد ورأي مصيب رشيد)).
- ((ينبغي أن تدبر في وزرائك وجلساتك وكتابك وقتهاتك وقضاتك وأعوانك وعمالك وقوادك وأجنادك)).



- ((ينبغي أن تكون فراستك في وزيرك وكتّابك وجلسائك وقاضيك ومفتيك وصاحب شرطك وعمالك وصاحب أشغالك وقوادك وسائر أجنادك وعلوك، والإرسال الموجهة من قبلك إلى الملوك أمثالك، والكب الواردة عليك من العدو وغيره)).
- ((ينبغي أن تفرس في وزيرك الذي اتخذته لرأيك وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنتظر إلى أقواله وأفعاله، وكافة أحواله)).
- ((ينبغي أن تفرس في جلسائك، وتخبرهم، وتنتظر في طبائعهم، لتخبر من هو المحب في جنابك، اللامد يبابك، المسرع لقضاء أربك، ومن هو على غير ذلك. واخبر المقشي منهم لأسرارك، والحافظ على أخبارك)).
- ((ينبغي أن تفرس في كاتب سرك المباشر لهم أمرك، إذا كان فيه أربع خصال فهو كامل على كل حال؛ وهو أن يكون صحيح المنهج، قاتلا بالحق، قليل الأخوة والأصحاب، ومن ذوي النيات والأحساب)).
- ((إذا أردت أن تختبر قضاتك، تفرس فيه تفرسا سياسيا، واحكم على اختياره حكما سياسيا، وانظر إلى أحواله؛ فإن كان يميل إلى خطة القضاء، ويعتني بها غاية الاعتناء، فتعلم أنه رفيق الدين، وأنه في أحواله ليس بالمتين)).
- ((أما قوادك فتكون فراستك فيهم بالاختبار، وزرعك الرشا عليهم من غير استشعار؛ فإذا رأيتهم قبلوا الرشا، وعلقت أذيالهم منه برشا، فتعلم أنهم أضاعوا حقك، وخرقوا رثقتك، فلا توليهم أبدا، وإن وليتهم فاعزلهم، تكن راشدا)).
- ((أما جيشك وأجنادك وأنصارك وقوادك، فاخبرهم بأن تنتظر في أحوالهم، وتوهم في أفعالهم؛ فإن رأيتهم مشغولين بالبناء والزينة واللهو واللعب والنساء، فتعلم أن هؤلاء غير معول عليهم في الشدائد، ولا في المواقف والمشاهد، وإن رأيتهم آخذين في التفاخر بالخيال والعدد وآلة الحرب والمجدة، فتعلم أن هؤلاء يعول عليهم في الشدائد، وبهم في المواقف تزول النكايد.
- وإن كانت عادتهم في السلم اشتغالهم بالعدة وآلة الحرب؛ ففرس فيهم أيضا عند اللقاء؛ فإن رأيتهم عند القرب من العدو يزيلون نشاطا وشجاعة واجتهادا وبراعة وحرصا على الملاقاة، وكلمة خاصتهم وعامتهم كلمة واحدة متفقة، فيرجى لك الظفر على عدوك والنصر. وإن رأيتهم عند القرب من اللقاء يقل نشاطهم، ويكثر اختلافهم؛ فمنهم من يحب اللقاء، ومنهم من

يكرهه، اجهد على أن ترد كلمتهم متفقة بالإعطاء والإحسان، والكلام الجميل، ولا تلاق هؤلاء إلا في موضع تملك فيه أمر نفسك، وتسكن به قلوب جيشك، وتقوي نفسك، وتغويهم إليهم)).

- ((أما صاحب أشغالك، المقدم إلى أعمالك، الناظر على كافة عمالك؛ فإنك تختبره وتفرض فيه حتى يظهر لك من حاله ما يخفيه)).

- ((أما ولاتك، تختبرهم وتفرض فيهم وتجبر، فإذا رأيت واليك يأخذ أموال الناس ويتقرب بها إليك، ويرى أن ذلك نصيحة إليك، ومسرة يدخلها عليك، ليعلم مكانه عندك، ويرى أن في ذلك بقتك وقصدك، فهو شر الولاة وأردأهم وأظلمهم وأعداهم، ولا تقربه إلى خدمتك)).

- ((أما حكامك، ففرض فيهم وتقع على مخائهم؛ إذا رأيت حاكمك تبغضه الخيار، وتجه الأشرار، فتعلم أنه على غير استقامة، وأنه أخذ الرشا على الظلامة)).

- ((تكون فراستك في عدوك فراصة واحدة، وإن بدا لك مؤانسة، ومواصلة مساعدة)).

- ((ينبغي إذا وجهت رسولا إلى ملك من الملوك أن تختاره من وجوه قبيلتك، وخيار عشيرتك ممن يليق بالرسالة، ويتصف بالطهارة والجلالة، ولا يكون توجيهك إياه إلا بعد الاختبار على وفق الاختيار)).

- ((تفرض في أرسال عدوك إذا قدموا عليك، ووصلوا بالرسالة إليك، فتسايسهم أحسن سياسة، وتعارض حالهم أجمل ممارسة، وتخاذعهم بالطف مخادعة، وتصانعهم بوجوه المصانعة، حتى يظهر الحبيب والصحيح، والباطل والصحيح؛ فتعامل كلا منهم بما يليق، وتجري معه على ما تراه من منبه)).

- ((ينبغي لك أن تنزل الناس في منازلهم، وترتبهم بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم، وذلك على طبقات الطبقة الأولى)).

- ((ينبغي أن يكون أول ذلك عليك مزوارك الموصوف، وعونك المعروف، ليعرفك بمن يبابك من وزرائك وحجابتك وأرباب دولتك وكتابك)).

- ((أول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك؛ إذ هما صلاحك وتديرك، ليجمع معك على الرأي والتدبير، والجليل من أخبارك والحقير؛ فإن الوزير إذا كان على ما وصفناه، وبالصفة التي

ذكرناه، فلا ينبغي لك أن يخفى عليك شيء من أمرك، بل يشاركه في حلولك ومرك وقلك وكثرك.

ويجب على هذا الكاتب التي تقدمت الذي تقدمت صفته، ووصفت نهايته ومعرفته، أن يكون دريا في قراءة الكتاب وسردها، متحرزا من ألفاظ شائنة، أو وصمة في ضمن الكتاب ثاقبة؛ فإنه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلوس وصما وقبحا يستحق في الوقت كتمانها؛ فيتجاوز الكاتب ذلك اللفظ المشين ولا يبينه في الحين، ثم ينتظر به خلوة إليك فيعيد قراءته عليك، ويظهر لك ما أخفاه عن الجلوس؛ فيعد ذلك من جملة فطنته والذكاء؛ فإذا فرغ الكاتب من عرض كيبك، وتلقى بالتوقيع ما أدت من أربك، خرج لكتابة ما أمرته به، ويجري على أحسن مذهبه، وتبقى أنت مع وزيرك تفاوض فيما يصلح الدولة، ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة).

- ((ينبغي أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هية ووقار، وتعظيم وإكبار، وتفاوض في الأخبار، وأخذ في المصالح وتدبير، يعود بالمناصح والمناجح، لا مجلس هتار ومزاح، ومباينة اطراح؛ فإنه إذا مازحت وزيرك أسقط المزاح عنده هيتك وتوقيرك، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيتك، وربما أيضا تكلم الوزير بما يستخف به عقلك، فتسقط رتبته عندك)).

- ((بعد دخول وزيرك وكاتبك، وقضاء ما أردته من مآربك، يدخل صاحب أشغالك الموكل بحفظ جبايات أموالك، يعرفك بما تجمل وتصير من مالك، ومحاسبة عمالك، وبجميع أشغالك المختصة بدارك في إيرادك وإصدارك، مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب وغير ذلك. ولتلقى أيضا منك ما تأمره به جاريا على عرضك في تقلبه مما يستأنف في يومه من الأشغال، وما يليق من الأعمال)).

- ((يدخل صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك، ليخبرك بما تريد في ليلتك، حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيتك وبلدك، ومع ضبط مملكته؛ فتسأله عن القليل والكثير، والجليل والحقير، لئلا يتوصل أهل العناية للرعية بالمضرة والإذابة، ولا يقع من الحاكم جور في البلد، ولا ظلم لأحد؛ وأنه إذا علم الحاكم وغيره من أهل العناية وأهل الدعارات والجنابات، فإن الملك لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده، فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند

حدودهم، ويأمنون من الجور في صلورهم وورودهم، وفي هنا إبقاء لنظام الحكم، وأمان للعية من المهلك)).

- ((ينبغي أن تتخير صاحب الشرطة، لأنها عند الملوك أكبر خطية؛ فتقدم لها من يكون صاحب ديانة وعفة، وصيانة وهمة، ومكانة وسياسة، ورأي وفراصة)).

- ((تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك، وخلصائك، وأشاخ قبيلك، وأولياتك؛ فشاركهم فيما ظهر من آرائك، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم، وما يصلح أحوالك وأحوالهم، ثم تدعو إلى الدخول أشياخ دخلتك، وأشاخ القبائل المقربين لخدمتك، وقواد أجنادك المستمسكين بحرسك)).

- ((ينبغي أن تتخذ طعاما تجعله عادة مستمرة لتستجلب به القلوب للمسرة، لإطعام ما ذكرناه من أشياخ القبائل، ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل).

فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك قمت إلى مترك ودخلت إليه، وانصرف الناس ما عدا الحاشية، ثم تعود إلى مجلسك ثانية، ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك، وتتخذ ذلك سيرة وعادة؛ فيكون جلوسك معهم مجلس وقار وهيبة، وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مضيعين لأسراك بما انطوت عليه سرائر خدامك، وجميع أجنادك؛ ففاوضهم بما يصلح أمور دولتك، ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك.

ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه الحال، ويحتمله المجلس من المقال، ثم تدخل إلى دارك لأراحتك واستقرارك، وتنصرف الخاصة إثر ذلك، ويربص الوزير قليلا هنالك لقضاء حوائج من لا يبلغ إليك ولا يجد من سبيل ولا مسلك للوقوف بين يديك؛ فإذا استوفى مأرب الناس على اختلاف الأنواع والأجناس، رتب الحراس على أبواب القصر، وقد استوفى ما قبله من الأمر؛ فإذا أذن المؤذن للعصر خرجت إلى الصلاة، وتترتب للجلوس في أحسن الهيآت، ثم تجلس لمجلسك المعتاد، وتأذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد؛ ففاوضه فيما يختص بك، وما تراه من مطلبك، ثم تأمر بدخول الخاصة بعد ذلك؛ فمسلك معهم في الحديث أحسن المسالك، وتأخذ معهم فيما يظفر بالأعداء، ويصلح على حمائك الأولياء، وكيف تتوصل لأحد بلاد العدو والمعاد، والمناوى الحاسد، بوجوه المقاصد.

وليكن جلوسك ذلك متصلا بالعشاء الآخرة، تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة، ثم تدخل لدارك، وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك، فتخرج الخاصة إلى ديارهم، ويبقى الوزير قليلا بعد انتشارهم، ترتب لك الحراس للبيات، وتغلق بعد الترتيب على البيات، ويأخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه، ويحض بالتحفظ على جميع مناهجه.

وعلى هذا تكون عادتك في سائر الأيام على الاستمرار والنوام ما عدا يوم الجمعة؛ فإنه يوم راحة وسعة، فيه تستعد للصلاة، ويعتد الخدام لركوبك في أحسن الهيئات؛ فسطيب وتنظف وتخرج في أحسن اللباس نوعا على الترتيب المطلوب شرعا.

وبعد فراغك من الصلاة تجلس لجلسك للشكايات، وتأخذ في قضاء الحاجات، والفصل بين الخصماء، والانتقام من الظلمة الغشماء؛ فتقمع الظالم وتقهره، وتحمي المظلوم وتنصره، وتخصر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لإزالة ما يقع في الأحكام من الالتباس.

وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور مخصوص بالرعية وبالجمهور تنفق على الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام المحتاجين، وتنتظر في أهل سجونتك، وفيما أخذ المأخوذ من رعياتك؛ فتسرح من ترى تسريحه، وترد إلى السجن من لم يرد الله أن يرحمه، وتواسي ذوي الحاجات ومن يستحق المواساة؛ فمن كان حق من الحقوق الشرعية، رددت له أمره إلى قاضي البلد ليفصل في القضية، ومن كان في غير ذلك من الأحكام التي لا يقضي فيها أحد سوى الإمام، فصلته بما يتقاضيه نظرك السيد، وأريك المصيب الرشيد).

- ((ينبغي أن تتخذ في أيام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس، ولا تمضي فيه حكما، تنفرد فيه بالنظر في مجايبك وأموالك، وتفقد أحوالك، وتعرف أموالك ومالك من الحاجات في ديار الصناعات؛ مثل النظر بالعدد الحربية التي تظهر بها القوة في الكلية، وفيما يخصك في نفسك ومالك وأهلك، وما تحتاج إليه من كثرك وقلك)).

- ((ينبغي أن تتخذ أياما في السنة، وتلك من السير الحسنة؛ فتفقد فيها أحوال جيشك، وقوادك، وأجنادك، وعددك، وأعدادك؛ فميزهم تميزا تعرف منه أحوالهم، وتخبر قطائعهم، وأموالهم، وتضبط عددهم؛ فتحسن لمن يستحق الإحسان، وتتمن من يستحق الامتهان)).

- ((ينبغي أن يجري مع الناس على وقف زمانهم وأوقاتهم وأغراضهم وطبائعهم وطبقاتهم، وأن تأسس من كل مفرط الجهالة من الخدام، وترابطه مُرابطة الجموح بالجماع، حتى تنفع بخيره،

وتأمن من شره؛ فستدرجه بلطف سياستك، وترده إلى وقف غرضك، وذلك من رياستك، حتى يصير بعد جفوته طوع قيادتك، ولا تتلقاه بالعنف من أول وهلة؛ فالخير كله في التأني والمهلة، ولا خير في السرعة والعجلة، ولا تعنفه على حاجة إذا كانت لك به حاجة، وكن كالطبيب الماهر الذي يعرف الأعراض فيعطي الأدوية على حسب الأمراض.

وكذلك إذا كانت لك قبيلة وافرة وجوع متكاثرة، وأحوالها متشاجرة؛ فتجري أولا على أغراضهم، ولا يسوءك ما تراه من جفوقهم وإعراضهم، وعدم نيل مطلوبهم، ليميلوا إليك بقلوبهم؛ فإن رجع بعضهم إلى غرضك وهواك وبقي البعض تابعا لسواك، فسلط من أطاعتك منهم على من عصاك، لتبلغ فيهم مرادك ومناك، وانتقم لبعضهم من بعض، وأدخل بينهم الشئان والبغض.

وكذلك تفعل بخدامك وأجنادك وحواضر بلادك؛ ترتبهم ترتيبا حسنا، وتوسعهم إكراما ومنا؛ فيكون الشرفاء عند أرفع الناس في الرتب كأهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب، ثم الفقهاء، لأنهم مصاييح الدين، وبهم اقتداء المسلمين؛ بهم تقام الشرائع، وتسند النرائع، وتعصم بهم من الأهوال والبدع، ويعتز بهم الإسلام ويرتفع، لأنهم ورثة الأنبياء، وهم أعلام الاقتداء، ثم أشياخ البلد، والأمناء، والوجوه، والفضلاء، والضابطون لجموعهم، الرابطين تابعهم لمتبوعهم، مثل أهل التجارات، وأهل الحرف والصناعات؛ فتزل كل جماعة منزلتها، وترتبتها في طبقتها. ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم، وأياديك منبسطة إليهم؛ فرما تدعوك الضرورة إلى الانتفاع بهم في الشدائد، فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، وذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوقفتك بالإحسان منهم، ولتكن معاملتك لهم بما يليق من إكرامهم وحفظهم واحترامهم)).

- ((أما العامة والدماء، فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها، ولا يتعلون حلها، وتجريهم على ما تعودوا من السير المحمود، والمالاة الخجيدة، ثم لا تركهم لأغراضهم الفاسدة، وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة؛ فإن العامة مجبولة على الفساد، وعلى اتباع الأهواء وقلة السداد، لأن العامة الغالب عليها الشرار، والهرج والاضطراب؛ فإن العامة إذا قلرت أن تقول، قلرت أن تقول.

وأما الجري معهم على حسب أوقاتهم وأزمانهم وطبقاتهم؛ فإن كان زمان رخاء وخير، ففسير فيهم أحسن سير؛ تعدل في مغارمهم عند الغرامات، وتوصي بالتحفظ عليهم الولاة، ولا زيادة ولا إحطاط؛ وإن كان زمان فتنة ثائرة، وفساد في البلاد ومشاجرة، فتشد على الرعية جهد الاستطاعة، وتظهر عليهم فضلك، فتضع بهم في الطاعة، وتدافع عنهم إما بوجه السياسة وتدبير الخلافة والرياسة، وإما بوافر أجنالك بما تراه من قوته واستعدادك، وإن كان من قحط ومجاعة واقعة وأزل؛ فترق بهم في المخازن والمجاوي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي، وتؤثرهم مما ادخرته لشدائهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فيعم أسواقهم بما اخترنته من الطعام مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام)).

- ((بالطعام قوام عالم الإنسان؛ فلا تفرط في اختراذه في كل أوان)).

- ((ينبغي أن تكون يقظا، ماهرا، حازما، دهقاناً، ضابطاً لأمورك، عالماً بصغير الأمور وكبيرها في تدبيرك)).

- ((اليقظة رأس الحزم، وعمدة العزم: أن من حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته، أن يعتد لنفسه بأربعة أمور لا يحيد عنها لكل ملك مشهور الأمر:

أ- المعقل: ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلاً يكون لك في المهمات مؤنلاً، تلجأ إليه عند الشدائد، وتحصن به من العدا والمعادن. وصفة المعقل أن يكون حصناً حصيناً لا يرام، وركناً منيعاً لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تفرع، وعقيلة لا تفرع، وبكر لا تخطب، وقلعة لا تطلب. قد اشتمل على الماء والاختزان، والعدد والإمكان، تجعل فيه ذخائرك وأموالك، وأثاثك وأمتعتك وأثقالك، تسكن فيه أجواد أجنالك، وحماتك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المرتجلة، والزعماء من الرجال المخلصه، الذين لا يروعههم الحمام، ولا يخوفهم سل الحسام، ولا يبالون بما أبرق وأرعد، ولا بمن تجرع وأوعد، وتسكن فيه أهل الصناعات، وأرباب التجارات والبضاعات، حتى لا يحتاج الحصن إلى غيرهم على قلتهم أو كثرتهم.

وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع؛ مثل التين والزيتون، وما قارب هذه الأنواع. وإن تأنى أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر، فنعم الحصن والثغر، وإن قدرت أن يكون بجره تحت حكمك، فهو أحسن لنظمتك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون، وأحصن وأمنع منها وأمكن.

ب- الجواد: ينبغي لك أن تختار جوادا من خيار الخيل وعتاقها، وكارمها وسابقها، كامل الخلقة، معتدل الحركة والمشى، لا يكل من السير، ولا يسأم من الجري، كالطير إذا غار وإذا سار، لا يعارض في التيسار، وإذا جرى لا يسبق، وإذا طرد لحق، أسبق من السهم، وأسرع من الوهم، تعده للمهمات، وتدخره للشدائد والملمات.

ج- ينبغي ألا تفارق ذخيرة من الذخائر، مما غلا ثمنها وخف حملها، كالياقوت والجواهر الثمينة العظيمة، التي لها نفاسة وخطر وقيمة، تصادر بها أعداءك، وتصلح بها آراءك؛ فإن اقتناء الذخائر عون على الشدائد والضرائر.

د- ينبغي أن تتخذ وزيرا على ما وصفناه، محتو على ما قررت، تجده في الشدة، أنيسا في الوحدة، يقصد في مرضاتك المهالك، ويسلك بك أحسن المسالك، لأنه قد ثمر بالأسفار، وجرب الأمور بالاختبار، وعرف مخادع الطرق ونواحيها، وسار في أقاصيها، وأنت غير عارف بالطرق وتشعبها ومخادعها وخباياها؛ فلهذا يجب لك اتخاذ الوزير الصالح المشير الناصح)).

#### الباب الخامس: السياسة الحربية

- ((العدو بالنسبة إلى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك، وعلو أضعف منك، وعدو مساو لك:

أ- أن يكون العدو أقوى منك: إذا كان العدو أقوى منك؛ فيجب عليك أن تدفعه بأنواع المحاولات، وتستميل قلبه بالمراسلات، وتسايسه برأيك ومالك، وتصانعه في جميع أحوالك، ولا يجب عليك أن تدافعه بنفسك. وأن تكون لك جواسيس في بلاد العدو، ويرقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله، وتشاهد أحواله لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن أحوال العدو سرا وجهرا؛ فكلما رام هذا العدو خداعا، وأظهر فيك أطماعا، جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره؛ فتأخذه في قوام مدافعته، إما بحيلتك أو بمصانعتك، وذلك بقدر حزمك وجدك وسياستك وكيدك؛ وذلك بأن تكب كتابا إلى عدوك ووزرائه وخاصة وأهل رايته، تعلمهم بإحضاء الأموال والزيادات الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطف والسياسة والتلطف، حتى تخدعهم بمالك، وتستميل قلوبهم بنوالك؛ فإن صحت معاملتك بإعطاء الأموال، وتلت بغيتك في كل الأحوال، سكنت عدوك من غلوه حططته من سموه. وإذا لم تقدر



على دفع عدوك بما ذكرناه، ولا تجد في خاصته من يقبل مأثورة، بل يرده ويأباه، فتجبل بوجه الحيل، لتل من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات.

ومنها أن ترور كتباً تعدها أجوبة، وترخفها بزخارف معجبة، وتبدع في تزويرها، وتحسن في تصورها كأنها وردت عليك من خاصة عدوك، تظهر بها غاية سلوك؛ فقرأها على خاصتك الأقربين، وتعلمهم أن خاصة عدوك في جنابك مجبر، وأن خواص العدو قد كتبوا إليك بما يعود بالمنفعة عليك؛ فيشيع ذلك بين خواصك الأخيار، وينالها أهل الحضرة الحظار. وفي هذا مكره عجيبة، وحكمة بديعة غريبة؛ فإذا قرأت هذه الكتب المزورة على خاصتك بما أردت ودبرت من مصلحتك، أمرت بالجواب عليها بما يناسبها وينضاف إليها؛ منها أن تضمن لهم ما طلبوا في كتبهم، وتعين لهم ما عينوه من مطلبهم، ويضبطها كاتيك بأمارات كأنها حق عند السامع، وصدق وتفرع السامع، وتبث هذه الكتب صحبة من يبلغها إلى العدو.

إذا رأيت عدوك الذي هو أقوى منك أراد التحرك عليك، والمبادرة إليك؛ وكان قليل السياسة، ضعيف الرياسة، مع كثرة جيشه وماله، وأمداده وأبطاله؛ فيرجى لك الظفر به، والنصر عليه، وذلك لعدم سياسته، وضعف عيلته، وسوء تدبيره)).

– ((إن كان لك معقل تلجأ إليه، لكك ترجح التعويل عليه، ينبغي حينئذ تحصين معقلك الذي أعدته لحصرك، وتلجأ إليه في مهم أمرك، وأثاث جيشك، وأولادك وحمايك ورجالك، ثم تتسع لعدوك عن البلاد، بما عندك من الأجناد، خارجاً عن طريقة ذلك، راكم الممالك، قاصداً لبلاد العدو لتسكنه من الغلو، وتصده عن العتو. وذلك إذا قصد بلادك، وأراد قصرك ونكادك، فإنه يأتيك بجميع أحشاده وأنصاره، وإمداده وقواده، ويترك بلاده خالية من الحماة، ومعرضة للآفات؛ فتقصدها أنت لفرصة تنتهزها، أو وقعة تنتجزها؛ ففعل ذلك في بلاده، لتقابل ما فسد من بلادك، بمضادة من فساد بلاده. وفي ذلك مشقة على العدو القاصد، لما يلحق بلاده من المفاسد)).

– ((إن كان العدو صاحبك خرج، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته، ولا قبل لك بمجوشه ولا ساقاته، وهو موازن لك في اللهاء والسياسة والآراء، ولم يقدم على بلادك بأجنامه حتى حصن معاقل بلاده، حتى لا تجد فيه فرصة ولا نكاية توجب له غصة؛ فينبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه، إلى أن يتزل معقلك، ويهم بتضييعك؛ فإذا نزل معقلك، فتحرك عليه، وآت جيوشه

قاصدا إليه؛ فما يمكن عدوك المذكور إلا ترحزه عن معقلك المشهور، وقصده إلى بلادك وملاقاتك بمن معك من الجمهور؛ فإذا رحل العدو عن ذلك المعقل، اشتد أهله وانتعشوا، وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا، ووقعت الرجفة في جيش العدو، وسكن من ذلك العدو؛ فإذا صمم العدو للقائك قاصدا، ورحل إليك مواجهها جاهدا، فترحل مرحلة من أمامه، تحمل بها عقدة اعترامه؛ فلا يزال ذلك كذلك، ترصده في وجوه المسالك، كل ما دنا منك العدو، وتعرفت مكانه، وأين هو، جعلت مسافة بينك وبينه، لا يقدر فيها على التوصل إليك، ولا أن يقتلك، ويهجم عليك؛ فيضطرب العدو في أحواله، ويضعف في ترحاله، فلا يقدر على العودة إلى الحصار، فيتوقف بين الإقدام والفرار، وتضعف حينئذ حركته، وتكسر شوكته، وتقل حدته، وتقل نجذته، وينكره جيشه، وينخفض عرشه، فما يرى أرجح من الرجوع إلى بلاده ليريح نفسه، وجمل أجناده)).

- ((إن لم يرحل العدو عن معقلك الذي نزل، ولم يرد إلا نكايتك حين قدمت له؛ فينبغي لك أن تتحرر من جملك وحمائك وأهل نصرتك وكفائك، وتغير على أطراف محلته، ولا تترك من أتباعه من يتحرك في حيلته، فيكره مقامه، ويجنح إلى رحلته؛ فلا يزال ذلك دأبك مساء وصباحا، تضيق عليه المسالك، قتلا وكفاحا، فتمنع عنه القوافل، وترصد فرسانه في المخادع والمخاتل، حتى يصير محصورا، بعد أن كان حاصرا، ومقهورا بعد أن كان قاهرا، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك، وتقل قوتهم، فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بمواده، فتشت عليه الأجناد، وتختلف عليه آراء القواد، وتضعف نجدة الأحشاد، فيرحل عن المعقل بغير اختياره)).

- ((إن كان العدو حين أتى مصمما، إلى معقلك قاصدا، أو إلى مجلسك ومزلك متابعا لك ليلا ولا نهار، عاملا عليك سرا وجهرا؛ وكان العدو مثلك في الدهاء ونظرك في الحزم والآراء؛ فيرجى لك أن تظهر به وإن كنت مطلوبا، وتغلبه وإن ظنك مغلوبا؛ فإن المطلوب يغلب الطالب حتما، ويستولي عليه رغما، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشا وأثقالا، وأثقل حركة وانتقالا، وفي الجيش الكبير القوي والضعيف، والثقل والخفيف، والطالب أبدا على اختياره، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره؛ فهو أقوى جلدًا وصبرا، فلا يأمن الطالب منه مكرًا لا سيما في المواضع المعطشات، والمهامه المدحشات)).

- ((ب- أن يكون العدو أضعف منك، وكان ذا رأي وحزم وانتهاض زعزم، وله معاقل حصينة، وأماكن آمنة، ينحصر فيها ويمتنع، ويتأمن فيها ويتقطع، فلا يقدر قائد من قوادك عليه، ولا أنت؛ فإذا قصدت بنفسك إليه إما لتحسين قلة الحصينة، وإما لركوبك المعطشات التي يبلغ بها تأمينة؛ فينبغي حينئذ أن تغزوه مرتين في السنة، ولا تغفل في لحظة ولا سنة، وذلك من زمن الصيف والخريف، وحين يستوي في حين الخيرات من بلاده، من كل تليد وطريف، فتستعد له الاستعداد التام، وتنهض له بالجد والاعتزام؛ فترحل إلى بلاده، فتأكل زرعهم في أول حصاده، وثماره في إبان جناتها، وترلونها في جميع أنحاءها، حتى يضيق عليه كل التضيق، وتخرج الرعية عن طاعته بالتشتيت والتفريق، لعدم دفاعه عنهم، وإمكان جيشك منهم، وخراب بلاده، وقلة جيشه وإعداده، فيضعف بعجزه عن الخروج إلى المعطشات، ولقلة صبره على المدهشات، فيسامه جيشك، ويزداد كربه ووحشته، وينكره خاصته الأقربون، ويعودون عليه بالربون، ولا يمثل أحد من أتباعه، ولا يوافقها فيما جهر به وسره؛ فحينئذ تقصد إلى حصونه وبلاده، لقلّة أعداده، وضعف أجناده، فتأخذ منها الأقرب فالأقرب. فكلما أخذت من حصون عدوك، زاد في قوتك وعلوك، واستعنت عليه بما أخذته من حصونه، وذلك زائد على ضعفه وهونه؛ فتستولي على مجامها وأموالها، وحماة البلاد ورجالها، فتضيق عليهم بأنواع التضيق، وتحاصره محاصرة القوي المضيق، لأنك استعنت ببلاده على بلاده، ثم تأخذ في البناء والتضيق عليه بكل وجه ترى أنك تصل به إليه؛ فتبنى على كل برج من بروج معقله برجين، ثم لم يفتّر عنه طرفه عين، ثم تشحن الأبراج بالرمادة والرجال والآلات التي تحتاج للقتال، ثم تدبر بمعقله الخفائر والمخادع التي تليق بالخاصر، وتستعمل الدركات والأنفاظ والمتجنيقات، وتستأصل الرمي على ذلك في كل الأوقات؛ فبالضرورة تأخذه عنوة، وتغلب عليه سطوة، ويسلم لك المعقل بالاضطرار، لشدة ما يلقي أهله من الحصان)).

ج- أن يكون العدو مساويا لك في جيشك، وبلاك، وحزمك، وجلادك، وكفايتك، وسياستك، ونجابتك، ورياستك؛ ينبغي لك أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة والمالاة والخاصية؛ فتكون مصالحتك له من جملة المكائد، ومن الدهاء التي تبلغ المقاصد؛ لأن مصالحة العدو حتى تظهر به مكيدة، وتلك سياسة وكيد، وإن كانت عند الناس مذمومة، وبصفتها بالعدو موسومة؛

فهى عند الملوك محمودة، وآثارها مشهورة. ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادة، ولا في موالاة، ولا في محاسنة)).

- ((المصالحة بين الملوك مكيدة، وهى عين المحاولة الوكيدة، والحركة الشديدة؛ فلتكن لعدوك يقظانا، وفي محاولته دهقانا)).

- ((أكثر لعدوك الهدايا، ونص على إرساله جزيل العطايا، وآنسه وواليه، وأكرمه وصافيه، وأظهر له الوداد، وابن له الإصفاء، ووال خاصته بالإكرام، وواليهم بجزيل الإنعام، وأظهر للعدو الشفوف عليك في الحال، حتى يظهر أنك تخافه، وأنه ظفر منك بالآمال، وأنك تماديه لأجل المخاف، وتواليه على وجه الاستعفاف.

وكذلك تكتب خاصة عدوك الذين يوصلون الهدايا إليه، ليعلموك إذا رجعوا ما هو عليه، وما فعل في بلاده، وما حدث من زيادة في أجناده، وما درك من الخير بل الجيش في عامه، وما حدث من الحوادث في مدة مقامه، ففعل أنت ما يقابل ذلك، وتريد أضعافا على ما هنالك، من حيث لا يكون للعدو بك شعور، ولا يعرف لك عند الخاصة ولا الجمهور)).

- ((لا تظهر زيادة بمحضرتك، ولا تفش ذلك في امرتك، بل تعجل ذلك في البلاد التي لا تلي العدو، وهى عنه بعيدة، وذلك إذا فعلت من وجوه المكيدة؛ فلا ترال في زمن المهادة تترك الفرسان والأجناد، وتستعد لعدوك أتم الاستعداد.

وليكن اشتغالك بتوفير العدة وآلات الحرب، التي تكون منها النجدة والشدة، وكل ذلك بحيث لا يشعر العدو، ولا يعمل وجه تسببه، لأن العدو يكون آمنا من غائلتك، لأجل مهادتتك ومصالحتك، وعاملا على أحوالك، التي تفعلها في أقصى بلادك عن تدرييكك، وجملة أجنادك لا نظير لك، آخذ في مناصحته، مستمسكا بمهادنته ومصالحته، موافقا لجميع أغراضه واختياره، مؤثرا له على خاصته واختياره، وتلك مكيدة أكركتها، وخديعة حسنة دبرتها.

وفي أثناء هذا على عقد الأمر وحله، تكون عادتك، ضم جيشك للأعياد، تجمعهم من سائر البلاد، وتحصر قودك، والأجناد يعيدون لعيدك، ويمثلون أمرك في وعدك ووعيدك)).

- ((في الأعياد تكون هداياك لعدوك، وفيها تظهر إقامتك وسموك، لتعرف أحواله في أعياده، وما يزداد في أجناده وقواده يعلمونك إذا رجعوا إليك، حتى لا يخفى عليك شيء من حاله، وحتى يأمن العدو من العدو، ومن غوائلك، لحسن محاولتك وتراسلك؛ فإذا تحققت أن جيشك أكثر

من جيش عدوك، وأنجارك أكثر من أنجاده، ومدادك أوفر من إمداده، ورأيت فرصة فانتهازها، وافتح عليها وانتجزها؛ فإذا فعلت ذلك على حين غفلة، فيرجى لك الظفر به من أول وهلة، لأجل الفراق جيش عدوك في البلاد وطمأننته بترك الاعتداء؛ فإنك إذا قبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك إذا ظهرت له راياتك وساقاتك، فالغالب أنك تغلبه، وتظفر به وتنكبه، لأنك أكثر أهبة واستعدادا، وأقوى جيشا، وأوسع إمدادا، وإن لزم العدو موضعه، ولم يخرج إلى لقائك، لعدم وجدان جيشه هنالك؛ فيبغي لك أن تنهب إلى بلاده، وتسعى في شتاته وفساده، وتضعف بلاده غاية الضعف، وترهن أهلها بالغارات والزحف، وإن قدرت على أخذ ذلك العدو وحصاره، والتزول على بلاده وانتهازه، فلا تقصر على إنزالهم، والتضييق عليهم في محاله. وإن لم تقدر عليه، وتري أن أحواله تشتت، ونكاية عدوك تعذرت، فتأخذ أملك بقدر الاجتهاد، وتعود قافلا إلى بلادك، بما معك من الأحشاد، ثم لم تول تريد في جيشك ومردك وأعدادك، ولا تنفس عدوك ساعة، ولا تفتره حتى تأخذه وتظفر به وتقهره؛ فإن العدو لا يقدر على ملاقاتك، وتدافع عن نفسه خوفا من جيشك وساقاتك، بل يدخله الخوف والإرهاب والفشل في أحواله، والاضطراب لما يراه من فساد بلاده، وقل جيشه وقلة أحشاده؛ فإن كان حين سمع بحركتك إليه، أرسل إلى جيشه قبل أن تصمم عليه، وكان جيشه قريبا منه، بحيث لا ينفك عنه فيصلون إليه، قبل هجومك عليه، وقد استعد بجيشه للقائك، وقابلك بوجه أعدائك؛ فإن كان اللقاء بين حد بلادكما، وأظهرتما استعدادكما، فيرجى لك الظفر به، والغيلة عليه)).

الهوامش:

- 1- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص: 49.
- 2- إيف لاكوست: العلامة ابن خلدون، ترجمة: ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، ط1، 1974م، ص: 99، 100.
- Pierre chaunu, (1969): L'expansion européenne du XIII siècle au XV siècle, P.U.F. Paris, pp: 104- 106.
- 3- محمد عابد الجابري: العvisية والدولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط4، 1984م، ص: 21.
- 4- عز الدين العام، الآداب السلطانية: دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي، عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 324، فبراير 2006م، ص: 9. كمال عبد اللطيف: في تشريح أصول الاستبداد: قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م، ص: 8، 109، 110.
- 5- وداد القاضي: النظرية السياسية للسلطان أبي هو الزياتي الثاني، مجلة أبحاث، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، 1987م، ع27.
- 6- أبو هو الزياتي: واسطة السلوك في سياسة الملوك، مخطوط بجمعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم: 63، ص: 2.

- 7- عز الدين العلام: م. س، ص: 43، 44.
- 8- عن مختلف القراءات والمناهج الموظفة في دراسة كتب الأحكام السلطانية، يراجع: عز الدين العلام: م. س، صص: 10- 24.
- كمال عبد اللطيف: م. س، صص: 26- 40.
- 9- وهو ما قامت به وداد القاضي في مقالها المذكورة سابقا.
- 10- وداد القاضي: م. س، ص: 78. كمال عبد اللطيف: م. س، ص: 100.
- 11- للقرى: أزهار الرضا في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأياري وعبد الحفيظ شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ/1939م، ج1، ص: 249.
- 12- أبو حمو الزياتي: م. س، صص: 92- 97.
- 13- نفسه، ص: 16.
- 14- عز الدين العلام: م. س، ص: 46. وعن للوروث الأخلاقي الفارسي والوناني والعربي، يراجع: محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية عقلية لنظم القيم في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2006م، ص: 131 وما بعدها.
- 15- أبو حمو الزياتي: م. س، صص: 97، 98.
- 16- ابن الأحرر: تاريخ الدولة الزناتية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1421هـ/2001م، ص: 77.
- 17- نفسه، ص: 80.
- 18- أبو حمو الزياتي: م. س، صص: 22- 55.
- 19- عز الدين العلام: م. س، ص: 231، 57.
- 20- أبو حمو الزياتي: م. س، ص: 55، 56.
- 21- نفسه، 4، ص: 22.
- Driss Ben Ali, (1983) Le Maroc précapitaliste: formation économique et 22 sociale, Société Marocaine des éditeurs réunis, Rabat, pp: 157-165.
- 22- أبو حمو الزياتي: م. س، ص: 11. عن هذه الحركة، انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، ج7، ص: 163، 164، 165. الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1955م، ج4، ص: 4، 5. ابن الأحرر: م. س، ص: 77، 78، 79.
- 23- أبو حمو الزياتي: م. س، ص: 74 وما بعدها.
- 24- نفسه، ص: 85، 86.
- 25- نفسه، صص: 92- 97.
- 26- ابن الأحرر: م. س، ص: 77.
- 27- نفسه، ص: 80.
- 28- أبو حمو الزياتي: م. س، ص: 51.
- 29- نفسه، ص: 23.
- 30- نفسه، ص: 23.

## مدينة المنصورة الأثرية: ظروف نشأتها وعمرانها

~~~~~ أ.د. بالحاج معروف \*

مقدمة: لقد أولى السلاطين المسلمون عناية خاصة لتأسيس المدن منذ الفترات التاريخية الأولى لظهور الدين الإسلامي، فشيدوا مدنا عديدة في كل المناطق التي فتحوها سواء في المشرق مثل البصرة والكوفة والفسطاط... الخ، أو في بلاد المغرب الإسلامي مثل القيروان التي شيدها عقبة بن نافع الفهري سنة 50هـ، وتيهرت التي بناها عبد الرحمن بن رستم سنة 160هـ، وقرطبة التي أقامها عبد الرحمن الداخل وفاس ورقادة والمهلبية ومراكش وبجاية وغيرها من المدن الأخرى التي شهدت ازدهارا وغوا متقطع النظر حتى صارت من الحواضر الإسلامية الكبرى، وقد حذا السلاطين المرينيون حذو أسلافهم فأسسوا مدنا ضاهت ونافست المدن السابقة لها، وهكذا كانت مدينة المنصورة - التي لم يبق منها حاليا إلا الأطلال - بعد تأسيسها من بين أروع ما أنتجته الحضارة الإسلامية في مجال العمران ببلاد المغرب الإسلامي حسب ما ورد في المصادر التاريخية، وقد نشأت هذه المدينة في ظروف استثنائية، إلا أنها تطوّرت في فترة زمنية قصيرة لتصبح قبلة التجار من المشرق والمغرب، وسنحاول هنا التعرّض إلى تلك الظروف الاستثنائية التي نشأت فيها المدينة وإلى عمرانها مع التطرق إلى أهم منشآتها المعمارية.

1 - ظروف تأسيس مدينة المنصورة: لم تكن نشأة مدينة المنصورة ضربا من الصدفة أو طفرة حضارية مجهولة السبب، ولكنها تأسست في ظروف عصيبة واستثنائية وكان ظهورها خاضعا لعوامل وظروف أساسية منها:

أ - الحصار الطويل: بعد أن استعصت مدينة تلمسان الزبانية أمام الغارات التي كان يشنها عليها أبو يعقوب يوسف المريني<sup>1</sup> وأسلافه لجأ السلطان المريني إلى وسيلة تجعل من مدينة تلمسان لقمة سائغة في يديه، فقرر ضرب حصار طويل عليها ومنع أيّ تموين خارجي عنها حتى تسقط،

\* - أستاذ التعليم العالي في علم الآثار - قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة تلمسان.

وذلك ببناء معسكر للجند إلى جانبها، بحيث يسهر شخصيا على ديمومة الحصار واستمراره لفترة طويلة، ويتطور المعسكر مع إضافات المرافق الضرورية شيئا فشيئا إلى مدينة كبيرة محصنة، وتتفق جميع المصادر التاريخية على أن الحصار الطويل على تلمسان منذ 698 هـ/1299م إلى غاية 706 هـ/1307م كان السبب الرئيسي لبناء المدينة.

ب - مناح المنطقة: تتميز مدينة تلمسان بمناخها القاري الذي يتسم بالبرودة الشديدة والأمطار الغزيرة شتاء إضافة إلى تساقط كميات معتبرة من الثلوج، فلم يكن باستطاعة الجنود المرينيين المبيت لفترة طويلة تحت الفساطيط والخيام، وعليه أمر السلطان المريني أبو يعقوب يوسف جيشه حسب ما نقله ابن أبي زرع ببناء قصر له بمجرد حلول أول فصل للشتاء ثم شيد مسجدا إلى جانبه، وتكملة لعمران المدينة تلاهما ببناء المرافق العامة.

2 - إستراتيجية اختيار الموقع: تقع مدينة المنصورة حاليا ( اللوحة رقم: 1) على بعد 2 كلم غرب مدينة تلمسان، وعلى بعد نصف كلم من باب الخميس، ويحدها من الشمال السكة الحديدية التي تحاذي الأسوار، ومن الجنوب هضبة العطار ومن الغرب مدرسة الزراعة، وتربّع المدينة على مساحة تقدر بحوالي مائة هكتار تحدها الأسوار المشيدة بالطابية، والتي تمتد على مسافة 4 كلم (الشكل رقم: 2). وقد تأسست داخل الأسوار وفوق البقايا الأثرية سنة 1850م قرية المنصورة التي احتلت مساحة تقدر بحوالي 40 هكتار.

لقد اكتفى كل من يحيى بن خلدون وإسماعيل بن الأحمر بالإشارة فقط إلى موقع مدينة المنصورة، حيث ذكروا أنها تقع بظاهر تلمسان<sup>2</sup> أي بغربها.

أ - التسمية: أشارت العديد من المصادر التاريخية إلى اسم المدينة التي أسسها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف، فقد أورد كل من ابن أبي زرع<sup>3</sup> وابن الأحمر<sup>4</sup> والتسي<sup>5</sup> اسم "تلمسان الجديدة"، بينما ذكرت المصادر الأخرى<sup>6</sup> أن أبا يعقوب المريني سمى مدينته الجديدة بالمنصورة تيمنا وتبركا بالنصر، لكن ما يلفت الانتباه الاسم الآخر الذي نقله ابن أبي زرع وهو "الخلة"<sup>7</sup>.

ب - إستراتيجية اختيار الموقع: لقد أغفلت المصادر التاريخية جميعها عن تلك الإستراتيجية التي كان يتوخاها الأمير المريني في اختياره لهذا الموقع دون غيره، إذ من المعروف أن مؤسسي المدن المشيدة في بلاد المغرب الإسلامي مثل القيروان وتيهرت وفاس وبجاية قد اختاروا مواقعها وفق إستراتيجية معينة، فمدينة المنصورة لا تخرج إذا عن القاعدة، فما هي الإستراتيجية التي اتبعها



السلطان المريني أبو يعقوب في اختياره لموقع المنصورة؟ يمكن أن نتصور بعض الإستراتيجيات التي على أساسها بنيت المدينة المرينية ونجملها فيما يلي:

أ - لقد اختار أبو يعقوب هذا الموقع نظرا لقربه من عاصمة دولته فاس، فيصبح خط الرجعة آمنا بالنسبة إليه ولجيشه في حالة الإخفاق العسكري، كما كان يتوخى اتقاء ظهره من ضربات الأعداء المفاجئة، لا سيما بعد سيطرته الكاملة على القبائل والمدن التابعة للحكم الزياني في تلك الجهة.

ب - لم يكن أبو يعقوب يفكر في بناء مدينته الجديدة بعيدا عن تلمسان، وذلك لمعرفة الدقيقة لمكانة هذه المدينة المتميزة والمروقة في التجارة العالمية، بسبب وقوعها وسط شبكة المسالك والطرق التجارية الكبرى، وإنما كان يهدف في حقيقة الأمر إلى شلّ حركة تلمسان وإغلاق كل المنافذ عليها، ومن ثم الارتقاء بمدينته الجديدة لتتبوّء مكانتها في مجال التجارة.

ج - عدم ملازمة المواقع الأخرى المتاحة لتلمسان، فالجهة الشرقية تعرّض الجيوش المرينية إلى المباغنة من قبل الحفصيين الذين كانوا يسيطرون على الجهة الشرقية للمملكة الزيانية، وأما الجهة الجنوبية فهي منطقة جبلية لا تليق لإقامة مدينة كبيرة، وأما الجهة الشمالية فعبارة عن منخفض تطل عليه مدينة تلمسان، وعليه فالجهة الغربية كانت الأنسب لتشييد المدينة.

3 - نشأة المدينة وعمرانها: بعد استقراء المصادر التاريخية تأكدنا أنّ مدينة المنصورة شيدت خلال مرحلتين تاريخيتين مختلفتين، فأما الأولى فكانت في عهد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف، وأما الثانية فكانت في عهد حفيده أبي الحسن المريني، وفي ظرف زمني قصير انتقلت هذه المدينة حسب شهادة عبد الرحمن بن خلدون من مجرد معسكر إلى مدينة تضاهي الحواضر الإسلامية المعاصرة لها لاّتساع رقعتها وانتشار عمرانها وازدهار تجارتها، فصارت قبلة للتجار ورسل مصر والشام وبنى حفص<sup>8</sup>.

أ - المرحلة الأولى: يتفق كلّ المؤرخين القدماء على أنّ بداية تأسيس مدينة المنصورة كان سنة 698هـ/1299م<sup>9</sup>، باستثناء السلاوي صاحب كتاب الاستقصاء، الذي يقدّم سنة 702هـ/1303م كتاريخ لوضع الأسس الأولى للمدينة<sup>10</sup>، في حين يرد هذا التاريخ في المصادر التاريخية الأخرى لتعين تاريخ الانتهاء من بناء المدينة.

اغتم السلطان المريني أبو يعقوب يوسف فرصة غياب السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن عن عاصمته تلمسان في مهمة لتأديب القبائل التي ساعدت المرينيين في حصارهم السابق لتلمسان، وذلك بغية القيام بغارة جديدة عليها بحيث تكون حاسمة وتنتهي صمود تلك المدينة التي طالما استعصت عليه.

أرسل أبو يعقوب إلى أخيه يحيى الذي كان عاملا على وجدة طالبا منه السير نحو ندرومة وتاونت للاستيلاء عليهما، فتم له ذلك وضمهما إلى أملاك المرينيين، وبناء على خبر الانتصار سار أبو يعقوب على رأس جيشه نحو المغرب الأوسط وفي طريقه انضم إليه أخوه يحيى، واتجها سويا صوب العاصمة الزيانية، وقبل وصولهما إليها علم عثمان بن يغمراسن بخبرهما فرجع مسرعا لتجدة مدينته، ووصل بنو مرين إلى ضواحي تلمسان في شعبان من سنة 698هـ<sup>11</sup> / ماي 1299م.

حطّ أبو يعقوب رحاله بمكان غرب مدينة تلمسان يدعى مشجر بن الصقيل<sup>12</sup> وطوّق المدينة من جميع الجهات ضاربا الحصار عليها، ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى أنّه أحاطها بسياج من الأسوار فتح فيها أبوابا ومداخل لحربها، وأردفه بخندق عميق<sup>13</sup>. لا شك أنّ هذه الترتيبات والتحصينات التي أقامها أبو يعقوب تدخل ضمن الإستراتيجية والتكتيك الحربي، فهدفه من بناء الأسوار في الجهة الغربية من تلمسان هو من دون شك حماية المدينة الجديدة التي ينوي الشروع في بنائها.

إنّ من عادة بناء المدن الإسلامية التخطيط أولاً لبناء المسجد الجامع ثم يليها بناء المنشآت المعمارية الأخرى سواء الرسمية منها كدار الإمارة والقصر ودار السكة وغيرها أو المرافق العامة كالحمامات والفنادق والمستشفيات والأسواق<sup>14</sup>، إلّا أنّ ما حدث في مدينة المنصورة شدّد عن هذه القاعدة، إذ أنّ أول ما أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه كان القصر الذي أقيم بموضع القساطيط، ولما انتهى من القصر أقام إلى جانبه مسجدا لأداء الصلوات الخمس، ثمّ أحاطهما بسور<sup>15</sup>.

يإمكاننا طرح تساؤل عن مغزى تشييد القصر قبل المنشآت المعمارية الأخرى وبالأخص قبل المسجد الجامع، لقد علّل ابن أبي زرع تصرف السلطان المريني بقوله: "إلى أن دخل فصل الشتاء، فابتدأ أمير المؤمنين ببناء قصره"، فالغاية إذاً من الابتداء بالقصر كانت من دون شك الاحتماء من الأمطار الغزيرة وبرودة وقساوة الجو والطبيعة التي تمتاز بها المنطقة في فصل الشتاء،

حيث أن فساطيط السلطان المريني وخيم الجنود لا يمكنها الصمود في ظل هذه الظروف الصعبة، وبالتالي لن تسمح له من الوصول إلى هدفه المنشود، لاسيما أنه كان عاقدا العزم هذه المرة على اقتحام تلمسان المستعصية.

بعد أن بنى أبو يعقوب قصره والمسجد المخاذي له، أمر الناس بالبناء من حواليهما، فشرعوا في تشييد منازلهم ودورهم، وأتخذوا البساتين، وجلبوا المياه الضرورية للحياة من الينابيع عبر القنوات والسواقي<sup>16</sup>.

وقد أولى أبو يعقوب عناية للمرافق العامة الضرورية للحياة فابتنى الحمامات التي كانت مكانا يلجأ إليه الناس في كل أسبوع على الأقل للاستحمام وإزالة ما علق على أجسادهم من الأوساخ<sup>17</sup>، إضافة إلى أن الدين الإسلامي الخفيف يدعو ويحث المسلمين على طهارة البدن للقيام بالعبادات، ثم رافق ذلك مجموعة من المنشآت المعمارية العامة الأخرى كالفنادق التي عادة ما تكون بالقرب من المداخل الرئيسية للمدينة، والأسواق التي لا يمكن الاستغناء عنها في المدينة، فبواسطتها تتم التبادلات التجارية، بحيث تتبادل سلع الريف بسلع المدينة.

ومما يدل على اهتمام الأمير أبي يعقوب ومبالغته في إعداد مدينته الجديدة إعدادا يليق بمقامه ومقام دولته إنشاؤه لبيماريستان ( المستشفى) لمداواة المرضى وجرحى الحروب، ولا شك أنه جعل فيه من الشروط المناسبة بما يساعد على شفاء المرضى لاسيما الجنود وتحسين حالتهم الصحية.

لا بدّ من الإشارة إلى أنه لم يتسنّ لنا تحديد مواقع هذه المنشآت في مدينة أبي يعقوب وذلك نظرا لسبين رئيسيين هما:

- إن المصادر التاريخية التي أوردت المعلومات حول هذه المدينة لم تشر بتاتا إلى موضع أي منشأة معمارية مهما كانت أهميتها، ففي العادة يتم تحديد موضعها بالنسبة للمدينة ككل أو بالنسبة لمعلم ذي أهمية مثل المسجد الجامع أو مدخل من مداخل المدينة.

- إن مدينة أبي يعقوب تمّ تخريبها من قبل الزيانيين بعد رحيل المرينيين منها نحو المغرب الأقصى إثر وفاة أميرهم أبي يعقوب يوسف سنة 706هـ/1307م<sup>18</sup>.

بعد أن انتهى السلطان المريني من تشييد المرافق العامة التي تحتاج إليها المدينة سنة 703هـ/1303م، شرع في تطوير مدينته بسور ضخمة<sup>19</sup>. إن ما يمكن ملاحظته عند الاعتماد على

الترتيب الوصفي الذي أورده عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر<sup>20</sup>، والذي يعدّ في نظرنا المصدر الوحيد الذي قدّم لنا وصفا شافيا وكافيا عن مدينة المنصورة مقارنة بالمصادر الأخرى، أنّ الأمير المريني لم يفكر في بناء المسجد الأعظم داخل مدينته الجديدة، إلّا بعد إحاطتها كلياً بسور.

لقد أشارت المصادر التاريخية بالفعل إلى بناء المسجد الأعظم (الشكل رقم: 4 و5)، إلّا أنّها لم تذكر أنّ هذا المبنى لم يكتمل في عهد أبي يعقوب بل انتهى منه في عهد أبي الحسن المريني ونستد في ذلك إلى أمرين:

— أولهما أنّ الشريط الكتابي الذي يتوّج واجهة مدخل المذنة (اللوحة رقم:3)، يحمل نصا ينعت فيه السلطان أبو يعقوب بلفظ "المرحوم"<sup>21</sup>، ثما يدل على أنّ الانتهاء من إنشائها كان بعد وفاته، حيث رحل المرينيون إلى موطنهم فاس ولم يحاولوا الاستيلاء على تلمسان مرة أخرى سوى في عهد أبي الحسن.

— ثانيهما أنّ المسجد الأعظم بشهادة ابن مرزوق الحفيد لم يتم بناؤه إلّا في عهد أبي الحسن المريني<sup>22</sup>، حيث كانت الظروف ملائمة جدّاً، إذ أنّه تمكّن من السيطرة على مدينة تلمسان، فكيف بسلفه أن يتمّ البناء وهو محاصراً لها؟.

ب - المرحلة الثانية: بعد أن قضى أبو الحسن على أخيه المنافس له سنة 734هـ/1333م وانفرد بالملك، اتّجهت أنظاره نحو تلمسان إثر خروج سلاطنتها أبي تاشفين إلى أعمال الخفصين، فجمع جيشه قاصداً تلمسان وفي طريقه استولى على نلرومة وهنين ووهران، ثمّ حطّ رحاله بغرب تلمسان في شوال سنة 735 هـ/1334م<sup>23</sup>، حيث مدينة جلّة المنصورة المخربة التي ابنتى فيها قصرًا له، ثمّ أحاط المدينة بسور وأتبعه بخلق<sup>24</sup> وذلك أثناء محاصرته مدّة سنتين لتلمسان التي استولى عليها سنة 737هـ/1337م، وبقي فيها مدّة أحد عشر عاماً.

يشير ابن مرزوق إلى أنّ مدينة المنصورة في أيام أبي الحسن المريني كانت ذات خصائص متميّزة من الناحية المعمارية، ولا سيّما قصر السلطان ومسكن الإمام. وأمّا جامعها فيضعه في المرتبة الثانية بعد جامع قرطبة من حيث حسن التخطيط وجمال الشكل وروعة الزخرفة والتميق، كما يقارنه بجامع الكيين بمراكش، ويرى أنّه يفوقه فخامة لما يحويه من رخام مجزّع دقيق الصنع، ومنبر يشتمل على زخارف دقيقة وصغيرة الحجم بقدر البلق والحمص، وبالنسبة لثلاثة الجامع فيعتبرها حسب ما نقله إليه الرحالة والتجولون فريدة في نوعها في العالم الإسلامي<sup>25</sup>.

كما اشتملت المدينة على مجموعة من المساجد التي أعطانا ابن مرزوق أمثلة منها كالمساجد التي كانت تحاذي باب الحجاز وباب فاس وباب هنين<sup>26</sup>.

ويواصل ابن مرزوق حديثه عن المنصورة فيشير إلى بعض المنشآت المعمارية العامة كالمنسرة المجاورة للجامع، كما لم يغفل من وصف وسائل الري المستعملة في المدينة من قنوات وسواقي الناقلة للمياه<sup>27</sup>.

إن معلوماتنا عن أحياء مدينة المنصورة معلومة، إذ لم يرد لها ذكر في المصادر التاريخية، كما لم تجر فيها تنقيبات أثرية واسعة بحيث يمكن من خلالها توضيح حقائق وأشياء كثيرة وإزالة الغموض الذي ما زال يكتسب العديد من المنشآت المعمارية المشكّلة للمدينة المرينية، ومن المعلوم أن الأحياء في المدينة الإسلامية تصنّف في أغلب الأحيان على أسس مختلفة، كأن تكون حسب القبائل المكوّنة للمجتمع أو أن تكون حسب فئات الموظفين، كما يمكن أن تقسم الأحياء على حسب الفئات الحرفية<sup>28</sup>.

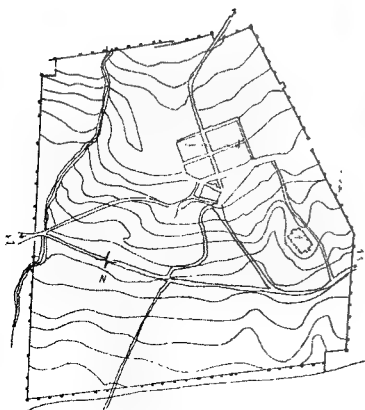
وتعوزنا المعلومات حول قصبة المدينة، وباعتبار أن المنصورة مدينة عسكرية، فمن الضروري أن تشمل على قصبة تحتل موقعا مرتفعا بحيث تشرف على المدينة.

الخاتمة: لقد نشأت مدينة المنصورة في ظروف استثنائية صعبة، فانتقلت في ظرف زمني قصير من مجرد معسكر للجنود يضرب حصارا على مدينة تلمسان إلى مدينة مزدهرة عامرة يقصدها التجار، وقد كانت مشتملة على كل المرافق الضرورية للحياة، ولم يخرج مؤسّسها عن القواعد المعروفة في تأسيس المدن الإسلامية إلا في الابتداء ببناء القصر بدلا من المسجد الجامع، وكان ذلك بسبب الظروف التي كانت تحيط بالمؤسس.

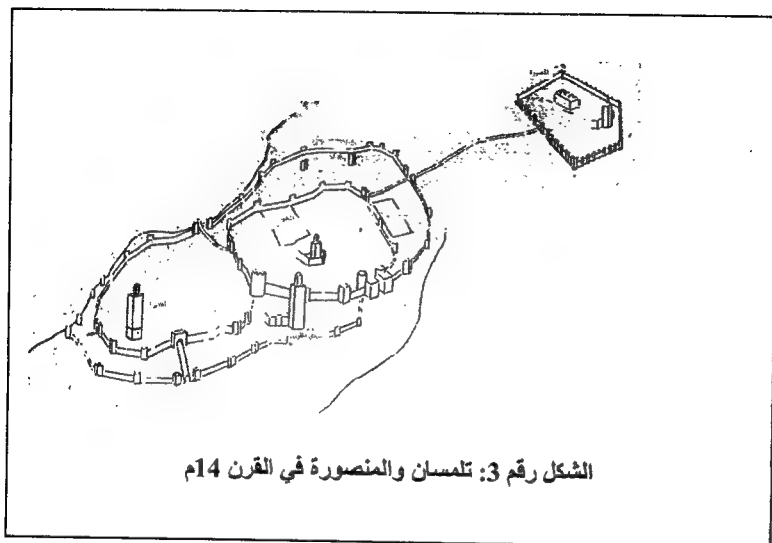




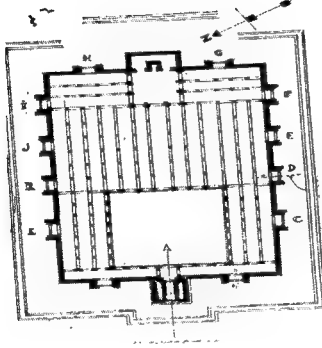
الشكل رقم 1: خريطة تبين موقع المنصورة



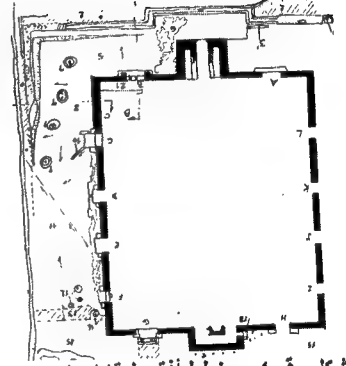
الشكل رقم 2: مخطط مدينة المنصورة



الشكل رقم 3: تلمسان والمنصورة في القرن 14م



الشكل رقم 5 : مخطط تصوّري  
لجامع المنصور



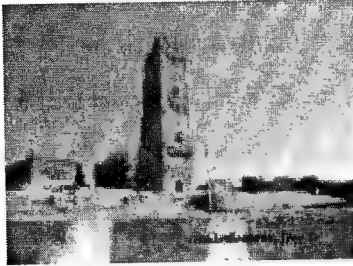
الشكل رقم 4: مخطط أفقي لبقايا جامع  
المنصورة



اللوحة رقم 2: بعض أطلال مدينة المنصورة



اللوحة رقم 1: منظر عام لمدينة المنصورة  
عن / Google cart



اللوحة رقم 3: أطلال الجامع ومنذنته  
الشامخة

## هوامش البحث

- 1- قام السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق بعدة محاولات للتظفر بمدينة الزياتين وبالتالي القضاء على دولتهم، وكان ذلك في السنوات 689 هـ/ 1290م، و695 هـ/ 1296م، و696 هـ/ 1297م، و697 هـ/ 1298م. ينظر عبد الرحمن بن خلدون،، كتاب العبر وديوان الدنيا والحرب في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج: 7، دار الكتب اللبنانية، بيروت 1968، ص: 195.
- 2- يحيى بن خلدون، بهية الوفاة في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج: 1، للكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص: 210.
- 3- علي بن محمد (ابن أبي زرع)، الأئیس للطرب بروض القرقطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د:ت، ص: 367.
- 4- أبو الوليد (ابن الأحرار)، روضة السنين في دولة بني مرين، للطبعة للملكية، الرباط، 1962، ص: 50.
- 5- أبو عبد الله الحسي، نظم النثر والعقبات في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، رسالة دكتوراه الدرجة الثالثة، 1975م، ص: 199.
- 6- ينظر عبد الـ حمـ بن خلدون، للصدر السابق، ص: 459. ويحيى بن خلدون، للصدر السابق، ص: 210. وأبو العباس أحمد السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الحاصري ومحمد الحاصري، ج: 3، ص: 79.
- 7- ابن أبي زرع، للصدر السابق، ص: 367.
- 8- عبد الرحمن بن خلدون، للصدر السابق، مج: 7، ص: 459.
- 9- ينظر يحيى بن خلدون، للصدر السابق، ص: 209. وعلي بن محمد بن أبي زرع، الأئیس للطرب بروض القرقطاس، د:ت، ص: 367. وأبو الوليد ابن الأحرار، روضة السنين، ص:





## التصوف العرفاني السني عند محمد بن يوسف السنوسي (تـ 895هـ / 1489م)

د. الطاهر بونابي \*

مقدمة: نشأ محمد بن يوسف السنوسي تـ 895هـ / 1489م في بيت صوفي شريف، فأبوه يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، كان زاهداً ومتعبداً وأمه حسنيه من الأشراف، درس في صغره عن أبيه عن الشيخ نصر الزواوي، وأخذ القراءات السبع للقرآن عن الشريف أبي الحجاج يوسف بن أبي العباس، والفقه ممثلاً في ملونة سحنون عن الفقيه محمد بن إدريس بن عيسى المغيلي، ورسالة بن أبي زيد القيرواني عن أخيه علي التالوتي والحديث عن عبد الرحمن التعالي، والفرائض والحساب عن محمد بن قاسم بن تونرت الصنهاجي، والاسطرلاب عن أبي عبد الله بن محمد بن الحباك، وعلم الأصول وجمال الخونجي عن أبي عبد الله محمد بن العباس العابدي، والتوحيد عن أبي القاسم المكناسي<sup>(1)</sup>.

لذلك سمح له هذا التكوين المتنوع أن يخوض في علوم كثيرة، كان أبرزها علم الكلام والعقائد والتصوف، والتي بات من العسير الفصل بين مسائلها في مقاله الفلسفي والعقدي والصوفي المبثورة في مؤلفاته العقدية، وردوده الفقهية، منها: «شرحه لأسماء الله الحسنى»، وفي رده على أبي الحسن الصغير في «نصرة الفقير»، فضلاً على أفكاره العرفانية في مخطوط «المواهب القدسية في المناقب السنوسية» لتلميذه محمد بن عمر الملاي تـ 10هـ / 16م، وما استلزمه أحمد بابا التبكي تـ 1036هـ / 1627م، بعد ذلك أيضاً في مخطوطة «الآلء السندسية في الفضائل السنوسية»، وهي كلها نصوص تكشف عن طبيعة تصوف التوحيد العرفاني عند السنوسي في صورته الكاملة<sup>(2)</sup>.

\* - أستاذ محاضر أ في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة محمد بوضياف - المسيلة.

فما هي المؤثرات الصوفية والعقلية التي أثرت في منحاه الفلسفي والعقدي والصوفي؟ وكيف اتخذها إطاراً في صياغة منحاه في التصوف العرفاني السني؟

1- المؤثرات الصوفية والعقلية في تكوين السنوسي: كشف السنوسي عن انتمائه لأولياء المقامات والتوحيد العرفاني في قوله: «ونحن بالنسبة لهذا المقام، مقام أولياء الله تعالى وخاصة حضرته على ساحل النمي نغترف من بحر التوحيد والعرفان، الذي خاضوا لجنته وغابوا فيه بقدر الإمكان»<sup>(3)</sup>، وهذا الاعتراف يكون السنوسي قد كفى الباحثين مؤونة البحث في اسكتشاف وجهته الصوفية، لكن السؤال الجدير بالتقصي يتمحور حول الإحاطة بالمصادر والمؤثرات التي نهل منها السنوسي في تكوين أطروحته في تصوف التوحيد العرفاني السني؟ والتي وردت في نصوص التاريخ والتراجم والمناقب والعقائد متعددة المشارب منها، ما يخص تأثيره بأسماء المصادر والمدارس الصوفية في المشرق، ومنها ما هو متعلق بالمؤثرات العقلية والمصوفية العائدة إلى عصر الموحدين، فضلاً على تأثيره بمناخ العرفان السني الذي ساد مدينة تلمسان منذ أوائل القرن الثامن الهجري، وصار يمثل هوية هذه المدينة.

فعلى مستوى المصادر والمدارس الصوفية المشرقية، أظهرت الكتابة الصوفية عند السنوسي أنه عاد بالفكر العرفاني السني إلى منابعه الصافية، أي إلى كل من مدرسة أبي القاسم الجنيد تـ 298هـ/911م في التوحيد والجهادات والذكر والتدرج نحو مقام الرضا، والإقرار بالفرق في مقام الجمع، وبالسكّر مع الصحو والقناء مع البقاء، ومدرسة أبي حامد الغزالي تـ 505هـ/1111م في الجهاديات والذكر والتوفيق بين الحقيقة والشرعية، وفي توبيخ النفس من خلال كتابيه «توبيخ النفس من إحياء علوم الدين»<sup>(4)</sup>، و«نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير»، الذي شدد فيه على حتمية التلازم بين الحقيقة والشرعية معتبراً أن سلوك الطريق القويم بدون أحدهما زندقة، وركز على المعرفة كنور وحكمة في صدور العلماء، وعلى الذكر الذي يشهد للذاكر بإفراد الإيمان لله وحده ويضفي بالقلب إلى الفراغ من التعلق بشيء إلا الله والتوكل عليه دون سواه<sup>(5)</sup>، وهذا ما جعل تلميذه محمد بن عمر الملاي تـ 10 يقول أن شيخه السنوسي كان على طريقة الغزالي<sup>(6)</sup>.

ويعكس منحاه في التأصيل للتصوف العرفاني السني اختصاره وشرحه لثلاثة أعمال صوفية مشرقية هي: اختصاره لرعاية الخاسبة، وشرحه لبغية السالك في أشرف المسالك للساحلي، وأبيات الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري في التصوف<sup>(7)</sup>.

كما كان كتاب «مفتاح الفلاح» لابن عطاء الله السكندري تـ 709هـ/1309م من مقروءاته الدائمة<sup>(8)</sup>، فقد تأثر به في قضايا استهداف مقام الرضا<sup>(9)</sup>، واستشعار الحقيقة الإلهية وصدق العبودية والقيام بحقوق الربوبية بوصفها مطلب العارف من الله تعالى<sup>(10)</sup>، وفي فكرة الزهد<sup>(11)</sup>، والجمع بين البسط والقبض<sup>(12)</sup>، والشهود والفناء<sup>(13)</sup>، واعتبار الذكر طريقاً لتحقيق ذوق التوحيد والطمأنينة واليقين والحضور والغيبة، والشكر واسقاط التدبير<sup>(14)</sup>.

وفيما يخص تأثير الإنتاج العقلي والصوفي لأساطين الفكر الصوفي خلال عصر الموحدين، فقد كان قوياً في تجربة السنوسي، وفي أقرانه من التلمسانيين خلال القرن التاسع الهجري/15م.

ومن القرائن في هذا المضمار اهتمام التلمسانيين بمرشدة المهدي بن تومرت تـ 524هـ/1118م والتبرك بقراءتها لقول الصوفي أبي عبد الله محمد بن أبي العباس النقاش: «رأيت العقيدة المعروفة بالمرشدة المنسوبة إلى الإمام المهدي رحمه الله، كثيراً ما يستعملها أهل الفضل من الصوفية ويقرؤونها على جهة التبرك في أذكارهم، وقد تشوف بعضهم إلى بسط ألفاظها وشرح معانيها»<sup>(15)</sup>، ومن هؤلاء محمد السنوسي وذلك لما تتضمنه من عبارات التذكير بأمر التوحيد وبقدرة الله على كل أمر وعظمته في كل شيء<sup>(16)</sup>، ثم إنها تمثل التفكير الأشعري السني، الذي يعتبر المنهج الأشعري همزة الوصل بين الفكر التومورتي وفقهاء المالكية الذين لم يشجوا فكرة ابن تومرت وعقيدته تعد انتصاراً للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية<sup>(17)</sup>، لقول عبد الرحمان بن خلدون «لم يحفظ عنه -بن تومرت- فلتة من البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم»<sup>(18)</sup>.

فضلاً على تشديد بن تومرت فيها على وجوب الشيخ في طريق التربية، فكانت بذلك سند السنوسي في السجل الذي دار في عصره حول هل يصح اتخاذ الشيخ في طريق التصوف أو علم اتخاذ أو الاكتفاء بالكتب الملوثة؟

وإلى جانب المرشدة كانت كتب التوحيد في عصر السنوسي الأكثر قراءة في حلقات الذكر، لقول الونشريسي: «وفيها يقرؤون بعض ما ألف في توحيد الله تعالى، معانيه كلها واضحة لائحة»<sup>(19)</sup>.

ومن أكثر هذه المؤلفات تأثيرا كتاب «الإرشاد في علم الاعتقاد» لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي الذي اعتبره ابن سعد التلمساني تـ 901هـ/1469م ملونة علم التوحيد التي صارت لا غنى عنها في حلقات الذكر وميعاد الدرس بتلمسان، واستعاض في وصفه لأهمية هذا المؤلف بقول أحد الفقهاء<sup>(20)</sup> (الكامل):

مَنْ كَانَ مُعْتَبَرًا بِذِكْرِ مَعَادٍ وَمَعِيْدُهُ فَعَالِيهِ بِالْإِرْشَادِ  
وَلِيَحْتَرِسَ بِسَيْلِهِ وَذَلِيلِهِ مِنْ ظُلْمَةِ التَّشْكِكِ وَالْإِحْزَادِ  
عَوَّلَ عَلَيْهِ تَرَيْنَا فَكَفَى بِهِ ذَخْرًا لِيَوْمِ تُجْمَعُ الْأَشْهَادُ

وقد أخذ السنوسي هذا المؤلف عن عن الصوفي أبي القاسم الكباشي التلمساني<sup>(21)</sup>، ومن هنا اعتبر السنوسي التوحيد، أحد الطرق الموصلة إلى إدراك الحقائق الإلهية<sup>(22)</sup>، من خلال المعرفة العقلية لأسماء الله الحسنى والتي تعد أساس المعرفة النوقية التي تتحقق بواسطة الذكر، ولذلك انصب اهتمامه في تأليف عدد من العقائد مثل عقيدته الكبرى المسماة بعقيدة أهل التوحيد التي شرحها تحت اسم «عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد»، وكذا عقيدته الوسطى وهي دون الكبرى<sup>(23)</sup>، لكن أهم هذه العقائد كلها، عقيدته الصغرى التي وضعها في شرح موسوم بـ «أم البراهين»، وفيها بسط من شرح كلمة «لا الله إلا الله محمد رسول الله» وبين فوائدها التي تحصل لذاكرها في قوله: «إعلم أن المواظبة على ذكر هذه الكلمة المشرفة... تحصل فوائد كثيرة منها، ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يرجع إلى الكرامات والخواص»<sup>(24)</sup>، أضف إلى ذلك اعتناءه بـ «شرح أسماء الله الحسنى» في كتيب<sup>(25)</sup> أظهر فيه منحاه في طريق القوم، وفيه يأتي بتفسير كل اسم من أسماء الله الحسنى وبين حظوظ العبد من هذه الأسماء لتحقيق غايتين أساسيتين هما التعلق والتخلق<sup>(26)</sup>.

وزاد في تأثيره بإرشاد أبي المعالي انتفاعه من الشروحات الثلاثة التي أنجزها إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق المعروف بابن المرأة تـ 610هـ/1214م<sup>(27)</sup>، والتي قام السنوسي بلوره بتلخيصها وتأثر بها في كتاباته، خصوصا في فكرة المعرفة الرسمية المقضية إلى الإخلاص في سائر

الأعمال الربوبية وإنارة العقل يعلم أصول الدين والعلم بأحكام الشريعة وكذلك في القضايا المتعلقة بالشروط الواجب توفرها في الولي والأحوال التي تطرأ عليه والمقامات التي يعبرها متدرجا نحو مرتبة الجمع والفرق، ونقلها إلى طلبته بتلمسان، والتي تركز على أربعة محاور هي:

أولا: العلم بأصول الدين كي يفرق بين الخلق والخالق وبين النبي ومدعى النبوة.

ثانيا: العلم بأحكام الشريعة نقلا وفهما، أي أن يكون له علم بدين الله وقواعده وأصوله وفروعه.

ثالثا: أن يتخلق بالخلق المحمود الذي يدل عليه العقل والشرع، فأما ما يدل عليه الشرع فالخوف من المحرمات وامتناع جميع المأمورات، وأما ما يدل عليه العقل فهو ما يثيره العلم بأصول الدين من ترك الاختيار وإسقاط التدبير والزهد في الموهب والعطايا الإلهية و«أن إذا علم حدوث العالم بأسره لم يتعلق قلبه بشيء منه خوفاً ولا طمعاً لعلمه أنه في قبضة الله تعالى... وإذا علم أن القدر تسابق بما كائن لم يخف فوت شيء مما قدر عليه ولم يبرح نيل شيء مما لم يقدر عليه»<sup>(28)</sup>.

وهذا المعبر عنه بمقام الرضي، أما علمه بالوحدانية فيقوده إلى الإخلاص في سائر الأعمال في حين لا تحتمل الربوبية الشركة في شيء.

رابعا: أن يلازمه الخوف ولا يجد الطمأنينة إلى نفسه سبيلا، حتى لا يعود إلى المخالفات ويجتنبها وهذا المعبر عنه بمقام الورع، أي أنه يخاف أن يزول ما حصل له من موافقة بأصدادها، فيخاف أن يتبدل علمه وفهمه إلى الشك والجهل ويخاف أن تخدعه نفسه فيحصل في علمه ما يفسده ويحيطه من الرياء والسمعة<sup>(29)</sup>.

ومن هنا يظهر شرح ابن دهاق على إرشاد أبي المعالي، وقد قنن التصوف العرفاني السني في الأحوال والمقامات لدى السنوسي وأضحى مرجعا مؤثرا في منحاه العرفاني. ناهيك على أخذه فكرة عدم استهداف الكرامة والموهب الإلهية، وأطروحة الزهد في الموهب والعطايا الإلهية من كتاب «محاسن المجالس» لأبي العباس أحمد بن العريف الصنهاجي تـ 536هـ/1142م<sup>(30)</sup>.

ولا نعلم مختلف نصوص التاريخ والتراجم والمناقب التي تظهر تأثيره بأفكار العرفان السني التي كانت رائجة بمدينة تلمسان، خصوصا بعد ذمور التصوف العرفاني الفلسفي بها منذ أوائل القرن 14هـ/14م، ويدلوا أن أكثر الأطاريج العرفانية السنية تأثرا في السنوسي، أطروحة أبي عبد الله محمد المقرئ تـ 759هـ صاحب كتاب «الحقائق والرقائق»<sup>(31)</sup>، ناهيك على تأثيره

صوفية عصره الذين نهل من تجاربهم في التوحيد العرفاني، وأخذ عنهم طقوسهم، ومن أبرزهم الولي العارف الحسن بن مخلوف أبركان، وشيخ الطريقة التازية بوهران إبراهيم التازي تـ 866هـ/1461م الذي ألبسه الخرقة وبصق في فمه<sup>(32)</sup>.

2- مكررات التصوف العرفاني السني عند السنوسي: إن اختيار السنوسي لعلم التوحيد كبوقة لتصوفه العرفاني نابع من قناعاته، بأن هذا العلم من أفضل العلوم الظاهرة التي ثورت المعرفة بالله والخشية منه والمراقبة وبه أيضا يفتح الله للعبد لفهم سائر العلوم على قدر معرفته به فيزداد بذلك خوفه وقربه من الله<sup>(33)</sup>، كما أنه منجى القلب مما ارتبك فيه وحل غياهب الشكوك والأوهام والمنقذ له من التلف في غمة الجهل، وما تراكم من ظلمات<sup>(34)</sup>، لكن كيف جعل السنوسي من التوحيد العرفاني سبيلا إلى الوصول والكشف؟

لقد وضع السنوسي خمسة مكررات قام عليها تصوفه التوحيدي العرفاني وهي:

أ- اكتساب المعرفة الرسمية: وفيها يتم معرفة أسماء الله الحسنى بأوصافه الجلالية والجمالية وأبعاد معانيها بواسطة العقل أو ما أسماه بالبراهين العقلية-الدليل العقلي<sup>(35)</sup>، وفيها يعلم الموحد أن الألوهية استغناء الإله عن كل ما سواه وافقار كل ما سواه إليه<sup>(36)</sup> وأنه هو محدث العالم بأسره وهو أن لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما، وأن لا يستغني ذلك الأثر عن الله عز وجل<sup>(37)</sup>.

وهذه المعرفة الرسمية لكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله (ص)، يحصل من ورائها العلم بعقائد الإيمان تفصيلاً وإجمالاً فضلاً على ما تنطوي عليه من الخاسن يتشعشع عند ذكرها القلب بأنواع اليقين وتتموج فيه أضواء الإيمان حتى تنبسط على الظاهر فيفتق لصاحبها كنوز هذه الكلمة فيعلم بذلك، قدر ما منح له من النعمة العظمى التي من بها الله عليه وهي أول خطوة نحو كشف حجاب الحس<sup>(38)</sup>.

ب- اكتساب المعرفة النوقية: وتتم بواسطة الذكر لأسماء الله الحسنى بصيغة لا إله إلا الله محمد رسول الله<sup>(39)</sup>، وفيها يرى السنوسي أن تحقيق المعرفة النوقية لا يتأتى إلا بالمعرفة الرسمية التي أنجبها البراهين العقلية بواسطة الذكر، أي لا يكون الذكر مجرد النطق باللسان، بل استحضار القلب لمعاني أسماء الله الحسنى التي اكتسبها في مرحلة المعرفة الرسمية، فالذكر يُردد بلسانه وفي نفس الوقت يحضر بقلبه اسم الله أو غيره من الأسماء الحسنى إلى أن يكف ومعها اللسان عن الحركة ويستمر ذلك على مستوى القلب ويواظب عليه إلى غاية فناء صورة الكلمة وبقاء معناها

مجرداً حاضراً فيه وكأنه ملتصق به وحينها لا يمكن الفصل بين الذكر والفكر فيصبح طريق الذكر هو نفسه طريق الفكر<sup>(40)</sup>، وخلافاً يحصل للذاكر فوائد كثيرة منها ما يرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ومنها ما يتعلق بالكرامات التي هي الخوارق، فأما الأول فيتمثل في الاتصاف بالزهد والتوكل والحياء والغنى والفقر والإيثار والفتوة والشكر<sup>(41)</sup>، أما الثانية والمتعلقة بالكرامات فسنبأني على تفصيلها ضمن أسس وجدلية الكشف والزهد في المراهب والعطايا الإلهية.

ج- المجاهدات والذكر: لجأ السنوسي إلى اعتماد طريق المجاهدة بمعاني أسماء الله الحسنى بواسطة الذكر<sup>(42)</sup>، لتصفية الباطن حيث يحقق الذكر بالأسماء الحسنى غايتين أساسيتين هما: التعلق وهو التوجه إلى الله بمقتضى معاني الأسماء الحسنى والتخلق وهو التزام الاتصاف بمعاني الأسماء الحسنى فيحصل للذاكر منها حظوظ، فمن ذكر اسم الله يحصل له امتحاء ما عدا ذاته تعالى وصفاته وأفعاله من قلبه ومن الرحمن عدم الأخذ من النعم الدنيوية إلا ما يوصل. إلا أن وصل النعم الأخروية المتعلقة باسم الرحيم كالإيمان والأعمال الصالحات وما يعين عليها من ضروري المعاش والزهد في ما سوى ذلك زهداً كلياً والانسام بالرحمة والاكتفاء برحمته الواسعة التي إليها الاستناد يوم يقوم الأشهاد ولزوم الشكر لله ورؤية المنة له تعالى وحده في كل ما يلبو من النعم بالتخصص والتعميم<sup>(43)</sup>.

ويأخذ من اسم (الملك) لزوم الخدمة والذلة والتعظيم والمخافة والرجاء والحياء ومن (القدوس) البعد عن كل نقيصة ومن (المؤمن) الإذعان والتزام التصديق بكل ما صدقه المولى والعمل وفق ذلك إلى الممات ومن (المهيمن) الإذعان لحكمه تعالى والمراقبة لله تعالى في حركاته وسكناته ظاهره وباطنه ومن (العزيز) التعزز بعز مولاه حتى يقهر بذلك نفسه وشيطانه وهواه ومن (الجبار) التزام الرياضة وقهر النفس عليها<sup>(44)</sup>، ولذلك كان السنوسي من أهل المجاهدات كثير الخلوة يقوم الليل ويطلق في الركوع والسجود حتى تنتفخ قدماه، وكان يسمع له أنين عظيم في صدره من شدة خوفه من الله، فضلاً على التزامه سنة داود عليه السلام، في الصيام أي يوم بيوم<sup>(45)</sup>.

أما حظه من (المتكبر) فهو قهر النفس وتطهيرها من صفات العظمة والكبرياء، ومن (العلي) الحياء من مولاه أن يرى دنيوياً أو أخروياً سوى كماله جل وعلا ومن (الكبير) الانسلاخ

عن الكبر والتعظيم ولزوم لباس الذل والتواضع ومن (المتعالي) شكر مولاه الذي تفضل بإظهار علو: حتى حرر بذلك القلب مما كساه من محاسن الكائنات ومن (الخالق) إسقاط تدبيره ومشيتته لعدم انقياد الكائنات لهما والتعلق بتدبير المولى ومشيتته النافذة ومن (الباري) عدم الوقوف مع الصور وكمالها الناقص فهو غني عنها بكمال حالها ومصورها فلا يسيي لذلك قلبه العارف بجمال مولاه وجلاله ومن (الغفار) ستر الذنوب والمعائب الصادرة منه بالتربة المقتضية تبديل تلك المساوئ وتغطيتها بأضدادها وستر زلات العصاة بالنصح لهم حتى يتركوها والتضرع للمولى أن يغفر لهم<sup>(46)</sup>، ومن (السميع البصير) صون للظاهر والباطن عن كل ما يستحي أن ينكشف للمولى.

ومن (القابض) قبض قلبه وجوارحه عن كل ما أمره الله بالانقباض عنه ورؤية المنة لله في التوفيق لذلك ومن الباسط بسط قلبه وجوارحه حيث أمره الله بالبسط، وشكره تعالى فيما بسط ذلك بفضلله وتكون غاية هذه المجاهدات بمقتضى التعلق والتخلق الوصول إلى حال الفناء<sup>(47)</sup>.

رابعاً: التوفيق بين الشريعة والحقيقة: لقد صرح السنوسي في (نصرة الفقير) على أن الشريعة من غير حقيقة زندقية والحقيقة من غير شريعة زندقية أيضاً، ومن هذه العلاقة حصن تصوفه في التوحيد العرفاني بالشريعة ووضع لتحقيق ذلك ثلاث آليات هي: اتباع السنة والإقتداء بالصحابة والعلم بالله وتأصيل الذكر وطقوسه من القرآن والسنة وسيرة صحابته.

فقد اشترط على المريد الصادق قبل أن يدخل في طريق الذكر أن يتبع سنة الرسول (ص) ويقتدي بأصحابه ويشهد المنة ويحسب البدعة المحرمة والعيث والآثام، ثم يدخل في طريق الذكر بعد معرفته بمن يذكره ومعرفته أوصافه الجلالية الجمالية<sup>(48)</sup>، ومن ثمة اعتبر العلم بالله المكنون في صدور العلماء نوراً وحكمة وفي غير صدورهم تزويقاً وتشديقاً<sup>(49)</sup>.

ويظهر السنوسي مدافعة عن المشروعية الدينية للتصوف وخاصة الذكر وطقوسه، فاعتبره شرعياً بنص القرآن مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلَمْ غَيْبَ الْغُيُوبِ يُكْفِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾<sup>(50)</sup>، ومن السيرة بمحادثة تلقين النبي (ص) لعلي كرم الله وجهه الذكر في غزوة الخندق ثلاث مرات<sup>(51)</sup> فضلاً على إقراره بصلاحية الاجتماع للذكر عقب كل صلاة وأثر ذلك في تثبيت الإيمان وجواز ما يرافقه من تداول على الذكر والإقرار والمصافحة والتسبيح، فهو وإن كان مستحدثاً لم تجربته عادة السلف إلا أن العلماء استحسوه واعتبروه بدعة منلوبة كسائر



نوافل الخيرات المستحسنة مثل حزب الإرادة وقراءة الفاتحة في كل شيء وزيارة الإخوان والاحشاء بوبتهم والإطعام على ذلك<sup>(52)</sup>، وأكد ما ينجر من ثواب على ذلك لقوله: «وهذه الأذكار والاجتماعات التي يتعاملها الصوفية... يثابون عليها لأنهم يتزاورون في الله ويجمعون في ذات الله ويتواصلون على طاعة الله ويلعبون بذكر الله ويرقصون ويصيحون من حب الله، إياك ثم إياك ولحوم هذه الطائفة»<sup>(53)</sup>.

وحق يربط مسألة الكشف بالشرعية اعتبر المكاشفة الحقيقية هي أن يكشف عن الله ورسوله بفهم كلامهما وما تضمنه من الأسرار العقلية والأنوار التوحيدية مع علوم غامضة وإفهام دقيقة وهي المرتبة التي لا يعطيها الله إلا لخاصة أوليائه.

ويظهر هذا المنحى التوحيدي العرفاني الملتزم بالرسول (ص) قدوة والتوفيق بين الحقيقة والشرعية منهجا في شرح السنوسي لأدبيات عرفانية لأحد العرفانيين ومطلعها<sup>(54)</sup> (الطويل):

تَطَهَّرْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍ      وَإِلَّا تَيْمَمْ بِالصَّيْعِدِ وَالصَّخْرِ  
وَقَدِّمْ إِمَامًا إِنْ كُنْتَ أَنْتَ إِمَامُهُ      وَصَلْ صَلَاةَ الْفَجْرِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ  
فَهَذِهِ صَلَاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ      فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبِرَّ بِالْبَحْرِ

ومن خلالها يرى السنوسي أن التطهر بماء الغيب القصد منه التطهر من الجنابة المعنوية المنسوبة للغفلة، ورفع حديثها وأثرها من الذكر والفكر ويكون دليل طهرها اكتساب المعارف الربانية والعلوم الدينية وهي طهارة العارفين فالتطهر من الغفلة شرط للدخول في حضرة الله سبحانه، وهذه الطهارة تختلف عن التطهر من الجنابة باستعمال الماء الطهور الذي يرفع الحدث وينظف البدن، والتيمم بالتراب والصخر الذي تستباح به العبادة ولا يرفع حدثا وطهارة المريد المتمثلة في الزهد واجتهاد النفسية والإيمان على الذكر اللساني وهي دون درجة أهل المعرفة<sup>(55)</sup>، لكن في هذه الطهارة ما يجعل النفس تتأسى بالغفلة مثل انتظار المريد صفاء سره بالعبادة وميل نفس المحدث الفاقد للماء كذلك إلى الراحة والبطالة فيعسر محافظتها على الصلاة، أما العارف إذا تطهر لصفاء سره بمياه المعارف الربانية، ولم يصل إلى رتبة الفناء والبقاء فإنه ينبغي عليه أن لا يتخلى عن الأعمال المتعلقة بالظاهر. حيث أن مبدأ سلوكه شبيه بوقت صلاة الفجر الذي يمثل أول الانتباه من نوم الغفلات ويكون قريبا من ظلمة الليل وهما المرحلة التي لم يتخلص فيها العارف من الدنيا وزينتها، فالأعمال التي يبدأ بها العارف قريبا من ظلمات النفس، بينما تكون

أول مقامات العارف شبيهة بوقت صلاة العصر، لأنه آخر النهار ومحل حطّ الرحال، وإذا كان كل مبتدئ عن الطريق والعارف مطالب بما -الأعمال الظاهرة- فإن الفرق بينهما أن المبتدئ يعملها في أوائل الانتباه حينما يكون قريباً من الظلمات ولا تصفو له كلّ الصفاء بينما العارف يعملها في آخر النهار وبعد كمال الانتباه ومشاهدة امتلاء الآفاق بضوء الشمس ولهذا قال: مُخاطباً العارف «وصلّ صلاة الفجر في أول العصر» أي أنه وقت صلاة العارفين لأن غيرهم يعمل تلك الأعمال قبل أن يشاهد أوائل طلوع شمس المعارف فضلاً عن انتمائها. وأما قوله: «وقدم إماماً كنت إمامه» فوصية هامة معناها أن العارف عليه أن يقدم في أقواله وأعماله الرسول (ص) قنوة له لأن البعض قد يغتر بما يظهر له من مواهب فيترك الاقتداء بالرسول (ص) <sup>(56)</sup> «وكنتم إمامه» أي أنه حكّم العقل أولاً ونظر واعتدى بالبرهان إلى صدق الرسول (ص) وعرف مرتبته عند الله واحتشم في تقديمه أولاً وتقهر إلى وراء وعزل نفسه عن كل نظر وأسلم نفسه إلى الرسول (ص) وقلمه إمامه وحكمه وظاهره وباطنه وقوله «فإن كنت منهم فأنصح البر بالبحر» يعني إن كنت من العارفين فلا تترك الجمع بين الحقيقة والشرعية فالشرعية بر والحقيقة بحر، ولا شك أن ظاهر الشرعية لم يوجد فيها من الإسناد للأعمال والسببية لها شركٌ فإذا نصح ظاهرها بماء الحقائق التوحيدية كملت محاسنها وانقسم للعارف أعمالها <sup>(57)</sup>.

ويظهر السنوسي كذلك أكثر حنرا في ابتعاده عن الغيبة عند الكشف، لذلك جنح إلى الكشف المصحوب بالصحو، وبالتالي فرغم أن النوق في نظريته الصوفية العرفانية أعلى درجة من العقل <sup>(58)</sup> إلا أنه يصر على ضرورة العودة إلى العقل فيما يكشف مما يؤكّد بعد المسافة بين السنوسية وفكرتي الحلول والاتحاد الناجتين عن حالة الغيبة والسكر، ومبدأ التوافق بين المراكز القلب والعقل <sup>(59)</sup>.

د- جدلية الكشف والزهد في المواهب والعطايا الإلهية: إن غاية الذكر بأسماء الله الحسنى عند السنوسي هي الوصول إلى حالة الفناء والتي لا يرى فيها الموحد العارف وجود غير ذاته وصفاته وأعماله أي الفناء عن رؤية غنى غير غناه وكبر غير كبره وعلم غير علمه وعز غير عزه وحكم غير حكمه <sup>(60)</sup>، وحينما يزيد في المجاهدة ليحصل على التأييد الإلهي لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ <sup>(61)</sup>، وقوله تعالى أيضا ﴿أَوَلَيْكَ كِتَابٌ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَيُلَهِمُهُمُ رُوحٌ مِنْهُ﴾ <sup>(62)</sup>.

وهذه الروح عند العارفين هي عين السر ومرآة تجليات وكشوف لأمر وعلم لم تجر العادة خلقها، ولا يعرفها إلا أهلها ولا سبيل إلى تعريفها بالقول للغير، بل بإشارة العارفين<sup>(65)</sup>، ومن هنا يقر السنوسي من أن الكشف لا يتم بواسطة الاستدلال ولا بطرق الاعتبار، بل بمحض إنعام وإهام من الله ويبدو أن السنوسي كان حذرا إزاء مسألة الكشف فقد رفض أن يستهدف العارف الكرامات بقوله: «إن المؤمن لا ينبغي له أن يقصدها بشيء من طاعته وإلا دخل عليه الشرك الخفي ومكرهه»<sup>(64)</sup>.

وكذلك حذر من لحظة الوصول التي يستعجل فيها الموحد حصول المواهب والعطايا الإلهية أو تحدته نفسه بها أو يدعي رؤية عاجلة أو علما بالله حتى لا تتحول تلك الانجاذبات إلى أحلام شيطانية يتوهمها كرامات وعطايا إلهية، ولذلك اعتبر السنوسي أن المكاشفة الحقيقية هي أن يكشف عن الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويفهم كلامهما وما تضمنته من الأسرار العقلية والأنوار التوحيدية مع علوم غامضة وإفهام دقيقة وهي مرتبة لا يعطيها الله إلا لخاصة أوليائه<sup>(66)</sup>؛ أي أن صحة الكشف الحقيقي يكون وفق ما يشهد به العلم الرسمي -المعرفة الرسمية لأسماء الله الحسنى-، ولم يتوقف تحذير السنوسي عند عدم استهداف الكرامة ورفض استعجال حلولها، بل اعتبر الزهد فيها كليا هو معيار الولي الحقيقي في قوله «إن الولي الحقيقي هو الذي لو كشف له عن الجنان وما فيها من الحور والولدان وغير ذلك ما التفث إلى شيء من ذلك ولا مال إليه بالكلية، ومهما سكن إلى شيء من ذلك وركن إليه فقد ركن لغير الله»<sup>(66)</sup>.

إلا أن ما ميز السنوسي كونه لم يهمل العقل في تجربة التوحيد العرفاني، فبه تتم المعرفة الرسمية وبه تضبط حالة الكشف وهذا ما عاناه سعيد عليوان حينما اعتبر العقل عند السنوسي أعلى من الذوق ووصفه بالخلق بينما حصر مهمة الذوق في التعاطف والتفاعل واليهام في جناب الله عز وجل اقتناعا بوجوده عقليا<sup>(67)</sup>، ثم إن انتشار المقال العقدي للسنوسي والمشحون بالتصوف بشكل واسع خاصة عقيدته الصغرى وشروحا قد ساهم في انتشار المضامين الصوفية للتوحيد العرفاني، وليس أدل على ذلك من عدد تلامذة السنوسي الذين أحلوا عنه بتلمسان تصوفه في التوحيد العرفاني وقاموا بنشره في بني راشد وغريس وهم محمد بن يحيى المغراوي وعمر العطافي<sup>(68)</sup>، ناهيك على آخرين بتلمسان مثل أبي القاسم الكتباني التلمساني<sup>(69)</sup>، وأبي محمد القلعي<sup>(70)</sup>، وابن صعد التلمساني وأبي الطاهر الزواوي ومحمد بن أبي مدين -كان حيا سنة

920هـ/1514م<sup>(7)</sup>، وأبي العباس الصغير ويحيى بن محمد وابن الحاج اليلدري وإبراهيم الوجدلي وبن ملوكه<sup>(7)</sup>، لتشمل تجليات فكر السنوسي في التوحيد العرفاني مرحلة ما بعد العصر الوسيط، وهو فصل آخر من بقايا العرفان السني يستحق البحث والتقيب.

#### هوامش البحث:

- (\*) محمد بن عمر الماللي: المواهب القلمية في المناقب السنوسية، مخطوط دار الكتب التونسية، رقم 15354، ورقة 12، 19.
- (2) اعتبر محمد بن يوسف السنوسي العارف السني، هو من استشر الحقيقة الإلهية بمعرفة التوحيد والعبودية والروية، فيذكر معنى الروية ويقر بالوحدانية وينفي الأنداد عن الله سبحانه وهي الخطوة التي تحصنه في مراحل المقامات التي يقطعها وصولاً إلى مقام الجمع، حيث يوحهم الوحدة التي تكون فيها في اتصال دائم مع الحق لكن وصوله إلى مقام الفرق بما اكتسبه من استشعار للحقيقة الإلهية ومعرفة بالتوحيد والعبودية والروية، يجعله لا يغمس في الوحدة أو الغية أو السكر وهي حالة جمع الفرق التي تتجلى فيها صور السكر مع الصحو والقناء مع البقاء؛ الماللي: المواهب القلمية، ورقة 179.
- (3) الماللي: المواهب القلمية، ورقة 38.
- (4) نفسه، ورقة 104.
- (5) نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، مخطوط ضمن مجموع الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، رقم 1845/د، ورقة 113، 114؛ أثارت كنية أبي الحسن الصغير إشكالاً لدى الباحثين، فأبو الحسن الصغير الذي عاصره محمد بن يوسف السنوسي وأحمد زروق هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن حمامة الأوربي النيجي الصغير وهو شيخ ابن غازي، وقد كانت وفاته سنة 887هـ/1482م. أحمد بابا التيكلي: نيل الابتهاج بطريق الدياج، ج2، تحقيق علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص ص 240، 241؛ أما المعروف بأبي الحسن علي بن عبد الحق الصغير فهو علي الزرويلي صاحب التقييد على الملونة والقاضي المدرس بفاس والمؤلف سنة 719هـ/1319م. أبو العباس أحمد بن القنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف، الرباط، 1976، ص ص 102، 103.
- (6) الماللي: المواهب القلمية، ورقة 190.
- (7) نفسه، ورقة 143؛ الوادآشي البلوي أبو جعفر أحمد بن علي تـ 938هـ/1532م: ثبت البلوي، تحقيق عبد الله العمراي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 443؛ التيكلي: نيل الابتهاج، ج2، ص 26؛ أبو عبد الله محمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي الشنب، تقديم عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 246.
- (8) نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير، ورقة 115.
- (9) يقول ابن عطاء الله «أعبد الله برضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير». ابن عطاء الله السكندري تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد: التوير في إسقاط التدبير، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان، 2006، ص 5.
- (10) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية الكبرى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003هـ/1424م، ص 101.

- (11) يوافق فكرة الزهد عند ابن عطاء الله: «كما لا يجب العمل المشترك كذلك لا يجب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه». الحكم العطائية، ص 109.
- (12) يرى بن عطاء الله أن الله: «سَطَكْ كي لا يُقَيِّك مع القبض، ويَقْبُضْ كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما حتى لا تكون لشيء دونه». الحكم العطائية، ص 101.
- (13) يطابق ذلك قول ابن عطاء الله: «فأرباب الجذب-الوجد- يكشف لهم عن كمال ذاته، ثم يردهم إلى شهود صفاته، ثم يجمعهم إلى التعمق بأسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره». الحكم العطائية، ص 113.
- (14) يوصي بن عطاء الله بعلم ترك الذكر لأهنية في الوصول إلى مرتبة الغية في قوله: «لا ترك الذكر لعلم حضورك مع الله فيه... فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غية عما سوى المذكور...». الحكم العطائية، ص 99.
- (15) البقرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 2691، ورقة 305.
- (16) حول النص الكامل لمرشدة ابن تومرت. أنظر سعد غراب: مرشدة ابن تومرت وأثرها في التفكير المغربي، مجلة الكراسات التونسية، العدد 13، 104، السنة 1978، ص 119.
- (17) نفسه، ص 134.
- (18) عبد الرحمان بن خلدون: العبر وديوان المبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص ص 471، 472.
- (19) أبو العباس أحمد الوشنريسي: للعار للعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس، ج11، تحقيق محمد حجي وآخرون، مطبوعات دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 50.
- (20) أبو الفضل محمد بن سعد: روضة السرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحيى بوعزيز، ط1، منشورات A.N.E.P، الجزائر، 2002، ص 95.
- (21) الملاي: المصلى السابق، ص 19؛ أحمد بابا التبيكي: الألكى السنلمية في الفضائل السنوسية، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق. الرباط، رقم 471/د، ورقة 92.
- (22) الملاي: المصلى السابق، ورقة 143؛ يرى جمال الدين بوقلي أن محمد بن يوسف السنوسي لم يجد في علم التوحيد في صورته الكلامية سوى الخطوة الأولى للتقرب بما إلى الله، وما الانقطاع للذكر والمكاشفة إلا الوجه الثاني المكمل لكلمة التوحيد، فهو الحجل الذي يصل العقل بالقلب. الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 355.
- (23) الملاي: المصلى السابق، ص 122.
- (24) تحقيق محمد العماري، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 93؛ يذكر سعيد عليوان أن منحى الشرح الذي اعتمدته السنوسي، هلله التبسيط حتى يسهل على قرائها الاستيعاب. محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، ذكره الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1986-1987، ص 48.
- (25) يذكر الملاي أنه رأى هذا الشرح في عشرين ورقة. للمصلى السابق، ص 123؛ أما التبيكي فيقول بأنه في كرايس. أحمد بابا التبيكي: كفاية احتاج لمعرفة من ليس في الدياج، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكديري، ط1، دار بن حزم للطباعة والنشر، لبنان، 1422هـ/2002م، ص 451.
- (26) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط، رقم 2406/د، ورقة 162 وما بعدها.

(27) للملاي: المواهب القديمة، ورقة 38.

(28) نفسه، ورقة 38.

(29) نفسه، ورقة 38.

(30) بعث ابن العريف رسالة إلى تلميذه أبي الحسن بن غالب، يجسد فيها أطروحته في الزهد في المواهب والعطايا الإلهية والكرامات بقوله: «لا تكذب بما ولا تعمل عليها، فإن العمل على الكتاب والسنة هو الهداية». عبد الله محمد بن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، تحقيق بولس نوبا (من الملحق رقم خمسة الرسالة الرابعة)، دار الشروق، بيروت، 1974، ص 220.

(31) حول أطروحة محمد المقرئ في العرفان السني، أنظر: الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و 9 الهجريين/ 14 و 15 الميلاديين، القسم الأول، أطروحة ذكوره في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2008-2009، ص 442 وما بعدها.

(32) للملاي: للمصدر السابق، ورقة 197.

(33) نفسه، ص 52؛ التيكيتي: الآلات السنسية، ورقة 120؛ المراقبة هي استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله. أنور فؤاد: معجم المصطلحات الصوفية، ص 160؛ أما الخوف فهو الحالة التي لا يخاف فيها العبد غير الله أي لا يخاف في نفسه وإنما يخافه إجلالاً له، لأنه الخوف على نفسه هو خوف العقوبة. عبد القاهر السهروردي: عوارف المعارف، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص 315؛ القرب هو قرب العبد من الله بكل ما يعطيه من السعادة وهو على قسمين: قرب علمي وأعلاه العلم بوحيد الألوهية، وقرب عملي وينقسم إلى: قرب فرضي لقول الرسول (ص): «ما يقرب المقربون بأحب إلي من أداء ما فرضته عليهم» وفيه يتجلى الحق للعبد ويظهر العبد بحسب الحق غير محدود ولا متناه، وقُرب فعلي لقول النبي (ص): «لا يزال العبد يقرب إلي بالوفاء حتى أحبه فإذا أحبيته، كنت له سمعاً وبصراً»، وفيه يتجلى الحق للعبد ملتصقاً القابلية المخلوطة. عبد الرزاق الكاشاني: رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأنواق والأحوال، تحقيق سعيد عبد الفتاح، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1415هـ/1995م، ص ص 85-87.

(34) محمد بن يوسف السنوسي: شرح كهافة المريد، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2075، ورقة 6؛ يرى الملاي أن علم التوحيد يزيل من القلب داء الشبه وضروب الشكوك والامتراء. المصدر السابق، ص 41.

(35) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أم البراهين، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 74؛ وكذلك نصرة الفقير، ص 120.

(36) الاستغناء وجوب له تعالى، الوجود والقلم والبقاء والمخالفات للحوادث والقيام بنفسه والتزه عن النقائص، وما ينلج عن عقائد الإيمان كوجوب السمع له تعالى والبصر والكلام، والدليل على إثباتها كون أضدادها نقائصاً، كما أنه تعالى موه عن الأغراض في أفعاله وأحكامه، فلا يجب عليه فعل شيء من الممكنات لا تركه، إذ لو جب عليه تعالى شيء منها غفلاً كالغلب مثلاً لكان عز وجل مفقراً إلى ذلك الشيء ليكمل به، إذ لا يجب في حقه تعالى وأحكامه كلها لا علة لها باعثة وإنما هي بمحض الاختيار وما رعى الله من مصالح الخلق فيمحض فضله ولا حق لأحد عليه تعالى أما وجوب الافتقار إليه تعالى فيستلزم قدرته تعالى على إيجاد الشيء المنقتر فيه إليه، وذلك يستلزم وجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإدارة والعلم العامة لجميع متعلقاتها لما عرف من وجوب توقف تأثير القدرة على الإرادة والعلم ويستلزم أيضاً وجوب اتصافه تعالى بالحياة لوجوب توقف تلك الصفات على صفة الحياة. شرح أم البراهين، ص ص 74، 75.

(37) يرى السنوسي أنه لو كان هناك شيء أقدم من الله تعالى لكان ذلك الشيء مستغنياً عنه الله تعالى. ولا يوجد في الكائنات يؤثر بطبعه خاصة وأن الله لم يجعل من قدرته في هذا الشيء لأنه لو كان كذلك لصار عز وجل مفقراً في إيجاد بعض الأفعال إلى

- واسطة، وهذا يظل منسوب القدرية القائلين بتأثير القدرة الحادثة في الأفعال مباشرة أو توكلاً ويظل منسوب الفلاسفة القائلين بتأثير الأفلاك والعلل ويظل منسوب الطبائعين القائلين بتأثير الطابع والأمزجة ونحوها. شرح أم البراهين، ص 76.
- (38) محمد بن يوسف السنوسي: شرح أم البراهين، ص 65.
- (39) يرى السنوسي أن الذكر لا يكون بالشهادة الأولى - لا إله إلا الله - فقط، بل يجب إضافة الثانية - محمد رسول الله - لأن الأولى تحقق كل شك في الربوبية والثانية تلغي كل شك في الرسالة وكما أن العقيدة لا تصح إلا بالشهادتين معاً، فإن الفتح لا يأتي دونهما معاً ولأجل ذلك اعتبر السنوسي أن الاقتصار على ذكر الشهادة الأولى وإهمال الثانية استلزاماً إلى فرض الشريعة والاخلال من رقيتها وتعطيل رسومها. شرح أم البراهين، ص 90.
- (40) نفسه، ص ص 87 - 90.
- (41) حلد السنوسي معاني هذه الخاسن الأخلاقية فاعتبر الزهد خلوا الباطن من الميل إلى فأن وفراغ القلب من الفقة برائل، والتوكل بقة القلب بالوكيل وهي حالة يسكن فيها العبد عن الاضطراب عند تعذر الأسباب ثقة بمسبب الأسباب والحياة تعظيم الله بعلوم ذكره واكتافاً وسكوت اللسان عنها بالكلية مدحاً وذمناً والإيثار على نفسه بما لا يلزمه الشرع والفتوة وهي التجافي عن مطالبة الخلق بالإحسان إليه ولو أحسن إليهم لعلمه بأن إحسانه إليهم وإساعتهم إليه كل ذلك مخلوق له وتعالى والشكر وهو أفراد القلب بالثناء على الله ورؤية النعم في طي القم. شرح أم البراهين، ص ص 93، 94.
- (42) يذكر الماللي أن شيخه السنوسي كان إذا صلى الصبح يأخذ في الذكر حتى طلع الشمس وربما جعل رأسه بين ركبتيه فيغيب عن الخلق، حتى أنه كان لا يشعر بمن حوله. شرح أم البراهين، ص 134.
- (43) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ورقة 134.
- (44) نفسه، ص ص 163، 164.
- (45) الماللي: المصدر السابق، ص 183؛ التيكتي: نيل الابهاج، ص 256؛ ابن مريم: المصدر السابق، ص 243.
- (46) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ص ص 164، 165.
- (47) السنوسي: شرح أسماء الله الحسنى، ص ص 165، 166.
- (48) نصرة الفقير، ص 120.
- (49) نفسه، ص 113.
- (50) سورة الزخرف: الآية 36.
- (51) نصرة الفقير، ص 115، 116.
- (52) نصرة الفقير، ص 116.
- (53) نفسه، ص 117.
- (54) الماللي: المصدر السابق، ص 179.
- (55) نفسه، ص 189.
- (56) الماللي: المصدر السابق، ص 180.
- (57) نفسه، ص 180.
- (58) تجبر المعرفة الذوقية، أعلى أنواع المعارف وألنها لما تتيح من الإطلاع على الأسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات، وبه تستشعر النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها. الماللي: المصدر السابق، ص 53.
- (59) تظهر هذه العلاقة المخلوطة لمكانة العقل والنطق في شرح السنوسي لأبيات عرفانية تسبب لأبي إسحاق إبراهيم بن دهاق ومطلعا (البسيط):

رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ قَلْبِي فَقُلْتُ لَا شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ  
أَنْتَ الَّذِي حَزَّتْ كُلَّ أَيْسَنِ بِحَيْثُ لَا أَيْسَنَ تَسْمُ أَنْتَ

قوله: «رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ قَلْبِي» يعني عرفت وجوده ما يجب له وما يستحيل وما يجوز بضرورة قلبي التي هي عين القلب وهو الجزء مني الذي يقوم به العلم والفكرة الصحيحة للصية. وقوله: «لَا شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ» يعني فقلت بقلبي لما عرفته بالبرهان وتميز لي عن كل ما سواه لا شك ولا ريب أنت يا مولاي الموصوف بهذه الخاسن التي أبصرها بالبرهان عين قلبي، وإثارت القول على رؤية القلب وهو معرفته بالله تعالى تبينها على حصول الإيمان عند حصول المعرفة لأن الإيمان على الأصح هو حديث النفس التابع للمعرفة لا نفس المعرفة. خلافاً للأشعري والأفضل أن يكون المراد برؤية عين القلب المعرفة النوقية التي هي مقام السالكين ويكون حينئذ معنى قوله: أنت أنت الآن بحسب المعرفة النوقية هو أنت أولاً بحسب المعرفة الرسمية التي أنجبها البراهين العقلية، إذ علامة صحة النوق أن يجيء على وقف الرسمي. المألى: المصدر السابق، ص 182؛ أعطى الباحث سعيد عليان تفسيراً لشرح السنوسي فاعتبر العقل هو الخلق والنوق تابعاً له وبذلك تصبح مهمة النوق التعاطف والتفاعل والهيام في جنب الله عز وجل الذي اتعنا بوجوده عقلياً. فالنوق في نظره يأتي بعد افتناع العقل. محمد بن يوسف السنوسي وشرحه لمختصره في المنطق، ص 110.

(60) يرى السنوسي أن القناء والبقاء هما منتهى سفر السالك في تجربة تصوف التوحيد العرفاني. المألى: المصدر السابق، ص 180.

(61) سورة العنكبوت: الآية 69.

(62) سورة المجادلة: الآية 22.

(63) التبكّي: الأكلّي السننسية، ص 100.

(64) شرح أم البراهين، ص 95.

(65) التبكّي: الأكلّي السننسية، ص 113، 114.

(66) المألى: المصدر السابق، ص 63.

(67) محمد بن يوسف السنوسي: شرحه لمختصره في المنطق، ص 110.

(68) ينتمي محمد بن يحيى إلى قبيلة بني راشد وقد امتاز بالتصوف والورع والأحوال المرضية والكرامات العلية ولم يتحصر استفادته من السنوسي في التوحيد، بل أخذ عنه كذلك الفقه والأصول والبيان والمنطق والحساب والقوانين والنحو. ابن مريم: المصدر السابق، ص 276، 277؛ حسب محمد بن يوسف الزياتي فإن محمد بن يحيى المغراوي كانت له تأليف في التوحيد وبعد أول من بث التوحيد في قبيلة غريس. محمد بن يوسف الزياتي: دليل الحيران وأئيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 60، 61.

(69) ابن مريم: المصدر السابق، ص 152.

(70) يعبر القلامي من كبار تلامذة السنوسي وعرف بأنه فقيه سني موحد ومتصوف وكثير التمسك بأخلاق السلف الصالح ومن أعماله: أسئلة تريد عن الخمسين مسألة تسمى بالقليعية. ابن مريم: المصدر السابق، ص 271.

(71) اشتهر ابن أبي مدين بترسيه لعقائد السنوسي الصغرى والكبرى وشرح الكبرى. التبكّي: نيل الابتهاج، ج 2، ص 275.

(72) التبكّي: نيل الابتهاج، ج 2، ص 260.



## النشاط العلمي لمخبر تاريخ الجزائر

~~~~~ عرض أ. د عبد القادر بوباية \*

تنظيم ندوة تاريخية حول: جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مجازر جبال الظهرة نموذجاً بمساهمة بلدية عشعاشة- جمعية نشاطات الشباب "اقرأ" (عشعاشة).

\* إشكالية الندوة: إن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر كثيرة ومتنوعة، إذ كانت سياسة القمع رهيبية، ونتائجها لم تضبط إلى يومنا هذا.

لقد انتهك الفرنسيون كل حقوق الإنسان، وسجلوا طوال تواجدهم فوق تراب الجزائر جرائم يندى لها جبين الإنسانية، وستبقى وحشية الاستعمار راسخة منقوشة في ذاكرة الأجيال، وستبقى أحداثها بكثرتها وقسوتها وفظاعتها رمزاً لهمجية الاستعمار، ومن أجل تسليط الضوء على جرائمه عامة، وعلى واحدة من أفظع الجرائم التي ارتكبتها اختلون تنظيم بلدية عشعاشة بمساهمة جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم ومخبر تاريخ الجزائر- جامعة هوان- يومي 18 جوان 2011م ندوة تاريخية ببلدية عشعاشة حول:

جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مجازر غار الفراشيش (18 جوان 1845م) نموذجاً.  
إن هذا الملتقى العلمي التاريخي يهدف إلى تسليط الضوء على الجرائم التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويركز أكثر على مجزرة جبال الظهرة كأ نموذج لهذه الجرائم في حق الإنسانية، ويستذكر الوجه البشع الذي ميز الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ويحاول وضع أسس لكتابة تاريخ وطني يجلي حقيقة ما قام به الفرنسيون في الجزائر.  
\* محاور الملتقى الوطني حول جرائم الاستعمار الفرنسي:  
- الاحتلال الفرنسي للجزائر وبداية المقاومة المسلحة.

\* - مدير مخبر تاريخ الجزائر- جامعة هوان.

- دور الطرق الصوفية في المقاومة المسلحة.

- جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

- مجازر الظهرة: ظروفها- أسبابها- نتائجها.

### \* البرنامج العلمي للندوة التاريخية:

يوم السبت 18 جوان 2011م صباحا:

الجلسة العلمية الأولى: رئيس الجلسة: د. لخضر العسال.

9 سا- 9 سا 12د: شريط وثائقي حول محرقة غار الفراشيش.

9سا 12د- 9 سا 22د: أ. د عبد القادر بويابة- جامعة وهران: جرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر: مدخل عام.

9سا 22د- 9 سا 32د: د. يوسف محالد- جامعة وهران: تأملات حول جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

9 سا 32د- 9 سا 42د: أة. تالية سعلو- جامعة تيارت: محرقة أولاد رياح من خلال المجلة الإفريقية.

9 سا 42د- 9 سا 52د: أ. عبد القادر جلاي- جامعة سيدي بلعباس: الاستعمار الفرنسي: جريمة مبرجة.

الجلسة العلمية الثانية: رئيس الجلسة: أ. د عبد القادر بويابة.

10 سا 10د- 10 سا 20د: د. محمد خاين- جامعة الشلف: الذاكرة والتاريخ.

10 سا 20د- 10 سا 30د: أ. د عبد القادر خليفي- جامعة وهران: جرائم الاستعمار الفرنسي من خلال كتابات الفرنسيين.

10 سا 30د- 10 سا 40د: د. ودان بوغوفالة- جامعة معسكر: استراتيجية مقاومة الاستعمار عند الشيخ بوعمامة وأتباع الطريقة الشيخية.

10 سا 40د- 10 سا 50د: أة. فاطمة حباش- جامعة تيارت: انتفاضة سكان جبال الظهرة (ثورة الشريف بومعزة).

10 سا 50 - 11 سا: د. بن عتو بلبروات - جامعة سيدي بلعباس: التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية.

11 سا - 12 سا 30: مناقشة عامة.

15 سا: رحلة إلى غار الفراشيش موقع المجزرة الاستعمارية.

### ملخصات بعض مداخلات الندوة العلمية:

\* أ. د عبد القادر بوباية - قسم التاريخ - جامعة وهران.

جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر: مدخل عام

ملخص المداخلة: إن الحديث عن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو بمثابة التعرض إلى الجانب الظالم والمظلم من سياسة استعمارية دامت طيلة قرن وحوالي ثلث القرن، عانى خلالها الشعب الجزائري الأمرين، حيث انتهج المستعمر الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سياسة قمع رهيبة أهملت كل حقوق الإنسان، وفاقته ما ارتكبه النازية في حق الشعوب التي سيطرت عليها، وقد اتسمت هذه السياسة بالتطبيق الكامل والتام للسادية، ومن أبرز مظاهر سياسة فرنسا الإجرامية:

- حرب الإبادة التي شنها اختل على الشعب الجزائري.
- البطش الاستعماري وسياسة التمييز العنصري.
- تعسف الإدارة الاستعمارية التي جعلت من المستوطنين طبقة متسلطة، لها كل الحقوق والامتيازات بينما أبقى السكان الأصليين تحت الاضطهاد والقهر.
- انتهاج سياسة محو مقومات الشخصية الجزائرية، والمتمثلة في محاربة الإسلام واللغة العربية وإحاق الجزائر بفرنسا.

سياسة إبادة الجنس الجزائري: إن السياسة الاستعمارية في إراقة الدم الجزائري ظاهرة التصقت بسلوكات الضباط الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر، إذ شرعوا في محاولة إبادة شعب بأكمله والقضاء على شخصيته الوطنية ووجوده وقيمه الخاصة به، وهذا يراقة

دم السكان الأبرياء العزل، وتنظيم مذابح جماعية تقشعر الأبدان لفظاعتها، ويصعب على العقل تصورها، وللتدليل على ذلك ارتأينا أن نستشهد ببعض المذابح كخبر دليل على همجية الاستعمار في إبادة الجنس الجزائري:

مذبحة البليدة: في 26 نوفمبر من عام 1830م نظمت الحامية الفرنسية في مدينة البليدة مذبحة رهيبة ضد السكان العزل، لم يرحم فيها شيخ مسن ولا عجوز ولا امرأة ولا حتى الأطفال الرضع الذين ذبحوا على صدور أمهاتهم، لقد تفنن الضابط تروير قائد الحامية في تنظيم هذه المذبحة بحيث حول المدينة إلى مقبرة في بضع ساعات، إذ امتلأت الشوارع بجثث القتلى الذين يجهل عددهم.

مذبحة قبيلة العوفية: في ليلة الخامس من شهر أبريل من عام 1832م أعطى دو روفيقو الذي عرف بسياسته الخافدة تعليمات لإبادة أفراد قبيلة العوفية المستقرة عند وادي الحراش عن آخرها عند نومها.

ويعترف الرائد مونتانيك (Montagnac) الذي كان يقود الجيش الفرنسي الاستعماري بنواحي سكيكدة عام 1843م بجريمة قطع رؤوس العرب لاعتقاده بأن العرب البالغين خمس عشرة سنة فما فوق يجب أن يقتلوا، ويقول: "هذه هي طريقتنا في الحرب ضد العرب يا صديقي...، قتل الرجال، وأخذ النساء والأطفال، ووضعهم في بواخر، ونفيهم إلى جزر الماركنز البولينيزية، باختصار: القضاء على كل من يرفض الركوع تحت أقدامنا كالكلاب".

ويذكر في كتابه "رسائل جندي" واصفا القمع الوحشي في إحدى المعارك: "لقد أحصينا القتلى من النساء والأطفال فوجدناهم ألفين وثلاثمائة، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة".

عمليات إبادة جماعية: كما يعترف الجنرال كافينياك (cavaignac) بجريمته في إبادة قبيلة بني صبيح عام 1844م "لقد تولى الأجناد جمع كميات هائلة من أنواع الحطب ثم كدسوها عند مدخل المغارة التي حملنا قبيلة بني صبيح على اللجوء إليها بكل ما تملك من متاع وحيوانات، وفي المساء أضرمت النيران وأخذت الاحتياطات كي لا يتمكن أيا كان من الخروج حيا...".

أما الناجون من فرن كافينياك الذين كانوا خارج أراضي القبيلة، فقد تولى العقيد كونروبار (Conrobert) جمعهم بعد حوالي عام من حرق أهاليهم، ثم قادهم مقيدين إلى مغارة

ثانية وأمر ببناء جميع مخارجها ليجعل منها على حد تعبيره "مقبرة واسعة لإيواء جثث أولئك المتروكين. ولم يزل أحد إلى تلك المغارة، ولا يعرف أحد غيري أنها تضم تحت ركامها خمسمائة من الأشرار الذين لن يقوموا بعد ذلك بذبح الفرنسيين".

وفي تعليقه على هذه الجريمة قال السيد برار (Berard): "لقد ظلت تلك المقبرة مغلقة وبدخلها جثث رجال ونساء وأطفال وقطعان، تتآكل أو يأكلها التراب".

محرق غار الفراشيش: وهذا نموذج آخر من سياسة القهر والإبادة التي انتهجها ييجو ضد الجزائريين، والتي حصل بمقتضاها على لقب "قاهر الجزائر" وعلى عصا الماريشالية، وتعني بذلك المجزرة الرهيبة التي وقعت في أولاد رياح بغار الفراشيش في ناحية الظهرة في جوان 1845م، ومرتكب هذه المجزرة هو العقيد بيليسيه، وخلاصتها أن معركة كبيرة وقعت خلال شهر يناير 1845م بناحية الظهرة، وتعرف عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية، شاركت فيها على الخصوص القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبة وفروعها.

وكانت قبيلة أولاد رياح التي شاركت في الانتفاضة تقطن جنوب تنس، فغزاها بيليسيه وحطم أملاكها طبقا لسياسة الأرض المحروقة؛ ففرت القبيلة، وكان عدد أفرادها يزيد عن ألف شخص رجالا ونساء وأطفالا مع حيواناتهم، واحتمت بغار محصن يسمى غار الفراشيش يوم 17 جوان؛ فحاصر بيليسيه وجنوده المغارة من جميع الجهات، وطالب القبيلة بالاستسلام؛ فردت عليه بإطلاق الرصاص؛ فقام بيليسيه بجلب أكداس الخطب ثم أشعله محاصرا به الغار، وكان هدفه من ذلك إجبار القبيلة على الخروج والاستسلام أو الموت اختناقا بالدخان، وضاعف العقيد من تكثيف الدخان في مداخل المغارة.

وانتهت المأساة باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي حاصرتة النيران والدخان مدة يومين، وكان المنظر فظيعا وقد علقت الصحف على ذلك بقولها إنها: "منحة فظيعة جعلت حتى المتوحشين ينجحون"، ومع ذلك فقد امتدح ييجو العقيد بيليسيه على ما قام به في حق قبيلة أولاد رياح، وقامت صحيفة "لا دياش" تمدح ضباط الجيش الفرنسي على أعمالهم في الجزائر، كما قامت صحيفة الجزائر الفرنسية التي كمان يصدرها ييجو بوصف الجريمة وأنتت على مرتكبيها.

هذه بإيجاز إطلالة عابرة على ما ارتكبه المحتل الفرنسي في الجزائر، وإننا ومناسبة إحياء ذكرى الخرق التي قام بها المستعمر الفرنسي في غار الفراشيش نسعى إلى تذكير الأجيال التي جاءت بعد الاستقلال بما تعرض له هذا الوطن، وما تكبده أهله على يد مجرمي الحرب التي خاضتها فرنسا من أجل إخضاع الجزائر وتركيع سكانها، ورغم الخسائر الفادحة التي تكبدها الجزائريون طيلة الوجود الاستعماري بالجزائر إلا أنهم لم يستسلموا بل ظلت شعلة الجهاد مشتعلة، وتوجت بثورة نوفمبر التي وضعت حدا للوجود الاستعماري بالجزائر بعد ثورة دامت سبع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام من تاريخ اندلاع الثورة في أول نوفمبر 1954م. ملاحظة: نقلا عن مجلة أول نوفمبر- العدد 155/156- 1977م- صص 35-41.

---

\*د. محالد بوسيف- قسم التاريخ- جامعة وهران  
تأملات حول الجرائم الكولونيالية الفرنسية في الجزائر

ارتكبت فرنسا الكولونيالية جرائم لا تحصى في الجزائر منذ بداية الاحتلال يوم 14 جوان 1830 واستمرت جرائمها إلى ما بعد الاستقلال، ولا بد من التذكير دائما ان الاستعمار جريمة.

لقد كانت الإبادة الجماعية للسكان العزل وجود وبقاء فرنسا الكولونيالية، والدفاع عن مصالحها وامتيازات الأوروبيين-بمخلف جنسياتهم-الذين جلبتهم من أوروبا قاطبة تطبيقا لسياساتها الاستيطانية.

وبقيت هذه الجرائم عار في ذاكرة الشعب الفرنسي الذي وقف-في فترات متعددة-إلى جانب القضية العادلة للشعب الجزائري، وتوضح الوثائق الأرشيفية الفرنسية السياسية الكولونيالية في الجزائر ونتائجها المختلفة والإبادة الجماعية للسكان العزل باستعمال الوسائل الحربية الضخمة والأسلحة المخطورة ضد الأبرياء.

استمرت الجرائم الفرنسية بعد وقف إطلاق النار يوم 19 مارس 1962م، وبعد الاستقلال وتمثلت في جرائم منظمة الجيش السري الإرهابية التي تأسست سنة 1961 بهدف احتفاظ المعمرين الكولون الغلاة بالجزائر "فرنسية"، وجرائم الانفجارات النووية التي استمرت في الحمودية برقان

وعين ايكز بتمنراست، وسيبقى خطر الإشعاع النووي يهدد الأبرياء بالقتل أو التشويه، وبقيت كذلك القنابل المضادة للإنسان تقتل وتشوه الأبرياء بعد الاستقلال.

وأبقت فرنسا الاستعمارية الكولونيالية وجودها بارتكاب جرائم الإبادة الجماعية، وتذكر الوثائق الأرشيفية الفرنسية أسماء الجنرالات و السياسيين البارزين، وكل المدافعين عن الوجود الفرنسي في الجزائر الذين أصبحت أسماءهم مرتبطة بهذه الجرائم.

بلغ عدد سكان الجزائر في سنة 1830- حسب التقديرات الرسمية الفرنسية- ثلاث ملايين نسمة وبعد عشرين سنة من الاحتلال قل ب 700000 نسمة حيث أصبح لا يتعدى 2300000 نسمة في سنة 1856، ويعادل هذا التناقص ثلث مجموع السكان.

ومن الجماعات الرهيبة التي سببها الاستعمار الكولونيالي الفرنسي أذكر مجاعة عامي 1867 و 1868م التي دامت 9 أشهر ونصف ( من نوفمبر من سنة 1867 الى جويلية من سنة 1868)، مات خلالها خمس سكان الجزائر حسب التصريحات الفرنسية الرسمية.

وانتشار الأوبئة الفتاكة من الجرائم كذلك التي لا يمكن حصر ضحاياها، وكانت تصيب الجزائريين بالآلاف نتيجة السياسة الكولونيالية، وانعدام العناية الصحية والوضعية الاقتصادية ونتائجها المؤلمة. وأذكر هنا- على سبيل المثال فقط لا الحصر- أن وباء الحمى الصفراء قتل لوحده 55274 جزائريين سنتي 1939 و 1945- حسب الحالات المعلن عنها رسمياً، وفي ظرف 3 سنوات فقط من سنة 1941 الى سنة 1943 قتل هذا الوباء 48375 جزائرياً.

أما بقية الأوبئة الفتاكة الأخرى وهي الطاعون والجلدي والحمى التيفويفية فقد قتلت 36130 جزائرياً حسب الحالات المعلن عنها رسمياً.

والتصريحات الفرنسية الرسمية بعيدة عن الواقع، وتقلل من مسؤولية الاستعمار الكولونيالي والمدافعين عنه.

ومن الجرائم الكولونيالية كذلك أذكر تجريد الجزائريين في الحروب التي لا تعنيهم؛ ففي الحرب العالمية الأولى قتل 26000 جزائرياً من ضمن 210000 مجندين طبقاً لقانون التجنيد الاجباري، وقتل

16600 جزائرياً من ضمن 150000 شاركوا في الحرب العالمية الثانية، واعتقلوا أنهم يحاربون من أجل انتصار الحرية وتحقيق الاستقلال.

هذه أمثلة عن بعض جرائم الاستعمار الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، ولا يمكن أن نعرف عدد الضحايا الأبرياء، وسنبقى نتكلم فقط عن تقديرات بعيدة عن الواقع والحقيقة.

\* أ.د عبد القادر خليفني- قسم التاريخ- جامعة وهران.

نماذج من جرائم الاستعمار الفرنسي من خلال تصريحات بعض قادته.

ملخص المداخلة: عاش الجزائريون في الفترة الممتدة من سنة 1830 إلى سنة 1962 في معتقل كبير هو وطنهم الجزائر الذي تحول إلى محتشدات ومراكز للتجميع، وسلّطت على ساكنيه مختلف أنواع القهر والظلم كالاغتيال والسجن والمطاردة والنفي والقتيل، بينما عاش الأوربيون، الوافدون من وراء البحر، في مجبوحة من العيش، يتمتعون بخيرات البلاد في أمن وسلام.

لقد استعملت قوات الاحتلال الفرنسي مختلف أساليب القهر لإخضاع البلاد، وقد استبد بالمعمرين الجشع لانتزاع الأراضي من أصحابها، وعمل الجميع عسكريين ومعمرين على تحطيم المجتمع الجزائري. وقد وردت تلك الجرائم في كتاباتهم بصفته منفيين لها وشهود عيان لحبوتها.

ومن بين الكتب الفرنسية التي تعترف بجرائم المستعمرين في الجزائر ما ورد في كتاب: الكونت إيريسون عن "صيد البشر"، الذي يعترف فيه بوجود حرب المتحضرين ضد الأقوام، التي يعتقد أنها بدائية وبربرية، والتي تستحق الزوال بفعل التطور الحضاري، ويقول: "لقد سالت الدماء بكثرة خلال هذا الصراع... كنا نحارب ضد أمة بكاملها، تحركها عصبية مزدوجة وطنية ودينية، وكانت الحرب تتطلب منا مزجا عنيفا، ربما كانت قتلها الضرورة، لكنها كانت مرفوضة من قبل قانون البشر وشرف أمة كبيرة مثل فرنسا"<sup>1</sup>.

وقد اشتهر الجنرال بيجو بتطبيق ما يعرف بـ "سياسة الأرض المحروقة" التي اتبعها في الجزائر. وتتمثل في إبعاد السكان الجزائريين عن التحالف مع الأمير عبد القادر، بتدمير مساكنهم وحرق غلاتهم وإبادة حيواناتهم، فلا يبقى لهم سوى الأرض العارية يفتشون ترابها والسماء



يستظلون بها. وهي سياسة أثبتت نجاحتها، وكانت من أسباب توقف الأمير عن مواصلة المقاومة سنة 1847، والتي كان قد بدأها تحت قيادة والده محي الدين سنة 1830.

كان ييجو قد عُيّن حاكما على إقليم وهران في أبريل من سنة 1836 لمواجهة الأمير في المنطقة الغربية، ثم أصبح حاكما عاما على الجزائر برتبة مارشال ابتداء من أول جانفي سنة 1841. وعندما عينته حكومته في هذا المنصب "أمرته بمواصلة الحرب حتى النهاية، وأرسلت له كل الإمدادات اللازمة، فتجاوز عدد الجنود مائة ألف جندي سنة 1262هـ/1846م، وهو عدد ضخم إذا ما قورن مع ما كان يمكن لعبد القادر أن يعينه في كل مواجهة"<sup>2</sup>.

وقد برر ييجو تلك الأعمال الشنيعة التي كان يرتكبها، في رسالة له إلى مستوليها بالعاصمة باريس، حين قال: "بلون هذه الأساليب لا يمكن التغلب على هذا الشعب العجيب ولا السيطرة عليه"<sup>3</sup>.

ويقول الجنرال دليني Deligny عما حدث خلال مقاومة 1864 من مجازر بالجنوب الوهراني: "كنا نلوس في طريق عودتنا على جثث قطعان قبيلة الأحرار، تبعث منها رائحة كريهة، هناك أكثر من مائة ألف دابة تغطي سطح الأرض. لقد جاءت بقايا هذه القبيلة الكبيرة التي كانت تفتخر بعدد خيولها الأربعة آلاف وبمواردها الضخمة من شعر وإبل وبأغنامها التسعمائة ألف، جاءت بقاياهم إلى البيض تطلب العفو والسلام"<sup>4</sup>.

لقد ركز الفرنسيون على وسائل عيش السكان بالقضاء عليها تدميرا وحرقا لإجبارهم على الاستسلام جوعا، يذكر أحد الفرنسيين أن الفقر مس العرب (الجزائريين) بهذه المنطقة (واد الحمام) وذلك منذ مقاومة 1864، وأنّ الفرنسيين أخذوا كل ما وجدوه لثمين بلدة البيض. ويتحدث عن الحيوانات التي اضطر أصحابها إلى تركها، فمات العديد منها في الطريق مثلما مات أصحابها، لأنهم لم يستطيعوا الثبات بسبب أتعاب التقل. ويواصل فيذكر أنّ الرجال تركوا نسائهم وأطفالهم بلون إعالة مما أدى إلى موتهم فيما بعد، وأنّ العدد القليل من العرب وحيواناتهم، الذين تمكنوا من الالتحاق بقيائهم، وجدوا المزروعات قد أكلتها الجراد فسقطوا في أقصى أنواع المآسي<sup>5</sup>.

ويقول: إنه لا يجب أن ننسى أن سياسة "الأهلي" تعتمد أساسا على استعمال القوة. إن العطف والطيبة لا تكفي لاكتساب "الأهلي"، إذا لم تعتمد على التفوق المادي، إذ سيظهر له ذلك ضعف وخوف".<sup>6</sup>

من خلال هذه النماذج الثلاثة من اعترافات الضباط الفرنسيين الذين عاشوا في فترة التوسع الأولى من الوجود الاستعماري الفرنسي؛ تتضح معالم تلك السياسة الإرهابية التي اتبعها أولئك المسؤولون الفرنسيون ضد الشعب الجزائري، الذي كان آمنا في وطنه، يمارس حياته اليومية تحت ظل حكومة إسلامية، وحين غزته الجيوش الفرنسية قام يدافع عن نفسه، وكانت المواجهة غير المتوازنة بين الطرفين.

لم يكف الفرنسيون بمواجهة المحاربين في ميادين القتال، ولكنهم عملوا على تدمير كل شيء يتحرك على هذه الأرض الطيبة، لقد استحلوا دماء الشعب الجزائري كله، وراحوا يفتنون في التقتيل والتشريد، يذبحون الأشخاص ويحرقون الغلال ويدمرون البنايات.

وهم في كتاباتهم عن تلك الجرائم، يفتخرون بأعمالهم الإرهابية اللاإنسانية. لقد أقاموا معارض للدماء والأشلاء البشرية، هدفهم بث الرعب في نفوس السكان، وكسر شوكة المقاومة فيهم بأقسى أنواع الشدة والفظاظة. فالجنرال روفيغو الذي غزا قبيلة العوفية في ضواحي الجزائر، وهي نائمة مطمئنة في شهر أبريل من سنة 1832، وأبادها عن بكرة أبيها؛ يفتخر بهجومه عليها ليلا، بجيش نظامي يقوده ضابط كبير، ويحمل الأشلاء ويعرضها أكواما في باب عزون بالعاصمة. ويضع العملية في صورة البطولة التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز، بينما هي في الحقيقة أقرب إلى عمليات سطو وقرصنة لقطاع طرق ومجرمين، لا يقف في وجههم عائق ولا تحد أعمالهم قوانين أو أخلاق.

كانت سياسة العنف مصاحبة للفرنسيين حيثما حلوا وارتحلوا، فقد كان دخولهم إلى أية منطقة من مناطق الجزائر معناه دخول التقتيل والتشريد والقهر، ومعناه المذلة والتقهقر الاقتصادي والاجتماعي. يقول فرانز فانون، وهو أحد منظري الثورة الجزائرية والمساهمين فيها: "لقد عاشت الجزائر بوصفها مستعمرة تحت سيطرة بوليسية وعسكرية لم يسبق لها نظير في أية مستعمرة أخرى".<sup>7</sup>

لقد جاءت الأدلة والشهادات من الفرنسيين أنفسهم من خلال التقارير والرسائل التي كان يعيها ويبحثها الجنود والضباط إلى رؤسائهم وذويهم حول عمليات القمع والإبادة، إنهم بقايا جيش نابليون بونابرت الذي تدرب في ساحات المعارك بأوروبا وجاء إلى الجزائر يكمل وينفذ ما تعلمه هناك، وما حاول أن يبدعه هنا ضد شعب أعزل، بعد أن استسلمت حكومة الداي وانسحبت من الميدان بعد اتفاقية الخامس من شهر جويلية سنة 1830.

الهوامش:

- 1- مصطفى الأشرف، ثلاث مراحل وثلاث مجرمي حرب، صحيفة الخبر ليوم 7 ماي 1996، نقلا عن مجلة أحداث، الصادرة باللغة الفرنسية.
- 2- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، للركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص: 122.
- 3- أنظر: Yves Lacoste, A. Noushi et A. Prenant, L'Algérie passé et présent, édition sociale, Paris 1960, P/271.
- 4- أنظر: -Djillali sari, Le désastre démographique, SNED, Alger 1982, P/199.
- 5-Djillali sari, IBID, P202.
- 6-IBID P/500.
- 7- فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ترجمة محمد الميلي، ش و ن ت، الجزائر 1980، ص: 67.

أ - سعدو تالية- جامعة ابن خلدون- تيارت.

محرقة أولاد رياح -18 جوان 1845

ملخص المداخلة: شنت فرنسا الاستعمارية منذ أن وطئت أقدام ضباطها وجنودها أرض الجزائر حربا شاملة ومدبرة على الشعب الجزائري، ولعل أفظع الجرائم التي توصف بجرائم الإبادة الجماعية للسكان، تلك التي اقترفها المارشال "بيجو" وأعدائه في حق قبيلة أولاد رياح- محرقة غار الفراشيع بالظهرة- حيث أصدر أوامره للضباط كي يتصرفوا بدون شفقة ولا رحمة، وأكد لهم في رسالة بتاريخ 11 جوان 1845 بخصوص سكان منطقة الظهرة الذين تعودوا في أوقات الخطر اللجوء إلى المغارات قائلا: "إذا انسحب هؤلاء الأوغاد إلى مغارقتهم فافعلوا بهم مثلما فعل "كافيناك" من قبل: أختفوهم بالدخان الكثيف مثل الثعالب".

نفدت أوامر "بيجو" مرة أخرى في قبيلة أولاد رياح، وكان رجل هذه المحرقة الكولونيل "بيليسيه"، وفيما يلي وصف للمجزرة كما ورد في المجلة الإفريقية لسنة 1907م، العدد 51 من

خلال تقرير الكولونيل "ييليسيه" الذي أشرف بنفسه على المذبحة، والتقرير كنه ضابط بقلمه في مكان المحرقة بتاريخ 22 جوان 1845م، وسقطتف منه بعض الفقرات:

يقول الضابط: "سيدي المارشال، لقد أتيت كما أعلمتكم من قبل في رسالة مؤرخة في 16 جوان، تحت الرقم 05 لإقامة معسكري في "أولاد بلعمرية" عند قبيلة أولاد رياح (وهم أنصار الشريف بومعزة قائد المقاومة الشعبية بجبال الظهرة)، لقد حددت اختياري، وقررت أن أرحف ابتداء من فجر يوم 18 جوان على غار الفراشيع، هذا الملجأ الذي كما يروونه في كامل البلاد يستحيل بلوغه بالقوة، ويسمونه "جزائر الظهرة"، وبعد وصف الطريقة التي حاصروا بها المكان يواصل "ييليسيه" الحديث عن أسلوب تنفيذ الجريمة:

دعوت الفضولين الذين يتجمعون ويلتفون في مثل هذه الحالات إلى الابتعاد، وأمرت الكابتن "رؤول" أن يستدعي رجال السخرة الذين التحقوا منذ حوالي ثلاث ساعات بفيالقهم، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وبمجرد أن هممت بالانسحاب، انطلقت رصاصة من المغارة لتصيب فحاصا من وراء "أورليان"، وعلى الساعة الواحدة كانت المراكز جاهزة للعمل، ولم أشأ أن استأنف إحراقهم قبل إنذار جديد، وأرسلت إليهم عبر المدخل السفلي وهو المنفذ الأقل خطورة، أحد المفاوضين الثلاثة الأوائل، والذي ترك المغارة مع أخيه رغم تردد الآخرين، بقي خمسة أرباع الساعة معهم دون أن يتحرك أدنى تنازل، بلغت أقصى حدود الصبر.

على الساعة الثالثة زوالا اندفع الحريق في كل جهة، واستمر إلى الواحدة من صباح اليوم الموالي، وتمت معالجة النيران بحيث لا ينجو منها حتى الذين يحاولون الفرار، ولعلمي أن المدخل الرئيس قد يصلح لمحاولة بئسة عمدت إلى إقامة حاجز من أكياس البسكويت المملوءة بالتراب، ونصبت قطعة المدفعية على بعد 50 مترا من ذلك المدخل، وكانت النيران تسقط قطعها كبيرة من الجبس أمام المغارة، ويقدر ما كنت في تلميز، كنت أسعى لإحداث الرعب داخل المغارة من خلال إطلاق بعض القذائف التي ألحقت أضرارا بالمغارة، وتسببت شظاياها في هلاك الماشية المتراخمة بالمدخل، أمرت بوقف القصف فلم يردوا علي إلا بداءات حتى أمهلهم للبقاء مدة طويلة في مأمن، ولكن لسوء حظهم كان الأمر غير ذلك، لقد سببت كثرة النيران بالمغارة السفلى تدافعا قويا، وكاد الهواء الساخن أن يخنقهم جميعا.

اعتقدت أن الفوضى قد انتشرت بينهم عندما سمعت انفجارات متميزة داخل المغارة؛ فانتهزت الفرصة لإرسال مبعوث عاد ومعه بعض الرجال المنهكين الذين أخبرونا بحجم الخطر الذي حل بهم، ثم أرسلت الجند لإخراج من بقي حيا، وفقد الرغبة في التصدي لنا، وبعد جهود كبيرة تمكنا من إخراج خمسين رجلا مات بعضهم أثناء الإسعاف.

الحالة السائدة داخل المغارة أرغمتني لتوقيف هذا العمل، أثناء النهار خرج البعض منهم ويا للعجب كان بعض رجال القبائل يطلقون النار في وحشية على نساء حاولن الخروج بأنفسهن، جمعنا خلال يومين 110 شخصا، مات منهم تسعة أثناء الإسعاف، أما الآخرون فعادوا إلى بيوتهم ولكن أكثر من 500 هلكوا داخل الوهاد وأقسام المغارة الكبرى ذات الشكل البشع، "إنها سيدي المارشال واحدة من تلك العمليات التي نفذناها رغما عنا، ولكن ندعو الله ألا نضطر أبدا لتكرارها.

ومن مصادفات الأقدار أن أكثرهم عنادا وتشددا قضوا نحبهم، وبخاصة أتباع الشريف بومعزة، وبين يدي الآن زوجة بنت وابن الشيخ ابن نقاح من بني زروال، والذي كان خليفة الشريف بومعزة في المنطقة، هذا ما لدينا من المساجين.

إن اللرس المؤسف الذي تلقاه "أولاد رياح" ترك صدى كبيرا في البلاد، وهكذا فإن بني زنتي "تازغاريت" كانوا يستسلمون جماعيا بينادقهم وخيلهم، وكذلك ما بقي من قبيلة أولاد رياح، ثم يختم "بيليسيه" تقريره بتوصية خاصة للذين ساعدوه في هذه الإبادة الجماعية.

إن تقارير جنرالات الاحتلال التي كانت تبعث إلى أسيادهم كانت ولا تزال دليلا كافيا على جرائم فرنسا في حق الشعب الجزائري، وكان كل جنرالات فرنسا في الضراوة سواء من روفيقو إلى تريزيل، ثم كلوزيل وسانت أرنو ولاموريسر وبيليسيه وكافينيك ورائدون وغيرهم.

---

\* د. بن عتو بلبروات- قسم التاريخ- جامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية 1954-1962م-

ملخص المداخلة: يندرج موضوع التعذيب الفرنسي أثناء الثورة التحريرية 1954-1962 ضمن جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولا يعني هذا التحديد الزماني أن فرنسا لم تعرف التعذيب إلا مع اندلاع الثورة بل كل ما في الأمر أن التعذيب كوسيلة عنيفة لاستئطاف الجزائريين وتجميع

المعلومات، كان متزامنا مع حلول الاحتلال العسكري بالجزائر سنة 1830، واستمر على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين، لكن اشتدت وتيرته في زمن الثورة التحريرية.

لقد لاحظنا أن التعذيب بحق الجزائريين والجزائريات كممارسة فعلية، تناقضت بشكل صارخ مع أقوال وادعاءات الفرنسيين الاستعماريين الذين حاولوا أن يقنعوا الجزائريين وشعوب العالم أن رسالتهم حضارية في الجزائر، وأن ثورتهم الديمقراطية القائمة على الإخاء، العدالة، والمساواة، لا تسمح لهم بفرض سيطرتهم على الآخرين، وأن الجزائريين هم الذين يناصبوهم العداء ويرفضون التحضر، وبالتالي لم يجد الفرنسيون والأوروبيون المنتشرون بالجزائر إلا اختيار الدفاع عن أنفسهم كحق مشروع.

وفي ثانيا البحث انتهنا إلى أن العنف كفكرة، متجذر وراسخ، لدى العديد من الشخصيات السياسية والعسكرية والفكرية، الفرنسية، ويمكن لنا ذكر مقتطفات من تصريحاتهم التي لا نراها سوى استدلالا على فكرتنا فمثلا يقول بيجو Bugeaud: " قبل أن نحكم وننتصر، يجب على الأهالي أن يقبلوا قواتنا. هناك ألف دليل على أنهم لا يقبلوننا إلا بالقوة... فإذا استمرينا في مراعاة الشعور الإنساني، ستظل الحرب في إفريقيا قائمة إلى الأبد، وفي هذه الحالة لا نستطيع إدراك هدفنا الوطني." وتعزيزا للفكرة يقول الدكتور بوديشون Bodichon: " نستطيع أن نحارب أعدائنا الإفريقيين بالنار والبارود، وإثارة الفتن بين القبائل، وهو الطريق الأسهل." ثم نصادف تصريحات مماثلا لأسقف الجزائر سنة 1844 مفاده أن اجتماعات لا تقبل إلا بالدماء والدموع. والتصريحات التي تصب في هذا السياق كثيرة، ولهذا نجد ترجمة فعلية لهذه التصريحات عندما نتبع أدوار الحرب الفرنسية في الجزائر من قتل جماعي دون تمييز سواء بالرصاص أو بالذبح أو بالحرق مثلما حدث لأولاد رياح بالظهرة سنة 1845 تحت عنوان محرقه الفراشيش، وما جرى لسكان الأغواط سنة 1853 الذين ذبحوا وألقي بهم في آبار المدينة وضواحيها.

اكتشفنا أن موضوع التعذيب، موضوع معقد ومتشعب ويتطوي على العديد من القضايا التاريخية، لذلك ارتأينا التركيز على نقطتين علميتين في مداخلتنا، الأولى تتعلق بمراكز التعذيب وحجم انتشارها أثناء الثورة التحريرية، وتوصلنا إلى النتائج الآتية:

- تلازمت عملية نشر مراكز التعذيب عبر التراب الجزائري مع العمليات العسكرية للثورة الجزائرية.

- انتشرت مراكز التعذيب، ضد الجزائريين والجزائريات، عبر أقاليم الجزائر، في المختشات والمعتقات والمزارع ومعاصر الخمر والقيلات الكولونيالية والثكنات... وكانت تقام بطريقة سرية.

- توحى لنا خريطة انتشار مراكز التعذيب عن التعداد المائل للمعتقلين الجزائريين، وأن الاحتلال الفرنسي رأى في الاعتقال العشوائي والتعذيب، طريقة سهلة لتطبيق النشاط الثوري ومن ثمة القضاء عليه في فترة وجيزة.

أما النقطة الثانية فركرت على أساليب التعذيب بغرض استطاق المعتقلين، ووجدنا أن الدراسات التاريخية تميز بين صنفين من التعذيب، تعذيب نفسي يبدأ من طريقة الاعتقال التي قد تكون طريقة مرعبة، فمثلا تم اقتحام المنازل عنوة وليلا ولا يترك للمعتقلين فرصة ارتداء ملابسهم، ثم يتواصل التعذيب النفسي في المعتقل حيث يمر الضحية بعملية غسل المخ، ولما يرفض الإدلاء بمعلومات مفيدة ومحددة، يقدم له أطباء عسكريون، عقارا عن طريق الحقن في الوريد-وهو من العقارات المحرمة دوليا- فتظهر عليه علامات التلويح المغناطيسي، وهنا تطرح عليه أسئلة محددة، فيجيب عنها، وبالتالي تتلاشى روح مقاومته ويصير سهلا للانقياد. ولعل غاية هذا التعذيب النفسي هو إقناع المعتقل الجزائري بشرعية وصواب السياسة الفرنسية بالجزائر، ودعوتهم للتعاون مع الفرنسيين للقضاء على جبهة وجيش التحرير الوطني.

أما الصنف الثاني فهو التعذيب الجسدي، فوجدنا أن الكتابات التاريخية قد رصدت لنا عدة أساليب، وكل أسلوب ينطوي على طرق، تعبر جميعها عن وحشية الممارسة الاستعمارية الفرنسية، وحجم الأضرار التي لحقت بالجزائريين والجزائريات. ويمكن ذكر هذه الأساليب والطرق التعذيبية كالآتي:

- التعذيب بالكهرباء بواسطة آلة "جن جن" بدرجة 220 فولت، وكانت توضع الخيوط الكهربائية في الأماكن الحساسة للجسد مثل العضو الجنسي، أسفل اللسان، شحمة الأذن، الثدي وغيرها.

- التعذيب بالماء بطرق عدة.

- التعذيب بأسلوب التعليق المنكس.
- التعذيب بالحشرات والأفاعي والكلاب.
- التعذيب بالكلايب واقتلاع أعضاء جسدية مثل الأظافر والأسنان والأضراس.
- التعذيب بالنار.

وما تجدر الإشارة إليه أن أشكال التعذيب لا تتوقف عند ما ذكرناه سلفا، فقد كان المعتقلون يؤمرون بالزحف على بطونهم وإلا يتعرضون للضرب المبرح، ويجبرون على الوقوف لساعات، وحلق أذقافهم كل صباح، وأكل لحم الخنزير في رمضان وشرب الكحول وإتيان الفاحشة، وشرب المياه المتعفنة، والجري على الزجاج، والأمثلة بشأن أساليب التعذيب عديدة. وفي الختام يمكن التأكيد أن التعذيب الفرنسي بالجزائر زمن الثورة التحريرية كان يمثل صورة واضحة للدرجة الوحشية الفرنسية وجزءا من جرائم الدولة الفرنسية بحق الجزائريين المدافعين عن أرضهم وكرامتهم وحريتهم، وكانت كل سنة تقضي من عمر الثورة إلا ويتصاعد عدد مراكز التعذيب عبر ربوع القطر الجزائري حتى أن الإحصائيات تفيدنا أنه وصل عددها إلى 2600 مركز سنة 1961 ناهيك عن المراكز الغير مسجلة رسميا بطريقة عمدية، ومعنى آخر نلاحظ أن فرنسا قررت تعذيب ثلث السكان الجزائريين الذين بلغ عددهم عشرة ملايين نسمة عشية الاستقلال، وجننها لا بد أن يستيقظ الضمير العالمي ويقرر محاكمة الأنظمة الاستعمارية التي اقترفت جرائم بحق الإنسانية، وقد يكون هذا تطورا مذهلا في مسيرة الفكر السياسي العالمي من جهة وإرساء للأمن والسلم من جهة أخرى.

\* الأستاذة فاطمة حياش - قسم التاريخ - جامعة ابن خلدون - تيارت.

- "انتفاضة سكان الظهرة 1845/1847م".

بعد تراجع مقاومة الأمير عبد القادر بفعل تأثير سياسة ييجو المدنية والعسكرية اتخذت المقاومة طابع الانتفاضات والثورات الشعبية بزعامة شخصيات دينية ادعت فكرة المهادنة، منها انتفاضة منطقة الظهرة بقيادة الشريف بومعزة الذي تشير أغلب المصادر أن أصوله تعود إلى المغرب الأقصى من أتباع الطريقة الطيبية اسمه الكامل محمد بن عبد الله بن وداح، نزل بالجزائر مع منتصف ثلاثينات القرن 19 وقضى فترة إقامته إلى غاية 1845 في العبد والتدين فانتشرت



بذلك شهرته الدينية في كامل مناطق حوض الشلف والونشريس والظهرة مما حفزه إلى دعوة القبائل إلى الجهاد ابتداء من 1845 مستندا على عوامل ارتبطت بسياسة ييجو منها

1\*- الحملات العسكرية الموجهة ضد القبائل والأعراش ابتداء من 1841 بنية إخضاعها وتأديبها والتي تعرض على إثرها السكان إلى القتل الجماعي والتشريد.

2\*- تبنى ييجو في 1843 ترتيب عسكري قاضي بإنشاء مراكز عسكرية كخطوط دفاع وإحكام السيطرة على القبائل ومن بين هذه المراكز مركز أرنفيل الذي تولاه الجنرال سانت آرنو وأشرف هناك على عدة مشاريع استيطانية منها تهيئة 50 هكتار لزراع للحبوب وحفر الآبار وفتح الطرقات الأمر الذي تطلب مساحات واسعة من الأراضي تم الاستيلاء عليها بفعل إجراءات المصادرة في حق القبائل مما ولد لها حالة من الحقد.

3\*- سياسة ييجو المدنية القاضية بإنشاء المكاتب العربية 1844 كوسيط بينهم وبين الأهالي مستلدين في ذلك على الزعامات الأهلية التي دجنت لخلمة الاستعمار متخذة ألقابا مختلفة كالقايد والخليفة والآغا، ونظرا لسوء هذه الإدارة بفعل غطرسة وتعسف موظفيها مع الأهالي ولدت هؤلاء الرغبة في الانتقام.

إذن هذه الظروف والأوضاع استغلها بومعزة وارتكر عليها في ثورته التي اتبع فيها استراتيجية حرية كالتالي:

1\*- الشروع في الدعاية والإعلام ابتداء من ماري 1845 عندما نزل عند الحامد اليونسي من السواحلية إحدى فروع أولاد يونس، هذا الأخير رحب به وأقام له ضيافة جمع فيها كل أعيان المنطقة لنصرته، إضافة إلى توجيه رسائل إلى كامل الظهرة فحصل بذلك على الدعم وزود بالأموال والأسلحة.

2\*- الشروع في العمليات العسكرية متبعا بخطط حرب العصابات والهجمات الخاطفة ضد الفرنسيين وعملائهم من الجزائريين نجد منها شن غارة على قايد مديونة الحاج الصادوق وعلى قايد الصييح الحاج بلقاسم وقتلها في أبريل 1845 وتكرر نفس المصير مع آغا الورسنيس الذي قتل قرب مازونة في 16 جويلية و آغا الصيحات الذي قتل بدوره عندما كان في مهمة تحصيل الضرائب. وبفس النمط استهدف مصالح الفرنسيين منها المحجوم على مرفأ تنس وتحطيم معسكر المضايق وقتل ضابط المكعب العربي لسنس بـيتريكس في 20/4/1845 وفي

22/4/1845 تم الهجوم على فرقة عسكرية كانت تعسكر قرب واد القضة وكبلوها خساتر، كما تعرضت قافلة متجهة من تنس إلى الأصنام لهجوم قرب واد علال يوم 23/4/1845 .

3\*- لم يكف بومعزة في نشاطه الثوري على أسلوب الكر والفر وإنما تواجهه مع القوات الفرنسية في معارك منها معركة عين مران في 14/4/1845 حيث كان متوجها إلى الصيحات واعترضه سانت آرنو الذي تمكن من قتل 60 رجلا وأسر 15 من أتباع بومعزة وإعدامهم، إضافة إلى معركة البعل في 18/4/1845 التي تواجه فيها سانت آرنو مع أتباع بومعزة من أولاد يونس، ومعركة أخرى التقى فيها الشريف بومعزة مع ضابط المكتب العربي لتنس لابساي قرب تاجنة في مطلع 1846 .

ولابد من الإشارة أن ثورة بومعزة دفع الفرنسيين إلى ارتكاب المجازر في حق أتباعه منهم سكان مازونة الذين تعرضوا لهجوم من طرف سانت آرنو في 15/4/1845م، وعاث فيها فسادا بمدبنتهم، كما نجد الجزيرة التي ارتكبها بليسي ضد أولاد رياح يوم 17/6/1845م، ونفس العمل الشنيع قام به كافياك في حق عرش الصيخ.

وفي الأخير يمكن القول إن جهاد بومعزة لم يقتصر على الظهرة بل تعدى إلى مناطق أخرى ليشمل فليطة وجبال ديرة بسور الغزلان والصحراء مرورا بالأحرار وأولاد خليف بتيارت ثم أولاد نايل وأولاد جلال كما انضم إلى الأمير لفترة ووحدا نشاطهما.

---

\* د. ودان بوغفالة- قسم التاريخ- جامعة معسكر.

- إستراتيجية مقاومة الاستعمار عند الشيخ بوعمامة وأتباع الطريقة الشيخية.

ملخص المداخل: أسس الشيخ بوعمامة بالمقرار التحتاني زاوية على طريقة أجداده حوالي عام 1875، وكان يظهر في دروس الوعظ والإرشاد التي يلقمها الترة الاستقلالية؛ الأمر الذي دفع ضباط المكاتب العرية إلى عدم الاطمئنان إليه واتهامه بالتحريض، وطالب حكام تلمسان وسعيدة ومعسكر باعتقاله عام 1880م. لقد ذاع صيت الشيخ بوعمامة وانتشر أتباعه في هذه المناطق، وتبوأ مكانة هامة ومترلة رفيعة بين الناس جعلت الفرنسيين يترددون في اعتقاله خوفا من ثورة أتباعه.

وتعتبر ثورة الشيخ بوعمامة من أهم ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، وتعود الأسباب الداخلية لهذه الثورة إلى سياسة الاحتلال الفرنسي في المنطقة والآثار السيئة التي خلفتها فيها. أما

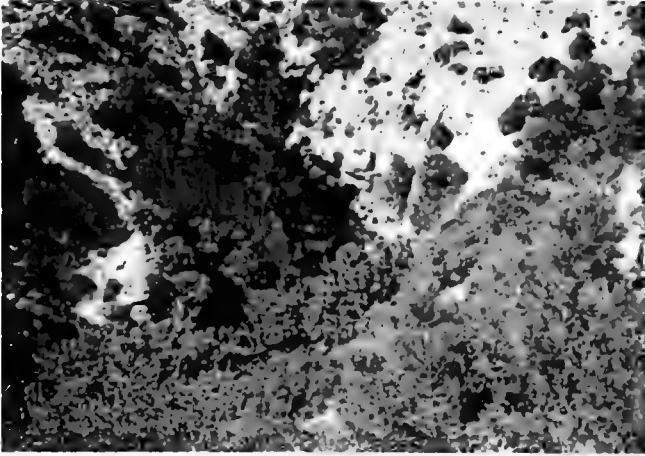
الأسباب الخارجية فعود إلى تجاوب الشيخ وتفاعله مع دعاة الخلافة الإسلامية وفكر النهضة العربية والإسلامية بزعامة جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد الثاني.

لقد اتبع الشيخ بوعمامة في مقاومته للاستعمار إستراتيجية عسكرية قائمة على مباغته العدو وإرهابه وشق صفوفه، وتدعيم الصف الوطني وتثبيت روح الانضباط لدى الأنصار والأتباع. ورفض الشيخ الاستسلام للعدو، وظل يقاتله حتى وافته المنية عام 1908م بعلما لقب بالأمرير عبد القادر الثاني.

لقد امتدت ثورة بوعمامة وعمت كل الجنوب الوهراني وهددت المناطق الشمالية؛ وهو الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تسارع إلى حماية التل من امتداد الثورة إليه واكتساحه. وانتمت في أعقاب الثورة من منطقة ميزاب؛ لأنها ساندت الشيخ بوعمامة وقدمت له يد العون، فأخضعت هذه الجهات إلى سلطتها المباشرة وألغت الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به بموجب اتفاقية راندون 1853م. الخصائص الثورية لمقاومة الشيخ بوعمامة:

- إلحاق الخسائر المادية والبشرية بفرنسا والأوربيين
- شق الصف الفرنسي وتدعيم الصفوف الوطنية
- تثبيت روح الانضباط لدى الأنصار
- إثارة الرعب بين صفوف أعوان فرنسا والتبشير بالثورة
- الطابع الوطني للثورة
- التدرج في التصعيد العسكري
- مباغته العدو ومجاointه في قواعده العسكرية
- خلط أوراق العدو وإرغامه على ارتكاب بعض الحماقات
- الإصرار على مواصلة الثورة رغم الانسحاب إلى المغرب الأقصى
- تفضيل المنفى على الاستسلام

## غار الفراشيش: موقع الحقبة الاستعمارية



صوت القري

العدد 5 - ص 358  
الطبعة 2011م

مادة تراثية - مملكة البحرين - 1432هـ

### مختبئون يتدارسون جرائم الإستعمار الفرنسي لمستقانتهم

بمبادرة من وزارة الثقافة البحرينية، وبالتعاون مع وزارة الثقافة الفرنسية، تم تنظيم ورشة عمل دولية حول جرائم الإستعمار الفرنسية في البحرين، وذلك في إطار سلسلة من الفعاليات التي تنظمها الوزارة بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس الجمهورية الفرنسية.



البحرين - 1432هـ: في إطار سلسلة من الفعاليات التي تنظمها وزارة الثقافة البحرينية بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس الجمهورية الفرنسية، تم تنظيم ورشة عمل دولية حول جرائم الإستعمار الفرنسية في البحرين. وشارك في الورشة خبراء من فرنسا والبحرين والكويت، ناقشوا خلالها الآثار الثقافية والاجتماعية للاستعمار الفرنسي في المنطقة.

وكانت الورشة تهدف إلى تسليط الضوء على الجانب الإنساني من التاريخ، وتذكير الأجيال القادمة بما حدث في الماضي، من أجل تجنب تكرار مثل هذه المآساة في المستقبل. وتناول المشاركون في الورشة عدة قضايا، منها: تأثير الاستعمار على اللغة والثقافة المحلية، والاضطهاد الذي لحق بالشعب البحريني خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

وكانت الورشة فرصة للتفكير النقدي في التاريخ، وللمناقشة الحرة حول القضايا التي تهم المجتمع البحريني. وتعد هذه الفعاليات جزءاً من التزام الوزارة بتعزيز الوعي الثقافي والتاريخي لدى المواطنين، وبناء جسور التفاهل بين مختلف الثقافات.

## الإصدارات الجديدة



### \*عنوان الكتاب: المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس

المؤلف: الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية- أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي-  
قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران.  
دار النشر: كوكب العلوم للنشر والتوزيع- الجزائر.  
تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 2011م.

مقدمة: كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بداية عهد جديد شهد فيه هذا الجزء من العالم الإسلامي نقلة نوعية مكنته من التخلص من الاستعمار الثلاثي القديم، كما سمحت له بلعب دور بارز في تاريخ البلاد الإسلامية إذ كان المغاربة في طليعة الفاتحين لربوع بلاد المغرب فضلا على دورهم الرئيس في فتح شبه جزيرة إيبيريا وأجزاء أخرى من القارة الأوروبية. ساهم المغاربة كذلك في التطورات السياسية والحضارية التي شهدتها هذا الجزء من العالم الإسلامي من تاريخ فتحه إلى نهاية الوجود الإسلامي بالعدوة الأندلسية وبداية التجرش الإسباني البرتغالي على سواحل شمال إفريقيا.

إن التفاصيل المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي تضمها مظان عديد المؤلفات التي أنجزها مؤرخو وكتاب المسلمين وغيرهم طيلة الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ولذلك فإن أي عملية لإحياء هذا الماضي تقتضي من الباحث رصد كل ما أنجزه السلف عن مختلف مناحي الحياة التي عاشها هؤلاء سواء تعلق الأمر بالحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية والعلمية.

ومن أجل مساعدة الباحثين الشباب المقبلين على هذا العمل، وبخاصة منهم طلبة الماجستير سعت من خلال هذا العمل إلى رصد وعرض أهم المصادر التي تساعد على إنجاز بحوثهم في مجال تاريخ المغرب الإسلامي.

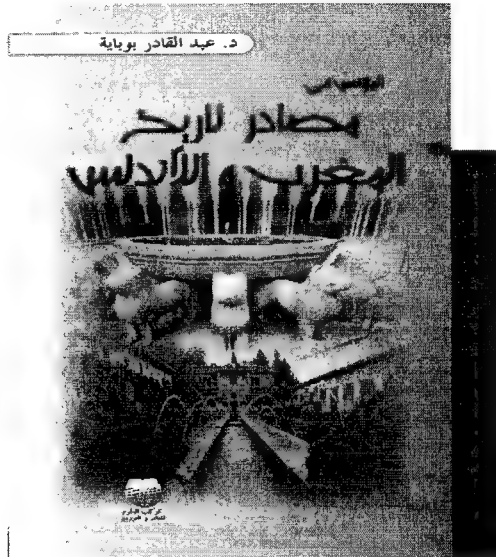
وكان هذا العمل في الأصل مجموعة المحاضرات التي ألقيتها على طلبة الدراسات العليا في كل من قسم التاريخ وقسم الحضارة الإسلامية بجامعة وهران السانية والمركز الجامعي ببيشار (جنوب غرب الجزائر)، والمركز الجامعي مصطفى اسطمبولي بمعسكر، وقد دأبت على تنقيحها، وإضافة كل جديد عقب نشر وتحقيق المخطوطات الثمينة التي تروى بها كثير من الخزان والمكتبات في الوطن العربي أو غيره من البلاد التي تحوي مؤلفات العرب والمسلمين.

يتضمن هذا العمل رصدًا لجلّ المصادر التي لها علاقة بتاريخ المغرب الإسلامي، وأعني بهذا المصطلح بلاد المغرب والأندلس، حيث أعرف بمؤلف المصدر، وتاريخ وفاته، وأهم محتويات الكتاب مع التركيز على كل ما له علاقة بتاريخ المجال الجغرافي المحدد آنفاً.

ومن أجل إنجاز هذا العمل، وتقليبه في صورة مجملّة ومفيدة، عدت إلى مقدمات مختلف المصادر المطبوعة الواردة في هذا البحث لأستقي منها دوافع التأليف ومحاوره الرئيسة، إضافة إلى ما جاء في مختلف الدراسات التي أنجزها من سبقني في هذا المجال، والتي سترد المعلومات المتعلقة بها في هوامش البحث.

وقد اتبعت التسلسل الزمني في عرض مختلف المصادر، وذلك من أجل تسهيل المهمة على الباحثين، حيث قسمت المصادر حسب تاريخ وفاة مؤلفيها بداية من القرن الثالث الهجري الذي يمثل بداية التلوين التاريخي عند المسلمين، ووصلت إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) الذي شهد آخر المؤلفات المتعلقة بتاريخ المغرب الإسلامي، والمعتمدة بشكل أساسي على جملة من المصادر المفقودة والناقصة.

يتضمن الكتاب عرضاً لأزيد من مائتي مصدر من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها، والتي تضمنت أخبار عن تاريخ المغرب الإسلامي من تاريخ فتحه إلى سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م.





\* عنوان الكتاب: النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

- المؤلف: الدكتور سعيد بنحمادة

- دار النشر: منشورات الزمن

- تاريخ النشر: الطبعة الأولى- 2011م.

تعتبر المسألة التعليمية رهانا حضاريا دون منازع، ومدخلا من مداخل التحول والحراك الاجتماعيين، يجعلها بحق رافعة للتنمية المستدامة، ولاستجلاء تلك الأهمية لا بد من تنويع المقاربات والمناهج، ومنها المقاربة التاريخية التي من شأنها إغناء النقاش العمومي حول تاريخ نجاحات النظام التعليمي وإخفاقاته، وأسبابها وطرق تجاوزها.

إن مجال البحث التاريخي لم يعد ضيقا، وإنما تنوعت تضاريسه واتسعت حدوده وآفاقه لتدخل مع باقي الحقول المعرفية الأخرى، أضحي معها المؤرخ ملزما، لكي يؤمن "مستقبل الكتابة التاريخية في زمن العولمة"، أن يجدد مناهجه وأدواته ومفاهيمه واهتماماته لتساير ذاكرة المجتمع وحاضره وآفاقه.

فلاقتصار على التاريخ الحديث، لم يعد يحقق الاحترام الرمزي للمؤرخ ولل سؤال التاريخي الذي قد يفقد بسبب ذلك وظيفته الحضارية. وإن ما يحقق للمؤرخ مكانته هو تشفير البنية العميقة للمجتمع والاقتصاد والثقافة في العصور السابقة.

وبناء على هذه الرؤية أصدر الباحث الدكتور سعيد بنحمادة كتابه "النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط"، من منشورات الزمن، ضمن سلسلة قضايا تاريخية عدد 12، لعام 2011م؛ في محاولة لرصد بعض الجوانب الثقافية وعلاقتها بالتحويلات السياسية والاجتماعية للمغرب والأندلس؛ ولما للموضوع، في نظره، من راهنية، وقيمة معرفية ومنهجية، تمنح للمؤرخ المشروعية في اقتحام مثل هذه القضايا الآتية ذات الحساسية الاجتماعية.

والنظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، كما رسم ملامحه المؤلف في هذه الدراسة، لم يكن مجرد رصيد معرفي يلقي للمتعلم، وإنما كان عبارة عن اتجاه وفلسفة وسياسة متبعة، لما ارتبط بالمدارس، على حساب الرحلة العلمية التي اقترنت بطرق ومناهج تعليمية مختلفة عن تلك التي تعلقت بالتعليم المدرسي.

وتبعاً لذلك فالمدرسة النظامية المغربية الوسيطة، كما يفهم من قراءة هذا الكتاب الممتعة قراءته، اتخذت معاني تقنية وحضارية متداخلة لكونها كانت إفرازا لوضع اجتماعي وقانوني وديني وسياسي، وتحكمت بذلك في "سوسيوجيا الأطر" التي تخرجت منها من حيث علاقتها بالمجتمع والدولة والنظام التعليمي ذاته.

كما أن ذلك النظام التعليمي لم يكن بمعزل عن المجتمع والسياسة، بل تأثر سلباً ويجاباً بالتحولات التي عرفها المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، بسبب تعاقب الدول واختلاف مذاهبها والأزمات الدورية التي كانت تظهر وتخفي بين الفينة والأخرى، وهو ما جعل التعليم يسهم في الحراك الاجتماعي آنذاك.

وقسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وملحق. أما المقدمة فهي تأطير إشكالي للموضوع. وأما الفصل الأول فيتعلق بموقف المجتمع والدولة من التعليم، في حين خصص الفصل الثاني للنظام التعليمي بين الرحلة العلمية والمدرسة النظامية، والفصل الثالث للحياة المدرسية، والفصل الرابع لسوسيولوجيا المدرسة، والفصل الخامس للنظام التعليمي بين الواقع ومشروع الإصلاح، والخاتمة هي بمثابة تجميع للخلاصات. وأما الملحق فهو وثيقة تركيبيه حول ما أسماه المؤلف بالنظام الداخلي للمدرسة.

إذا كان المؤلف قد حاول إبراز بعض الجوانب المرتبطة بالتعليم، فإن هدفه من ذلك تأكيد الأهمية التاريخية للموضوع؛ فالحديث عن موقف المجتمع والدولة من المسألة التعليمية بالمغرب والأندلس، والرحلة العلمية والتعليم المدرسي، والحياة المدرسية، وسوسيولوجيا التعليم، والمشاريع الإصلاحية، كلها قضايا لا زالت -حسب رأيه- تدخل في اللامفكر فيه لدى المعنيين بالبحث التاريخي، رغم أهميتها في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي خلال العصر الوسيط.

ومن خلال الدراسة يتبين الموقف الإيجابي الثابت لكل فئات المجتمع والدولة من المسألة التعليمية، وقيمة الرحلة العلمية في المنظومة التعليمية الوسيطة قبل أن تتراجع ليحل محلها التعليم المدرسي النظامي المرتبط بالتحولات السياسية والاجتماعية والمالية للمغرب والأندلس، مما يعني أن التعليم لم يكن حيادياً، وإنما ما ظل في بؤرة التجاذبات.

أما المناهج والطرق فاختلقت باختلاف الأسلاك، والغايات المرسومة للتعليم، والكفاءة للمهنية هيئة التدريس.

والخلاصة الأساسية التي انتهى إليها الكتاب أن التعليم من "طبائع العمران" يتقدم بتقديمه ويتخلف بتخلفه؛ فكلما تطورت الحضارة إلا وأثرت إيجاباً على المسألة التعليمية، وكلما حصل التراجع إلا واندحرت المنظومة التعليمية، وهو ما أبرزه المؤلف من خلال الوقوف على بعض المعالم الإيجابية لنظام التعليم أيام ازدهار الخلافة الأموية بقرطبة والدولة المرابطية والموحدية والمرينية بالمغرب، على خلاف المراحل الأخيرة من العصر الوسيط التي تقهقر فيها التعليم متأثراً بتراجع الاقتصاد والمجتمع والثقافة وتفتت.

ومثل هذه القضايا هي مثار جدل واسع بين المهتمين بالمسألة التعليمية في الوقت الراهن، وهو ما يعطي للبحث التاريخي، في تقدير الذكور سعيد بنحمادة، مكانته في الواقع المعاصر، ويكسب بعض القضايا التاريخية راهنتها.

ولذلك لم تعد أدوات اشتغال المؤرخ واهتماماته قاصرة على التذكير بالماضي، وتتبع قيام الدولة وسقوطها، وإنما التنبه على أخطاء الماضي المعيقة لتطور الحاضر والمآنة من استشراف المستقبل، من خلال اقتحام المنسي والمسكوت عنه واللامفكر فيه من القضايا الدفينة، عبر زمن حضاري طويل ومندمج. يقول المؤلف: "تاريخ الحضارات هو تاريخ أخطائها إذا ما استعرنا مقولة "غاستون باشلار"، ومن خلالها نقول إن تاريخ التعليم في المغرب هو تاريخ أخطائه، وأن لا حل لأخطاء اليوم إلا باستحضار أخطاء الماضي لتجاوز أخطاء المستقبل، ولعمري هذا ما يدخل في صلب اهتمام المؤرخ باعتباره "مثقفاً عضويًا" ذا رؤية تقليدية للمجتمع بتعبير غرامشي".

الدكتور سعيد بنحمادة

## النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط



- \* عنوان الكتاب: "الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وتصديّه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني"، في جزئين.
- المؤلف: عبد الله حمّادي الإدريسي.
- دار النشر: مؤسسة "ابتكار للنشر والتوزيع" - أولاد جلال - بسكرة.
- سنة النشر: 1432هـ/2011م.

جمع المؤلف في هذا الكتاب نبذة من أخبار أحد أعلام الجزائر، وهو الإمام الهمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، المولود بمدينة تلمسان في حدود 830هـ/1426م، وفيها تضرع من العلوم بها وبغيرها من حواضر العلم بالشمال الجزائري كجاية والجزائر، ثم دفعته الظروف إلى الهجرة نحو بلاد توات، وذلك في حدود سنة 870هـ/1465م أو قريبا منها.

لقد تناول كثير من المؤلفين سيرته؛ فمنهم من أيده في بعض آرائه ومنهم من عارضه، وبخاصة في موقفه من يهود بلاد توات، إذ قد أفتى بإهدار دماء يهود البلاد المغاربية زمانه، ومصادرة أموالهم وسبي ذرايعهم ونفيهم من الأرض، وهدم كنائسهم، ومنها مثار القضية أصالة كنيسهم الوحيدة التي أحدثها سلف يهود بلاد توات منذ عصور خلت بمدينة تمنطيط قاعدة البلاد التواتية يومها.

كان قراره وحكمه في حق هذه الطائفة اليهودية مبنيًا حسب نظره على نقضهم الذمة الشرعية، من ظهورهم بغير مظاهر الذلة والصغار، وعدم التزامهم بالقصة والخف الأسود والزئار، وإحداثهم الكنائس ببلاد الإسلام، ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه والسياسة الشريعة الإسلامية مما يتعلق بأحكام أهل الذمة.

كان ذلك في حدود سنة 897هـ/1492م، وقد أثار القضية قبل هذا التاريخ، فقاتل من عارضه من أولئك اليهود ومن ناصرهم من الأعيان التواتية، وهم من كان يهود توات يسموهم بـ"الغلانف"، وألزم تلك الطائفة اليهودية بهدم الكنيسة، وإجلالهم من البلاد التواتية وجهاتها، وكان سبب غطرسة اليهود مع ضعفهم العسكري يومها وقورقم المالية هو اغتارهم بما كانوا يهدونه من أموال إلى أنصارهم، الأمر الذي جعل هؤلاء

الغلائف يفضون الطرف عن مخالفتهم لأحكام أهل الذمة الشرعية وظهورهم بمظاهر أهل الإسلام من ملابس ومركب وتوليهم الولايات ومباشرتهم شؤون المسلمين ونحو ذلك.

لقد لقي المغيلي بسبب موقفه هذا من يهود توات معارضة من قبل أنصارهم ("الغلائف")، وكان هؤلاء يستندون في معارضتهم للمغيلي ودفاعهم عن يهودهم إلى فتاوى طائفة من علماء البلاد التواتية وعلى رأسهم العلامة الجليل القدر قاضي بلاد توات يومها سيدي أبي محمد عبد الله بن أبي بكر العصنوني التواتي نزيل تمنطيط بها المتوفى سنة 927هـ/ 1520م، وهو الذي عارض الإمام المغيلي في مذهبه في النازلة اليهودية المذكورة عن اجتهاد وتحري الحق والصواب؛ فاجتهد هذا القاضي العصنوني في النازلة وفق أصول وفروع المذهب المالكي، وقد عطف مذهب العصنوني طائفة من علماء الأمصار بأنه لا يجوز هدم كنيسة اليهود بتوات وبغيرها من بلاد الصحراء وأنهم ليسوا بناقضي الذمة كما زعمه المغيلي، ومن هؤلاء العلماء المعارضين للمغيلي: الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني (ت 899هـ/ 1493م)، والشيخ أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن أبي البركات الغماري التلمساني (ت 910هـ/ 1504م)، والشيخ عبد الرحمن بن سعيد التلمساني، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي (ت 903هـ/ 1497م)، والشيخ أبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي الفاسي (ت 896هـ/ 1490م).

وفي المقابل وقف إلى جانب المغيلي في نازلة يهود بلاد توات كل من: الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، والشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصاع الأنصاري، وقد نقل أحمد الونشريسي المذكور في معياره النوازي كل تلك الفتاوى في النازلة اليهودية التواتية بما فيها سؤال القاضي العصنوني المذكور.

وبعد فراغ المغيلي من قتاله ليهود توات وهدم كنيستهم بتمنطيط، وإجلالهم منها كلية، بعد أن بايعه إماما ورئيسا جل أعيان وأهالي هذه البلاد التواتية وجهاتها، استخلف ابنه محمد وليس عبد الجبار كما يظنه البعض على إمارة البلاد التواتية ونحوها، ورحل سنة 897هـ/ 1491م مصلحا ومرشدا وداعية إلى الله تعالى إلى بلاد السودان الغربي، يتجول بين ممالكها وحواضرها الشهيرة يومها مدة تزيد على سبع سنوات؛ فأثر بفكره في سياسة تلك الممالك الإسلامية، مينا لساستها وسلطينها أمور وأحكام الدولة

الإسلامية، وواجبات الراعي اتجاه الرعية، وحذرهم من خطر اليهود؛ فقام أهالي هذه البلاد بطردهم من بلادهم، والتشديد عليهم بالضرب على أيديهم، وعدم السماح لهم بالتجارة في بلادهم، وإن قاموا بذلك فدمأؤهم ونساؤهم وأموالهم حلال، فتفرقوا في البلاد.

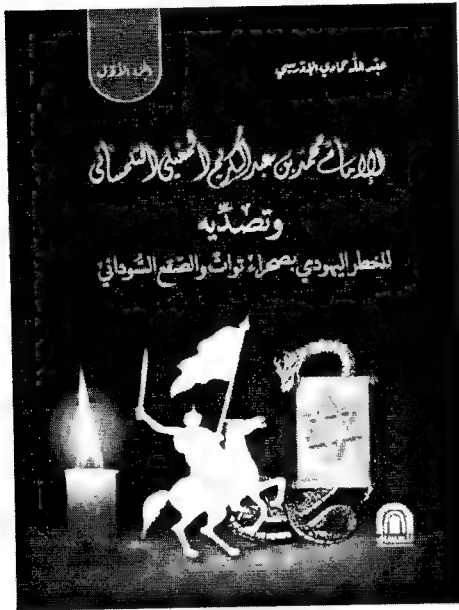
وأثناء مقامه بالبلاد السودانية، رحل لأداء فريضة الحج في نحو سنة 904هـ/1498م ذهاباً، و905هـ/1499م إياباً أو بعيد هذا التاريخ رفقة تلميذه عمر الشيخ جدّ الكتّين أصحاب الزاوية الشهيرة اليوم بإقليم أزواد من مالي.

وإثر قفوله من حجته، وصله نعي ولده محمد الذي قُتل غدراً ببلاد توات على أيدي بعض طغاتها وسفالتها الأشقياء من المتشوفين للزعامة والرياسة؛ فكان السلطان أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر تحت رهن إشارة إمامنا المغيلي عندما التمس منه أن يلقي القبض على الجالية التواتية بمدينة كاغو[فاغو] عاصمة مملكة سنغاي يومها، وهذا ما يؤكد إقامه لأعيان توات يومها بقتل ولده كما صرح به الكتّين في الطرائف والتلائد لا كما زعمه بعض المؤرخين لسيرته أن يهود توات هم من قتلوه، إذ كان قبل رحيله من بلاد توات قد أجلى منها من بقي منهم حياً كلية قائماً بمحمو آثارهم منها إلا من أسلم منهم وحسن إسلامه، لكن سرعان ما تنازل المغيلي عن قراره عملاً بنصيحة العلامة السوداني أبي الحاسن محمود بن عمر بن محمد أقيت؛ فأطلق السلطان المذكور سراح من ألقى عليهم القبض من التواتيين طاعة للمغيلي مرة أخرى.

وإثر استشهاد ولده محمد، رجع المغيلي إلى ديار توات مستطلعاً للمستجدات والتغيرات السياسية الطارئة على إمارته؛ فما إن وصل إليها حتى وجد في انتظاره زعيماً تواتياً ينازعه، وهو الشيخ عمرو بن عبد الرحمان التمنيطي التواتي من آل سيدي علي بن موسى الأشراف الأدارسة، وقد جمع هذا الرجل قوة بشرية ومادية نجاهة المغيلي وانتزاع الزعامة من يديه؛ فما كان من المغيلي إلا تجميع شيعته ومناصره من جديد لقتال المخالفين له غير أن القدر شاء أن ينتصر عليه الخصوم، فاختار العزلة في زاويته بقصر وادي الحنة بوادي بوعلي من بلاد توات جنوب تمنيط، واشتغل بتعليم القرآن وعلوم الدين والتأليف إلى أن توفي سنة 909هـ/1503م.

ذيل المؤلف كتابه بفصل جعل الحديث فيه عن تاريخ بلاد توات وجهاتها سماء: "الفوات من تاريخ توات وما تاجها من صحاري الجهات"، استدرك فيه المؤلف ما فات مؤرخي هذه البلاد المتقدمين منهم أو المتأخرين ذكره وبيانه، وكان الذي أحوجه إلى هذا الفصل هو دراسة كثير من جوانب سيرة الإمام المغيلي وأفكاره، والتي لا يتم تبين خفاياها إلا بمعرفة أحوال هذه البلاد التواتية وجيرتها الموالية إذ كانت دار هجرته وثورته على يهودها وغلائفهم، كما كانت أيضا دار إمارته الفتية، فبحث المؤلف عن تاريخ اختطاط هذه البلاد التواتية الصحراوية، وتتبع أهم مراحلها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية منذ نشأتها إلى زمن نشوئها.

كما ذيل المؤلف كتابه أيضا بثبت لمصادر ومراجع مادته سماء: "دليل مؤرخ توات وصحرائها من جميع الجهات"، رتبته ترتيبا موضوعيا خاصا قصد به إرشاد بني جنسه ممن رام التأريخ لهذه البلاد التواتية وجيرتها الموالية من ذكر أحوالها وتراجم أعلامها ونحو ذلك.



\* عنوان الكتاب: فوائد من كناش

المؤلف: الشيخ أبي العباس زروق، وهو أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي المتوفى في مسرارة من ليبيا سنة 899هـ/1493م.

المحقق: الأستاذ محمد طيب حفيد الشيخ زروق.

دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

تاريخ النشر: 2011/05/04م.

تعتبر الكناشة بمثابة الترجمة الذاتية للمؤلف حيث يُدوّن فيها نشاطه وتعلمه الأولي، ثم دراسته للعلوم وتعاطيه للصناعة، وضمن ذلك ترد إفادات تاريخية عن مجتمع فاس حيث قضى المؤلف حياته الأولى، ويتحدث بعد ذلك عن سلوكه طريق التصوّف، وسياحته في بلاد المغرب ومصر والحجاز مع ذكر شيوخ العلم الذين أخذ عنهم بهذه الجهات غير أن المعروف من هذه الترجمة الذاتية تشير افتتاحيته إلى أنه فوائد من كناش أبي العباس زروق، فضلا على أنها غير تامة في مخطوطتها بالخرانة العامة رقم لك1385 ضمن مجموع.

تعتبر هذه الكناشة مصدراً يهم المؤرّخ للحركة العلمية والثقافية للبلاد التي عاش بها أو زارها أبو العباس زروق، وبخاصة منها بلاد المغرب الإسلامي التي عاش المؤلف في كنفها، وتتلّمذ على أبرز شيوخها، وفهل العلم من مؤلفاتهم.





\* عنوان الكتاب: رحلة القلصادي أو: تهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى

المنازل والمناقب.

المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، المتوفى بباجة إفريقية سنة 891هـ/1486م.

المحقق: محمد ابو الاجفان.

دار النشر وتاريخه: 2011م.

كتاب لأبي الحسن القلصادي يسطّر فيه للحركة الفكرية في مملكة غرناطة خلال المئة الهجرية التاسعة، ويفيدنا بتراجم أعلام الأندلس الذين درس عليهم بمدينة بسطة وغرناطة، وينفرد بعرض لبعض المناطق التي ارتحل إليها عبر تلمسان وتونس وطرابلس الغرب والقاهرة والحرمين الشريفين.

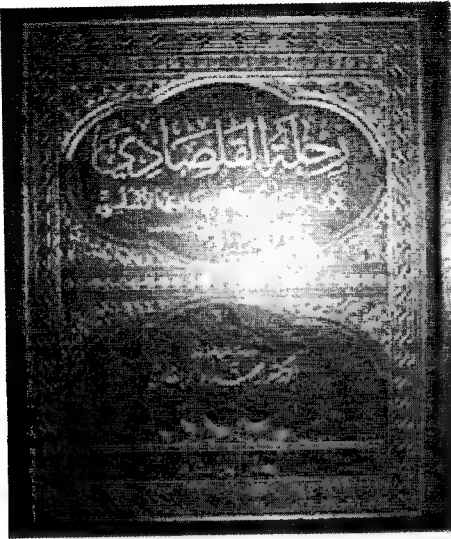
يوضح المؤلف غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله: "فالمقصود من هذا الموضوع أن يكون مُعرِّفًا بأشياخي من أهل العلم الذين أخذت عنهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وبرحلي من بسطة مسقط رأسي، وموضع أول أنفاسي، مقر الألفة والأنس من جزيرة الأندلس".

تعتبر هذه الرحلة أو الفهرس من تلك المؤلفات القليلة التي أرّخت للحركة الفكرية في مملكة غرناطة خلال المائة الهجرية التاسعة، وتتضاعف أهمية الكتاب إذا علمنا أنه كان من آخر المؤلفات في هذا المجال، وفي فترة ازدادت فيها صعوبة الحديث عن الثقافة والمثقفين، وبخاصة خلال الأيام الأخيرة لدولة بني نصر.

يفيدنا المؤلف بتراجم للعلماء الذين درس عليهم بمدينة بسطة وغرناطة، وخلال ذلك يافادات أخرى منها عناوين الكتب المدرسية ومؤلفات بعض أساتذته التي تبرز النشاط العلمي الذي عرفته مدينة بسطة وما إليها، مع الإشارة إلى استمرار الطابع التعليمي في مدرسة غرناطة، وعرض الكتب الدراسية بها، كما يتحدث المؤلف في كتابه عن المناطق التي رحل إليها انطلاقا من العودة الأندلسية، ومنها تلمسان وتونس وطرابلس والقاهرة والحرمين الشريفين، ويورد خلالها

معلومات عن بعض الخطط التي وقف عليها في رحلته، ويسجل أسماء العلماء من أقرانه، وأساتذته الذين يترجم لبعضهم، كما يذكر لوائح الكتب المتداولة وأسماء المدارس التي قرأ بها.

تشتمل الرحلة على ترجمة لثلاثة وثلاثين عالماً أخذ عنهم القلصادي في الأندلس قبل وبعد رحلته إضافة إلى علماء أخذ عنهم في المناطق الأخرى التي زارها، ولذلك فهي تعد من الوثائق الهامة التي تصور نشاط العلماء، وطرقهم في التدريس والتعليم، والكتب التي كانوا يتداولونها، وفنون المعرفة التي يطرقونها، وآدابهم عند التلقي، وتفاوت مراتبهم في درجات العلم، وحرصهم على الإسناد، وسعيهم للحصول على الإجازة، ومكانتهم في مجتمعاتهم.



\* عنوان الكتاب: أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب

المؤلف: أنطونيو دي صالديانيا

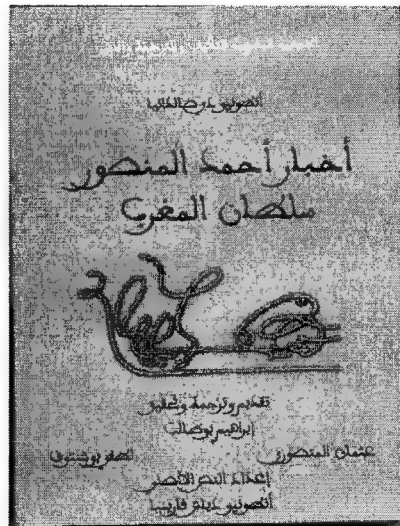
تحقيق وترجمة إلى العربية: إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف

دار النشر: الجمعية المغربية لتأليف والترجمة والنشر

تاريخ النشر: 2011م.

أصدرت الجمعية المغربية لتأليف والترجمة والنشر كتابا جديدا بعنوان "أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب"، والكتاب من تأليف أنطونيو دي صالديانيا، وهو نبيل برتغالي توفي في منتصف القرن السابع عشر، وقام الأستاذ أنطونيو دياش فارينيا بإعداد المخطوط الأصلي للنشر ومراجعته، وقدم له وحققه وترجمه إلى العربية الأستاذة إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف تحت إشراف الأستاذ إبراهيم بوطالب.

يتناول الكتاب أوضاع المغرب العامة في القرن السادس عشر وخاصة في عهد السلطان أحمد المنصور من خلال مذكرات سجلها الأسير البرتغالي دي صالديانيا خلال إقامته الطويلة بالمغرب وبمراكش على الخصوص. ويسلط الضوء على الكثير من التفاصيل والحيايا المتعلقة بهذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب مما لا تحفى أهميته على المشتغلين بالفترة الحديثة من تاريخ المغرب.



## المقالات باللغة الأجنبية

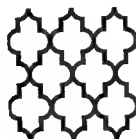




*maître !* ». Tel est le propre témoignage de Cheikh Sadek lors de la mémorable émission « Bonsoir culture » de l'ENTV (1993).

### Références

- [1] Aïssani D., *Les Rapports Intellectuels Béjaia - Tlemcen*. Conférence dans le cadre du Mois du Patrimoine, Maison de la Culture, Tlemcen, 11 Mai 2010.
- [2] Aïssani D. et Hachi S., *Béjaia, Centre de Transmission du Savoir*, C.N.R.P.A.H. Alger Editions, Nouvelle Série n° 4, 2008, 188 pages, ISBN 978 – 9961 – 716 – 23 – 6 (dépôt légal 2279-2008).
- [3] Aïssani D., *Les Savants de Tlemcen, les Rapports Inter-Villes et la Tradition Scientifique du Maghreb*. Actes du Colloque International "Penseurs et Figures Illustres de Tlemcen", CNRPAH Alger/Université de Tlemcen Ed., Palais de la Culture, Tlemcen, Avril 2011.



année plus tôt d'animer en incontestable maître la partie artistique de l'inauguration de la Mosquée de Paris et s'apprêtait de nouveau à représenter l'Algérie au Congrès de musique arabe qui se déroula en 1932 au Caire.

Cheikh Larbi Bensari avait donc animé en 1928 un mariage resté dans les annales. Sur cet événement, nous ne savons pas plus que n'en a gardé la mémoire citadine vacillante de la ville de Béjaia, c'est-à-dire, un souvenir impérissable. .

En souvenir de ce passage mémorable, le Cheikh a laissé deux inestimables cadeaux à la postérité. Le premier est son propre *r'bab* qui est conservé au siège de l'Association Ahbab Cheikh Sadek El Bedjaoui (cadeau de la famille de Cheikh Larbi au Cheikh Sadek) et surtout, un 78 tours de marque Pathé Marconi qui vient juste d'être exhumé par une vieille famille tlemcénienne : les Aboura. Sur ce disque, on peut lire : '*Ghonia kabailia – Cheikh Larbi Bensari et son fils Redouane*'. Les chansons ont été enregistrées en 1927 !!

**27. Cheikh Saddek El Bedjaoui et l'école de Tlemcen:** Sadek Bouyahia, plus connu sous le nom de Sadek El-Bedjaoui, est né le 17 décembre 1907 dans le quartier de Bab El Louz (Béjaia). Il est considéré comme l'un des maîtres incontestés de la musique andalouse maghrébine. Il a donné à l'école de Béjaia un genre spécifique.

Sa période tlemcénienne débuta en 1934 lors d'une excursion d'El Moussilia. « *Tlemcen était pour moi une nouvelle terre généreuse qu'il fallait explorer tant le genre qu'on y pratiquait était différent de celui de l'école d'Alger et proche du Hawzi Bedjaoui* ». Ce fût pour lui l'occasion de s'acquérir d'un répertoire Hawzi plus dense, mais aussi d'adopter un coup d'archet spécial, inspiré de celui de Cheikh Ben Sari au violon alto.

Il établit des liens amicaux solides avec Cheikh Larbi Ben Sari, chez qui il rencontra Omar Bakhchi et Abdelkrim Dali. A Oran, il fit connaissance avec Saoud l'oranais, Maâllem Zouzou Guennoune et Ibiho Bensaid qui ont également influencé sa personnalité musicale. « *A Tlemcen, si vous dites être de Béjaia, on vous demande si vous connaissez Cheikh Sadek. Notre père Larbi Ben Sari nous y recevait. Il était généreux, nous donnait des Qassa'id. Il y a aussi Cheikh Ghaffour, notre bon ami ... J'ai aussi connu Hadj Ennekach à Nedroma. En 1931, j'ai connu Hadj Driss Rahal. C'est un grand*



## **25. La *Siyaha* de Cheikh El Alawi en Petite Kabylie:**

Nous avons déjà souligné que quatre siècles après l'invention de la presse à imprimer, l'Algérie était resté en marge des bienfaits de l'imprimerie. Cette situation va changer dans la première moitié du XX<sup>e</sup> siècle. A titre d'exemple, la diffusion des idées de Cheikh al-'Alawi dans la Kabylie profonde est notamment prouvée par la présence dans la *Khizana de Cheikh Lmuhub* (alors située au fin fond de la montagne des Beni Ourtilane) d'un document lithographié de 55 *Qasa'id* (poèmes en arabe populaire) d'al-'Alawi et de deux exemplaires de la première édition, datée de 1925, de l'ouvrage *Kitab ash Shaha'id wal Fatawi Fima Saha Lada al-'Ulama Min Amr Shaykh al-'Alawi al-Mustaghanmi*.

Il est indéniable que la *Tariqa al-'Alawiyya* a eu, dès 1919, une grande audience dans le Sud-Est de la Kabylie et la Vallée de la Soummam. Néanmoins, selon Augustin Berque, "*en Grande Kabylie, elle n'eut qu'un succès d'estime*".

Lors de la *Siyaha* d'al-'Alawi en 1919, un comité d'accueil avait été constitué et un itinéraire tracé. Son périple commence par Akbou, premier village à accueillir le Cheikh. Puis, ce fût le tour de Tamokra, village du célèbre Yahia al-'Aydli. Dans son témoignage, Cheikh al-'Alawi a souligné la chaleur de l'accueil et a estimé le succès de ses discours aux nombreux nouveaux adeptes. A partir de là, commence un long périple qui va le conduire dans plusieurs villages: Beni Ourtilane, Beni Chebana, Ilmayen, Adrar n'Sidi Yidir, Djaafra,...jusqu'à ce qu'elle se termine à Bordj Bou Arreridj.

Parmi les *Ulémas* de Kabylie qui ont accueilli Cheikh al-'Alawi en Kabylie, le plus en vue est Cheikh Muhammad Sediq Ben Yahia d'Ilmayen. Parmi les personnages les plus en vue liés à la *Tariqa*, citons Cheikh 'Abd ar-Rahman Bouaziz, qui avait une grande *Zawiyya* et qui était affilié à la *Tariqa al-Khalwatiyya*, qui lui avait été transmise par un Cheikh de Béjaïa.

## **26. Le mémorable « pèlerinage » de Cheikh Larbi Bensari à la « Petite Mecque »:**

En arrivant à Béjaïa en 1928, le Cheikh Larbi Bensari, qui avait déjà plus de 60 ans, était précédé d'une solide réputation : celle de maître incontesté de l'école « *Gharnatie* » et « *Haouzie* » de Tlemcen. Il venait une

aujourd'hui environ 624 documents. Parmi eux, une quinzaine de manuscrits très précieux ont un rapport avec Tlemcen : plusieurs copies de la *Aqida Sughra* d'as-Sanusi (y compris une traduction en langue berbère), plusieurs *Sharh* (commentaires) de la *Sughra* de différents auteurs (Mellali, Medjadi, Sakatani, as-Sanusi lui-même et un *Sharh* en langue berbère), un *Sharh* du traité Tlemcania en science des héritages, un *Sharh* du traité les feuilles de Ben Zekri et surtout, la *Qasidat al-Istighfar* de Sidi Boumedienne.

**25. Le parlé berbère des Béni Snous:** La région de Béni Snous est semi-montagneuse. Elle est située à 35 Km à l'Ouest de Tlemcen. Les Ayt Senous sont donc des Berbères de l'Oranie. La langue et la culture berbère y sont attestés depuis des siècles. Parmi les traditions connues des Ayt Senous, citons la fameuse fête de Yennayer (nouvel an berbère), qui est encore célébrée tous les 12 janvier par la population. Cette contrée a fourni de nombreux savants et souverains berbères à Tlemcen sous la dynastie des Abdelwadide. Le plus connu est Cheikh as-Sanusi (1412 – 1490), auteur de la légendaire *'Aqida as-Sughra*. Enfin, la vallée de Béni Snous possède un style architectural spécifique.

Au début du XX<sup>e</sup> siècle, l'anthropologue Edmond Destaing, alors professeur à la Médersa de Tlemcen, a passé plusieurs années à Béni Snous et au Kef pour étudier le dialecte amazigh. Il y a notamment produit un célèbre « *dictionnaire Français – Berbère* » (dialecte des Béni Snous). Il a également réalisé une étude remarquable sur les « *Fêtes et coutumes saisonnières chez les Béni Snous* » (1907). Voici la traduction d'un texte sur les croyances qui lui ont été dictées en berbère par Mohammed Belkheuir des Ayt Larbi : « *Dans nos montagnes des Béni Snous, l'hiver est très rigoureux. Pendant plusieurs jours, la neige, chaque année, y couvre la falaise de l'Azrou Oufernane qui domine notre village. Mais c'est au commencement du mois de mars que le froid se fait le plus vivement sentir. Il y a à cette époque une période de sept nuits et de huit jours pendant lesquels souffle un vent violent. Ce vent est d'une telle violence qu'on ne saurait répondre de la vie d'un oiseau qui, à ce moment, sortirait de son nid.* »

Malgré leur caractère local et circonstanciel, les *Fatawis* d'al-Waghli si ont été incluses dans de grands recueils des *Fatawis* à usage du monde islamique entier, et notamment— comme pour le traité *al-Waghli siyya* elle-même— à l'usage des habitants de l'Espagne musulmane, de l'Afrique du Nord et de l'Afrique de l'Ouest musulmane. Ainsi, comme indiqué plus haut, le nombre le plus important de *Fatawis* nous a été reporté par al-Maghîli, grand savant nord-africain qui a passé une partie importante de sa vie dans le royaume islamique de Kano, dans l'actuel Nigeria (Hiskett 1984).

**22. Le Sultan des Ath Abbas, Abdelaziz aux portes de Tlemcen:** L'édification de la *Kalaâ* en tant que capitale du Royaume indépendant des Ath Abbas remonte au début du 16<sup>ème</sup> siècle. Son noyau urbain est donc dû au démembrement, voire à la chute des royaumes musulmans du Maghreb. En effet, les deux fils du Sultan Hafsîde Abu Abdelaziz survécurent à la bataille de Béjaia et s'y réfugièrent en 1510.

Vers 1545, les Espagnols s'allient aux *Saadiens* marocains. Ces derniers marchaient sur Alger après avoir occupé Tlemcen. C'est alors qu'Abdelaziz et les Beylerbey d'Alger signent le Pacte d'*Aguemoune Ath Khîar*. Après des années de guerre, les milliers de soldats d'Abdelaziz permettent la victoire qui sera exploitée politiquement par les Turcs et jouera un rôle dans la formation de notre pays (éléments de traçage des frontières).

Le rôle éminent joué par le royaume des Ath Abbas va durer près d'un siècle et demi. Son alliance temporaire avec les Ottomans, puis avec les espagnols avait pour objectif une "restauration possible" d'un royaume puissant, du type de celui des Hammadites, au Maghreb central. Le portrait que les écrivains espagnols font du Sultan Abdelaziz est des plus élogieux. « *Fier et brave, tout acte d'honneur seul le réjouissait ; s'il ne réservait son admiration que pour ce qui était glorieux, en revanche ... En vrai guerrier et en homme, ayant conscience de sa dignité,...* ».

**24. Les manuscrits tlemcéniens d'*Afniq n'Ccix Lmuhub*:**

La Khizana de manuscrits de Cheikh Lmuhub a été découverte en 1994. Elle avait été constituée par *Lmuhb Ulahbib* au milieu du 19<sup>e</sup> siècle à Tala Uzrar (la source aux galets) dans le Sud Est de la Kabylie. Elle comprend

études à Tlemcen, puis les a complété à Alger et Béjaia sous la direction de `Abderrahmane Ath-Tha'aliby et Cheikh Yahia Ben Yadir. Grand défenseur de la Sunna, il s'installa au Touat où il se fit connaître par son opposition aux juifs qui contrôlaient le commerce transsaharien. Cette polémique lui attira une hostilité au Touat et des soutiens à Tlemcen (de Cheikh Sanusi et de Cheikh Et-Tenessi). Grand voyageur, il traversa le Sahara, visita le territoire du Soudan, Kano, la ville de Kaghoul, le Pays de Takroun, puis revint au Touat où il mourut en 1504. Al-Maghili est l'auteur d'un commentaire des ventes à termes d'Ibn al-Hadjib, où il discute les opinions de Ibn Abd es-Salam et de Khalil.

Al-Maghili a eu pour maître à Alger Abderrahman ath Tha'aliby. Parmi ses maîtres bougiotes, citons le Cheikh Yahia ben Yidir qui était originaire de Tedlès (Dellys). Ce dernier avait été Cadi de Touat. Il est mort à Tamentit, au Touat, en 1472.

Al-Maghili s'est intéressé aux *Fatawis* du célèbre jurisconsulte de Bougie al-Waghlisi (mort en 1384). La plupart de ces dernières ont été perdues au cours des siècles. Néanmoins, il nous reste deux recueils où elles prennent une place importante : d'abord, celui d'al-Maghili et celui d'al-Wansharisi. Elles peuvent être divisées en plusieurs parties : premièrement, les *Fatâwis* en relation avec les pratiques religieuses, telles que la prière, le jeûne, et le paiement de taxes religieux (*zakât*, *'ashûra*). Deuxièmement, les questions qui relèvent de ce que nous appelons aujourd'hui l'état civil : les règlements concernant le divorce, les relations entre couples, la sexualité et les devoirs domestiques. Troisièmement, le domaine de l'économie, l'héritage, l'achat et la vente, les contrats de travail, etc. Prises dans leur ensemble, ces *Fatâwis* nous renseignent sur les problèmes de l'époque (manque de sécurité, problèmes économiques, tensions sociales, problèmes conjugaux), qui étaient souvent un reflet des problèmes sociaux plus larges. Le fait qu'un si grand nombre de ses *Fatâwis* ait été repris et reproduit par al-Maghili nous indique la pertinence de ces problèmes locaux pour le Maghreb tout entier et – vu l'importance accordée à al-Maghili au sud du Sahara – aussi dans les pays islamisés de l'Afrique de l'Ouest.

- Nasr ez-Zwawi a été un disciple d'Ibn Marzuk al-Hafidh et un professeur d'as-Sanusi : « *Lorsque je vins à Tlemcen, je savais par cœur le précis de jurisprudence d'Ibn al-Hadjib* ». Notre professeur Sidi Nasr n'était, en effet, venu à Tlemcen qu'après avoir parfaitement appris la langue arabe à Bougie auprès de professeurs de cette ville. Il avait été l'élève d'al Asnouny, le commentateur du poème didactique intitulé at-Tlemcaniya qui traite de partages successoraux ».

**21. Les Tlemcéniens à Bougie:** Plusieurs Ulémas tlemcéniens ont fait leurs études à Bougie. Parmi les plus célèbres, citons :

- Al Hacen Aberkan (mort en 1453). Il était un *Ghouth* (secours), un pôle. Il a eu pour maître : Ibn Marzuk al-Hafidh. Parmi ses élèves : Et-Tenassy, as-Sanusi. Après la mort de son père, le Cheikh partit pour l'Orient et y séjourna longtemps. C'est à Bougie qu'il fit la plus grande partie de ses études auprès des disciples de Abderrahmane al-Waghliissy et les autres savants de la ville. Il a étudié le traité d'al-Hawfy. Il a réalisé un commentaire spécifique : il avait une méthode particulière dans l'exposé des commentaires, ainsi que dans la manière de faire concorder exactement les données de la science avec les paroles d'al Hawfy. Il maîtrisait parfaitement le calcul, les successions et le droit. La manière dont il enseignait le précis d'Ibn al-Hadjib était spécifique.

-Ech Cherif at-Tlemcani (1310–1370). En parlant de lui, Ibn Khaldun déclare « *c'est notre ami...* ». Il a été le disciple des deux fils de l'Imam, Abu Zeid et Abu Mouça, Amrane al Mashdaly (mort en 1344). Il a également étudié auprès d'Al-Abily. Il se rendit à Tunis en 1339. Il étudia auprès d'Ibn Abd as-Salam l'arithmétique, la géométrie, l'astronomie et les successions. Il étudia également à Bougie. C'est lui qui a formulé la célèbre phrase « *Je suis entré à Béjaia et j'ai vu la science couler de ses hommes comme l'eau coule de la source...* ». Il revint à Tlemcen et se fit un devoir d'enseigner et de propager la science. Ses succès furent tels que le Maghrib regorgea d'étudiants et devint un foyer de lumière. Il a fait partie du Conseil scientifique du Sultan (à Tlemcen et à Fès). C'est pour lui que le Sultan fit construire la *Medersa Yaqoubiya*.

**21. Al-Maghili et la Kabylie:** Abu Abdellah Mohamend Ibn Abdelkrim al-Maghili (Tlemcen 1425 – Touat 1503) a fait ses

Rappelons qu'al Barzuly (1339-1439) a été pendant 40 ans l'élève d'Ibn Arafâ. Ce dernier lui a communiqué son savoir, sa manière de faire et sa méthode. Dans la licence qu'il a délivré à Ibn Marzuk al-Hafidh, il affirme qu'il a été le disciple d'Ibn Marzul El-Khatib (le prédicateur), sous la direction de qui il a étudié divers ouvrages.

**19. Les bougiotes du *Bustan* d'Ibn Maryam:** Ibn Maryam (mort en 1602) a rédigé au XVI<sup>e</sup> siècle le célèbre ouvrage bibliographique *al-Bustan* (le jardin). Ce traité contient par ordre alphabétique 182 biographies de savants presque tous originaires de Tlemcen, ou ayant habité dans la Cité et qui se sont distingués par leur science ou leur piété. Ce n'est pas une œuvre originale, mais plutôt une compilation d'extraits d'ouvrages bibliographiques célèbres (Nayl al-Ibtihaj d'Ahmed Baba at-Tambukti, Ibn Farhun,...). Une trentaine des personnages cités ont un rapport direct avec la ville de Béjaia. Parmi les plus significatifs, citons:

- Abu Ali Mansur b. Ali b. Abdellah az-Zwawi (1310-après 1365). D'origine kabyle, il avait été à Béjaia l'élève du «*plus grand des Cheikh*», Nasr ed-Din al-Mashdali (mort en 1331). Il a eu également pour professeur Mansour El-Maschdaly (sous la direction de qui il étudia les premiers chapitres d'Ibn El-Hadjib). Abou Abdellah al-Mosaffir, Abou Ali b. Hacen, Abu Abdellah Mohammed b. Youcef El Menguelati.

Il s'installe ensuite à Tlemcen et fût une sommité dans les sciences rationnelles (arithmétique, géométrie, techniques). Il avait reçu en Andalousie une *Idjaza* (diplôme) de la part de l'Imam Ibn al-Fakhar al-Biri (d'Elvira) qui lui permit d'exercer son enseignement dans son propre cercle (cf. *Muqqadima* 431 – 432, *Nayl*, 344).

Sa notice biographique est également donnée par Ibn El-Khatib dans son ouvrage, *al-Ihata*: «*Je l'ai connu et fréquenté. Il a été, dans ces temps ci, soumis à une cruelle épreuve, à propos d'une question juridique sur laquelle il a hésité à se prononcer*». Il a quitté l'Espagne en 1365. A Tlemcen, il suivit les cours d'El-Hadramy, d'Abul'Abbès b. Yerbou'et celle du Cadi Abou Ishaq b. Yahia. Il s'est établi à Tlemcen où il enseigne le Coran et la Science. El-Wansharissi a enregistré dans son Etalon quelques-unes de ses *Fetwas*.

long de son œuvre les théories philosophiques, les opinions des autres écoles et les croyances des autres religions. Il a notamment rédigé un commentaire de sa propre *Sughra*. Ce dernier, qui a fait l'objet de gloses d'al-Bajuri, a été publié plusieurs fois au Caire et à Fès, traduit en allemand par Ph. Wolff (Leipzig 1848), et en français par Luciani.

Dans le domaine des disciplines mathématiques, as-Sanusi est l'auteur d'un commentaire sur le poème didactique d'Ibn al-Yasamin (m. en 1204) sur l'algèbre et les équations, du commentaire *Sharh Qasidat al-Habbak* sur l'astrolabe et un commentaire sur le traité d'al-Hawfy intitulé « *Ce qui rend accessible et facile l'étude du livre d'al-Hawfy et épuise les questions qui y sont traitées* » rédigé alors qu'il avait 19 ans. Son maître Aberkan fût tellement émerveillé qu'il déclara « *aucun n'est comparable à celui-ci* ».

As-Sanusi a eu des rapports particuliers avec la Kabylie. Selon M. Bencheneb, il aurait également poursuivi ses études à Bougie. Parmi ses élèves, citons Belqacem az-Zwawi. D'un autre côté, il a rédigé un commentaire inachevé du traité de *Fiqh al-Waghlissiya* du jurisconsulte Abderrahmane al-Waglisi (m. 1384). Sa *Sughra* a été très populaire en Kabylie. Elle a même fait l'objet de traduction en langue berbère (voir paragraphe 24).

**18. Les bougiotes du *Mi`yar* d'El Wansharisi (1428–1508):** Le savant al-Wansharisi mérite le titre de « *porte-enseigne du neuvième siècle (de l'hégire)* » pour avoir rédigé « *al-Mi`yar* » (L'étalon). Dans cet ouvrage, il a exposé clairement les *Fatawis* des savants d'*Ifrikiya*, d'Andalousie et du Maghreb. Cet ouvrage en six volumes réunit toutes les opinions.

Al-Wansharisi a fait ses études auprès des professeurs de Tlemcen: Abu l'Fadhl Qasim Al-Uqbani (fils de Said), Ibn Marzouk el-Kafif (l'aveugle), Il quitte ensuite Tlemcen pour Fès en 1469 ou il se fixa. Il enseigna notamment le traité de jurisprudence d'Ibn al-Hadjib. C'est dans la bibliothèque d'un de ses élèves, le Cadi Mohammed Et-Taghleby, qu'il puisa les matériaux qui devaient servir à la composition de son livre intitulé « l'étalon », principalement pour ce qui concerne les *fetwas* de la ville de Fès et de l'Andalousie. Quant aux *Fetwas* de Tlemcen et de l'*Ifrikiya*, (que renferme l'étalon), il les a puisées dans al Barzuly et al-Mazouni.

maîtrise ». Fait et écrit de la main d'Ahmad b. Muhammad b. 'Utman al-Azdi, le dernier jour de Gumada 1<sup>er</sup> de l'année 708 H (=1308) ».

Parmi les autres élèves directs et importants d'Ibn al-Banna', citons le célèbre mathématicien tlemcenien al-Abili (1282 – 1356). En effet, nous savons qu'il a suivi le cours d'Ibn al-Banna à Marrakech vers 1310, avant de s'installer à Fès pour y enseigner. Les principaux témoignages le concernant proviennent des écrits des frères Ibn Khaldun: « *Ayant pris goût aux mathématiques, il fini par devenir un mathématicien éminent, entouré d'étudiants auxquels il enseignait ces sciences* ». De fait, il rejoindra Tunis, où il va devenir le maître d'Abd ar-Rahman Ibn Khaldun (mort en 1406) dans le domaine des mathématiques. C'est probablement cet enseignement qui va être à l'origine des écrits de ce dernier sur les mathématiques dans la *Muqqadima*.

Par la suite, al-Abili va rejoindre Bougie, puis Tlemcen. Il y joue un rôle important dans la structuration de l'école de mathématique de Tlemcen : Said al-Uqbani (1320–1408), Ibn Zaghu (mort en 1445), Ibn Marzuk al-Hafid (1364–1439), al-Uqbani II (mort en 1456), al-Qalacadi (1412–1486), al-Machdaly (Bougie 1419 –Alep 1461), Abu 'Ali Aberkan (1353 –1453), al-Sanusi (1426-1490)...

**17. Les Rapports de Cheikh Sanusi avec la Kabylie:** Abu Abdellah b. Yusuf as-Sanusi (1426–1490) est originaire de la région berbérophone des Béni Snous, à 35 Km de Tlemcen. Il a étudié à Tlemcen auprès de plusieurs professeurs: Nasr az-Zwawi, El-Habbak (auprès duquel il apprit la science de l'astrolabe), Aberkan, Abderrahmane Ath Tha'aliby (en Hadith et qui lui délivra un diplôme par lequel il lui conférait le droit d'enseigner tout ce qu'il avait été lui-même autorisé à enseigner), Ibrahim at-Tazi (qui résidait à Oran et qui le revêtit du froc des Soufis), al-Qalasadi sous lequel il étudia le partage de successions et l'arithmétique et dont il reçut un diplôme l'autorisant à enseigner,...

Pour les savants du Maghreb, as-Sanusi était le rénovateur de l'islam au commencement du IX<sup>e</sup> siècle de l'hégire. Il est l'auteur de la fameuse 'Aqida as-Sughra. Traitant de Dieu et de ses attributs, ainsi que de la prophétie, as-Sanusi discute tout au



A la demande de Yahia al-Aydli (mort en 1477), il a réalisé un *Sharh* (commentaire) du traité *al-Muqaddima fi al-Fiqh*, plus connu sous le nom d'*al-Waglisiyya*. Cet ouvrage d'al-Waglisi a été pendant des siècles l'ouvrage de référence des étudiants débutants. Les très nombreuses copies localisées dans plusieurs bibliothèques de la planète attestent de son importance.

**16. Al-Abili, les Rapports Béjaia – Tlemcen et la Tradition Mathématique du Maghreb:** Le mathématicien et jurisconsulte al-Abili (1282-1356) a joué, dans la première moitié du XIV<sup>e</sup> siècle, un rôle essentiel dans la structuration de l'école mathématique de Tlemcen et dans la mise en place de la tradition scientifique du Maghreb ;

La tradition mathématique médiévale du Maghreb peut être cernée à partir d'un savoir stabilisé. En effet, c'est au cours des XIII<sup>e</sup> – XIV<sup>e</sup> siècles que se fixe le contenu de cette tradition et sa pédagogie, sous l'influence déterminante de l'école de Marrakech avec, à sa tête, le célèbre mathématicien Ibn al-Banna' (1256 – 1321), qui sera relayé par ses élèves, puis par ses commentateurs. Plusieurs d'entre-eux sont effectivement originaires d'Algérie et de Tunisie.

Les *isnad* représentent une chaîne d'autorités, partie essentielle de la transmission d'une tradition (ou du savoir). Abu l'Abbas Ahmed, descendant direct des princes hammadites a été un disciple direct d'Ibn al-Banna'. L'*Idjaza* (diplôme) que lui a délivré son maître, a été retrouvé dans la copie du *Talkhis*, côté 788, du fonds de manuscrits de la Bibliothèque de l'Escurial (Espagne). Ce manuscrit se termine par la mention si précieuse : « *A la fin de l'original, avec lequel cette copie a été collationnée, figure littéralement ce qui suit :*

« Ecrit par Ahmed b.al-Hassan b. 'Abderrahman b. al-Mo 'iz b. al- 'Aziz Billah b.al-Mansur b. an-Nasir b. 'Alannas b. Hammad al-Himiyari, le premier jour de Gumada II de l'année 702 de l'Hégire (=1302) ». *Puis de la main de l'auteur :* « J'autorise le jurisconsulte ... Abul 'Abbas Ahmad b. al-Hassan, ci-dessus nommé, à rapporter, d'après moi mon livre du « *Talhis A'mal al-Hisab* », mon livre « *de la connaissances des temps par le calcul* » ainsi que mon ouvrage « *de l'algèbre* », qu'il a réunis de sa main dans ce recueil ... Il a étudié ces livres, sous ma direction, d'une façon précise, et avec

les sourates. Plus précisément, il s'agit des liens entre les sourates, et dans les sourates, des liens entre les versés. Dans son ouvrage, Al-Biqā'i a attribué cette démarche et cette méthode à Abu al-Fadhl al-Mashdaly. Son commentaire commence par la sourate *al-Fatiha*. Une dizaine de phrases sont consacrées à son Maître al-Mashdaly. Al-Biqā'i écrit : « *Notre Maître Abu al-Fadhl, Rahimahu Allah, dit : si tu veux connaître les liens entre les versés et les sourates, tu dois connaître les objectifs de la sourate et progressivement aller vers cette conclusion* ». Il précise que la source d'al-Mashdaly est le grand savant de Béjaïa al-Hirrali (mort à Damas en 1240).

Voici ce que dit à son sujet l'éminent mathématicien et algébriste al-Qalasadi dans sa *Rihla* (le voyage) (At-Tumbukti, page 316) : « *Nous nous sommes réunis en Egypte avec le brillant docte, le vertueux al-Machdaly. Je n'ai jamais vu quelqu'un capable d'assimiler aussi bien que lui les sciences. Il touche à tout et y réussit. Nous avons évoqué notre séjour à Tlemcen où nous avons passé des jours agréables en compagnie de savants maîtres de leurs sciences* ».

**15. Ahmed Zerruq al-Barnusi, de Tlemcen à Béjaïa:** Béjaïa a eu le privilège d'accueillir Ahmed Zerruq al-Barnusi (Fès 846h./1443– Mesrata 899h./1493). Ce dernier a eu des maîtres prestigieux, originaires de différentes régions du pays (al-Aydli pour Tamokra, ath-Tha'aliby pour Alger, as-Sanusi pour Tlemcen), tous fortement liés à Béjaïa. Devenu professeur dans cette ville, il y rédigea son fameux ouvrage «*Qawa'id at-Tassawuf*».

Effectivement, Ahmed Zerruq avait d'abord étudié à Tlemcen chez Sanusi, Ben Zekri, at-Tanesy et Ibrahim at-Tazi, avant d'aller à Béjaïa créer une école célèbre, dont l'un des étudiants les plus en vue était Ahmed Ben Youcef, de Méliana.

Ahmed Zerruq était considéré par Ahmad Baba at-Tambucti comme étant «*l'un des derniers maîtres du Soufisme véritable, qui allie la vérité et la Shari'a*» (cf. Ibn Maryam, Nayl). Sa grande devise était «*pas de Soufisme sans [respect] du droit*» ([15], Tunis, s. d., Règle IV). A ce niveau, il y a lieu de se rappeler que beaucoup de Soufis ont été en même temps des *Fuqaha*.

*décrivais ce que j'ai vu à Béjaia, pays de la piété, de la science, ma terre vraie ».*

D'un autre côté, on connaît les rapports d'al-Huwari avec Tlemcen. Ainsi, Ibrahim at-Tazi a fait ses études à Tunis et à Tlemcen auprès d'Ibn Marzuk al-Hafidh. Il habitait Oran. Voilà ce que dit al-Qalasadi, dans sa Rihla : « *J'allais à Oran et y séjournait chez le Cheikh Sidi Brahîm qui était alors le suppléant de Sidi Muhammed al-Huwari* ».

**14. Le Mathématicien Bougiote Abu El Fadhl al-Mashdaly à Tlemcen:** Al-Sakhâwi dans son recueil biographique, qui a pour titre « *Lum'a an-Nuraniyya* » (La lumière éclatante sur les hommes illustres du XV<sup>e</sup> siècle), nous offre une biographie détaillée de son propre maître Abu al-Fadhl Muhammad ben Muhammad al-Bija'i, fils du grand savant Abu Abdallah Muhammed b. Belqacem al-Mashdali (mort en 1466). Dès son jeune âge, il apprit par cœur le poème didactique en science des héritages de Abû Ishâq at-Tilimsânî (1212-1300), qui fut l'élève de l'élève d'al-Qurashî, Abî 'Alî ash-Shlûbînî (1166-1247), et le *Talkhîs* du célèbre mathématicien marocain 'Ibn al-Bannâ' (1256 – 1321). Par la suite il a suivi des cours d'astronomie utilitaire (*al-Miqat*), de science de calcul et de logique à Bougie. Parmi ces maîtres en mathématique, figure son propre père et Mûsa b. Ibrahim al-Hasnawî.

C'est en 1436 qu'Abu al-Fadhl al-Mashdâli s'est rendu à Tlemcen afin de perfectionner son instruction auprès des plus grands maîtres de cette époque, en géométrie, arithmétique, science du calcul, musique, algèbre, astronomie (générale et utilitaire), instruments astronomiques (astrolabes, tables astronomiques...), science des héritages... Ayant amassé de vastes connaissances et dépassé tous ses collègues (et même certains de ses maîtres) dans les sciences traditionnelles et intellectuels, Abu al-Fadhl revient à sa ville natale, Bougie, en 1440. Il enseigne dans cette ville durant une année avant de la quitter une deuxième fois pour se rendre en Orient (Egypte, Syrie, ...). Là-bas, il enseigna, en plus de certaines disciplines religieuses et linguistiques, les connaissances mathématiques du Maghreb.

Burhan ad-Din al-Biqâ'i a réalisé au Caire le premier Tefsir (commentaire) du Coran basé sur la cohérence entre les versés et

d'Abderrahmane), en raison de l'attitude de son frère. Par la suite, il sera en poste à Tlemcen, au service de Abou Hammou Moussa II. Il a rédigé l'ouvrage «*Livre de l'objet des désirs des voyageurs ou l'histoire des rois de la famille des Bani Abdel'Elwad, et exposition de ce que possède de solide et stable gloire, notre Maître, le Khalife Abou Hammou* ». Ce livre décrit les événements touchant la dynastie Abdelwadide de 1236 à 1374.

En particulier, c'est grâce à son ouvrage qu'on a des informations précieuses sur la création de la *Médersa Yaqoubiya*. Le témoignage du célèbre mathématicien al-Qalasadi montre que c'est dans cette institution qu'il a suivi les cours du grand Cheikh Ibn Zaghu (mort en 1441).

**12. Lissan ad Din Ibn al-Khatib et les savants de Tlemcen et de Bougie:** Auteur prolifique, Lissan ad Din Ibn al-Khatib (Grenade 1313 – 1374) est un éminent historien et homme de lettre de Grenade, qui s'est distingué également en médecine. Il fut l'élève de l'éminent médecin Abu Zakariya Yahya Ibn Hudhayl (m. 1352). Dans son traité *al-Ihata*, il a rédigé des notices biographiques sur de nombreux savants de Tlemcen et de Béjaia. C'est le cas d'al-Maqqari pour Tlemcen ou bien de Mansur al-Zwawi pour Bougie.

Il a été administrateur du Royaume de Grenade. Il accompagna le souverain Mohamed V en Afrique du Nord lorsque ce dernier a dû fuir en 1359. Il a été rétabli dans ses fonctions 03 ans plus tard, lorsque le souverain a récupéré son trône. Ibn al-Khatib a été exécuté en 1374.

**13. al Huwary à Béjaia:** Muhammad b. Amar al-Huwari (mort à Oran en 843h./1440) est arrivé à Béjaïa à l'époque où Ibn Khaldun avait été appelé par le prince Abu Abdellah al-Hafsi pour occuper le poste de premier ministre (*Hajib*). Ses impressions sur cette ville ont été publiées par son biographe Muhammad Ibn Said al-Andalusi dans son livre «*Rawdat al-Nasim* ». Il confirme notamment qu'il étudia auprès des deux imams, al-Waglisi et Ibn Idris. Le poème qu'il a écrit abonde d'éloges à l'intention des habitants de Béjaia : dévouement, charité, aide à l'étranger, affection vis-à-vis des pauvres,... Dans son poème intitulé *At-Tashil*, il déclare «*Ah !, si je vous*

*la montagne qui s'élève au midi d'Oudjda et dont ils se servaient avant d'avoir fondé leur royaume".*

Le siège de Bougie fut infructueux. Temzizdekt fut détruite de fond en comble par le sultan Abou Yahya Abou Bekr en mai 1332. Ses ruines furent réoccupées en 1509-1511 par (un autre) Abou Bekr, de même que des fortins situés en aval, *El Yakouta* et *Hisn Bekr*, de manière à assiéger Bougie prise par les Espagnols en 1509. Les murs de pisé de cette ville-forteresse subsistent toujours en partie non loin de la voie ferrée. Le lieu dit a donné son nom à la ville coloniale voisine : El Kseur (« Les châteaux »).

**10. Ibn Khaldun Abderrahmane, entre Béjaia et Tlemcen:** *«Béjaia où je deviens Hadjeb avec une autorité absolue »*. Cette citation d'Ibn Khaldun (Tunis 1332 – Le Caire 1406) dans son autobiographie (*Ta'rif*) est significative de ses liens avec la Cité. En effet, ses écrits sur Béjaia ont permis aux historiens de clarifier de nombreux concepts en rapport avec l'Occident Musulman (al-Andalus et Maghreb): la notion de frontière, la tradition mathématique maghrébine, le renouveau des études de *Fiqh* (jurisprudence),... En poste à Bougie, il se rendait tous les matins, après avoir expédié les affaires publiques, à la mosquée de la Casbah afin d'y enseigner la jurisprudence et les mathématiques.

On sait, de part son propre témoignage, qu'Ibn Khaldun a reçu une excellente formation en mathématique auprès du mathématicien tlemcénien al-Abili (1282–1356), un des élèves du très célèbre mathématicien marocain Ibn al-Banna (1256-1321). Vers 1368–1370, il entre au service du Sultan Zyanide de Tlemcen, Abou Hammou Moussa II. Les rapports seront conflictuels pendant de nombreuses années.

**11. Yahia Ibn Khaldun, entre Tlemcen et Béjaia:** *«Tlemcen, la cité du savoir, du raffinement et des bonnes manières »*. Telle est la citation de Yahia Ibn Khaldun (Tunis 1334 – Tlemcen 1379). En effet, les frères Yahia et Abderrahmane Ibn Khaldun (1332–1406) ont eu des rapports particuliers avec les villes de Béjaia et Tlemcen. Ces rapports vont par la suite avoir des répercussions sur l'histoire du Maghreb.

Yahia avait été Vizir à Bougie vers 1365 –1366. Lors de la prise de la ville, il sera malmené et pris en otage (avec la famille

Plus tard, al-'Uqbānī exerça la fonction de Cadi à Tlemcen, à Salé et à Marrakech. al-'Uqbānī a eu pour disciple plusieurs personnages illustres, tel que : son fils Qāssim al-'Uqbānī, l'imam Ibn Marzūq al-Hafid, le cheikh Ibn Zāghū.

En mathématique, al-'Uqbānī a rédigé trois commentaires explicatifs. Le premier sur le célèbre traité en science des héritages du mathématicien andalou al-Hawfi (mort en 1192). Le second ouvrage d'al-Uqbani est un commentaire du traité *at-Talkhīs*, d'Ibn al-Bannā'. Notons qu'al-'Uqbānī, dans ce dernier ouvrage, semble être l'un des derniers mathématicien maghrébins à utiliser dans ses démonstrations les propositions des *Eléments* d'Euclide. Enfin, le dernier commentaire d'al-Uqbani, est celui qu'il a fait sur le poème didactique en algèbre d'Ibn al-Yasamin (m. 1204). Ce dernier, composé de 54 vers, contient les algorithmes de résolution des six équations canoniques, suivis de deux méthodes de résolution des équations quadratiques non unitaire, et se termine par les règles de calcul sur les expressions algébriques.

Al-Uqbani a également rédigé un manuel sur la manière d'utiliser la méthode nouvelle qui avait été introduite par le célèbre algébriste de Bougie al-Qurashī (1184) dans le domaine des héritages. Dénommée *Tarīqat al-Farā'idh bi-l-Kussūr* (méthode des fractions en science des héritages), celle-ci est considérée par les mathématiciens des 14<sup>e</sup> et 15<sup>e</sup> siècles comme une grande innovation. Elle est basée sur la décomposition des nombres en facteurs premiers pour la réduction au même dénominateur des fractions qui interviennent dans la répartition d'un héritage donné.

**9. Un territoire Abdelwadide à Béjaia : la forteresse de Lessouar – Temzizdekt:** L'un des vestiges les plus intéressants de Tiklat (El Kseur – Béjaia), mais aussi l'un des plus ignorés, est la ville-citadelle Abdelwadide *Lessouar - Temzizdekt*. A partir de 1327, sur l'ordre du sultan de Tlemcen, Abou Tachfin, les Abdelwadides construisirent une forteresse destinée à bloquer Bougie. La ville antique devait être complètement ruinée à cette époque puisqu'ils choisirent de s'établir dans la plaine à 3 km au nord-est du site antique. Abou Tachfin donna à la forteresse le nom de Temzizdekt pour "*rappeler le souvenir de l'ancienne citadelle que les Abd el Wadides possédaient dans*

Aux 13e– 14e siècles, le *Mukhtassar*, prestigieux traité de jurisprudence du Malikite égyptien Ibn El-Hadjib (1175–1248) a joué un rôle central dans le renouveau des études de *Fiqh* au Maghreb. Un témoignage d'Ibn Khaldun nous renseigne sur l'action du « *plus grand des Cheikhs* », Nasir ad-Din az-Zwawi (1235–1335), qui le ramène d'Egypte à Béjaia et le fait connaître au premier cercle de ses disciples : Abu l'Abbas Ahmed Ben Amrane al-Bija'i, Ahmed Ben Idris et au Tlemcénien Ibn Marzuq al-Djad (à Béjaia dès 1328).

De nombreux élèves d'A Ahmed Ben Idris ont également rédigé des travaux (*Sharh*, gloses, annotations, *Iktissar*,...) sur ce *Mukhtassar* : Ibn Marzuq al-Djad, Saïd al-Uqbani, Ibn Khaldun, Muhammad El-Machdaly. Or ces derniers ont tous été des disciples d'al-Abili dont on connaît le travail de structuration (à Marrakech, Tlemcen, Tunis et Béjaia) de l'Ecole Mathématique du Maghreb. Un bref travail de recoupement permet de constater que la plupart des membres de cette école ont rédigé des travaux sur le traité d'Ibn al-Hadjib.

Lissan ed Din Ibn El-Khatib, dans son *Ihata*, consacre une notice à Ibn Marzuk al-Djad: « *c'était une des curiosités de son siècle...* ». En 1351, il émigra en Espagne où le Sultan l'investit des fonctions de prédicateur dans la grande mosquée de la cour et lui confia une chaire d'enseignement dans un établissement d'instruction publique. Il revient alors à Tunis en 1364, où il eut pour élève al-Barzuli. Il avait été surnommé « le Chef des savants ».

**8. Le tlemcénien Al Uqbani à Béjaia (1320 – 1408):** Le mathématicien Said ben Muhammad al-Uqbani naquit à Tlemcen en 1320. Il fit ses premières études en cette ville et compta parmi ses maîtres Les deux fils de l'imam, al-Ābili (1282-1356) et un éminent savant de Béjaïa Amrane al-Mashdali (1271-1344) qui, on le sait d'après son biographe at-Tumbuktī, enseignait à Tlemcen, en plus de certaines disciplines religieuses, la logique et la science des partages successoraux.

A Bougie, il fut l'élève de l'éminent savant Ahmad Ben Idris al-Bijā'i (m. 1360) et exerça la fonction de Cadi de la communauté, lorsque le sultan mérinide Abī 'Inān prit possession de cette ville entre 1353 et 1358, « *à une époque où les savants foisonnaient* », précise son biographe Ibn Farhūn.

*Saghir*», pour avoir écrit un livre que l'on comparait à l'*Ihya* d'al-Ghazali.

Les disciples de Sidi Bou Medienne étaient originaires de différentes régions du Maghreb. Parmi ses disciples tunisiens, citons Sidi Dahmani (mort à Tunis en 1224) et al-Mahdawi, qui avait accueilli à Tunis Ibn Arabi et avait été destinataire de sa *Risalat al-Quds* (en 600h./1203). Parmi ceux venus de l'Ouest, citons le célèbre mystique Muhammad b. Abi al-Qasim as-Sijilmasi, qui séjourna également à Bougie et «*Tawassala ila al-Haqa'iq* ». Il était disciple d'Abu Muhammad Salih, patron de la ville de Salé, lui même semble-t-il, élève de Sidi Bou Medienne.

Après son décès à El Eubbad, en novembre 1197, il deviendra le Saint patron de la ville de Tlemcen.

**6. Amrane Mashdaly à la Médersa Tachfiniya:** Amrane al-Mashdaly (670h./1270 – 745h./1345) a été un élève de Nasir ad-Din. Il a ainsi réalisé un *Sharh* (commentaire) du traité d'Ibn Hadjib. Spécialiste en science des héritages, il sera en poste à Tlemcen dès 727h./1327, ce qui lui conféra le titre de *Nazil Tilimsan*. Il sera reçu par Ibn Tachfine qui le nommera à la *Médersa Tachfiniya*. Il est l'auteur de *Fatawis* célèbres dont certaines sont reprises dans le traité *al-Mi'yar* d'al-Wansharisi (1430 – 1508).

Plusieurs biographes ont évoqué Amrane al-Mashdaly. Ainsi, dans le *Bughyat ar-Rawad*, Yahia Ibn Khaldun donne une courte notice sur sa vie et sa production. Voir également dans *Complément d'Histoire des Béni Zeiyan* d'at-Tenissy (pages 76 – 77), dans le *Nayl al-Ibtihaj* d'Ahmed Baba at-Tambukti (page 208) et dans le livre « *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom* » de l'Abbè Bargès (pages 47 et 156).

**7. Ibn Marzuq al-Djad et le renouveau des Etudes de fiqh au Maghreb:** Il est connu sous le nom d'*al-Djad* (l'aïeul) ou d'*al-Khatib* (le prédicateur). Ibn Farhun donne la liste de ses professeurs. Ibn Khaldun dit « *c'est notre ami, ... ses ancêtres étaient les gardiens du tombeau de Sidi Boumedienne à El Eubbed* ». Né à Tlemcen en 1310, il part avec son père en Orient vers 1327. Il s'arrêta à Bougie où il étudia sous Nasir ad Din El Machdaly. Il excella dans les deux écritures : maghrébine et orientale.



bien vite quitter pour se retrancher avec ses partisans à l'oratoire de Mellala, situé à quelques kilomètres de la ville.

C'est là qu'il rencontra son grand futur général, Abdelmoumen ibn 'Ali (qui lui succéda) et qu'il mis au point le plan de soulèvement des Almohades qui ébranla bien des trônes au Maghreb et en Andalousie. Au milieu du XII<sup>e</sup> siècle, les Almohades s'attaquent à l'al Andalus (1148) et au Maghreb central (Béjaia, 1152). Ce n'est que vers 1160 que les Almohades réussirent à unifier tout le Maghreb et l'al Andalus.

Ibn Tumart est l'auteur d'*al-Murshida* (celle qui dirige) qui a été édité par Goldziher (Fontana, Alger). Ce texte religieux a été probablement rédigé dès son retour d'Orient. Il s'agit de sa première réforme dogmatique. 'Abdelmoumen a joué un grand rôle dans la diffusion de ce texte qui sera enseigné partout dans les mosquées et les écoles. Un commentateur d'*al-Murshida*, Ibn Naqash, affirme que la *Murshida* était enseignée à Tlemcen.

**5. Sidi Bou Medienne, de Béjaia à Tlemcen:** A l'époque Almohade, deux raisons essentielles ont été à l'origine du développement rapide du Soufisme dans toutes les couches sociales de la Kabylie: la présence à Béjaïa des plus grands maîtres du Soufisme et l'esprit de tolérance de la population. En effet, Sidi Bou Medienne n'a-t-il pas affirmé que "*Béjaïa facilite, plus que d'autres villes, la recherche de ce qui est permis*".

La ville de Béjaïa a possédé le maître le plus illustre du grand mouvement mystique Maghrébin : le *Qutb* Sidi Bou Medienne (520h./1126 – 594h./1197). "*Son grand mérite, sa grande réussite, c'est d'avoir réalisé, d'une manière accessible à ses auditeurs, l'heureuse synthèse des influences diverses qu'il avait subies*". Selon R. Brunschvig, « Avec lui, le Soufisme modéré s'adapte à la mentalité du croyant maghrébin, homme du peuple ou lettré ». L'action de son école a permis à la ville de Béjaïa d'occuper une place éminente dans l'Islam Occidental.

Il était naturel que l'influence de Sidi Bou Medienne se fasse sentir tout d'abord à Béjaïa et même les autres « *Princes de la Science* » ne sont pas restés en dehors de sa sphère d'action : 'Abd al-Haq al-Isbili (mort en 582h./1186), ainsi qu'al-Masili (m. en 1185), plus connu sous le surnom de « *Abu Hamid as-*

quantité de *Fatawis*, dont une grande partie a été transcrite dans le *Mi`yar (l'Etalon)* d'al-Wansharisi et dans les *Cas de Jurisprudence* d'El-Mazouny. Il a eu pour professeur Saïd al-Uqbani (1320 – 1408). Son disciple le plus fameux est le célèbre mathématicien andalou al-Qalasadi (1412–1486).

Ce dernier affirme dans sa *Rihla* qu'il « *a suivi ses leçons avec ses condisciples à la médessa appelée El-Yaqubiya. En été, Ibn Zaghu enseignait le calcul, le code des partages et la géométrie* ».

Ibn Marzuq al-Hafid (le petit fils) (1364–1439) est l'auteur d'un poème du mètre redjez sur le *Talkhis* du mathématicien marocain Ibn al-Banna (1256–1321), ainsi que sur l'art de dresser les calendriers. Cette citation de son disciple al-Qalasadi est significative: « *En arrivant à Tlemcen, je trouvais dans cette cité une foule de savants. Mais celui qui mérite avant tout une mention spéciale, c'est le Cheikh, notre professeur Ibn Marzuk al-Hafid. Il est mort en 1439. Le Sultan assista avec toute sa cour à ses funérailles dont je n'avais jamais vu les pareilles* ».

Ahmed Ben Zekri (mort en 1494) est l'auteur de nombreuses *Fatawis* (décisions juridiques) qui ont été transcrites par al-Wansharisi dans son *Mi`yar (Etalon)*. Ben Zekri discuta avec as-Sanusi de nombreuses questions. Chacun soutenait opiniâtrement son opinion et réfutait celle de son adversaire. Parmi ses disciples, citons Ahmed Zerruq al-Barnusi (mort en 1477).

Et-Tenassy (mort en 1493). Il naquit à Tlemcen et a eu pour maître Ibn Marzouk al-Hafid, Qasim al-Uqbani, Ibrahim at-Tazi,... On raconte que le cheikh Sidi Ahmed b. Daoud El-Andalousy, ayant été interrogé, après son départ de Tlemcen, sur le mérite particulier des savants de cette ville, répondit : « *La science est l'apanage d'Et-Tenassy, la piété caractérise as-Sanusi, et c'est Ibn Zekri qu'appartient l'excellence du professorat* ». Il est l'auteur de "l'histoire de la dynastie des Béni Zayian".

**4. Le Mehdi Ibn Tumart rencontre `Abdelmoumen à Mellala (Béjaia):** Au retour d'Orient vers 510h./1117 – 1118, le futur Mehdi Ibn Tumart s'arrêta à Béjaia et y déploya son activité réformatrice, notamment par sa prédication en langue berbère. Il dispensa son enseignement à la Mosquée *al-Rayhana* qu'il dû

**3. Tlemcen, la Grenade Africaine:** Du VIII<sup>e</sup> au XIII<sup>e</sup> siècle, de puissantes dynasties qui ont gouverné le Maghreb au Moyen-Age arabe ont marqué la ville de Tlemcen (Idrisside, Hammadide, Almoravide, Almohade). Chacune d'elles a laissé son empreinte.

Vers 1236, alors que l'empire almohade était affaibli par des luttes internes, un chef berbère, Yaghmoracen, des Abdelwadides (ou bien Zyanides), établit son autorité à Tlemcen et proclame l'indépendance de cette ville et de toute la province. Parmi les souverains Abdelwadides qui ont marqué l'histoire Tlemcen, Abou Hammou II (1359-1387) est celui qui a le plus contribué à la grandeur intellectuelle de la Cité. Il rétabli les remparts de sa capitale, et remplit les caisses du trésor public. Il tenta vainement d'occuper Bougie.

Le royaume des Abdelwadides survivra jusqu'à 1555, date à laquelle Salah-Raïs, pacha d'Alger, s'en empare, tandis que le dernier souverain de Tlemcen se réfugie à Oran chez les Espagnols.

Tout au long du Moyen Âge musulman, un milieu intellectuel exceptionnel va se constituer. Dans les paragraphes suivants, nous allons évoquer ceux qui, d'une manière ou d'une autre, vont contribuer à développer les échanges Béjaia-Tlemcen.

Parmi les autres grands Cheikh qui ont fait de Tlemcen un Centre d'enseignement supérieur, citons :

Les deux fils de l'Imam. L'ainé, Abu Zeid (mort en 1342), considéré comme étant « *le docteur des Malikites à Tlemcen, le savant incomparable* » est l'auteur d'un grand commentaire sur le précis d'Ibn El-Hadjib. Le cadet est Abu Muça (m. 1348). Ibn Khaldun affirme qu'Abou Hammou leur fit bâtir le collège qui porte leur nom.

al-Maqqary (à Fès dès 1348. Mort à Fès en 1392), «le professeur vers qui on accourait de tous les pays ». A Béjaia, il suivit les cours de Mohamed ben Yahia al-Bahili, Mohamed ben Yaquoub al-Zarouli,... Il deviendra le Cadi de la Communauté de Fès.

Ibn Zaghu (1380-1441) est l'un des plus grands maîtres de Tlemcen. Il est l'auteur d'un commentaire de la *Tlemcaniya* sur la science des héritages d'Ibrahim Et-Tlemcani. On lui doit une

La Dynastie Hammadite (1004 – 1152) a joué un rôle de premier plan dans l'histoire et la civilisation du Maghreb central. Béjaïa, qui donnera son nom aux petites chandelles ( les « *bougies* ») et à partir de laquelle les chiffres arabes vont être « *popularisés* » en Europe, en deviendra sa capitale (en 1067).

*Béjaïa, Port de commerce:* Profondément enracinée au Maghreb, Béjaïa était aussi largement ouverte sur la Méditerranée. En effet, elle devient très tôt un point de contact – un interface diraient les géographes – entre le Maghreb et l'Europe. Elle concentre les marchandises, pour les redistribuer ensuite dans diverses directions. Témoin de ces intenses échanges, la ville de Béjaïa a donné son nom à un type de cuirs. Cependant, elle est surtout à l'origine du nom donné aux petites chandelles (les bougies). L'attestation du mot au début du XIV<sup>e</sup> siècle montre que cette exportation était suffisamment importante au siècle précédent pour que les chandelles prennent le nom de la ville d'où provenait la cire.

*Centre d'enseignement supérieur:* La ville de Béjaïa était un centre d'enseignement supérieur. On y venait pour compléter sa formation au même titre qu'au Caire, à Tunis ou à Tlemcen. Plusieurs centaines d'étudiants (dont beaucoup d'européens) se pressaient dans les écoles et les mosquées où enseignaient théologiens, juristes, philosophes et savants parmi les plus réputés du monde musulman. Parmi les institutions célèbres : La Grande Mosquée, *Madinat al-'Ilm* (la Cité des Sciences), La *Khizana Sultaniya*, l'Institut Sidi Touati...

*Le Dialogue Inter-Religieux:* A l'époque médiévale, Béjaïa a eu le privilège d'abriter une forme de dialogue inter-religieux, à travers des événements, entrés depuis dans l'histoire Islamo-Chrétienne. Ce dialogue avait un lieu prédestiné. Il s'agit bien sûr de Beït al Hikma (la maison de la sagesse), qui symbolisait les échanges intellectuels entre musulmans et non musulmans, résidant dans la ville ou y venant de l'étranger. Tous les historiens ont souligné la signification particulière que revêt la célèbre lettre du Pape Grégoire VII au souverain Hammadite de Béjaïa, le prince al-Nasir, en 1076. Selon Mas Latrie, qui a publié ce document d'archives, « *jamais pontife romain n'a aussi affectueusement marqué sa sympathie à un prince musulman* ».

Ces liens particuliers et privilégiés entre ces deux cités algériennes prestigieuses vont joué un rôle non négligeable dans la constitution de la tradition scientifique médiévale du Maghreb. Dans cet article, nous introduisons les principales aventures intellectuelles qui ont permis à ces deux cités d'être qualifiées de « jumelles ».

**1-Les rapports politiques Béjaia- Tlemcen:** Depuis les débuts de la présence musulmane en Afrique du Nord, deux pôles se sont affirmés, à l'Est autour de Kairouan puis de Mahdia et Tunis, et à l'ouest autour de Fès et Marrakech (mais aussi de Cordoue).

Entre ces deux pôles, l'espace du Maghreb central est soumis à une forte compétition qui prend appui sur les différentes capitales régionales qui émergent et se succèdent dont les principales sont Tahert, Tlemcen, Tubna, Msila, Ashîr, la Qal'a des Banû Hammâd et Bougie.

Depuis le milieu du XI<sup>e</sup> siècle, le Maghreb occidental a été l'épicentre d'une évolution à caractère politique et religieux qui réalisa au moins temporairement à deux reprises le vieil idéal d'unification de l'al Andalus et du Maghreb. Les Almoravides conquièrent le Maghreb occidental, mais échouèrent au Maghreb central et s'arrêtèrent à la zone d'influence des Bani Hammad regroupés à Béjaia. Ils purent néanmoins déferler sur l'al Andalus qui venait de subir la prise de Tolède par les Castillans. L'apparition des Almohades s'est effectuée d'abord en réaction contre la dynastie Almoravide. Fondée sur une doctrine formulée par Ibn Tumart, un berbère qui avait séjourné à Cordoue avant de se rendre à Bagdad.

À partir du XII<sup>e</sup> siècle cependant, le déplacement des centres de gravité vers le nord et la Méditerranée consacre le rôle de Tlemcen et Bougie qui deviennent pour la première la capitale du sultanat abdelwadide, et pour la seconde la deuxième capitale hafside, dans la dépendance le plus souvent de Tunis, mais aussi parfois siège d'un émirat indépendant. La frontière entre les deux espaces se situe alors autour d'Alger, alternativement conquise par l'une ou l'autre puissance, mais sans que des limites fixes ne soient jamais pleinement définies ni reconnues.

*2-Béjaïa, une Capitale Historique sur les rives de la Méditerranée:*

## *Les Rapports Intellectuels Béjaia – Tlemcen*

 Pr Djamil Aïssani<sup>1</sup>

**Introduction:** Le 01 octobre prochain sera inaugurée au Palais de la Culture de Tlemcen, l'exposition «*Les Echanges Intellectuels Béjaia – Tlemcen*». Une trentaine d'histoires extraordinaires seront présentées au public. A côté des thèmes connus (La rencontre d'Ibn Tumart et d'Abdelmumen à Mellala, La *Qutbiya* de Sidi Bou Medienne, les frères Abderrahmane et Yahia Ibn Khaldun, ...), l'exposition abordera des thèmes tout à fait originaux : le juriconsulte tlemcénien Said al-Uqbani (1320 – 1408) et la méthode des fractions en sciences des héritages de l'algébriste de Bougie al-Qurashi (mort en 1184), les études d'Abu al-Fadhl al-Machdaly (1419 – 1460) à Tlemcen, en compagnie d'al-Qalasadi et d'al-Sanusi, auprès d'Ibn Zaghu et d'Ibn Marzuq al-Hafidh, les rapports de Cheikh Sanusi avec la Kabylie, ...

En effet, de tous les rapports inter-villes, ce sont les échanges Béjaia – Tlemcen qui ont eu le plus d'impact sur le développement des activités scientifiques et culturelles au Maghreb central et en Méditerranée:

-Aux 11<sup>e</sup> – 13<sup>e</sup> siècles, de nombreux tlemcénien se sont rendus à Béjaia pour poursuivre leurs études. Beaucoup d'entre eux sont devenus de véritables savants et s'y sont installés pour enseigner ou bien pour y exercer des fonctions administratives ou juridiques. C'est le cas par exemple de Abu Farès Abdelaziz b. Omar b. Makhluḥ (Tlemcen 1202 – 1286). Cadi à Bougie, il va y rencontrer al-Hirrali (m. à Damas en 1240) et Ibn Mahrez. Le bio-bibliographe al-Gubriṇi (m. 1315) a été son élève.

-Aux 14<sup>e</sup> – 15<sup>e</sup> siècles, se sera le tour des bougiotes de privilégier la direction Tlemcen. C'est le cas par exemple d'Abu al Fadhl al Mashdaly (1419 – 1465).

---

1- Professeur de Maths- Université de Bejaia/ chercheur C.N.R.P.A.H. Alger.

temps contre la Couronne d'Aragon et les Mérinides qui furent précédemment les alliés des Nasrides. Plusieurs Sultans de Tlemcen furent élevés dans les cours d'Al-Andalus, comme le quatrième roi de la dynastie des Banou Abdelouad, Abou Tachfin fils d'Abou Hammou, élevé à la cour Nasride de Grenade où il recevra son initiation princière au palais de l'Alhambra. Tlemcen est restée longtemps une ville amarrée à l'Andalousie décrite et chantée par ses poètes. Les habitants des deux capitales avaient beaucoup d'affinités et partageaient les mêmes traditions dans l'habillement, l'art culinaire enfin, le parler avec ses inflexions particulières communes.

**Mots clés:** Tlemcen- histoire – siège - épreuve –résistance.

Paralelamente al desarrollo del culto a los santos, la arquitectura magrebí post almohade se caracteriza por el interés mostrado a los centros funerarios. Así, nos han llegado algunas qubbas funerarias de época abdelwadida. La *qubba* de Sidi Marzuq, que probablemente data del reinado de Yaghmurāsan, está situada en la esquina suroeste de la gran mezquita de Tlemcen. El acceso al mausoleo se realiza mediante una antecámara. El espacio funerario está rematado con una cúpula de ocho caras. La *qubba* de Sidi Ibrahim, construida por Abū Hammū II está precedida por un patio a cielo abierto. La cámara funeraria, coronada también por una cúpula de ocho caras, está profusamente decorada por paneles esculpidos en escayola que incluyen largas inscripciones coránicas.

### Bibliografía

BERSC, H., GUICHARD, P. & MANTRAN, R., *Europa y el Islam en la Edad media*, Barcelona, 2001.

CAHEN, C., *El islam. Desde los orígenes hasta el comienzo del Imperio Otomano*, Madrid, 1984.

IBN JALDŪN, *Histoire des berbères et de dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, ed. y trad. de M. G. De SLANE, Argel 1925 (reimpresión, 1956).

IBN HAWQAL, *Description du Magreb*, trad. por M. G. De SLANE, en *Journal Asiatique*, 1842.

LEWIS, B., *Los árabes en la Historia*, Madrid, 1956.

**Resumé:** Tlemcen eut des échanges divers avec l'Espagne musulmane et apportait aides militaires contre la Reconquista Chrétienne. Les Nasrides signent des traités de paix avec les souverains Zianides de Tlemcen, ils deviennent alors alliés un



es el minarete de la mezquita de la kasba en Marrakech. Las torres cuadradas se rematan en un linternón y la decoración de relieves de ladrillo dibuja la red rómbica que orna el cuerpo del minarete. La presencia de un panel de red rómbica se observa en otros casos, como en Nedroma, o en los minaretes de los oratorios de Abū l-Hasan y de Sidi Ibrahim en Tlemcen. Sin embargo, la red rómbica, marca típica de la herencia decorativa almohade, no aparece en los minaretes de las mezquitas de Awlād al-Imām y de Mechouar en Tlemcen, donde las fachadas de la torre están decoradas con un panel rectangular adornado con arquerías entrelazadas.

Los soberanos abdelwadidas edificaron varias madrasas, desgraciadamente todas desaparecidas. La primera se debe a Abū Hammū II que financió hacia 1310 la construcción de la madrasa de los Awlād al-Imām, en honor de dos sabios de la región de Ténès. Hacia 1327, se construye at-Tašfiniyya, levantada por Abū Tašfin, e implantada muy cerca de la gran mezquita de Tlemcen. Restaurada varias veces, especialmente en el siglo XV, en el reinado de Abū l-'Abbās b. Mūsā (r.1430-1461), se demolió en 1873 para construir el ayuntamiento. Conocemos su planta y varios fragmentos de su decoración. El monumento se organizó según dos ejes perpendiculares, uno que unía las dos entradas monumentales, y el otro que atravesaba el *mihrab* de la sala de oración. El patio central, de forma rectangular, está totalmente rodeado de galerías. La sala de oración presenta una disposición original, ya que va precedida de una galería decorada con una pila. En el interior, el oratorio se divide en tres partes: un sector central cubierto por una cúpula está delimitado de una y otra parte por un espacio rectangular; uno de los sectores laterales al parecer tuvo una vocación funeraria. Una última madrasa zayyanida, al-Ya'qūbiyya, se construyó en el reinado de Abū Hammū II.

siglo XV), pero sin conseguir establecer un poder central fuerte, triunfando las disensiones tribales internas. El final de la dinastía abdelwadida es tan agitado como el primer siglo de su historia. Debilitados por sus disensiones internas y por la gran influencia de las tribus árabes nómadas, los abdelwadidas se reducen a la soberanía de los españoles de Orán (1509) y después a los turcos de Argel (1517). Tlemcen, sometida un tiempo a los saadíes, está ocupada definitivamente por los turcos en 1550, poniendo fin definitivamente de este modo al poder abdelwadida.

En el dominio del arte los abdelwadidas nos han dejado varias realizaciones modestas, principalmente situadas en la capital Tlemcen. Se edificaron varios oratorios, especialmente cerca de mausoleos de personajes santos. La mezquita Sidi Abu l-Hasan, dedicada a un sabio de Ténès, se fundó en 1296 y la mezquita de Awlād al-Imām (1310), ambas de tamaño reducido, carecen de patio central. La sala de oración consta de naves perpendiculares al muro de la *qibla*. La mezquita Sidi Ibrahim, construida en el reinado de Abū Hammū II, adopta una planta similar a las dos anteriores, pero con un patio central rodeado de una galería que prolonga las naves de la sala de oración. El mihrab va precedido por una cúpula acanalada. Los edificios están cubiertos de estructura de madera, acondicionada a veces, como en el caso del oratorio de Sidi Abu l-Hasan, según las técnicas andaluzas de techos artesonados.

Aunque los abdelwadidas no construyeron muchas mezquitas nuevas, aportaron su cuidado al mantenimiento, la restauración y la ampliación de edificios preexistentes. Así, varias mezquitas del territorio zayyanida disponen de minaretes. Probablemente a Yaghmurāsan debemos los minaretes de dos mezquitas de Tlemcen: la gran mezquita y la de Agadir. En ambos casos, los minaretes se elevaron según el modelo almohade, cuyo prototipo

en varias ocasiones. Entre 1299 y 1307, los abdelwadidas se atrincheran en Tlemcen, que resiste a un largo siglo marinida. Al salir de esta prueba, Abū Hammū al-Tānī (1308-1318) y su hijo Abū Tašfīn (1318-1337), emprenden una política de consolidación del poder abdelwadida y extienden su poder al territorio de las tribus zenetas de los tujin y de los maghrawa en el valle del Chelif y de sus alrededores. Tlemcen recobra su esplendor y se beneficia, gracias a su situación central en el Magreb, de las riquezas del comercio transahariano.

Las relaciones exteriores establecidas con Aragón y Mallorca refuerzan la posición regional de los abdelwadidas, especialmente frente a los hafsidas en crisis. Las rivalidades con los marinidas ponen fin a esta calma. Tlemcen cae en manos de Abū l-Hasan en 1337. Los marinidas, sin poder establecerse allí de forma duradera, la reocupan periódicamente, en especial en 1352, 1360 y 1370. Con Abū Hammū al-Tānī (1359-1389), monarca cultivado, nacido y criado en Al-Andalus, el poder abdelwadida recobra algo de su esplendor.

La región fue repartida entre tres dinastías beréberes: los Merinidas en fez, los Abdelwadidas en Tlemcen y los Hafsidas en Túnez. Desde el fin del siglo XV, después de la reconquista cristiana, reconquista sobre la totalidad de España poniendo fuera a los judíos y musulmanes, España continuó con sus logros, ocupó varios puertos de la costa argelina como Mers-el kebir, Orán y Bedjaia. Los abdelwadidas aceptaron el protectorado español, pero las autoridades religiosas de la ciudades portuarias apoyadas por la población reclutaron corsarios. En 1518 Argel y varios otros puertos fueron sitiados y los otomanos fueron llamados al rescate.

Posteriormente la dinastía se mantiene con dificultad, resistente a los intentos de expansión marinidas y hafsidas (en el

## Los banū 'Abd al-Wād o abdelwadidas de Tlemcen historia y herencia

 Nourine Elaid Lahouaria<sup>1</sup>

---

Al igual que sus rivales marinidas, los abdelwadidas (asimismo denominados zayyanidas en referencia a Zayyān, padre de Yaghmurāsan, fundador de la dinastía), provienen de tribus zenetas nómadas que se desplazan en el siglo XII a la parte oeste del Magreb central. Fiel al poder central almohade, uno de los jefes de los abdelwadidas, fue investido por el califa al-Ma'mūn como gobernador de Tlemcen en 1227. En 1236, el poder tribal cae en manos de Yaghmurasan, que no tarda en mostrar sus veleidades de independencia. Desde 1240, deja de reconocer al califato almohade y se impone el título de emir de los musulmanes, que antiguamente adoptaron los almorávides. El aniquilamiento de los almohades, en 1269, desencadenó una ruda batalla comercial entre cristianos (españoles) y musulmanes por el control de los puertos del mediterráneo.

Para afirmar su poder, Yaghmurāsan debe enfrentarse a un clima hostil. No sólo hace frente a los almorávides deseosos de recuperar su autoridad en Tlemcen, sino que también resiste a las ambiciones de sus vecinos hafsidas. La rivalidad duradera con los marinidas se cristaliza un tiempo alrededor del control del puerto caravanero de Sijilmasa. Con los sucesores de Yaghmurāsan, esta rivalidad hace vacilar el poder abdelwadida

---

1- Enseignante d'espagnol- Faculté des Lettres, Langues et Arts- Université d'Oran.

- 34- Cuando Abī ‘Abd Allāh sintió el peligro de su enemigo Abī al-‘Abbās decidió de devolver tadelas y mejorar sus relaciones con Abū Hammū. *Al-‘Ibar* .V –VI. pp. 858-860/ *At-ar’rīf*.p.98-99/ Hayiyat ‘Abd al-hamīd. *‘Abd al-Rahmān ibn Jaldūn fi biyāya*.Al-Asāla.N°19.pp.191-203.
- 35- *Al-‘Ibar* . V –VI. pp. 860-862/ Ibid.V- VII. pp. 269-271/ *At-ta’rīf*. pp.100-102/ Hayiyat, *Abū Hammū Mūsà*.pp.114-121/ *La bugya*.V II. pp.181-198.
- 36- *La bugya*.V II. p.201/ *Al-‘Ibar* .V- VI.-p.272-273.
- 37- Abū Mansūr b.‘Alī b. bd Allāh al -Zwāwī, murió en 770h. *Nayl* pp.345-347/ *La bugya* .V I.p.132.
- 38- Sobre la separación de Yahyà y Abī Hammū: *Al-‘Ibar* .V –VII.pp.274-277/ *Abū Hammū Mūsà*.pp.122-128/ *La bugya* .V II .p.238-239.
- 39- *La bugya* .V II-p.238-239.
- 40- Sobre el mal entendido entre al-Ganī bi-llāh b. al-ahmar y ‘Abd al-‘Azīz al-Marīnī (el problema de Ibn al- Jafīb Lisān al-dīn): V VII.pp.696-697y701.  
Y sobre el problema de la nueva designación del sultan: *Al-‘Ibar* .V- VII.p.697-698. Y sobre la posición de Yahyà: *At-ta’rīf* . -p.295-296.
- 41- Sobre el fin de la resistencia: *At-ta’rīf*. pp 218-223y 227/ *Al-‘Ibar* . V- VII- pp. 704-706.
- 42 Sobre la muerte de Lisān al-dīn Ibn al- Jafīb: *At-ta’rīf* . p.227/ *La bugya*. V II- p.300/ *Al-‘Ibar* . V- VII. p. 707-709.
- La vuelta de Abū Hammū Mūsà al-Tānī a Tlemcen después de la muerte de ‘Abd al-‘Azīz al-Marīnī. Hayiyat- *Abū Hammū Mūsà al-Ziyānī*. pp.130- 133.
- 43- *At-ta’rīf* . pp. 224-227.
- 44-Abū Tasfīn: nació en 752h. *Al-‘Ibar*. V -VII- p.280-282y 292. *La bugya*. V II- pp.17, 239, 279-286, 311-314.
- 45- *La bugya*. V II. p. 313-314.
- 46- Sobre el conflicto entre Suwayd y banū ‘Amir y sobre todo en los años 777h, 778h: *Al-‘Ibar*. V –VII. pp. 284-286.
- 47- Sobre esta traslación y sus causas: *Al-‘Ibar* . V –VII. p. 291-292.
- 48- La relación entre Abī Hammū Mūsà al-Tānī y sus hijos Abī Tasfīn, Abī Zayyān, ‘Umayr y al-Muntasir: *Al-‘Ibar* . V –VII. p.291-292.
- 49- Sobre estos eventos: *Al-‘Ibar*. V –VII. p.292.
- 50- Sobre la poesía de Yahyà: *Nafh*. V- XI. pp. 212-215, 218-219 y 340-341/ *La bugya*. V II- pp. 124, 215-222, 230-234 , 297-299 y 320-325.

- pp.215.215,351.486.510/Ibid V –VI.p.33/Al- Tumbuktī.*Nayl al-ibtihāy bī tatrīz al-dibāy*.Ed.Cairo.1329h.p.224.
- 19- Ibn al-qādī, -*Durrat*.p.21.N°56/ *Nayl* .p.68/ *At-ta'rīf* .p.48-49.
- 20-*Yūdwat*.pp.112,246-247/*Nayl*.pp.145-147/*At-ta'rīf*.pp.22-23,41-44/ *Nafh*.V VIII.pp.214-219/María Jesus Viguera, *Al-Musnad al-sahīh al-hasan fī ma'ātir wa mahāsin mawlāna Abī al-hasan de ibn Marzūq*.Madrid.1973.V III.p.374/ *Bugyat*.Ed. Hayiyat.p.15-16.
- 21-*At-ta'rīf* .pp.20,38-41/ *Nafh*.-V VII.pp.163-164,384-391/ *Yūdwat* .p.279-280/ /'Abd al-Rahmān Badawī, *Mu'alafāt ibn Jaldūn*.p.256/'Abd al-Rahmān ibn Jaldūn, *Al- 'ibar wa diwān al muḥtada' wa al -jabar*.Bayrūt. 1957-V- VII.pp.515-517/Al – kattānī, *Fihris al-fahāris*.Fās.1346h-1347h.V I. pp.256.260/ Hayiyat. *La Bugia*.p.15.
- 22- Al-Maqqarī, *Nafh*.V- VII. p.167/ *Bugyat ar- Ruwwād* .Ed .Hayiyat.V I. p.11.
- 23- Ibn daqīq al-Sa'īd Taqīy al-dīn 'abī al-fath Muhammed b. 'Aliy b. Wabb b. Muṭī' al -Qusayrī. Ibn Farhūn, *Al-dibāy al -mudahhab fī ma'rīfati a'yān 'ulamā' al-madhab*.Cairo.1951.p.324-325.
- 24- Sobre 'Ab al-Abbās, al-Bana' Ahmad b. Muhammed b. 'Utmān al-Azdī al-Murrākūš.*Nayl*.pp.65-68/ *Yūdwat* .pp.74-78/*Durrat*. VI.p.5-6 .N°17/ Al-Ziriklī Jayr al-Ddīn, *al- 'a'lām*.Cairo.1954-1959.Ed. N° 3.V I .p.213-214.
- 25- Al-Abīlī fue uno de los profesores que Yahyā b. Jaldūn trata en su libro *Bugiat*.V I. p.85.
- 26- *At-t'arīf*.p.15/ *'Abd al-Rahmān b. Jaldūn hayātu-hu wa turātu-hu al fikrī* .p.19-20.
- 27-La mayoría de los libros no Hablan de Yahyā b. Jaldūn en este período (750-757h)por eso no tenemos informaciones bastantes comparativamente con su hermano quien sabemos que estaba en la corte mariní como escritor, la sola prueba que tenemos es la llegada de un grupo de los sabios de al - Andalus a fez en el tiempo del sultan Abū 'inan, uno de ellos fue Abū al-barakāt al-balfiqī quien era uno de los profesores de Yahyā según la *Bugia*.Sobre este sabio: *Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al - Wād* .VII. p.167/ *At-t'arīf* .p.61/ Ibn al- Jafīb Lisān al-dīn, *Al- 'ihāta fī 'ajbār Garnāta*. Cairo. 1319h / VII. pp. 101- 121/ *Nayl* .p. 254. 255/ *Nafh*. V-VII. pp. 391 - 408/ *Al-dibāy*. Pp.291-295/ *Fihris al-fahāris* .V I.p.106-107.
- 28- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Ahmed al-šarīf al-Hasanī, nació en Tlemcen en 710h y murió en 771h. Al-Ziriklī, *al- 'a'lām*. V- VI p.224 /Carl BROCKELMAN, *geschichte de arabichen litteratur*.Newyork.VII. p. 318./ *Bugiat*. Ed. Hayiyat. VI. 120/ *At-t'arīf*.pp.62-64/Al-Zarkasī, *Tārīj al-dawlatayn al-muwahidiyya wal-hafsiyya*. Ed. Túnez. 1289h /1872 d.c. p.91/ Yallūl Badawī, *al-šarīf Abū 'Abd Allāh al-tilimsānī*. Al- Asāla. Alger.Octobre. 1971. N°4/ pp. 48-55.
- 29-*Al- 'Ibar*.V-VII. pp. 636 -642. *Nafh*. VIX. pp. 99. 103 / *At-tar'īf* .p. 53 - 4/ *Bugiat* . Ed. Hayiyat. V II. p. 53.54. *At-tar'īf* .p.95-96.
- 30- Abī 'Abd Allāh al-Hafsi, el emir de Bugia antes de la expedición de Abī Inān hacia Ifriqiyya y estar prisionero, después durante el período de Abī Sālem tuvo su libertad para combatir la extensión de Abī al-'Abbās. Tenía buenas relaciones con 'Abd al-Rahmān y su hermano. *Al- 'Ibar*.V-VI. p.851 - 852 / Ibid.V-VII. p.647 / *At-ar'īf*.pp. 67, 95 - 96.
- 31- *La Bugya*.V II. pp.123.125,131.
- 32- *Al- 'Ibar*, V -VI, p853-854/Ibid. V- VII. p.264/ *At-ta'rīf*. p.97, (sobre el oposito Zayyān. *La Bugya*.V II.p.132.133).
- 33- Sobre la extensión de bugya: 'Abd al-hamīd hayiyat, *Abū Hammū Mūsā al-Zayyānī hayātu-hu wa 'ataru-hu*. Sned. Alger.1974. pp.108-113/ *Al- 'Ibar*. V –VI. p. 854-855/ *La bugya*.V II. pp. 148-151.

histórico virgen y rico en noticias que pueden ayudarnos a llevar estudios sobre Telemcen y sus vecinos del Magreb. No debemos ocultar también el interés literario de esta obra que desvela un nivel lingüístico superior. Todo eso nos empuja a interesarse más a Yahyà b. Jaldūn y a su carrera política y literaria.

### Referencias mencionadas en el artículo:

- 1- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn *At-Ta'rif*.ed. Ibn tawit.Cairo.1951.pp.8-11.
- 2- Ibidem.p.11.
- 3- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn tenía un libro que se llama *'Adab al -Kuttāb*. Sobre la formación de los escritores del estado, Véase Lévi -Provençal. *Le traité d'adab al-kātib d'abū bakr b. Jaldūn*. Arabica.Leiden.1955.V II. pp.280-288.
- 4- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn. *At-Ta'rif*.p.12.
- 5- R. Brunschvig. *La berberie orientale sous les hafsidés*. Paris, 1947. V I. p.80.
- 6- 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn. *At- Ta'rif*. P.12.
- 7- Ibidem.pp.13.14.
- 8- Ibidem.pp.14.17.
- 9- Brunschvig, Op. Cit., p.408.
- 10- Este libro de 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn *At- Ta'rif*, forma parte del volumen final del número 6 de *Al- Ibar*.
- 11- Los tres hijos de Muhammed b. Jaldūn son: 'Abd al-Rahmān, Yahyà (el pequeño) y Muhammed (el mayor), este último es posible que muriera poco tiempo después de su padre. Ibn Jaldūn.Op.Cit.,pp.19-32 y 56.
- 12- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Sa'īd b. Burrāl al-Qurašī, su origen es del Andalus, tenía una reputación en muchas ciencias y sobre todo en las lecturas coránicas.*At-ta'rif*, p.15/ Al -Maqqarī, *Nafh*.V VIII.p.218/Inan Muhammed, *'Abd al-Rahmān b. Jaldūn hayātu-hu wa turātu-hu al fikrī*. Cairo.1938. p.212.
- 13- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. Yābir b. Muhammed b. Qāsim al -Qaysī al-Wādī. Nació en Túnez en 673hy murió en ella por la peste en 749h/1349d.c, era el profesor de los libros del hadit como *Sahīh al-Bujārī*, *Muwatta' al-Imām Mālik*. *At-ta'rif* .p.18-19/Ibn al-Qāḍī, *Durrat al-hiyal fī gurrat asmā' al-riyāl*.Ed .Allouche,Rabat. 1934.VI. p.205.206/ Al -Maqqarī, *Nafh*.V-VII. pp.125-127/'Abd al-Rahmān Badawī, *Mu'alafāt ibn. Jaldūn*.p.254-255.
- 14- Abū 'Abd Allāh Muhammad b. 'Abd as-Salām al-Munastīrī, al-Hawwārī al-Tūnūsī, murió en 749h/1349d.c, como su omólogo al- Qaysī era un profesor de al-hadīt. *At-ta'rif* .p.19/ *Nafh*. V .VIII.p.278.
- 15- Sobre la manera de enseñar de los antepasados que se basa sobre la cantidad y la memorización: Ibn.Jaldūn, Al- Muqaddima.ed.'Alī 'Abd al-wahed wafī. Cairo.1965.1968.V-IV .pp.1353-1358,1359-1363 y1365.
- 16- Según la *Bugia* Yahyà habló solamente de cuatro profesores suyos que son: Abū. 'Alī al-Zwāwī, Abū 'Abd Allāh al-Šarīf al-'abilī, Abū al -barakāt al-balfiqī y 'Abd al-hamīd hayiya.Ed de la *Bugia* de Yahyà fue en Argel, en 1400h/1980d.c.V I. p.120/V II.p.167.
- 17- "*Bugyat ar- Ruwwād fī dikrī mulūki banī 'Abd al -Wād*.Ed hayiyat. Comentarios y definiciones. p.13.
- 18- Ibn al-qāḍī, *Yūdwat al- Iqtibās fīman halla min 'a'lām maḍīnat fās*.Ed fez.1309h. pp.135-189/ Ibn al-qāḍī, *Durrat*.V I p.219 N°579/Majlūf, *Sayārat an-nūr*.Cairo.1349h/1930d.c/V I p.221/ *At-ta'rif*. p.45.46/*Nafh*.V V

escritor en el principio de su producción, era víctima del conflicto político, un hombre obediente a su sultan, por eso perdió su vida .

### **Las huellas de Yahyà b. Jaldūn:**

Podemos decir que la formación de Yahyà b. Jaldūn se desarrolló gracias a los puestos administrativos en las diferentes cortes. Estuvo el escritor del sultan Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Tlemcen y el chambelán del emir Abī ‘Abd Allāh al -Hafsī en Bugia durante mucho tiempo y todo eso para adquirir una experiencia en su vida política y cultural.

Yahyà b. Jaldūn tuvo un gran éxito en sus misiones gracias a su comportamiento personal y a sus competencias relevantes. Fue un hombre honrado, inteligente, juicioso y célebre en la poesía y el adab.

El papel de Yahyà como escritor de la corte, fue la redacción de la gloria de los sultanes, países y sus ejércitos, también fue el responsable de las correspondencias confidenciales del sultan además de la redacción de los actos de nombramiento de los nuevos gobernadores y las cartas titulares.

La mayoría de las cartas de Yahyà b. Jaldūn no las encontramos, pero su mejor obra además de algunos poemas, es su libro “*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī ‘Abd al -Wād*” .(50)

### **Conclusión:**

Así pues, a pesar de que Yahyà b. Jaldūn no tenía una gran fama y no era conocido como su hermano ‘Abd al-Rahmān b. Jaldūn, y a pesar de que los investigadores no han dado importancia a este autor y a sus investigaciones elaboradas, Yahyà b. Jaldūn ha hecho un trabajo importantísimo en su corta vida.

Es lo que descubrimos en la única obra suya “*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī ‘Abd al -Wād*”, esta obra revela primero que Yahyà b. Jaldūn fue un escritor de primer grado gracias a su amplio saber, y segundo este último fue muy notable en las responsabilidades en las diferentes cortes, sobre todo en la corte de Tlemcen, cuando estuvo secretario de Abū Hammū Mūzà al-Tānī.

En conclusiones, tenemos que señalar la importancia histórica de la “*Bugya*” que la consideramos como un campo



### **La muerte de Yahyà b.Jaldūn:**

La muerte del autor Yahyà b.Jaldūn tuvo relación con las perturbaciones en Tlemcen y sobre todo el conflicto entre la tribu de Suwayd y banī 'Āmer de una parte y de otra entre el sultan y su hijo AbūTašfīn durante los años 777 – 779h. (46)

En 779h el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī decidió ofrecer a su hijo Abū -Zayyān el gobierno de Orán, una de las más importantes ciudades de la región. (47)

Según 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn, el origen de la crisis fue la aproximación de los tres hermanos Abī -Zayyān, 'Umar y al-Muntasir a supadre el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī comparativamente con Abī Tašfīn. Esta situación produjo el odio y el miedo a Abī Tašfīn de perder el poder después la muerte de su padre, por eso pidió a su padre designarle gobernador de Orán.

Abū Tašfīn pidió ayuda a la tribu de Suwayd para detener la aplicación de esta traslación que podría dar más poder a Abī Zayyān. Era una situación muy peligrosa la que estaba viviendo Abū Hammū Mūzà al-Tānī, de una parte no tenía la voluntad de anular su decisión y de otra, no podía negar la petición de Abī Tašfīn.

La única solución a eso es ganar más tiempo, pues el sultan pidió al escritor Yahyà b. Jaldūn de retrasar el más tiempo posible la escritura de la respuesta de la petición de Abī Tašfīn, hasta encontrar una solución a este complicado problema. (48)

El escritor Yahyà no tuvo solución sino obedecer y someterse a las órdenes del sultan: retrasar la respuesta. Era lo que empujó a algunos compañeros de Abī Tašfīn aconsejarle poniendo odio en eso, que este atraso era una maniobra por parte de Yahyà b. Jaldūn para ganar tiempo para poder ayudar a Abī Zayyān fijar su poder en Orán. Pero 'Abd al-Rahmān b. Jaldūn tenía otra versión de estas informaciones que rechazó del todo.Según él, el primer responsable de estas mentiras fue Mūsà b. Yajlaf que llevó en su corazón odio a Yahyà.

Esta situación fue la causa que empujó Abī Tašfīn a tomar la decisión de eliminar a Yahyà completamente de la corte y y aniquilarlo dándole muerte por un hombre de Abī Tašfīn en una noche de Ramadán en 780h.(49)Pues se acabó así la vida de un

El cambio del nuevo sultan , Abū -Zayyān al-Sa‘īd b. ‘Abd al-‘Azīz (un niño de cinco años designado por ben Gāzī ) y la entrada de Lisān ad-Dīn a la cárcel hasta su muerte en 776h , empujaron a Yahyà -después esta tragedia- decidir irse al palacio de Abū Hammū Mūzà al-Tānī, donde entró el primer de rabī‘ al-awal de 776h . (42)

### **La vuelta de Yahyà b.Jaldūn a la corte de Telemcen:**

Después de cuatro años de separación Yahyà decidió finalmente volver a la corte de Telemcen y pedir la disculpa al sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī, esta vuelta tiene muchas causas como:

- la debilidad de la resistencia del ministro b. al-Gāzī después de la alianza del sultan de Granada y Muhammad b. al-Kas
- la continuación de los conflictos y las perturbaciones en la corte mariní.
- la muerte de Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb el mejor compañero de Yahyà.

### **La pérdida de la situación simítica en la corte mariní:**

Por miedo de ser un sospechozo porque estaba el amigo más próximo de Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb.(43)

En este momento Abū Hammū Mūzà al-Tānī estaba sufriendo problemas peligrosos, esta situación obligó al sultan buscar hombres de confianza, por eso aceptó a Yahyà como uno de sus hombres.

La situación en el Magreb medio de esa época se consideró como una transición muy importante gracias a la política ofensiva de la tribu de banī ‘Āmer contra el sultan, Abū Hammū Mūzà al-Tānī lo que obligó a este último a buscar otras tribus para la alianza, eso se realizó con la tribu de Suwayd .

Realmente aquella alianza se realizó entre la tribu de Suwayd y el hijo mayor de Abū Hammū al-Tānī, el emir AbūTašfīn, este último tuvo una gran reputación y llegó a amenazar a su padre en el poder. (44)

El desarrollo de los problemas entre el sultan y su hijo volvieron más complicados. En esta situación, el consejero siguió normalmente su tarea administrativa aplicando las órdenes del sultan y culturalmente en la escritura de una parte de la “*Bughia*” y el aprendizaje (la poesía , el adab y la historia) . (45)

ellos habían Abū 'Abd Allāh al-Zwāwī y Abū 'Abd Allāh al-Šarīf.(39)

Entonces, este período fue la continuación del desarrollo de su campo cultural y su experiencia en las actividades destacadas en la administración pero como siempre la inestabilidad cambió la cosa. Esta situación se acabó con la expedición del sultan mariní 'Abd al-'Azīz hacia Telemcen y la huida de Abū Hammū Mūzà al-Tānī con su entorno hacia el este, después al sur donde acabó Yahyà de seguir el camino con Abī Hammū, pero decidió de juntarse al final al sultan 'Abd al-'Azīz al- Marīnī.

#### **Yahyà en la corte del sultan al- Marīnī:**

Todavía no sabemos mucho sobre la separación del sultan Abī Hammū y Yahyà, pero este último reconoció su falta. Podemos notar eso en su libro la Bughia cuando dijo lo siguiente: *«...desde aquí le he dejado gracias a unas negras imaginaciones y algunas inclinaciones diabólicas,...y es un mal destino,...y no existe falta con reconocerlo...»*.(40)

La estancia de Yahyà b.Jaldūn con los banū marīn, le dio la ocasión de encontrar los sabios y los profesores tal como Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb quien llegó a Telemcen en 672h. Otra vez Yahyà aprovechó de esta relación para aprender más de su conocimiento en varias especialidades.

Aquella situación continuó normalmente hasta la muerte del sultan 'Abd al-'Azīz al-Marīnī el 22 de Rabī'al-Tānī de 774h y el desplazamiento de la corte mariní de Telemcen a Fez. Los problemas van a empezar con la designación de un nuevo sultan, lo que obligó a los miembros de la corte orientarse hacia Fez para ayudar al establecimiento del estado. Entonces Yahyà y su amigo b. al-Jatīb fueron aces con los demás.

En Fez Yahyà guardó su posición en la corte mariní gracias a sus fuertes relaciones con Lisān ad-Dīn bnū al-Jatīb, el amigo del ministro b. al-Gāzī, pero la continuación de los conflictos y la intervención del sultan de Granada en Fez para eliminar sus opositores y especialmente el ministro b. al-Gāzī y Lisān ad-Dīn cambiaron la situación.

El sultan de Granada se alió con Mohammed b. al-Kas el sobrino de al-Gāzī, este último no pudo resistir y se acabó.(41)

relacionado con el primer hombre del estado y símbolo de la gloria y la victoria de los banū Zayyān Abū Hammū Mūzà al-Tānī .Además del nuevo camino del emirato de Bujia que se presentó en la extensión sobre la soberanía del estado de banū Zayyān, lo que pasó en dī-l-hiyyā de 765h es que Yahyà, aprovechó la ocasión de la revolución de Abī Zayyān al-Qubbī quien perdió su derecho al poder. (35)

Abī 'Abd Allāh perdió sus tentativas contra Abī al-'Abbās sobre todo lo que pasó durante la batalla de "*Fargiwa*" y "*Setif*" al fin de 767h , y la invasión total del ejército de Abī al-'Abbās a Bujia , que mató a Abī 'Abd Allāh imprecionó a Yahyà, este último desertó de la prisión hacia Biskra donde estaba su hermano 'Abd al-Rahmān (se escapó de Bujia en el momento de la invasión de Abī al-'Abbās). En Biskra Yahyà recibió a un mensajero de Abū Hammū Mūzà al-Tānī, quien le propuso trabajar en la corte de Telemcen sirviendo al-sultan.(36)

#### **Yahyà b. Jaldūn en la corte de Abū Hammū Mūzà al-Tānī:**

La continuación de los conflictos y las perturbaciones en la región y sobre todo la revolución de Abī Zayyān ibn Abī al-Sa'īd al- al-Tānī (el sobrino de Abū Hammū) , obligó el sultan de Telemcen a tomar unas nuevas desiciones, premero invitar a Yahyà y su hermano 'Abd al-Rahmān a la cotre de Telemcen para ayudarle a apaciguar la situación.

En 769h y cuando el sultan Abū Hammū Mūzà al-Tānī estuvo en Maliana después una batalla contra, Abī Zayyān envió un mensajero que se llama 'Umar b.

Muhammad b. mayyan a Biskra para encontrar Yahyà y transmitirle el mennsaje del sultan que le pidió de juntarse a sus hombres del estado. Su primera misión fue el principio de las negociaciones con los Dwawda de la tribu de banū Rayah en el orden de formar una alianza contra los enemigos.

Yahyà b.Jaldūn aceptó esta misión y empezó las negociaciones con un buen éxito. En el primer de Raḡab de 679h entró a Telemcen y volvió el escritor del sultan y uno de sus consejeros. (38)

La estancia de Yahyà en el palacio de Telemcen fue un período muy importante que influyó su formación especialmente en el dominio cultural y científico, con los mejores profesores, entre

Los dos hermanos ‘Abd al-Rahmān y Yahyà ocupaban puestos administrativos en la corte de Abī Salīm al- Marīnī ,(31) pero eso no era suficiente para ellos , la ocasión va a venir pronto con el movimiento de Abī Salīm hacia Telemcen en 761h, donde los dos hermanos fueron compañeros del sultan , por eso el pequeño Yahyà volvió el chambelán (al-hāyib) del emir Abī ‘Abd ‘Abd Allāh al -Hafsī. (32)

Este puesto puede ser que fuese la decisión del sultan Abī Salīm al- Marīnī para ayudar al emir ‘Abd Allāh a reintegrar de nuevo Bujia y Yahyà pueda jugar un papel muy importante si sabemos que tuvo buen conocimiento de los árabes de la zona , debido esto a su estancia en Beskra.

En764h Abī ‘Abd Allāh al -Hafsī decidió de enviar como mensajero a Yahyà b. Jaldūn a Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Telemcen en el orden de pedir su ayuda en frente de la extención de Abī al-‘Abbās, pero los resultados no fueron concretos, esta misión fue una ocasión a Yahyà para saber más cosas sobre la vida política, cultural y científica de Telemcen. (33)

Después de tres meses, el sultan Abī ‘Abd Allāh y su chambelán el mensajero Yahyà b. Jaldūn repitieron la misma misión por la segunda vez, llegaron a Telemcen el 8 de Ŷumāda 2 de 764h, pero otra vez la respuesta de Abī Hammū Mūzà al-Tānī fue negativa. Gracias a la intervención del sultan Abī Ishāq al-Hafsī en la corte de Telemcen se realizó la renovación de un acuerdo de paz entre ellos.

Esta intervención hizo fin a los intentos de Abī ‘Abd Allāh, si sabemos que según el acuerdo firmado y aceptado por ambos lados, el sultan Abī Ishāq tuvo que capturar al enemigo de Abī Hammū Mūzà al-Tānī, el emir Abī Zayyān ibn Abī Sa‘īd al-Tānī, a condición que Telemcen rechazó de dar cualquier tipo de ayuda a Abī ‘Abd Allāh al-Hafsī.

Entonces el jaque de estas misiones, lo que empujó Abī ‘Abd Allāh y su compañero Yahyà a pedir de las tribus y especialmente la de Dwawda construyendo una alianza hasta la reintegración de Bujia pasíficamente en Ramadán de 765h .(34)

Como observación sobre el papel de Yahyà, no encontramos informaciones en su libro, lo que da la impresión que el interesado no quiso hablar de algo muy sensible en su libro



diferentes eventos, lo que abrió una nueva puerta de los estudios objetivos sobre todo históricos.

La presencia de Abū al-Hasan al- Marīnī duró poco tiempo, pues este último va a encontrar una oposición en la zona del sur y el 7 de muharram de 749h/1348d.c, el ejército del sultan perdió una batalla importantísima cerca del Qayrawān y así, la derrota del poder de banū marīn en Ifriqia le obligó a Abū al-Hasan abandonar Túnez hacia el Magreb. Esta situación ayuda a la vuelta del emirato de banū Hafs en Bujia y Qasantīna y banū Zayyān en Tremecén, la larga existencia de la peste cosechó la vida a miles de los ciudadanos y sabios, entre ellos Muhammed b. Jaldūn, el padre de Yahyà (27).

Las perturbaciones políticas y sociales que estaba viviendo Túnez y sobre todo los conflictos del poder y la soberanía, fueron causas concretas que empujaron a ‘Abd ar-Rahmān b. Jaldūn y su hermano Yahyà a orientarse hacia la corte mariní (28.)

La presencia de Yahyà b. Jaldūn en Fez representó un período importantísimo en su vida, porque pudo continuar sus estudios con los mejores sabios, uno de ellos fue Abū ‘Abd Allāh al-charīf (29).

Entonces, como hemos dichos antes, la estancia de Yahyà b. Jaldūn en Fez fue muy rica culturalmente, su nivel va a mejorarse con el viaje de Ibn al-Jatīb a Fez en 71h/130d.c; este último era una fuente literaria y científica, esta estación dio la ocasión a Yahyà para empezar su primera experiencia en la vida de la corte(30).

#### **La actividad política de Yahyà b. Jaldūn:**

Yahyà b. Jaldūn ocupó muchos puestos políticos y administrativos en diferentes cortes , con al emir Abū ‘Abd Allāh al -HafSī , el sultan de los banū Zayyān Abī Hammū Mūzà al-Tānī en Telemcen y en la corte mariní con el emir ‘Abd al-‘Azīz al- Marīnī .Como observación, el periodo de Yahyà en la corte de Telemcen se considera el más importante y el único libro suyo es la “*Bugiat*” una descripción y un estudio de la historia de ese estado, lo que da a nosotros una prueba concreta de esa importancia .

#### **La actividad política de Yahyà antes de su servicio a Abī Hammū Mūzà al-Tānī:**

Jaldūn y sobre todo durante su estancia en la casa de los banū Jaldūn. Los estudiantes aprovecharon mucho de este profesor que se considera como fuente y gracias a su largo conocimiento ‘Abd al- Muhaymin participó en la formación de Yahyà b. Jaldūn sobre todo literariamente. Otra vez la peste va a coger un sabio, eso lo que pasó el 13 de šawwāl de 749h/1348d.c (22)

Abū ‘Abd -Allāh Muhammad b. Ibrāhīm b. Ahmad al- abdari al- Tilimsānī al -Abīlī, nació en Tilimcen en 681h sus maestros: ibn Galbūn

(su abuelo) y Abī al-Hasan al-Tamasī en Tilimcen (23) , ibn Daqīq al -Sa‘īd en Egipto (24), cuando volvió a su tierra ocupó el puesto de la financia del palacio donde continuaba sus estudios con Abī Mūsà ben al- Imām.

Al -Abīlī decidió consagrar su tiempo a los estudios y el aprendizaje de las diferentes ciencias, por eso se orientó hacia fez dejando detrás la vida de la corte y sus responsabilidades. En fez al -Abīlī aprendió mucho con el judío Jellūf al-Magilī, después su desplazó a Murrākuš en 710h y allí estudió con el sabio Abu al- ‘Abbās de al-Bana hasta su muerte en 721h. (25)

La próxima estación para al -Abīlī fue las montañas de Sus donde estaba un estudiante aprendiendo más cosas y como profesor dándole lo que ha aprendido , luego se dirigió a fez como un profesor muy famoso y los estudiantes le consideraron como una fuente en varias ciencias , como eso dio a este sabio una posición respetada en la sociedad tan como en la corte mariní . Por eso fue uno de los más importantes compañeros del sultan Abī al-Hasan al- Marīnī durante sus expediciones hacia el Magreb central en 735h y Ifriqiya en 748h .

En Túnez Al -Abīlī fue uno de los profesores de los hijos de Muhammed b.Jaldūn durante cuatro años con un método moderno, dando a los estudiantes lo mejor de las ciencias naturales y sociales para obtener una formación lógica, lo que ayuda a comprender los eventos sociales e históricos correctamente y criticar las noticias de una manera objetiva y científica (26.)

La influencia de Al -Abīlī fue muy notable en la formación de Yahyà y su hermano ‘Abd ar-Rahmān, gracias a su nuevo método basado sobre la lógica para aprender y analizar los



una armada de los sabios y los profesores de la corte mariní, lo que impulsó a los estudiantes a aprovechar de esta relación (18) Entre aquellos sabios que fueron profesores en Túnez y influyeron directamente en la formación de los estudiantes contamos con :

Abū ‘Abd Allāh Muhammad b. Muhammad b. Abi al -Fadl b. sabag al\_ jazrayi al-Maknāsī , murió en el nofradio de la flota magribí serca de la costa de tadelas , al regleso de Ifriqiya en 750h / 1350d.c , tradicionista y el faquí notable , fue el premer biógrafo del celebre sufi Abū l-hasan al\_ chadilī (murió en 656h / 1258 d.c) (19)

Abū al-‘Abbās Ahmad b. Suayb al -fāsī , escritor , médico y secretario de la cotre mariní durante el periodo del sultan Abī Sa’īd y el su de hijo Abī al -Hasan al -Marīnī, uno de los sabios qui acompañaron al sultan al -Marīnī en su expedición , murió en Túnez por la enfermedad de la peste (20).

Abū al -Qāsim ‘Abd Allāh b. Yūsuf b. Radwān al- Nayyārī al- Malaqī, nació en al- Andalus , era un estudiante del qadī Abū Ŷa’far ibn ‘Abd al- Haq, Abū bakr b. Mansūr y al- Hafīd Abī hafs al- Tanjaly en Malaga y Abī -l- Hasan al- Ŷayāb en Granada , era buen conocedor de la lengua árabe, al-adab, la poesíay la documentación.Va a desarrollar su conocimiento en el Magreb con los sabios como ‘Abd al- Muhaymin al-Hadramī , Ibn Ŷarbū’ al-Sabtī , al -Abiliy ibn al- Naŷŷār , acompañió a Abī al-Hasan a Tremcén y Ifriqiya , llegó a ser el secretario de Abū al-Hasan y Abū inan , tenía unas buenas relaciones con ‘Abd ar-Rahmān y su hermano Yahyà , murió en anfa en 748h (21).

- Abū Muhammad ‘Abd al- Muhaymin b. Muhammad b. ‘Abd al-Muhaymin al- Hadramī al- Sabtī , nació en Ceuta en 675h , estudiaba con los mejores profesores como Abī Ishāq al -Gaffiqī al-Andalusī en Ceuta y Abī Ŷa’far b. al-Zubayr en al -Andalus , era un escritor muy famoso además de sus capacidades y su conocimiento de la lengua árabe y su campo literario

En 712 llegó a ser el escritor del sultan mantuvo su posición de la corte durante el período de Abī al-Hasan al- Marīnī además de ser miembro del consejo científico, en 748h fue uno de los compañeros del sultan en su expedición hacia Ifriqiya, donde este último va a construir buenas relaciones con la familia de los

último va a seguir el camino de sus abuelo por su papel en la actividades en la vida política y por tanto en el domino del saber y como especial en Tremecén la capital de los banū Zayyān.(10)

### **La formación de Yahyà b.Jaldūn**

Son muy escasas las informaciones sobre la vida de Yahyà b.Jaldūn en general, pero podemos encontrar algunas informaciones importantísimas en el libro de su famoso hermano 'Ab dar-Rahmān *at-tarīf bi b. Jaldūn wa -rihlatuhu šarqan wa garban* (11) donde hay noticias sobre la vida cultural y la formación de los tres hermanos.(12)

Aquella formación de los hijos de Muhammad b.Jaldūn comenzó con uno de los grandes profesores, es ibn al-burrāl al - Qurašī quien era muy famoso en varias materias (13). Gracias a este profesor, los estudiantes aprendieron de memoria el Corān y tuvieron capacidades considerables en la especialidad de las lecturas, además de estudiar lo mās importante de los libros de aquella época.

En lo que concierne las ciencias religiosas encontramos los tres hermanos de Muhammad b.Jaldūn estudiaban con los mejores profesores y sabios que tenían gran reputación en Túnez como Abū 'Abd -Allāh Muhammad b. Yābir al-Wādī asi (14), el juez b. 'Abd as-Salām al-Munastīrī al - Hawwārī at-Tūnusī (15) 'Abd Allāh al-Ŷayyānī al- Hasa'irī al-Zarzalī y 'Abū 'Abd Allāh, Muhammad b.bahr.

La manera de la enseñanza que se basa sobre la memorización para seguir el camino de los antepasados (16), va a cambiar con la expedición del sultan Abū l-Hasan al- Marīnī hacia 'Ifriqiya en 748/1348d.c

Este cambio afectó la vida política , cultural y social lo que dio la posibilidad a Yahyà y sus hermanos de encontrarse con los sabios y los profesores de la corte marīnī , que acompañaron a Abū l-Hasan a Túnez. Este encuentro ayudó los estudiantes a saber otros nuevos métodos de la enseñanza.(17)

### **La formación de Yahyà b.Jaldūn durante el movimiento de Abī al-Hasan al- Marīnī hacia Ifriqiya 748h /1348d.c**

Después de un año aproximadamente de la muerte del sultan Abī Yahyà al -Hafsī, su homólogo marīnī al- sultān Abū l-hasan al -marīnī empezó su expedición hacia Ifriqiya , donde entró a Túnez el 8 de Ŷumādā 2 de 748h / 1348 d.c acompañando por



--Yahyà Bouaziz. *A'lām al fikr wa al taqāfa fī al yazāir al mahrūsa*, bayrut 1955, V2, pp , 81.82.83.84.85.

--R brunschvig. *La berberie orientale sous les hafside. Des origines a la fin du XV siècle*, Paris 1947, V II, pp.385-397.

- Encyclopédie de l'islam nouvelle ed, paris 1971, V III pp849.

Cuando los banū Jaldūn aseguraron que no se puede resistir enfrente de los españoles y durante la decadencia post almohade en España , estos últimos decidieron de dirigirse hacia el Magreb Ceuta en 630h como primer lugar después hacia Túnes donde fueron bien recibidos por el sultan Abī Zakariyya al-Hafsī en 640h. (3)

En Túnes los miembros de la familia de b.Jaldūn ocupaban puestos semíticos en la corte hafsid desde la llegada de al-Hasan b.Jaldūn el biesabuelo de Yahyà (4), después su hijo Abū Bakr Muhammad quien trabajaba en la administración de finanzas, además de ser un escritor.(5) En el periodo de Abī Ishāq . Abū Bakr llegó a ser el primer responsable de la gestión del presupuesto del estado.(6)

Durante el gobierno de Abū Fares sobre Bugia en 679h, el abuelo del chambelán y jugaba un papel muy importante en los asuntos políticos tan como los militares. (7)

Muhammad b. Abū bakr continuaba sus actividades en los puestos destacados de la adminitración y por tanto en la vida política de la danastía de los hafsiés hasta la decadencia del estado de Ibn al -Lihyanī (711h-718h), cuando eligió finalmente de consagrarse su vida en la abstención y el sufismo, pero su posición en la abstención y el sufismo, pero su posición en el corte u entre la gente quedaba mantenerse hasta su muerte en 737h.(8)

El hijo de Muhammad, Muhammad Abū bakr , el padre de Yahyà y 'Ab dar-Rahmān llevaba una vida diferente del padre de aquellos de los antepasados , una vida de la abstención y la concentración sobre los estudios de la religión y la literatura (9). Por eso estaba muy conocido en el fiqh, el adab y especialmente la poesía.

Así pués, Yahyà y su hermano, 'Abdar-Rahmān vivían en un entorno científico y religioso abierto sobre el adab y la poesía , un carácter de vida que influía directamente en la construcción de la personalidad y el comportamiento general de Yahyà, este

muchos otros dominios y sin duda unos de los más famosos de aquella época fueron los miembros de la familia de b Jaldūn.

### **La vida de Yahyà bnū Jaldūn:**

Abū zakariyya Yahyà b.Jaldūn uno de los puntos claves para entender la historia de la cuenca del mar mediterraneo nació en Túnes en 1333/34d.c-734h después de dos años del nacimiento de su famoso hermano ' Ab dar-ahmān 1332d.c 732h.

Este último ha elaborado grandes trabajos e investigaciones sobre la cultura y la historia como "*kitāb -al 'ibar wa diwān al mubtada' wal jabar*", "*al- Muqaddima*", "*at-ta'rīf*"...etc, lo que llevó a los inverstigadores a concentrar mucho interés sobre lo que ha hecho, lo cual comparativamente deja Yahyà algo en penumbra.

La mayoría de los inverstigadores sobre Yahyà b. b.Jaldūn han encontrado una gran ayuda en su libro "*Bugyat al- ruād fī dikri mulūki banī abd el wād*" la principal obra suya.(1)

### **1-El entoro familiar:**

Yahyà b.Jaldūn pertenece a una familia de alta categoría y de origen árabe de Hadramaut (yaminit) , vivían durante mucho tiempo en Sevilla como una familia respetada y muy famosa. (2)

Son muy escasos los estudios sobre el autor Yahyà b.Jaldūn y los que podemos encontrar:

Jaldūn ar-ahmān b. Jaldūn (hermano de Yahyà) , *at-tarīf bi b. Jaldūn wa -rihlatuhu šarqan wa garban* , ed ibn tawif Cairo, c.t.e , 1951.

- Al -Maqqarī Ahmad b. Muhammad al -Tilimsānī, *Nafh at-tīb min gusn al andalus al ratib*, ed. Muhy ad-dine 'Abd al-hamīd-10 v- Cairo,1949. (Sobre la poesía de Yahyà, *al- Mawlid al - nabawī al-šarīf*-V IX- pp. 212-215, 218-219, 340-341).

-- 'Abd al- Hamīd Hayiyat ed. de *Bugiat ar-ruwwād de Yahyà b.Jaldūn*, Argelia, 1980 d. c-1400h. (Sobre Yahyà b.Jaldūn, V1, pp. 7-68).


-- Bel alfred. *Histoire des beni abd al wad rois de telemcen*, ed.et trad de la Bugiat en collaboration avec G bou-ali Argelia, Fontana, 1904.

*Encyclopédie de l'islam*, nouvelle édition, Paris, 1971 tome III (sobre Yahyà b.Jaldūn y su familia pp . 849-854, 855-856.

Sobre la familia b.Jaldūn y su origen:



## La Vida y Obra de Yahyà b.JALDŪN

 Fouad KEBDANI <sup>1</sup>

**Introducción:** La historia de los banū Zayyān representó una rica herencia para la civilización del norte de África y la cuenca del mar mediterráneo como el mundo islámico en general, desde aquí necesitamos estudiar esta época analizando los eventos según los estudios y las investigaciones disponibles en este dominio.

Varios historiadores han elaborado trabajos sobre esta época de la historia medieval, y sin duda unas de las mejores obras que las hemos manejado son de «'Abd ar-Rahmān b.Jaldūn ibn Marzūq y ibn Jatīb».

Vamos a estudiar la historia de los banū zayyān según la Bugia de b. jaldūn un libro casi desconocido para los investigadores, igualmente que son escasos los historiadores que hablan sobre él.

Todo eso nos empuja a abrir las páginas de este libro analizando su contenido después de dar una vista general sobre la vida del autor ( el artículo de "*Bugyat ar- Ruwwād fī dikri mulūki banī 'Abd al -Wād*" fue principalmente una redacción de la gloria y la victoria del sultan Abū Hammū Mūsà II) , para declarar la obediencia Yahya en su libro estudió cronológicamente la historia de un estado antes de su surgimiento hasta el periodo actual de la redacción eso fue una prueba concreta de las capacidades de este autor.

Pues así oímos decir que el siglo ocho de la hégira y catorce de la era cristiana conocieron una armada de los sabios famosos que participaron en la contrucción de la historia y de la civilización a través de sus papeles en la vida cultural, científica social y política. Estos últimos han desarrollado diferentes métodos del pensamiento, la filosofía, la historia, la literatura y

---

1-Dictorant Algerien en civilisation Espagnole- Universidad de complutense- Madrid.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTRE DE LA CULTURE

وزارة الثقافة

LE CHEF DE CABINET

رئيسة الديوان

N° \_\_\_\_\_ / \_\_\_\_\_ CC/MC

رقم الملف / المص. ا. و. ا. د.

ALGERIE, LE

الجزائر، في

11 JAN 2011

إ. د. بوباية عبد القادر  
مدير مكتب " تاريخ الجزائر "  
جلمعة وهران

الموضوع: ف. ب. العدد الخامس يتضمنان في مجلة " عصور الجديدة "  
المرجع: - إرسالككم رقم 008/المورج في 2011/07/07.

عطفًا على إرسالككم المشار إليه في المرجع أعلاه والمعلق بدعوتنا  
للموافقة على تخصيص العدد القادم من مجلة " عصور الجديدة " التي يصدرها  
مكتبكم الموقر لمدونة وخاتمة التمسك على اعتبار كونها كوّنت هذه السنة  
بلقب عاصمة الثقافة الإسلامية.

وإذ أشكر لكم هذا الاهتمام فإن السيدة الوزيرة ترحب بهذه المبادرة  
الطيبة التي ستعزز لا محالة من إشعاع الاحتفالية وتضيف الفائدة على برنامج  
التظاهرة وتوثق بأسلوب أكاديمي علمي إحدى أهم الحواضر الإعلامية في  
الجزائر.

وتفضلوا السيد المدير بقول فائق عبارات الشكر والتقدير والاعتزاز.



رئيسة الديوان  
زهيرة يحيى

Lettre de son excellence Mme le Ministre de la Culture



## Summary

---

-Fouad KEBDANI-La Vida y Obra de Yahyà b.JALDŪN..p.5

---

-NOURINE ELAID Lahouaria- Los banū 'Abd al-Wād o  
abdelwadidas de Tlemcen historia y herencia .....p.19

---

Jamil AISSANI- Les Rapports Intellectuels Béjaia –  
Tlemcen.....p.24

---

**Directeur du Laboratoire et Redacteur en chef:**  
**Boubaya Abdelkader**

**comité scientifique de la revue:**

**Pr. Daho Faghrou**  
**Pr. Mohamed Dada**  
**Pr. Mohamed Mouffokes**  
**Dr. Saadi Chakhoum**  
**Talia Sadou**  
**Hamdadou Benamar**



# 'OUSSOUR AL JADIDA

Scientific Revue edited by History of Algeria  
Laboratory Research-  
Oran University

**Number 2**  
**summer 1432/august 2011**

ISSN 2170-1636 ردمد

Depot Légal -2011

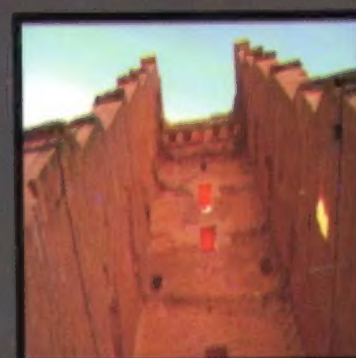
# 'OUSSOUR AL-JADIDA

Scientific Revue edited by History of Algeria Laboratory Research-  
Oran University



Number **2** 2011

- La Vida y Obra de Yahyà b.JALDU  
Fouad KEBDANI
- Los banu 'Abd al-Wad o abdelwadidas  
de Tlemcen historia y herencia  
NOURINE ELAID Lahouaria
- Les Rapports Intellectuels Béjaia-Tlemcen  
Jamil AISSANI



ISSN 2170-1636